الدكتور محمد علي البار

عدن، لؤلؤة اليمن

الجزء الثاني

تاريخ عدن (واليمن) عبر العصور

إلى عهد العبادلة

كنوز المعرفة
جدة

عدن، لؤلؤة اليمن

تاريخ عدن (واليمن) عبر العصور

إلى عهد العبادلة

بسم الله الرحمن الرحیم

معلومات الطبع
ردمك والترقيم الدولي
بعد الفسح

كنــوز المعــرفة
هاتف:6510421 - 6514222 فاكس: 6516593
جدة -الشرفية - شارع الستين - عمارة أبا الخيل

عدن في العهود الإسلامية

- اليمن وعدن في العهدين النبوي والراشدي
- اليمن وعدن في العهد الأموي
- اليمن وعدن في العهد العباسي
- الدولة الزيادية
- الحسين بن سلامة
- دولة آل نجاح الحبشية ودولة الصليحي الهمداني الإسماعيلية
- بنو معن وبنو زريع في عدن
- دولة ابن مهدي والدولة الأيوبية في اليمن وعدن
- المدارس في اليمن وعدن في العهد الأيوبي
- الدولة الرسولية في اليمن
- الدولة الرسولية وعدن
- المدارس في اليمن وعدن في العهد الرسولي
- الدولة الطاهرية
- غزو البرتغال لجنوب جزيرة العرب والبحر الأحمر
- احتلال سقطرى ومسقط وهرمز
- تفاصيل احتلال سقطرى
- هجوم البرتغاليين على الشحر
- الهجوم البرتغالي على عدن
- العثمانيون في عدن ونهاية الدولة الطاهرية
- الدولة الزيدية والعثمانيون واستقلال المناطق الجنوبية
- بداية حكم العبادلة لعدن ولحج وظهور يافع
- الخلاصة في العهد العثماني

اليمن وعدن في العهدين النبوي والراشدي

بعض فضائل أهل اليمن

شرحت في كتابي «**إضاءات قرآنية ونبوية في تاريخ اليمن**» أن لفظ اليمن يطلق على يمين الكعبة المشرّفة، وبالتالي فإن مكة نفسها كانت تعتبر من اليمن، وكان يطلق على النبي محمد ﷺ النبي اليماني والنبي التهامي.

وقال الحافظ ابن حجر العسقلاني في كتابه (فتح الباري، شرح صحيح البخاري)[١] أن مبدأ الإيمان من مكة، ومكة من تهامة، وتهامة من اليمن وذلك في أثناء تعليقه على الحديث الصحيح «الإيمان يمان».

وقال الخطابي: «وتهامة كلها من الغور ومكة من تهامة»[٢]. ثم إن أهل يثرب (المدينة) هم من الأزد الغساسنة الذين هاجروا من اليمن عند الانهيار الأول لسدِّ مأرب. والأوس والخزرج هم سكان المدينة وهم من اليمن. وإن الإيمان ليأزر إلى المدينة كما تأزر الحيّة إلى حجرها. وفي الحديث الآخر أن النبي ﷺ في رحلته إلى غزوة تبوك نظر إلى جهة تبوك وقال: ها هنا الشام، ونظر إلى المدينة المنورة وقال: ها هنا يمن[٣].

وفي صحيح مسلم: «إني لبعُقر حوضي يوم القيامة أذود الناس لأهل

---

(١) فتح الباري، ج ١٣/ ٨٧ و ج ٨/ ٩٩.

(٢) فتح الباري، ج ١٣/ ٤٧.

(٣) مسند الإمام الشافعي، ص ٩٤.

اليمن، وأضربهم بعصاي حتى يرفضَّ عنهم»[١]. وعقر الحوض: أصله ومنخفضه وموضع الشارب منه، ويرفضّ: أي يسيل. والمعنى أنه يطرد الناس حتى يرد أهل اليمن أولاً. قال الإمام النووي: «والأنصار من أهل اليمن».

وقد ذكر المحب الطبري في كتابه القرى لقاصد أم القرى[٢] أن المدينة من اليمن – نقل ذلك عن البيهقي في السنن والإمام ابن أبي الصيف، والإمام النووي في شرح صحيح مسلم ومثله عند ياقوت الحموي في معجم البلدان[٣] قال: «المدينة المنورة من اليمن. نقل ذلك عن الأصمعي وغيره».

وقد أسلم أهل المدينة (يثرب) من الأوس والخزرج وكانوا هم أنصار رسول الله ﷺ، وصارت مدينتهم عاصمة الإسلام ومأوى الإيمان ووطن الرسول محمد ﷺ. وقد مدحهم الله سبحانه وتعالى في قرآن يتلى إلى يوم القيامة، كما مدح إخوانهم المهاجرين. قال عزَّ من قائل: ﴿لِلْفُقَرَاءِ الْمُهَاجِرِينَ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِن دِيَارِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا وَيَنصُرُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ ۚ أُولَٰئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ ۞ وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالْإِيمَانَ مِن قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّا أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ ۚ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ۞ وَالَّذِينَ جَاءُوا مِن بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ وَلَا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلًّا لِّلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا إِنَّكَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ (الحشر: ٨ – ١٠).

وقد نزل في أهل اليمن من غير الأنصار قوله تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَن يَرْتَدَّ مِنكُمْ عَن دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ

(١) صحيح مسلم بشرح النووي ومسند الإمام أحمد.
(٢) محب الدين الطبري: القرى لقاصد أم القرى، ص ٦٤٩.
(٣) معجم البلدان لياقوت، ج ٢/ ١٣٧.

عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ يُجَٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَآئِمٍ ۚ ذَٰلِكَ فَضْلُ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴾ (المائدة: ٥٤).

وقد ذكر أهل التفسير، والهيثمي في مجمع الزوائد، والبخاري في تاريخه أنها نزلت في أهل اليمن.. وفي رواية «هم قوم هذا» يعني أبا موسى الأشعري ﷺ. وقد أكد هذه الرواية الحاكم وصححه، والبيهقي في الدلائل، وابن أبي حاكم، وابن عساكر في تبيين كذب المفتري، وابن جرير وعدد كبير من أئمة العلم ومنهم الحافظ الذهبي في ترجمته لأبي موسى الأشعري في سير أعلام النبلاء.

ونزل فيهم قوله تعالى: ﴿ إِذَا جَآءَ نَصْرُ ٱللَّهِ وَٱلْفَتْحُ * وَرَأَيْتَ ٱلنَّاسَ يَدْخُلُونَ فِى دِينِ ٱللَّهِ أَفْوَاجًا * فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَٱسْتَغْفِرْهُ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ تَوَّابًۢا ﴾ (النصر: ١ – ٣).

ذكر البغوي وغيره، أنها نزلت في أهل اليمن فقد وفد منهم دفعة واحدة سبعمائة إنسان مؤمنون مسبِّحون. وذكره الماوردي والخازن وابن جرير والطبراني في الكبير والأوسط. وروى عكرمة عن ابن عباس أن رسول الله ﷺ قرأ: ﴿ إِذَا جَآءَ نَصْرُ ٱللَّهِ وَٱلْفَتْحُ ﴾ وجاء أهل اليمن رقيقة أفئدتهم، ليّنة قلوبهم. الإيمان يمان والفقه يمان والحكمة يمانية.

وفي تفسير الكشاف للزمخشري (وغيره) أن النبي ﷺ قال في تفسير سورة النصر «إني أجد نفس الرحمن من قبل اليمن».

وقد جمع السيد محمد بن علي الأهدلي في كتابه «نثر الدرر المكنون بفضائل اليمن الميمون» (الدار اليمنية) شواهد كثيرة وآيات عديدة وأحاديث صحيحة وحسنة في فضل اليمن وأهله، فمن أراد المزيد فليرجع إليه.

وقد وضعت في كتابي (إضاءات قرآنية ونبوية في تاريخ اليمن) الفصل التاسع: «**ما ورد في فضل أهل اليمن في القرآن والسنة**»، وبعد أن ذكرت الآيات

القرآنية في فضل أهل اليمن المتقدم ذكرها، ذكرت خمسة وثلاثين حديثاً من الأحاديث الصحيحة والحسنة (مخرّجة) في فضل أهل اليمن.

وجعلت الفصل العاشر: «**في وفود أهل اليمن إلى النبي محمد ﷺ** وهو في المدينة». ومن **أوائل من أسلم أبو موسى الأشعري (عبد الله بن قيس)**: أسلم والنبي ﷺ في مكة، ثم عاد إلى وطنه زبيد. ثم عاد مع وفد الأشاعرة ووصلوا في سفينة واحدة مع جعفر بن أبي طالب ومن معه ممن هاجر إلى الحبشة ووصلوا إلى المدينة بعد فتح خيبر (السنة السادسة وقيل السابعة من الهجرة)، ففرح بهم النبي ﷺ فرحاً شديداً.

وكان **أبو موسى الأشعري حسن الصوت** وكان رسول الله ﷺ يقول أنه قد أُوتي مزماراً من مزامير آل داود ويستمع إلى تلاوته.

وقد استعمله النبي ﷺ على زبيد وعدن (تهامة اليمن)، وأرسله مع معاذ ابن جبل وأمرهما أن يتفقا ولا يختلفا. وجعل معاذ ﷺ على الجنَدَ، وجعل أبا موسى على عدن وتهامة وزبيد.

وقد مدح رسول الله ﷺ الأشاعرة لأنهم إذا أرملوا (أو قحطوا) في الغزاة جمعوا ما معهم من الطعام واقتسموه بالسوية، فقال عنهم: «هم مني وأنا منهم». والحديث في البخاري، وذكره بتفاصيل كثيرة ابن حجر العسقلاني في فتح الباري شرح صحيح البخاري ج ٨/ ٩٦، ٩٧، كتاب المغازي، باب قدوم الأشعريين.

وكان أبو موسى ممن اشتهر بالقضاء من أصحاب محمد ﷺ.

وقدم **قيس بن نمط** (وقيل قيس بن مالك) على النبي ﷺ بمكة قبل الهجرة فأسلم وأسلم معه أفراد من قومه وقبيلته همدان. فلما فتحت مكة أرسل رسول الله ﷺ خالد بن الوليد إلى همدان يدعوهم، فمكث ستة أشهر لم يسلم منهم أحد سوى من أسلم من قبل، فبعث رسول الله ﷺ **على أثره علي**

ابن أبي طالب ﷺ فأسلمت همدان في يوم واحد. فلما بلغ ذلك النبي محمد ﷺ خرَّ ساجداً وقال: «سلام على همدان!! سلام على همدان!!».

وقال الإمام علي كرم الله وجهه:

ولو كنتُ رضواناً على باب جنَّةٍ لقلتُ لهمدان ادْخُلي بسلام

وكثرت الوفود من همدان وقبائل اليمن إلى المدينة المنورة، وكتب لهم النبي ﷺ كتباً وولّى أمراءهم عليهم. وقدمت الوفود من كندة والأزد وملوك حمير وخولان وحضرموت ومراد وتجيب وبجيلة وقضاعة وسائر قبائل اليمن، فأسلموا طائعين ما عدا وفد نجران - وكانوا نصارى - فلم يسلموا ورفضوا المباهلة ودفعوا الجزية ورجعوا إلى بلادهم، ولكن الإسلام فشا فيهم. وبقي فيهم نصارى إلى ما بعد عهد الصحابة رضوان الله عليهم.

وقد توسعت في ذكر تلك الوفود وما جرى لها وما أكرمها بها رسول الله ﷺ، فليراجعه من أراد المزيد (الفصل الحادي عشر من كتاب إضاءات قرآنية ونبوية في تاريخ اليمن).

وجعلت **الفصل الثاني عشر**: **لولاة الرسول ﷺ ومن بعثهم إليها لتعليم أهلها الإسلام**. وسننقل منه ما يتعلق بعدن خصوصاً واليمن عموماً.

ولاة الرسول ﷺ ومن بعثهم إلى اليمن:

(١) الإمام علي بن أبي طالب ﷺ

لقد بعث رسول الله ﷺ عدداً من كبار الصحابة إلى اليمن للدعوة إلى الإسلام، منهم ابن عمه وختنه، ومن هو منه بمنزلة هارون من موسى الإمام علي بن أبي طالب كرَّم الله وجهه، وقد بعثه إلى اليمن مرتين:

(الأولى) عندما أبطأ إسلام همدان بعد أن مكث فيهم خالد بن الوليد ﷺ

ستة أشهر، فلم يسلم على يديه أحد.. فأمره بالقفول وبعث مكانه عليًّا فأسلمت همدان بكاملها على يده في يوم واحد، كما تقدم آنفاً.

وقد مكث الإمام علي في رحلته هذه أشهراً في اليمن يعلم الناس الإسلام، وقد ثبت أنه كان في صنعاء وما حولها، وذهب إلى أراضي همدان، كما أنه ذهب إلى زبيد وإلى عدن وإلى آبار علي.

وذكر المحدث **الديبع** في كتابه «**قرة العيون بأخبار اليمن الميمون**»(١): «**الإمام علي دخل إلى صنعاء ثم إلى عدن**». **وأثبت ذلك المؤرخ الجَنَدي وغيره.**

وذكره ابن الديبع أيضاً مرة أخرى في كتابه «**تحفة الزمن**» **قال الطيب بامخرمة** في كتابه «**تاريخ ثغر عدن**»: «**بُني جامع عدن في طرف البلد.. ويقول الحافظ الديبع في كتابه تحفة الزمن «بأن الإمام علي بن أبي طالب ﵁ دخل عدن في أيام الرسول سيدنا محمد ﷺ. وخطب على منبرها، وذلك في منتصف السنة العاشرة للهجرة**». **وتوجه من اليمن ليلحق بالنبي ﷺ في حجة الوداع**. فلما وصل إلى مكة، أمره النبي بأن لا يحلّ. وكان هو القارن الوحيد بين الصحابة. وحاول بعض الصحابة أن يفعل فعل عليّ، وتعللوا بأنهم ساقوا الهدي، فلم يأذن لهم الرسول ﷺ بذلك.

(الثانية) بعث النبي ﷺ عليًّا إلى نجران ليجمع صدقتهم ممن أسلم منهم ويقدم عليه بجزية النصارى منهم. وهذه المرة كانت في السنة العاشرة من الهجرة، وهي التي وافى فيها النبي ﷺ في حجة الوداع، فكان القارن الوحيد بين الصحابة كما تقدم. كما أن النبي نحر بيده الشريفة في منى ٦٧ من الإبل وأمر عليًّا بأن ينحر الباقي، ولم يشرك معهما أحداً من الصحابة.

وقد ورد في صحيح البخاري، كتاب المغازي (باب بعث عليّ بن أبي طالب

---

(١) ابن الديبع: قرة العيون بأخبار اليمن الميمون، تحقيق محمد بن علي الأكوع، مكتبة الإرشاد صنعاء، ص ٦١.

وخالد بن الوليد إلى اليمن قبل حجة الوداع)، ورواه أيضاً البيهقي بسند صحيح كما يقول ابن القيّم في كتابه القيّم «زاد المعاد»، وأورد ذلك أيضاً ابن حجر العسقلاني في فتح الباري شرح صحيح البخاري (ج ٨/ ٦٦ المطبعة السلفية) بتفاصيل أكبر. كما ذكر ذلك ابن هشام في السيرة ج ٤/ ٢٧١.

ولا شك إذن في ذهاب علي كرّم الله وجهه إلى اليمن، ودخوله عدن وصلاته في جامعها، وخطبته على منبرها. ويبدو أن ذلك كان في المرة الثانية عند عودته من نجران بعد أن أخذ الصدقات ممن أسلم والجزية ممن بقي على دينه من النصارى، وذلك في السنة العاشرة من الهجرة، لأن بعض الروايات التي ذكرها الديبع تشير إلى دخوله عدن في السنة العاشرة من الهجرة، وهي التي لحق فيها النبي إلى مكة في حجة الوداع.

وقد حدثت حوادث أخرى تبيّن مكانة الإمام علي كرّم الله وجهه، ومنها: اشتكى ناس ممن كانوا مع عليّ في نجران، فغضب رسول الله ﷺ وقال: «أيها الناس لا تشتكوا عليًّا، فوالله إنه لأخشن في ذات الله أو في سبيل الله».. رواه أبو سعيد الخدري في سيرة ابن هشام، ج ٤/ ٢٧١. وجاء مثله في صحيح البخاري في كتاب الحج وكتاب المغازي، باب: بعث عليّ إلى اليمن.

وفي صحيح البخاري عن عبد الله بن بريدة عن أبيه، قال: بعث النبي ﷺ عليًّا إلى خالد (بن الوليد وكان في نجران) ليقبض الخمس. وكنتُ أبغضُ عليًّا. وقد اغتسل (وفي رواية أن عليًّا اصطفى لنفسه جارية من السبي كانت مع بريدة فغضب بريدة لذلك) فقلت (القائل بريدة): ألا ترى إلى هذا؟ فلما قدمنا على النبي ﷺ ذكرت ذلك له. فقال: «يا بريدة أتبغض عليًّا؟ فقلت: نعم. قال: لا تبغضه فإن له في الخمس أكثر من ذلك» (صحيح البخاري كتاب المغازي، باب: بعث علي بن أبي طالب عليه السلام وخالد بن الوليد قبل حجة الوداع).

ونصيب عليّ في الخمس، باعتباره من آل البيت، هو أكثر من جارية، كما

أوضحه النبي ﷺ لبريدة، فروى بريدة الحديث وصار من أنصار عليٍّ ومحبّيه.

وقال ابن حجر العسقلاني في فتح الباري: «وقد أخرج أحمد وأبو داود والترمذي عن عليّ عليه السلام قال: بعثني النبي ﷺ إلى اليمن فقلت: يا رسول الله تبعثني إلى قومٍ أسنَّ مني، وأنا حديث السنِّ لا أبصر بالقضاء. قال: فوضع يده على صدري وقال: «اللهم ثبّت لسانه وأهدِ قلبه. وقال: يا عليّ إذا جلس إليك الخصمان فلا تقضِ بينهما حتى تسمع من الآخر».

وروي عن عليّ عليه السلام أنه قال: ما شككت في قضاء بعدها قط.

(٢) معاذ بن جبل:

الصحابي الجليل أبو عبد الرحمن معاذ بن جبل الخزرجي الأنصاري، أحد السبعين الذين شهدوا بيعة العقبة وكان عمره آنذاك سبعة عشر أو ثمانية عشر عاماً. وشهد بدراً وأُحداً والمشاهد كلها مع رسول الله ﷺ. وكانت وفاته في طاعون عمراس بالشام سنة ١٨هـ (وقبره معروف مع قبر أبي عبيدة في الأردن).

وكان رضي الله عنه معدوداً في علماء الصحابة المفتين. قالوا: كانوا ثلاثة من المهاجرين هم عليّ وعمر وعثمان، وثلاثة من الأنصار وهم أبيّ بن كعب ومعاذ ابن جبل وزيد بن ثابت. وكان من كتبة الوحي وحفظة القرآن. وكان ممن يحبهم رسول الله ﷺ ويجعله رديفه. وقد روى عن رسول الله ﷺ أحاديث ورواها عنه البخاري ومسلم وأهل الحديث. ويكفيه فخراً قول رسول الله ﷺ: «يا معاذ إني أحبّك. فلا تدعْ أن تقول دبر كل صلاة: اللهم أعنّي على ذكرك وشكرك وحسن عبادتك» (أخرجه أبو داود والنسائي والحاكم في المستدرك وصححه).

وكان معاذ رضي الله عنه جميلاً، حسن الثغر، عظيم العينين، أبيض، جعد قطط. وقال جابر بن عبد الله الأنصاري: كان معاذ بن جبل أجمل الناس وجهاً، وأحسنهم

خلقاً، وأسمحهم كفًّا، فأدان (أي تديّن) ديْناً كثيراً (بسبب كرمه الفائض) فلزمه غرماؤه، حتى تُصدِّق عليه، وأعطاهم رسول الله ﷺ ماله كله، فلم يكف لديْنه، فأصاب كل واحد منهم خمسة أسباع حقوقه. ثم إن رسول الله ﷺ أرسله إلى اليمن، وقال له: «لعلَّ الله يجبرك ويؤدي عنك ديْنك»، فلم يزل باليمن حتى توفي رسول الله ﷺ. فلما رجع معاذ في خلافة أبي بكر، ومعه بعض المال الذي جمعه من عطائه، وقد اتَّجر فيه، فأشار عليه عمر بأن يدفع المال إلى أبي بكر لأنه مال المسلمين وليس للأمير الحق في التجارة (وذلك ورعاً وتأثماً) فأبى معاذ، فرأى في المنام أنه يُجَرُّ إلى النار وأن عمر آخذ بحجزته لينقذه منها. فذهب إلى أبي بكر بجميع المال، حتى سوطه. فوهبه له أبو بكر لما يعلم من حاجته وركوب الدَّيْن عليه. فخرج معاذ إلى الشام فأصابه طاعون عمراس فماتت زوجتاه وابناه، ومات هو بذلك الطاعون.

معاذ في اليمن

عندما بعث رسول الله ﷺ معاذاً إلى اليمن قال له: كيف تقضي إن عرض لك قضاء؟ قلتُ: أقضي بما في كتاب الله. قال: فإن لم يكن؟. قال: فيما قضى به رسول الله ﷺ. قال: فإن لم يكن فيما قضى به الرسول؟ قال: أجتهد رأيي ولا آلو. فضرب صدري وقال: الحمد لله الذي وفَّق رسولَ رسولِ الله ﷺ لما يرضي رسول الله[1].

وقال له رسول الله ﷺ حين ودَّعه: «حفظك الله من بين يديك، ومن خلفك، ودرأ عنك شرّ الإنس والجنّ». فسار معاذ، فقال رسول الله ﷺ: يبعث له رتوة (أي درجة) فوق العلماء.

---

(١) أخرجه أحمد في مسنده ج ٥/ ٢٣٦، ٢٤٢، وأبو داود في سننه في: كتاب الأقضية، باب اجتهاد الرأي في القضاء، والترمذي في سننه: كتاب الأحكام، باب ما جاء في القاضي كيف يقضي، وشرح السنة للبغوي ج ١٠/ ١١٦. والحديث ينبني عليه اجتهاد العلماء والقياس، وهي مواضيع هامة في أصول الفقه.

وقال معاذ ﷺ: بعثني رسول الله ﷺ إلى اليمن. فلما سرتُ، أرسل في أثري، فقال: أتدري لم بعثتُ إليك؟ لا تصيبَنَّ شيئاً بغير علم، فإنه غلول ﴿وَمَن يَغْلُلْ يَأْتِ بِمَا غَلَّ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ﴾ (آل عمران: ١٦١). «لقد أُذعِرتَ. فامض لعملك». أخرجه الترمذي والروباني.

وقد حدّثَ معاذ أنّ رسول الله ﷺ خرج يوصيه لما بعثه إلى اليمن، فلما فرغ قال: «يا معاذ. إنك عسى أن لا تلقاني بعد عامي هذا. ولعلّك أن تمرَّ بمسجدي وقبري». فبكى معاذ جزعاً لفراق رسول الله ﷺ، فقال له رسول الله: «لا تبك يا معاذ، أو أن البكاء من الشيطان». أخرجه أحمد في مسنده عن طريق أبي اليمان، ورجاله ثقات.

وعن أبي موسى الأشعري، أنه لما بعثه ومعاذاً إلى اليمن، قال لهما: «يسِّرا ولا تعَسِّرا، وتطاوعا ولا تنفِّرا. فقال أبو موسى: إن لنا بأرضنا شراباً يصنع من العسل يقال له البتع، ومن الشعير، ويقال له المزر. قال رسول الله ﷺ: كلّ مسكرٍ حرام»[1].

وجوابه ﷺ آية في البلاغة والإعجاز، فهناك العديد العديد من الأشربة بأسمائها المختلفة.. وضابط التحريم (أو علّة التحريم) الإسكار. فردّ عليه الرسول ﷺ: كلّ مسكرٍ حرام. وما لم يكن مسكراً (قليله وكثيره) فهو ليس بحرام.

وعن جابر الجعفي، عن أم جهيش خالته، قالت: «**بينما نحن بدثينة بين الجنَدَ وعدن إذ قيل: هذا رسولُ رسول الله** ﷺ. فوافينا القرية، فإذا رجل متوكئ

(١) أخرجه مسلم في صحيحه: كتاب الأشربة، والبخاري في صحيحه: كتاب المغازي، وأخرجه أحمد في مسنده ٤١٠، ٤١٦، ٤١٧.

على رمحه، يتقلّد السيف، متعلّق حَجَفَةً (ترساً)، متنكِّبٌ قوساً وجعبة (فيها السهام)، فتكلّم وقال: إني رسولُ رسولِ الله إليكم. اتقوا الله، واعلموا، فإنما هي الجنّة والنار، خلود فلا موت، وإقامة فلا ظعن (أي سفر). كل امرئ عمل به فعليه ولا له إلا ما ابتُغيَ به وجه الله. وكل صاحب استصحبه أحد خاذله وخائنه إلا العمل الصالح. انظروا لأنفسكم واصبروا لها بكل شيء. فإذا رجل موفر الرأس، أدعج، أبيض، برّاق، وضّاح»[(١)] أي هو معاذ بن جبل ﷺ.

وقد ولّى رسول الله ﷺ معاذ بن جبل الجَنَدَ وما حولها إلى عدن. وهو الذي بنى مسجد الجَنَد، وهو أول مسجد بُني في اليمن، وهو من المآثر الإسلامية في اليمن.

وقد دخل عدن ولحج ودثينة. وهو الذي بنى المسجد الجامع الذي في عدن والذي لم يبق منه إلا المنارة، فقد هدمه القبطان (القرصان) هينس عند هجومه على عدن سنة ١٨٣٩م واستيلائه عليها عندما ضرب عدن بالمدافع فتهدم المسجد وبقيت المنارة.

وقد خطب على منبر هذا المسجد الصحابة الأجلاء معاذ بن جبل وأبو موسى الأشعري والإمام علي ﷺ. ولم يدخلوه معاً، بل دخلوه فرادى. وكان مسجداً متواضعاً في أطراف البلدة.

ثم قام عمر بن عبد العزيز ﷺ ببناء الجامع لأن أهل عدن وجدوا كمية كبيرة من العنبر فأرسلوا للخليفة: ما يعملون به؟ فأشار ببيعه وبناء الجامع بثمنه. وجدّد بناءه الأمير الحسين بن سلامة سنة ٤٢٦هـ ، وكان على علم وتقوى وصلاح، ووسع المسجد من جهة الغرب، وصنع له منبراً. وزاد في الجامع جناحين كما قال عمارة اليمني في كتابه «المفيد في أخبار صنعاء وزبيد». ثم

(١) قالوا ضعيف في سنده لضعف زيد وجابر الجعفي.

جدد المسجد ونصب منبراً جديداً الأمير عمران بن محمد بن سبأ الزريعي، وذلك سنة ٥٦٠هـ. ثم قام الملك المجاهد علي بن داود الرسولي بإصلاح المنبر وتجديده. وجدد الجامع بعد ذلك عامر بن علي بن عبد الوهاب الطاهري في أواخر القرن التاسع الهجري.

وقد تقدم في الجزء الأول فصل خاص عن هذا الجامع والمنارة في «معالم عدن التاريخية والدينية».

(٣) أبو موسى الأشعري:

وقد سبقت ترجمته مختصرة. بعثه رسول الله ﷺ إلى تهامة اليمن.. بعثه مع معاذ وقال لهما: «يسِّرا ولا تعسِّرا، وتطاوعا، ولا تنفِّرا. وتولى معاذ ﷺ الجند وما حولها إلى عدن. وتولى أبو موسى ﷺ تهامة اليمن (زبيد والمخا والحديدة.. إلخ. وبلاد الأشاعر وهي بلاده).

وهناك خلاف في الروايات فيمن تولى منهما عدن. فمنهم من قال إن عدن كانت تابعة للجَنَد، والجَنَد من بلاد المعافر (الحجرية وتعز) وطريقها إلى عدن وصلتها بها أقوى الصلات، وذلك منذ أيام دولة أوسان. ومنهم من قال إن عدن على الساحل (أي تهامة) وقد ولى رسول الله ﷺ أبا موسى الأشعري التهائم.

وعلى أية حال، نجد أن الجَنَد أقرب إلى عدن، وخاصة أن النصوص المتكاثرة ذكرت دخول دثينة ولحج تحت حكم وإمرة معاذ بن جبل. وأما تهامة اليمن وزبيد والأشاعر فهي بعيدة عن عدن. ونرجح أن عدن كانت تابعة للجَنَد. ولا شك أنهما كانا متفقان ولم يختلفا رضي الله عنهما وسارا على ما أوصاهما به رسول الله ﷺ.

وقد ثبت أن ثلاثة من الصحابة الكبار هم الإمام عليّ بن أبي طالب ومعاذ ابن جبل وأبو موسى الأشعري قد دخلوا عدن وخطبوا على منبر جامعها، وصلّوا فيه.

وقد جاء في كتاب الاستيعاب لابن عبد البر: أن النبي ﷺ قسَّم بلاد اليمن بين خمسة رجال:

(١) خالد بن سعيد الأموي وقد ولّاه على صنعاء (وكان عليها أولاً باذان).

(٢) المهاجر بن أمية المخزومي، ولّاه على كندة شرق حضرموت.

(٣) زياد بن لبيد البياضي الأنصاري ولّاه على حضرموت (ومنها تريم).

(٤) معاذ بن جبل ولّاه على الجَنَدَ (وسط اليمن).

(٥) أبو موسى الأشعري، ولّاه على زبيد وعدن والساحل ورمح.

وقد وصل معاذ رضي الله عنه في دعوته إلى حضرموت، ذكره السيد أحمد محمد الشاطري، قال: «كان نزول معاذ بحضرموت بين قبيلة السكون الكندية، وتزوج منهم، وله طلبة من حضرموت رووا عنه».

وذكر في كتابه (أدوار التاريخ الحضرمي ج ١/ ٨٧، ٨٨) أن أبا موسى الأشعري أيضاً نزل إلى حضرموت وعلّم الناس.

وهناك ولاة كثيرون. وقد يكون أحدهم على الصدقة، والآخر على الصلاة وتعليم الناس الإسلام، فقد استعمل رسول الله ﷺ **فروة بن مسيك المرادي على مراد ومذحج، وبعث معه خالد بن سعيد بن العاص ليقوم على الصدقة.** فكان معه في بلاده حتى توفي رسول الله ﷺ.

وكان زياد بن لبيد الأنصاري الخزرجي البياضي أحد ولاة الرسول ﷺ على حضرموت. وكان من واجباته نشر تعاليم الإسلام، والحكم بين الناس بما أنزل الله وجمع الصدقة وتوزيعها، تؤخذ من أغنيائهم وتُردُّ على فقرائهم، وما زاد عن حاجتهم يبعث به إلى رسول الله ﷺ في المدينة.

وكان زياد يُسمى المهاجري الأنصاري، لأنه قدم على رسول الله ﷺ وهو

بمكة، وأسلم وأقام معه في مكة، حتى هاجر النبي ﷺ فهاجر إلى المدينة وشهد العقبة وبدراً وأُحداً والخندق والمشاهد كلها مع رسول الله ﷺ.

وكانت إقامته في شبام وتريم (حضرموت) ويتنقّل بين بلادها. وحارب المرتدين في أيام أبي بكر ﷺ، وكانت تريم من البلاد التي لم ترتد.

وقد أرسل رسول الله ﷺ **خالد بن الوليد** داعياً إلى همدان، وهو رجل وعبقري الحرب، فلم ينجح في دعوته السلمية، ولكن الرسول ﷺ بعثه مرة أخرى إلى بني الحارث بن كعب بن مذحج من أهل نجران، ودعاهم إلى الإسلام، فأسلموا وذهب منهم وفد إلى المدينة المنورة في عهد رسول الله وهو وفد نجران المشهور.

وكان لخالد بن الوليد الدور العظيم في حروب الردة كلها (ومنها ما حدث في اليمن) وفي فتح العراق والشام. وله مائة غزوة، وأعظم معاركه اليرموك. ومات على فراشه فلا نامت أعين الجبناء. وتوفى بحمص من أرض الشام وقبره بها معروف. ومن ولاة النبي ﷺ على اليمن مالك بن نمط من همدان ولّاه النبيﷺ على خارف.

وعندما **أسلم ملوك حمير** (وكانوا أقيالاً، أي كل واحد منهم رئيساً لقبيلة أو مجموعة من القبائل) وذهبوا إلى الرسول ﷺ فكتب لهم كتاباً يولّيهم أمر قومهم، ويعرّفهم تعاليم الإسلام، ومقدار الزكاة في الزرع والضروع والأموال، وجزية أهل الكتاب إذا أبوا الدخول في الإسلام.

وولّى رسول الله ﷺ **فروة بن مسيك المرادي** مناطق واسعة من أراضي مراد ومذحج وزبيد. وله مسجد معروف شمالي صنعاء يُعرف بمسجد مسيك، وفيه قبره، وهو قبر مشهور إلى اليوم. وقد عمر المسجد والجبّانة شمال صنعاء بأمر النبي ﷺ.. وولّى رسول الله ﷺ **الطاهر بن هالة** (ابن خديجة رضي الله عنها) **وجرير بن عبد الله البجلي بعض مناطق اليمن لفترات محدودة.**

ومنهم فيروز الديلمي من أبناء الأساورة الفرس. ويقال لهم الأبناء لأنهم من الفرس من جهة الآباء ومن حمير واليمن من جهة الأمهات. وقد وفد على النبي ﷺ، وأسلم وتحته أختين، فأمره النبي بتطليق أيهما شاء، ففعل. وقالوا إن الرسول ﷺ ولّاه على صنعاء(١).

واتفقوا على أنه كان عاقلاً حازماً وأنه أعان على قتل الأسود العنسي المرتد بواسطة أحد جواريه. واختلف في سنة وفاته، فمنهم من قال إنه وفد على عمر وتوجه إلى مصر ومنها إلى بيت المقدس حيث توفى. ومنهم من قال إنه مات على عهد عثمان ﷺ. وأما الزركلي فقال إنه مات في عهد معاوية سنة ٥٣هـ/ ٦٧٣ م وأن معاوية ولّاه على صنعاء. والله أعلم بالصواب.

ومنهم **خالد بن سعيد بن العاص بن عبد شمس القرشي** أحد السابقين في الإسلام والذين هاجروا إلى الحبشة. استعمله رسول الله ﷺ على صنعاء وكانت وفاته في معركة أجنادين في غزو الشام.

وقد اشتهرت عدن في العهد النبوي وما بعده بأنها فرضة اليمن وأهم موانيها. وقد استعمل رسول الله ﷺ (الغالية)، وهي أجود أنواع الطيب، وكانت تصنع في عدن، واشتهرت عدن بها. وهي تصنع من العنبر والمسك والزباد (وكلها من إفرازات حيوانات ثديية، فالعنبر إفراز حوت العنبر، والمسك إفراز من غدة من غزال المسك، والزباد إفراز من غدة من قط الزباد ويكثر في جزيرة سقطرى ويصدّر منها إلى عدن).

كما اشتهرت عدن بالبرود العدنية وكانت من أجمل الثياب الموشاة، وقيل إن النبي ﷺ استعملها. كما **اشتهرت أيضاً البرود السحولية، وسحول قريبة من تعز، وقد كُفِّن ﷺ في ثلاثة برود سحولية.**

---

(١) قال الجرافي في كتابه: «المقتطف من تاريخ اليمن» ص ٨٦، إن فيروز الديلمي كان على صنعاء، هو وقيس بن مكشوح المرادي.

وبقيت عدن ميناء اليمن، بل ميناء بلاد العرب بأكملها في العهد النبوي والعهود الإسلامية التي تلته.

وقد دخل كثير من الصحابة عدن في عهد رسول الله ﷺ وفي أثناء حروب الردة، ومنهم عكرمة بن أبي جهل الذي أخضع حضرموت والمهرة التي انتقضت وارتدت.

وبعد أن أخضع أبو بكر ﷺ المرتدين، أبقى على ولاة رسول الله ﷺ. ولما تولّى عمر ﷺ عزل يعلى بن أمية صاحب صنعاء ثم أعاده. وأقرَّه عثمان ﷺ. ثم تولّى الخلافة الإمام عليّ بن أبي طالب ﷺ فأرسل عبيد الله بن عباس على اليمن، وجعل على الجنَدَ سعيد بن سعد بن عبادة الأنصاري.

وفي آخر أيام الإمام عليّ أرسل معاوية جيشاً كثيفاً بقيادة **بسر بن أرطاة**، فذهب إلى مكة، وأثخن القتل في الهاشميين وأنصار الإمام عليّ. ثم نزل إلى اليمن، فلما قرب من صنعاء جمع عبيد الله بن عباس أهل صنعاء وحثّهم على القتال فأبوا، لأن بسر - كعادة الأمويين - يقدّم الأموال والمناصب، ويغري القادة بذلك، ومنهم أبو معيد حمزة بن الحارث الهمداني فكان لبسر رجلاً ويداً، وقتل من «الأبناء» اثنان وسبعين رقبة في موضع يسمى «المصرع» من أرض همدان. فخرج عبيد الله بن عباس يستنجد بالإمام عليّ، فدخلها بسر بن أرطاة وفيها غلامان صغيران لعبيد الله بن عباس هما قثم وعبد الرحمن الأكبر منهما عمره ثمان سنوات، فقتلهما بسر بن أرطاة بيده. وهكذا كان بنو أمية وولاتهم لا يرعون ذمة ولا عهداً ولا يتورعون عن قتل الأطفال والنساء..

وقد صدق رسول الله ﷺ في قوله: هلاك أمتي على يد أغيلمة من قريش، يقصد بذلك بني أمية. وقبر الطفلين معروف في صنعاء إلى اليوم خارج مسجد الشهيدين.

وكان بسر بن أرطاة من الأمثلة التي تجسّد الحكم الأموي الظالم الفاجر الذي لا يعرف معروفاً ولا ينكر منكراً، فقتل الطفلين، وقتل كل من تشفَّعَ لهما. وحرَّق أماكن كثيرة من اليمن، وأسرف في القتل والبطش. فلما بلغ ذلك الإمام عليّ جهز ألفي فارس من الكوفة ومثلها من البصرة ، وأمَّر على الجميع جارية بن قدامة السعدي، فهرب منه بسر بن أرطاة، وفقد عقله وساءت خاتمته. وقتل جارية كل من وجده من أصحاب بسر الذين قتلوا النساء والأطفال ولم يرعوا لله حرمة. ووصل جارية – بعد أن أخضع اليمن – إلى مكة، فبلغه مقتل الإمام عليّ، فأخذ البيعة لمن بايع له أصحاب عليّ. وكانت البيعة للإمام الحسن بن عليّ، ولكنَّه وجد اختلاف أصحابه كبيراً، وقد عانى منهم أبوه أشدّ المعاناة، فمال للصلح مع ما قدَّمه له معاوية من عهود ومواثيق وأموال وبأنه سيكون الخليفة من بعده.

فما كان من معاوية – بعد أن استتب له الأمر – إلا أن أغرى زوجة الحسن جعدة بنت الأشعث الكندي بالأموال (ألف ألف) ودسَّت له السم فمات به. وكان لمعاوية طبيبان نصرانيان أحدهما ابن أثّال اشتهر بوضع السم في العسل. وقد قتل به معاوية أكثر خصومه السياسيين، والثاني أبو الحكم وكان طبيباً ماهراً يرفض التعامل مع السموم، فكان معاوية يثق به ويتداوى عنده. وبقي أبو الحكم وأولاده إلى آخر العهد الأموي.

اليمن وعدن في العهد الأموي

بدأ معاوية عهده بإرسال **بسر بن أرطاة** الطاغية المجرم، قاتل النساء والأطفال. أرسله أولاً إلى مكة فأثخن القتل في الهاشميين ومن ناصرهم ثم نزل إلى اليمن، وكان فيها عبيد الله بن عباس والياً عليها من قِبَلَ الإمام عليّ كرم الله وجهه. واستطاع بسر بن أرطاة أن يغري القادة ورؤساء القبائل بالأموال والهدايا فرفضوا القتال مع عبيد الله، الذي اضطر للخروج من صنعاء وتوجّه إلى الإمام عليّ في الكوفة. وكان له طفلان أكبرهما في الثامنة، من أم يمنية، فلم يخطر بباله أن يقتلهما بسر بن أرطاة، إذ لم يكن ذلك من عادة العرب في جاهليتهم قتل النساء والأطفال، فكيف يكون ذلك في الإسلام. ولكن ما كان من بسر بن أرطاة إلا أن قتلهما بيده، وقتل كل من تشفَّع لهما.

فلما كان ذلك، أرسل الإمام عليّ جارية بن قدامة في أربعة آلاف فارس من الكوفة والبصرة، وبوصول جارية هرب الحقير الجبان، قاتل النساء والأطفال بسر بن أرطاة. فقتل جارية أنصاره القتلة المجرمين الذين لا يرعون إلًّا ولا ذمة ولا ديناً ولا خُلقاً. قال ابن عبد البر في الاستيعاب أن بسر فقد عقله وجُنّ وساءت خاتمته.

ولما استتب الأمر لمعاوية بعد مقتل الإمام عليّ، وتنازل الإمام الحسن عليه السلام، أعاد حكامه وولاته عليها. وأول من استعملهم كان **عثمان بن عفّان الثقفي**، ثم عزله وولّى **أخاه عتبة بن أبي سفيان، وجمع له ولاية المخلافين صنعاء والجَنَد.** وكانا حتى ذلك الحين مخلافين منفصلين لكل واحد منهما والٍ، كما كان على تهامة والٍ وعلى حضرموت والٍ.

ولكن معاوية غيّر السياسة وجعل اليمن كلها تحت إمرة والٍ واحدة هو عتبة بن أبي سفيان. ثم استخلف على اليمن فيروز الديلمي (وقد سبق أن ذكرنا أن بعض المصادر قالت إنه ذهب إلى مصر ومنها إلى بيت المقدس حيث مات هناك وذلك في عهد عمر ﷺ، وقيل بل في عهد عثمان ﷺ).

واستعمل معاوية **النعمان بن بشير الأنصاري** ثم استعمل **الضحاك بن فيروز الديلمي**، ومات معاوية والضحاك هو الوالي على اليمن. فلما تولى يزيد ابن معاوية استعمل بحير بن ريساك وقيل (ريشان) الحميري على اليمن بأكملها.

وهكذا نجد أن عدد الولاة على اليمن في عهد رسول الله ﷺ كان كبيراً، حيث كان يولي كل رئيس قوم أسلم قومه. كما أرسل عدداً كبيراً من الصحابة لتعليم الناس شؤون دينهم وجعل بعضهم قضاة، وبعضهم على الصدقة.. إلخ. فلما مات رسول الله ﷺ ارتدّت معظم جزيرة العرب ومنها اليمن، فقاتل أبو بكر ﷺ المرتدين بجيوشه التي أرسلها من المدينة وبمن ثبت على الإسلام من أهل تلك البلاد. وفي اليمن كان فيروز الديلمي ممن ثبت، وممن قتل الأسود العنسي. كما كان زياد بن لبيد الأباضي على حضرموت فقاتل معه أهل تريم وأهل شبام المرتدِّين.. وانخفض عدد الولاة في اليمن في عهد أبي بكر، ثم انخفض العدد بعد ذلك في عهد عمر وعثمان وعليّ. وبقيت اليمن مخلافان أحدهما صنعاء، والثاني الجَنَد، والثالث حضرموت. واستمر الأمر على ذلك في بداية العهد الأموي. ولكن معاوية وحَّد أمر اليمن إلى والٍ واحد هو عتبة بن أبي سفيان. وبقيت ولاية اليمن بعد ذلك في شخص واحد.

ولما تولّى عبد الله بن الزبير الخلافة استعمل على اليمن الضحاك بن فيروز الديلمي، ثم عزله بعبد الرحمن بن خالد بن الوليد. وتكرر عزل الولاة في اليمن في فترات متقاربة.

ولما صار الأمر إلى عبد الملك بن مروان استولى الحجاج بن يوسف الثقفي على مكة بعد أن ضربها بالمنجنيق وهدَّم الكعبة وقتل عبد الله بن الزبير وصلبه. وعيّن الحجاج بن يوسف أخاه محمد بن يوسف الثقفي على الجَنَد وصنعاء، وعيّن على حضرموت الحكم بن أيوب الثقفي. ولما مات محمد بن يوسف الثقفي تولاها أيوب بن يحيى الثقفي. وصار أمر اليمن والحجاز كله إلى ثقيف. وقد جدّد أيوب بن يحيى الثقفي بناء الجامع بصنعاء بزيادات الوليد بن عبد الملك الذي اشتهر ببناء وتوسيع المساجد فهو الذي وسّع وبنى مسجد المدينة، ومسجد دمشق، وبنى المسجد الأقصى، وغيرها من المساجد العظام في أرجاء الدولة الإسلامية الممتدة إلى الأندلس وإلى حدود الصين.

ولما تولّى **سليمان بن عبد الملك الخلافة** ولّى **عروة بن محمد السعدي**(١) أمر اليمن وبقي على ذلك في عهد عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه.

فلما تولّى **يزيد بن عبد الملك** الخلافة عزل عروة بن محمد السعدي وولّى أمر اليمن إلى **مسعود بن عوف الكلبي**. فلما تولى **هشام بن عبد الملك** الخلافة عزله وولّى **يوسف بن عمر الثقفي** وحكم اليمن لمدة ثلاث عشرة سنة.

وتتالى الولاة. وفي **عهد مروان بن محمد الجعدي** نسبة إلى شيخه الجعد آخر خلفاء بني أمية والملقب بالحمار لشدّة صبره وجلده، استعمل القاسم بن عمر الثقفي. وفي أيامه ثار الأباضية (الشُراة) بقيادة **طالب الحق عبد الله بن يحيى**

---

(١) كان عروة بن محمد السعدي من أهل العلم وخاصة علم الحديث، أميناً عفًّا. قال ابن المديني: أنه ولي اليمن عشرين سنة. وأنه كان أصلح العمال. لما دخل اليمن قال: يا أهل اليمن هذه راحلتي فإن خرجت بأكثر منها فأنا سارق. فخرج سنة ١٠٣ بعد وفاة عمر بن عبد العزيز بسنتين (توفي سنة ١٠١ هـ) ولم يكن معه سوى راحلته وسيفه ورمحه ومصحفه (انظر عبد الله بن عبد الكريم الجرافي: المقتطف من تاريخ اليمن، منشورات العصر الحديث، بيروت ١٩٨٧، ص ٩٤).

الكندي الذي بدأ ثورته في حضرموت، واحتل اليمن بأكملها. ثم انطلق إلى الحجاز ودخل مكة والمدينة. ثم تكاثرت عليه جيوش الأمويين وتغلبوا عليه وقتلوه.

ولكن لم تلبث دولة الأمويين أن انقضت، وثار الخراسانيون بقيادة أبي مسلم الخراساني ووصلت الجيوش إلى العراق ثم الشام ثم مصر. وقتل مروان بن محمد آخر خلفاء بني أمية في بوصير من أرض مصر. واستتبَّ الأمر لبني العباس بقيادة السفاح وأخيه المنصور، وقامت دولة جديدة باذخة هي الدولة العباسية. وكما بدأت دولة بني أمية بالدماء، بدأت كذلك دولة بني العباس بالانتقام من بني أمية ومطاردتهم. ولكن صقر قريش عبد الرحمن الداخل استطاع أن يفرّ مع غلامه إلى قبائل البربر وأخواله في أقصى المغرب، ومنها توجه إلى الأندلس حيث كانت الفوضى ضاربة أطنابها، والحرب بين اليمانية والعدنانية دائرة، وحكومة العباسيين لم تصل بعد إليها. فأسس دولة قوية في الأندلس أعادت بعض أمجاد أميّة العسكرية، وزادت عليها في أمجادها الحضارية والعلمية.

طالب الحق عبد الله بن يحيى الكندي(١)

وقد **اشتهر طالب الحق عبد الله يحيى الكندي** بالشجاعة والفصاحة. وكان من أباضية البصرة، قدم إلى بلده حضرموت فرأى عسفاً وظلماً، فكاتب إخوانه من أهل البصرة الذين أيدوه فقام بالثورة. وقد قدم إليه عدد من شجعان الأباضية منهم القائد الشهير والخطيب المصقع **أبوحمزة المختار بن عوف الأزدي** (الشاري أي البائع نفسه في سبيل الله)، وبايعه عامة الأباضية من حضرموت

(١) هذه المادة من كتاب السيد محمد أحمد الشاطري أدوار التاريخ الحضرمي، عالم المعرفة – جدة ١٩٨٣، ج ١/ ١٢٧ – ١٤٠.

وظفار وما حولها. فاستولى على دار الإمارة في دمون الهجرين، وطرد عامل مروان بن محمد، واسمه إبراهيم بن جبلة الكندي، وحبسه ثم أطلقه فهرب إلى صنعاء.

واستولى عبد الله بن يحيى على حضرموت بدون إراقة دماء، وذلك لموافقة الأهالي له لأنهم قد عانوا كثيراً من جور ولاة بني أميّة. وقام بإصلاحات هامة، فنشر العدل وأطعم الفقراء وكساهم. وكان الشراة (الأباضية) من الذين يتدبّرون القرآن، ويقومون الليل، ولكن غلوّهم كان في تكفير طوائف من المسلمين.

وتوجه إلى صنعاء بجيش عدد أفراده ألفين من الشجعان، واستخلف على حضرموت عبد الله بن سعيد الحضرمي ودخل أبين ولحج وعدن. والتقى بعامل الأمويين القاسم بن عمر الثقفي بالقرب من صنعاء في جيش أقوى عُدَّة وأكثر عدداً، فالتحم الجيشان وانتصر طالب الحقّ عبد الله بن يحيى الكندي انتصاراً مؤزراً.

وعاد القاسم بن عمر الثقفي إلى صنعاء وحاول أن يجمع شتات جيشه، وجمع آلاف الجند وتقابل الجيشان في مكان يقال له جوين.. وبعد ثلاثة أيام من الكرّ والفر انتصر جيش طالب الحق عبد الله بن يحيى الكندي انتصاراً مبيناً. ودخل صنعاء، وجمع الأموال المخزونة. ودانت له بلاد اليمن من حضرموت إلى صنعاء. وألقى في جامع صنعاء خطبته البليغة، فقال بعد أن حمد الله وأثنى عليه: «إنّا ندعوكم إلى كتاب الله وسنّة نبيّه، وإجابة من دعا إليهما. الإسلام ديننا، ومحمد نبيّنا، والكعبة قبلتنا، والقرآن إمامنا. رضينا بالحلال حلالاً، ما نبغي به بديلا، ولا نشتري به ثمناً قليلا. وحرّمنا الحرام ونبذناه وراء ظهورنا.. ولا حول ولا قوّة إلا بالله، وإلى الله المشتكى وعليه المعوّل.

من زنى فهو كافر، ومن سرق فهو كافر، ومن شرب الخمر فهو كافر، ومن شكَّ في أنه كافر فهو كافر.

ندعوكم إلى فرائض بيّنات وآيات محكمات وآثار مقتدى بها. ونشهد أن الله صدق فيما وعد، عدل فيما حكم».. إلى آخر ما قال.

وما أجمل كلامه لولا أنه كفَّر أصحاب الكبائر: فالزاني كافر ما لم يتب، وكذلك السارق وشارب الخمر. والأدهى من ذلك أنه قال: من شكَّ في أنه كافر فهو كافر. وبذلك كفَّر طائفة كبيرة من المسلمين، بل كفَّر جميع المسلمين الذين لم يقرّوا بمذهبه الشطط، وأحلّ دماء المسلمين باعتبارهم كفرة. وهذه هي أكبر أخطاء الخوارج (الشراة).

الاستيلاء على الحجاز

بعد استيلاء طالب الحق عبد الله بن يحيى الكندي على صنعاء دانت له أرض اليمن بأكملها إلى ظفار، وأرسل عبيد الله بن يحيى الكندي، **أبا حمزة المختار بن عوف الأزدي** في جيش قوامه ألف ومائة رجل، فوصل إلى مكة في وقت الحج.. ودخلوا عرفات وقد جعلوا على رؤوس رماحهم عمائم سود. فارتاع الحجاج، فراسلهم أمير الحجاز الأموي عبد الواحد بن سليمان بن عبدالملك، وتمّت بينه وبينهم اتفاقية على أن لا يحدثوا شيئاً إلا بعد أداء النسك وفراغ الناس من الحج.. ووقفوا على صعيد عرفات وحدهم.

فلما انتهى الحج توجه الأمير عبد الواحد الأموي مسرعاً إلى المدينة، وجهّز جيشاً لقتال أبي حمزة عدده ثمانية آلاف أغلبهم من أهل المدينة وليسوا من الجند أهل القتال. فالتقى بهم أبو حمزة في قُدَيد قرب المدينة، فهزمهم أبو حمزة وقتل منهم أكثر من ألفين (من قريش أربعمائة وخمسين، ومن الأنصار ثمانين، ومن القبائل والموالي ألف وسبعمائة) مع أن جيش أبي حمزة كان ألفاً ومائة فقط. ودخل المدينة وألقى خطبة بليغة جاء فيها:

«يا أهل المدينة.. بلغني أنكم تنتقصون أصحابي. قلتم هم شباب أحداث، وأعراب جفاة. ويحكم يا أهل المدينة، وهل كان أصحاب رسول الله ﷺ إلا

شباباً أحداثاً. شباباً والله مكتهلون في شبابهم، غضيضة عن الشرِّ أعينهم، ثقيلة عن الباطل أقدامهم، قد باعوا أنفساً تموت غداً، بأنفسٍ لا تموت.

قد خلطوا كلالهم بكلالهم (الكلال هو التعب أي أنهم من جهاد إلى جهاد ومن مشقة إلى أخرى). وقيام ليلهم بصيام نهارهم، محنيّة أصلابهم على أجزاء القرآن، كلما مرّوا بآية خوف شهقوا خوفاً من النّار، وإذا مرّوا بآية شوق شهقوا شوقاً إلى الجنة، فلما نظروا إلى السيوف قد انتضيت، وإلى الرماح قد أُشرعت، وإلى السهام قد فوِّقتْ، وأرعدت الكتيبة بصواعق الموت، استخفّوا وعيد الكتيبة عند وعيد الله، ولم يستخفّوا وعيد الله عند وعيد الكتيبة، فطوبى لهم وحُسنُ مآب. فكم من عين في منقار طائر طالما بكى صاحبها من خشية الله، وكم من يدٍ قد أبينت عن ساعدها طالما اعتمد عليها صاحبها راكعاً وساجداً.. إلى أن قال: أقول قولي هذا وأستغفر الله من تقصيرنا، وما توفيقي إلا بالله». ويا لها من خطبة جمعت البلاغة والإيمان والتقوى. ويا لهم من شباب أشبهوا شباب محمد ﷺ، لولا ما جاء في مذهبهم من تكفير مرتكب الكبيرة إن لم يتب، وتكفير من لم يكفّره.

مصرع أبي حمزة المختار بن عوف الأزدي (الشاري)

لما بلغت هذه الأنباء الخليفة مروان بن محمد اشتدّ الأمر عليه، ولكنه أرسل جيشاً قوامه أربعة آلاف من الفرسان المعدودين بقيادة **عبد الملك بن عطية السعدي** (من بني سعد في هوازن بالطائف ومنهم آمنة السعدية مرضعة رسول الله ﷺ).

وقام أبو حمزة الشاري بإرسال حملة بقيادة بلج في ستمائة رجل لمواجهة جيش الشام الكثيف في أربعة آلاف فارس. والتقى الجمعان في وادي القرى في الأسبوع الأول من جمادى الأولى سنة ١٣٠هـ.

وعند المواجهة تكلم قائد الأباضية بلج ودعاهم إلى كتاب الله وسنّة نبيِّه، وذكر ظلم بني أمية وشتمهم، فاستعرَّ القتال فقُتل بلج وأكثر أصحابه. وبقي منهم مائة اعتصموا بجبل فقاتلهم عبد الملك بن عطية السعدي ثلاثة أيام، وقتل منهم سبعين، وانحاز الباقون إلى أبي حمزة إلى المدينة.

وكان بعض أصحاب أبي حمزة أشاروا عليه بقتل المنهزمين من الجيش الأموي في المدينة، فرفض ذلك لأنهم قد استسلموا وأقروا بالحكم. فلما قرب جيش عبد الملك بن عطية السعدي إلى مكة انضم إليه من كان قد انهزم من الجيش الأموي. وقاتلهم أبو حمزة الشاري أشدّ قتال وأبدى من ضروب الشجاعة هو وجيشه الصغير ما يعجب له الإنسان. وانتهت المعركة بقتل أبي حمزة وجلّ أصحابه. وبعث قائد الجيش الأموي عبد الملك بن عطية السعدي برأس أبي حمزة إلى الخليفة بالشام، وصلب جثته وجثث أصحابه، وهو أمر اعتاد عليه بنو أمية في جميع معاركهم منذ عهد يزيد بن معاوية.

وقد تميَّز هؤلاء الأباضية - والخوارج عموماً - بزهدهم، وشجاعتهم، وبطولاتهم الخارقة، رجالاً ونساءً حتى أن غزالة زوجة شبيب الشيباني نذرت أن تصلي الليل كله في مسجد الكوفة، فدخلت الكوفة أيام الحجاج فبرّت بوعدها. وارتعب منها الحجاج، حتى قال الشاعر (عمر بن حطان) مخاطباً الحجاج:

هلّا برزت على غزالة في الوغى ... بل كان قلبك في جناحي طائر
صدعت غزالة قلبه بجحافل ... تركت عساكره كأمس الدابر

وكذلك كانت مريم زوجة أبي حمزة، فقاتلت مع زوجها حتى قتلت معه وهي ترتجز:

أنا الجُعيداء وبنت الأعلمِ ... من سال عن اسمي فإسمي مريم
بعتُ سواريّ بسيف مخدَّم

(والسواري هي الأسورة، فقد باعت أسورتها واستبدلتها بسيف بتّار كثير الخدمة في المهالك) ومنهن الفارعة أخت الوليد بن طريف الشيباني، التي تولت القيادة بعد مقتل أخيها، وقاتلت يزيد بن مزيد الشيباني، قائد الرشيد حتى ذكّرها بحق العشيرة فتركت من أجل ذلك القتال.

مصرع طالب الحق عبد الله بن يحيى الكندي

بعد أن قضى عبد الملك بن عطيّة السعدي على أبي حمزة المختار بن عوف الأزدي الشاري، توجه إلى اليمن للقضاء على طالب الحق، فتحرك طالب الحق لمواجهته في موضع يقال له تُبالة (على طريق اليمن للخارج من مكة)، فكانت معركة فاصلة انتصر فيها عبدالملك بن عطية السعدي بجيشه الكثيف من الفرسان بعد أن أبدى طالب الحق وصحبه ضروباً من البسالة والشجاعة والصبر والفداء، وهم يعتقدون جازمين أنهم يقاتلون في سبيل الله، ابتغاء مرضاة الله، لا يرون أمامهم سوى الجنة، ولا يجدون في أنوفهم سوى ريحها، فكانوا مثال الشجاعة والفداء والبطولة (لولا ما ذكرناه في مذهبهم من تكفير عدد كبير من المسلمين). وأدى انتصار عبد الملك بن عطية السعدي إلى تفرّق أصحاب طالب الحق عبد الله بن يحيى الكندي، فطاردهم عبد الملك بن عطية في كافة أصقاع اليمن إلى حضرموت، حيث قامت معركة حامية الوطيس بين عبدالملك بن عطية وبين عبدالله بن سعيد الحضرمي (عامل طالب الحق على حضرموت) في منطقة الكسر. وأرسل ابن عطية فرقة من جيشه في الليل، والقتال محتدم مع عبد الله بن سعيد، إلى شبام عاصمة الأباضية فاقتحموها وأعملوا السيف في أهلها عند مداهمتها مع بزوغ الفجر.

وولّى الخليفة مروان، عبد الملك بن عطية موسم الحج بعد أن حقَّق هذه الانتصارات، فكمن له نفر من الأباضية في طريقه إلى مكة وقتلوه، فتولى أمر محاربتهم عبد الرحمن بن عطية بن عطية السعدي (ابن أخ عبد الملك)، فأرسل

جيشاً من الفرسان يقوده شعيب البارقي، فجعل يقتل الرجال والصبيان، ويبقر بطون النساء، ويخرّب القرى حتى أصاب البلاد الخراب. وقد وقع أشد الخراب في مناطق الأباضية مثل شبام وهينن وحورة وقعوظة ودوعن.

والخلاصة أن الحكم الأموي منذ بدايته إلى نهايته لم يتورع يوماً عن سفك الدماء والبطش، وقتل النساء والأطفال، بل واغتصاب المسلمات العفيفات كما حدث في وقعة الحرّة في المدينة المنورة أيام يزيد بن معاوية عندما اغتُصِبت مئات من نساء المدينة بما في ذلك بنات الأنصار الذين رفع آباؤهم راية الإسلام في كل مكان. بل ذكروا أن يزيد بن معاوية لما بلغه الخبر أخذ ينشد أبيات الزبعرى في رثاء قتلى بدر من المشركين ويتمنى لو حضروا انتقام قريش من المسلمين في أحد:

ليت أشياخي ببدرٍ شهدوا ... جَزعَ الخزرج من وقع الأسلْ
قد قتلنا القرم من ساداتهم ... وعـدلنا ميـل بـدرٍ فاعتـدلْ

وهو حكم دموي في غالبه، ولا يتورع أبداً عن شراء الذمم بالأموال والمناصب والولايات لمن لهم قيادة وولاية على قبائلهم وأصحابهم. ومع ذلك كان فيهم عمر بن عبد العزيز الذي أُلحق بالخلفاء الراشدين، كما إن منهم معاوية الثاني بن يزيد بن معاوية بن أبي سفيان الذي رفض الملك والخلافة.. وفيهم سليمان بن عبد الملك وهو الذي جعل الخلافة بعده لعمر بن عبد العزيز. وكان بعض ولاتهم على علم وتقى كما سبق أن ذكرنا.

وتميّز الحكم الأموي في اليمن بالأشياء التالية:

(١) الشدّة وسفك الدماء في البداية حتى يستقرَّ الحكم وتخضع جيوب المقاومة.

(٢) توحيد الولاة لليمن في والٍ واحد. وقد كانت ثلاث ولايات: الجَنَد وصنعاء وحضرموت. وهذا أتاح للوالي سلطات واسعة، وإجراء إصلاحات إدارية

ومراقبة الأمور. كما أن الخلافة الأموية تميّزت باهتمام الخلفاء الشديد بولاياتهم البعيدة والقريبة. وأن يكونوا على اطلاع على مجريات الأمور. وكان البريد يأتي فيدخل على الخليفة في أي وقت كان. وقد قام معاوية بإيجاد نظام بريدي قوي بحيث تستبدل الخيل في محطات متعدّدة. فلا تصل الخيل بالبريد إلى محطة إلا والخيل الأخرى وحاملها الجديد قد استعد لذلك، فلا يمضي وقت طويل إلا وقد وصلت الرسالة من أقصى خراسان أو المغرب إلى الخليفة في دمشق.

(٣) **اهتم معاوية بصورة خاصة - ومن بعده - بالموانئ والتجارة.** وقد كان اهتمام معاوية بالتجارة في عدن اهتماماً كبيراً لمعرفته وإدراكه أهمية عدن التجارية، فوسع من تلك التجارة ورتّب أمورها، وبالتالي كانت مصدراً للثروة لعدن وأهلها ولليمن بأكملها. كما كانت من أهم روابط الدولة الممتدة من خراسان إلى المغرب. وكانت تشكّلُ دخلاً كبيراً للدولة.

(٤) **شارك أهل اليمن منذ عهد أبي بكر ﷺ في الفتوح. وازدادت أعدادهم في عهد عمر وعثمان وعليّ ﷺ. ولم تتوقف مشاركات أهل اليمن في الفتوح إلى أقصى المغرب وفتح الأندلس إلى جنوب فرنسا غرباً، وإلى التركستان وحدود الصين شرقاً في العهد الأموي.. واشتهر أهل اليمن بسرعة اندماجهم..** فقد أورد أهل التاريخ أن عمرو بن العاص جمع أهل اليمن وقال لهم إن أمير المؤمنين عمر بن الخطاب كتب إليه أن لا يفصل بينه وبينهم بحر ولا نهر. وكان أهل اليمن قد نزلوا بالجيزة في غرب النيل. وأمرهم عمرو أن يرجعوا فقالوا: ولم؟ قال: يخشى عليكم أمير المؤمنين. قالوا: فليطبْ أمير المؤمنين نفساً. فإنّا قد نزلنا بين القبط وصاهرناهم (وتزوجوا منهم). كما كانت مصر القديمة مضارب أهل اليمن في غالبها. واشتهر من الحضارمة خاصة عدد غفير تولوا القضاء، كما اشتهر الحضارمة خاصة بالأمانة، فولوهم شؤون المال، فحافظوا على أموال الأمة.

(٥) كثرت المساجد في عدن. وكان أولها وأهمها المسجد الجامع (الذي بقيت منارته من أهم معالم عدن التاريخية إلى اليوم). وقد بناه معاذ بن جبل وأبو موسى الأشعري. وخطب على منبره الإمام عليّ. وقد دخله عدد كبير من الصحابة وعلّموا الناس دينهم.

وقد ذكرنا تاريخ الجامع ومن جدده في فصل (معالم مساجد عدن وأعلامها). فلا حاجة لإعادته.

مسجد أبان بن عفان(١):

ينسب هذا المسجد لأبان بن عفّان ﷺ. وقد كان أبان من التابعين ومن العلماء ومن فقهاء المدينة المنورة. ودخل عدن وأقام فيها فترة يعلّم الناس شؤون دينهم (وأنكر بعض المؤرخين دخوله عدن، ولكن يشهد له أن ابنه الحكم بن أبان كان يعرف بالعدني وولد في عدن). ورجع إلى المدينة المنورة وتولى أمر المدينة، فكان من خيرة أمراء بني أمية، ولا شك أن عمر بن عبد العزيز كان أكثر فضلاً وعدلاً وتقوى منه. وقد كانت فيه دعابة، وأحبّه أهل المدينة لحُسن خلقه، ودينه، وعلمه، وتقواه. وقد سمع من أبيه عثمان ﷺ وروى عنه، وسمع من زيد بن ثابت وحدَّث عنه. وقد روى عنه عمرو بن دينار والزهري وأبو الزناد وجماعة. ولا شك أنه كان من علماء التابعين.

وأصابه الفالج، وكان يُؤتى به إلى المسجد النبوي لحضور الصلوات في محفّة. وهو أول من كتب كتاباً في السيرة النبوية. وقدَّم كتابه إلى الخليفة سليمان ابن عبد الملك عندما قدم للحج سنة ٨٢هـ، فأضاعه سليمان، فضاع بذلك أول كتاب في السيرة النبوية لأن المصنف لم تكن لديه نسخة أخرى.

---

(١) انظر مساجد عدن في الجزء الأول من هذا الكتاب، ففيه تفصيل كامل عنها.

من علماء عدن

الحكم بن أبان: كان من علماء وصلحاء تابعي التابعين. أخذ عن أبيه أبان وأدرك ابن طاووس في الجَنَد فأخذ عنه عن أبيه عن عبدالله بن عباس، وعُيِّن قاضياً لعدن فاشتهر بالعدل والاستقامة والكرم.

ولست أدري إن كان هو الذي بنى مسجد أبان أم أن والده هو الذي بناه، لأن ما لديّ من المصادر لم توضح ذلك.

وكان من شيوخ الحكم أبو عيسى، أخذ عن طاووس وعكرمة ووهب بن منبه وسالم بن عبد الله وجماعة.

وأخذ عنه ابنه إبراهيم، ومعمّر، ومعتمر بن سليمان، وابن عُيينة، وابن عُلَيَّة، وطائفة. وهل أتى هؤلاء إلى عدن للأخذ عنه أم أنه التقى بهم في مكة والمدينة وغيرها؟ الظاهر أن الرحلة كانت إليه إلى عدن. وكان كثير من أهل العلم يسافرون لسماع حديث ولطلب العلم من أهله. وقد قال المديني عن سفيان بن عُيينة: أتيتُ عدنَ، فلم أر مثل الحكم بن أبان. ومات الحكم سنة ١٥٤هـ. وقد وثّق أهل الحديث الحكم بن أبان ومنهم يحيى بن معين والنسائي.

وكان الحكم إذا هدأت العيون وقف في البحر إلى ركبتيه (في صيرة) يذكر الله تعالى حتى يصبح.

وكان المكثر بن أبان أيضاً من أهل العلم، وإن لم يبلغ مقام أخيه الحكم بن أبان. وأما إبراهيم بن الحكم بن أبان فقد سافر إليه الإمام أحمد ليأخذ عنه، ولم يجده كما سمع، وقال للمكثر (عم إبراهيم): «في سبيل الله الدريهمات التي أنفقناها في قصد ابن أخيك».

وهكذا نجد كثيراً من أعلام العلماء قد قصدوا عدن للأخذ من علمائها

ومن علماء صنعاء والجَنَد، ومنهم مُعمَّر، ومعتمر بن سليمان، وسفيان بن عيينة، وابن عُليّة. ومنهم إمام أهل الحديث الإمام أحمد بن حنبل: جاء إلى صنعاء ليسمع من عبد الرزاق ونزَل إلى عدن ليسمع من إبراهيم بن الحكم بن أبان، فلم يجده كما ظن، ولم يكن كأبيه في العلم.

والخلاصة أن عدن قد ظهرت في العهد الأموي بجانب جديد لم تكن تعرف به، وهو جانب العلماء، فكان العلماء يأتون إليها ليأخذوا عن علمائها. وكان علماؤها يذهبون إلى مراكز العلم في مكة والمدينة والكوفة والبصرة والشام ومصر، وفي اليمن وفي صنعاء والجَنَد.. وكانت الرحلات العلمية متبادلة، وبضاعة العلم نافقة.

وانتشرت المساجد وبعدها المدارس في عدن، وفي اليمن بأكملها، كما انتشرت في أصقاع العالم الإسلامي. وكان المسجد هو المدرسة والجامعة وهو مأوى المسلمين ومقصدهم، وفيه تُحَلُّ مشاكلهم الدينية والدنيوية.

وكان من أشهر مساجد عدن: المسجد الجامع ومسجد أبان. ثم بعد ذلك المساجد والمدارس، وقد ذكرنا منها عدداً لا بأس به مع تأريخ بعض علمائها في فصل معالم (مساجد) في الجزء الأول من هذا الكتاب، عدن وأعلامها، فلا حاجة لإعادته.

أهمية عدن التجارية

استمرّت مكانة عدن التجارية في النمو في العهد الأموي، واشتهرت بأنها فرضة اليمن، بل فرضة بلاد العرب. وكان يُصدّر منها أفخر أنواع الطيب، وهو الغالية (لغلوّ ثمنه). وقال المرزوقي - كما ينقله عنه حسن صالح شهاب[1] -:

(١) المرزوقي: الأزمنة والأمكنة، ج ٢/ ١٦٣، كما ينقله عنه حسن صالح شهاب في كتابه «عدن فرضة اليمن» (ص ٧٩، ٨٠).

«إن تجّار البحر لترجع بالطيب المعمول (بعدن)، وتفخر به في السند والهند، وترتحل به تجّار البرّ إلى فارس والروم. والناس على ذلك إلى اليوم (أي إلى زمنه). ما يُحسن عمله إلا أهل الإسلام بعدن».

واشتهرت عدن ببرودها الموشاة وأرياطها. والرياط هو ملاءة كلها نسيج واحد، وتطلق أيضاً على كل ثوب ليّن رقيق. وكان بعدن أيضاً مغاوص اللؤلؤ، وهي على بعد مرحلة منها إلى الغرب، صوب باب المندب[١].

واستمر تصدير الكندر (اللبان) والصمغ والصبر وشجرة دم الأخوين حيث تأتي من سقطرى وحضرموت وعمان وتصدّر من عدن إلى أطراف الدنيا.

(١) المصدر السابق.

اليمن وعدن في العهد العباسي
(١٣٢ – ٢٠٣هـ)

انتهت دولة بين أمية بمقتل مروان بن محمد في بوصير في مصر، واستتب الأمر لبني العباس. وقد بايع الناس **أبا العباس عبد الله بن محمد بن علي بن عبد الله بن عباس الملقب بالسفاح**، الذي أثخن القتل في بني أمية وأنصارهم.

واستعمل السفاح على اليمن عمه داود بن علي، فاستناب داود على أعمال اليمن عمر بن عبد الحميد حفيد زيد بن الخطاب، وهو الذي بوّب جامع صنعاء. ولما مات داود بن علي العباس استعمل السفاح محمد بن زيد بن عبد المدان الحارثي وساءت سيرته باليمن، فاستبدله السفاح بعبد الله بن مالك الحارثي ثم علي بن الربيع بن عبد الله بن عبد المدان، فمكث في منصبه أربع سنين، زاد خلالها في عمارة جامع صنعاء.

وفي سنة ١٣٦هـ توفي أبو العباس السفاح وتولى بعده الخلافة أبو جعفر المنصور واستعمل عبد الله بن الربيع الحارثي على اليمن ثم استخلف عبد الله ولده على اليمن وعاد إلى بغداد. **وفي سنة ١٤٠هـ جهز المنصور العباسي جيشاً بقيادة معن بن زائدة الشيباني الشهير**. وكان معن من آخر رجالات الدولة الأموية، فلما زالت دولتها انتقل إلى صف الدولة الجديدة حتى صار من رجالات المنصور العباسي. واشتهر معن بالكرم وبالشجاعة وبالشدّة.

وعند بناء الدول الجديدة يكثر المعارضون لها، فتستخدم الشِدَّة حتى تُخضع الثائرين والمناوئين والطامعين. **وقد قَدِمَ معن بن زائدة إلى اليمن وحضرموت في**

أربعين ألف جندي كما قيل. وأخضع معن اليمن وجعل على حضرموت أخاه، فاشتهر بفسقه وظلمه في تريم، فقتله أهلها. آنذاك جُنَّ جنون معن وكرَّ بجيوشه على حضرموت فاستباحها وقتل منهم خمسة عشر ألف نسمة، وخرّب بلادهم فسدَّ مياه العيون وبعض الآبار، وقطع كثيراً من أشجارهم. وأمرهم بلبس السواد. فشكاه أهل حضرموت إلى المنصور، ولكن المنصور لم يسمع لشكاتهم لأن معن كان من رجال دولته ومؤسسيها.

وبعد أن شفى معن غليله من الحضارمة استخلف ابنه زائدة على اليمن، وبقي فيها زائدة ثلاث سنوات ثم تتالى الولاة من الدولة العباسية.

الانتقام من معن بن زائدة الشيباني سنة ١٥١هـ

أوتر معن الحضارم بقتل خمسة عشر ألف نفس منهم، فقام محمد بن عمرو ابن عبد الله من بني الحارث بحضرموت بالانتقام لأن معن قتل والده عمرو بن عبد الله، وكان أحد الأمراء الذين قاوموه. فتربى محمد بن عمرو وإخوته أيتاماً. وقرّر محمد الانتقام لوالده ولمن قتلهم معن من أبناء حضرموت، فذهب إلى مكة للحج، ولم يستطع الوصول إلى معن لشدة الحراسة عليه، فذهب إلى سجستان، واشتغل عاملاً في بناء قصر لمعن، حتى أمكنته الفرصة بزيارة معن للقصر بعدما تمت عمارته. وقطَّ محمد بن عمرو بطن معن بسكين مسموم وهو يقضي حاجته، وفرَّ وأخوه الذي أخذه معه حتى وصلا إلى اليمن. وفرح بعودته أهل حضرموت ووضعوا التاج على رأسه. وقال الشاعر:

فلـو أن أم الحـضرمي تلفّعـت بثوبين في جُنح من الليـل دامـسِ
لغالتك إن شاءت كما غالك ابنها وقد يَقتلُ المغرور أضعفَ لامسِ

ولما توفي المنصور تولى الخلافة ابنه المهدي، وكان المنصور قد ولّى يزيد بن منصور الحارثي، خال المهدي، ولاية اليمن بأكملها، فأقرّه المهدي، ثم استقدمه

إلى مكة ليحجَّ بالناس، فاستخلف على اليمن عبد الخالق بن محمد الشيباني. ثمّ تولّى رجاء بن حيوة الجذامي، ثم علي بن سليمان العباسي، ثم عبد الله بن سليمان العباسي. وكانت الولايات قصيرة فكثر الولاة، ثم تولّى عبد الله بن سليمان النوفلي، وكان من علماء الحديث والخبر، يروي الحديث عن الزهري، وأحبّه الناس لعدله وعلمه.

وتوفي المهدي سنة ١٦٩هـ فتولى الخلافة ابنه موسى الهادي الذي استعمل على اليمن عبد الله بن محمد بن إبراهيم العباسي فأقام بها سنة، ثم بعث الهادي بدلاً عنه الربيع بن عبد الله الحارثي، ولكن أهل صنعاء ثاروا عليه فأرسل الهادي إبراهيم بن سليمان الباهلي.

ولما مات الهادي سنة ١٧٠هـ تولى بعده هارون الرشيد فاستعمل على اليمن خاله الغطريف. وكانت الفتنة قائمة على قدم وساق بين أهل صنعاء ومخلاف الجَنَد، فأصلح بينهم الغطريف، ومكث في الجَنَد ثلاث سنوات وسبعة أشهر، وكانت عدن تابعة للجَنَد.

وقد كثرت ثورات الطالبيين في أيام العباسيين ابتداء من ثورة النفس الزكيّة محمد بن الحسن في المدينة التي أيدها الإمام مالك بن أنس في عهد المنصور إلى ثورة ابن طباطبا في العراق وإبراهيم بن موسى بن جعفر الصادق في اليمن في نهاية القرن الثاني الهجري. واتُّهم الإمام الشافعي بتأييد ثورة الطالبيين في اليمن فسيق مكبلاً إلى هارون الرشيد ببغداد، وأراد أن يبطش به، فتشفّع له محمد بن الحسن تلميذ الإمام أبي حنيفة، فعفا عنه.

وجعل الرشيد اليمن والحجاز تحت ولاية محمد بن إبراهيم الهاشمي، فبقي في الحجاز، وبعث إلى اليمن ابنه العباس، ولكن الناس شكوه، فعزله الرشيد وولّى عبد الله بن مصعب بن عبد الله بن الزبير. وتوالى الأمراء على اليمن حتى أرسل هارون الرشيد **الأمير محمد بن خالد بن برمك (صنو الوزير يحيى بن**

خالد البرمكي) والياً على اليمن، فكان من خيرة الولاة، وحمد الناس سيرته وعدله وأخلاقه، وقد أجرى ماءً إلى جنوب صنعاء اشتهر بغيل البرمكي، فزادت ثمار صنعاء وجنانها.

ورغم مدع الرعيّة لمحمد بن خالد البرمكي إلا أن أهل تهامة ثاروا، فأرسل الرشيد حمّاد البربري وقال له: أسمعني أصوات أهل اليمن. فاشتدَّ عليهم حمّاد البربري ودانوا له بالطاعة حتى أن القافلة كانت تسير من اليمامة (الرياض حالياً) إلى صنعاء دون أن يعترضها معترض. وأخصبت أرض اليمن خصباً لم يعهد مثله. واستقرَّت الأمور في اليمن في عهده. وقد بلغ الخراج ٨٧٠,٠٠٠ دينار سوى الثياب والأطياب.

وفي سنة ١٩٣هـ مات هارون الرشيد بطوس، وتولى محمد الأمين فأبقى على حماد البربري والياً على اليمن. ولما قُتل الأمين على يد طاهر بن الحسين، قائد جيوش المأمون استعمل المأمون يزيد بن جرير حفيد خالد القسري (أحد أشهر ولاة بني أمية) ولكنه كان ضعيفاً فعزله المأمون، وحلَّ محلَّه إسحاق بن موسى العباسي سنة ١٩٨هـ فأقام باليمن مدة، ثم استخلف ابن عمه القاسم بن إسماعيل العباسي.

وظهر باليمن إبراهيم بن موسى الكاظم بن جعفر الصادق وعظم أمره، ودخل صعدة، وكان يدعو لمحمد بن إبراهيم بن طباطبا بالكوفة الذي أظهر دعوته سنة ١٩٧هـ . وكثر الثوار على الدولة العباسية فقام المأمون بإخضاع هذه الثورات كلها. وبعث المأمون أخيراً محمد بن عبيد الله بن زياد إلى تهامة ليخضعها فأخضعها وأسس دولة بني زياد في اليمن وجعل عاصمتها زبيد التي خطّط لها وبناها. وكانت بداية ولايته وحكمه سنة ٢٠٣هـ واستمرت في أولاده حتى عام ٣٩١هـ ثم استمرت على يد الحسين بن سلامة مولى آل زياد وخيرة ولاتهم حتى سنة ٤٠٢هـ .

وفي فترة حكم آل زياد على تهامة وعدن وحضرموت قامت عدة دول أخرى منها دولة بني يعفر الحوالي الحميري. فقد بعث الخليفة المعتصم بن هارون الرشيد عبد الرحيم بن إبراهيم الحوالي، عاملاً على اليمن سنة ٢٢٥هـ. وفي سنة ٢٤٧هـ تولى حكم اليمن من قِبل الخليفة المنتصر بن المتوكل محمد بن يعفر بن عبد الرحيم الحوالي. وفي نفس الوقت كانت دولة بني زياد مستمرة في تهامة اليمن وعاصمتها زبيد وتحت حكمها عدن. ويمتد حكمها إلى حضرموت.

وكانت الدولة الزيادية مستقلّة عن الحكم العباسي، رغم إقرارهم بالدعاء للخليفة وإرسال بعض الأموال إلى الخليفة من حين لآخر.

وهكذا كان في اليمن أكثر من دولة في وقت واحد. **واستمر محمد بن يعفر ابن عبد الرحيم الحوالي يحكم صنعاء، وجدّد بناء جامعها الذي تهدَّم من جراء السيول سنة ٢٦٥هـ. وبعد أن أتم إعادة البناء والإصلاح أوقف عليه أملاكاً وأموالاً بمحل شاهرة غربي مدينة صنعاء.**

وقام محمد بن يعفر بقتل أبيه وعمه، فلامه على ذلك الدعّام بن إبراهيم شيخ همدان وأرحب، وكان صديقاً له، فلطمه محمد بن يعفر، وحاول أن يسترضيه. فكتمها الدعّام حتى خرج، فثار وثارت قبائله وقبيلة حاشد فانتهى حكم محمد ابن يعفر الحوالي، وتولى الدعّام بن إبراهيم ملك اليمن من صنعاء إلى ساحل عدن. ولكن الخليفة في بغداد أرسل الأمير جفتم بن الحسن نصرة لآل يعفر الحوالي الحميري. وبقي جفتم عاملاً على اليمن (في صنعاء) أيام الخليفتين الموفق والمعتمد. ثم كان في أيام المعتضد يتردّد بين صنعاء وبغداد.

وفي سنة ٢٨٠هـ خرج الإمام الهادي يحيى بن الحسين بن القاسم الحسني الرسّي إلى اليمن من الحجاز بعد أن طلبه جماعة من أهل اليمن وساروا إليه، ثم عاد إلى الحجاز، فعاد إليه أهل اليمن وبايعوه سنة **٢٨٤ فخرج إليهم، وملك صعدة وأعمالها، ونجران، ومشارق جبل برَط بعد حروب طويلة**. وقد استدعاه **أمير صنعاء أبو العتاهية بن الرويّة (وكان بنو الرَّويّة من أمراء صنعاء) ليجعله**

ملكاً على صنعاء، فذهب وتملكها في شهر محرم ٢٨٦، وعاد إلى مقرّه في صعدة.

وكأنَّ ذلك كله لم يكن كافياً فقامت الدعوة الإسماعيلية على قدم وساق حتى ظهر علي بن الفضل القرمطي الحميري الخنفري. فكان في اليمن عدد من الدول في وقت واحد أهمها:

(١) الدولة الزيادية.

(٢) الدولة الهادوية القاسمية الزيدية.

(٣) دولة الإسماعيلية، ولها عدة دول متتالية. وكان علي بن الفضل الخنفري[1] الحميري القرمطي أشدَّهم بلاء على الإسلام وأهله، وأكثرهم سفكاً للدماء. وسيأتي الحديث عنه بشيء من التفصيل.

ولم تخضع اليمن منذ ذلك الحين لدولة واحدة إلا عند قيام الوحدة عام ١٩٩٤م/ ١٤١٥هـ. والواقع أن الدول في اليمن كانت متعدّدة حتى في أزهى عصورها، فقد كانت هناك الدولة السبئية الباذخة والتي سيطرت على اليمن بأكملها في فترات متعددة، لكنها تعايشت فترات أخرى طويلة مع دولة قتبان، ومعين، ودولة حضرموت، ودولة أوسان. وقد تتعاون عدة دول للقضاء على دولة من هذه المجموعة كما حدث لتحالف سبأ وحضرموت وقتبان للقضاء على دولة أوسان في القرن السابع قبل الميلاد على يد الملك السبئي كرب إيل وتر.

وفي العهدين النبوي والراشدي كانت اليمن تخضع للعديد من الولاة الذين أرسلهم النبي ﷺ، ثم كان عدد الولاة ثلاثة في عهد الخلفاء الراشدين (صنعاء، والجَنَد وحضرموت). وكانت عدن تابعة للجَنَد. ثم جعل خلفاء بني أمية أمر اليمن كلها لعامل واحد. واستمر ذلك في بداية العهد العباسي. وعاد حكم اليمن لمجموعة من الدول والحكومات شبه المستقلّة، أو المستقلة عن الدولة العباسية، كما سيأتي.

(١) خنفر هو الاسم القديم لمدينة جعار في أبين، وهو أيضاً اسم جبل فيها.

الدولة الزيادية

(٢٠٣ – ٤٠٧هـ)

يعتبر حكم المأمون العباسي بداية الحكومات الفيدرالية أو الكونفدرالية التي تحكم حكماً مستقلًّا، ولكنها تدين بالولاء للخليفة في بغداد، فتكون له الدعوة يوم الجمعة، وترسل له بعض الأموال، ويُمدُّ بالجُند إذا احتاج لذلك. ثم انفرط العقد بعد ذلك.

وقد تولّى محمد بن عبد الله بن زياد أمر اليمن عندما أرسله المأمون، فأخضع القبائل الثائرة، ثم جعل عاصمته زبيد، وهو الذي بناها وحوّلها من قرية صغيرة إلى مدينة كبيرة، وذلك سنة ٢٠٣هـ. واستمر في الحكم حتى وفاته سنة ٢٤٥هـ مع وجود كثير من القلاقل والثورات والفتن. ولكن لطول مدته، وطَّد الحكم لآل زياد وأقام دولة مستقلة تدين للخلافة العباسية بالولاء الاسمي والشكلي فقط.

وقد أورد المؤرخ والمحدّث عبد الرحمن الديبع في كتابه «قرّة العيون بأخبار اليمن الميمون»[1] أن مخابرات المأمون أتت له بنفر من بني أميّة، فاستنسبهم، فانتسب أحدهم إلى يزيد بن معاوية بن أبي سفيان والثاني لهشام بن عبدالملك، فأمر المأمون بقتلهما. فقال محمد بن عبيد الله بن زياد المنتسب إلى يزيد (في رواية

---

(١) عبد الرحمن بن علي الديبع: «قرّة العيون بأخبار اليمن الميمون» تحقيق وتعليق محمد ابن علي الأكوع، مكتبة الإرشاد – صنعاء، ص ٢٧٣.

الخزرجي والديبع، وإلى زياد بن أبيه في رواية عمارة اليمني[1]: «والله يا أمير المؤمنين: ما نزعنا يداً من طاعة، فإن أردت قتلنا بجناية بني أميّة فالله يقول: ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾. فاستحسن المأمون كلامه وعفا عنه، وجعلهم تحت وزيره الحسن بن سهل فأثنى عليهم. وورد إلى المأمون حدوث القلاقل والثورات باليمن فأشار الحسن بن سهل بأن يسير محمد عبيد الله بن زياد أميراً، والمرواني الذي انتسب إلى هشام بن عبد الملك وزيراً، ومحمد بن هارون التغلبي قاضياً ومفتياً، فخرجوا فحجّ ابن زياد سنة ٢٠٣هـ وسار إلى اليمن فافتتح ابن زياد تهامة بعد حروب شديدة ثم اختطَّ زبيد (وهي مدينة صغيرة قديمة موجودة منذ الجاهلية ومنها الأشاعرة قوم أبي موسى الأشعري) في شعبان سنة ٢٠٤هـ (وهي السنة التي توفي فيها الإمام الشافعي).

يقول الديبع: «وزبيد مدورة الشكل، عجيبة الوضع، على النصف فيما بين البحر والجبل، ومن جنوبيّها الوادي المبارك المسمّى زبيد الذي دعا رسول الله ﷺ فيه بالبركة، فليس في اليمن واد أبرك منه. ومن شماليّها وادي رمع، وقد دعا فيه الرسول ﷺ أيضاً بالبركة فهي مدينة مباركة بين واديين مباركين. ومن شرقيّها الجبال الشامخة، والحصون الباذخة والمعاقل المنيعة والمساكن الرفيعة. ومن غربيّها البحر الزاخر، والسفن المواخر، والنخيل الباسقة، والحدائق الفائقة فجعلها ابن زياد دار ملكه».

وكان لابن زياد مولى يسمى جعفراً، اشتهر بالشجاعة والكفاءة وحسن الإدارة، فأرسله محمد بن عبيد الله بن زياد مع الأموال الضخمة والهدايا الجميلة

---

(١) عمارة بن علي بن زيدان الحكمي المذحجي: المفيد في أخبار صنعاء وزبيد. وفيه أنه من ولد عبيد الله بن زياد بن أبيه، وأبوه هو أبو سفيان من زناه بالجارية سميّة قبل الإسلام، فألحقه معاوية. ودعاه أخاه معاوية ليناصره، فكان من رجال دولته، بعد أن كان مع الإمام عليّ كرم الله وجهه.

إلى المأمون بعد أن يقضي حجته. فوصل إلى المأمون في العراق، وسُرَّ المأمون بذلك، وسيّره إلى اليمن (إلى ابن زياد) في السنة التالية وصُحبته ألف فارس، فملك ابن زياد حضرموت بأسرها، والشحر، وعدن، والتهائم إلى حلي، ومن الجبل الجَنَدَ وأعماله، ومخلاف جعفر، والمعافر وصنعاء وأعمالها (وهذا مخالف لما ورد في مصادر أخرى عديدة أن صنعاء ظلّت تحت عُمّالٍ آخرين ترسلهم دار الخلافة) ونجران والحجاز بأسره (وقالت المصادر الأخرى أنه لم يتولى الحجاز، بل حلي، وهي في تهامة السعودية اليوم).

ولم يزل يحمل الأموال والهدايا النفيسة لبني العباس، وهو مالك لليمن بأسره (وهذه نقطة فيها خلاف أوضحه محمد بن علي الأكوع محقق كتاب الديبع في تعليقاته) وبقي على ذلك حتى وفاته سنة ٢٤٥هـ.

وعند وفاة محمد بن عبد الله بن زياد سنة ٢٤٥هـ تولى ابنه إبراهيم الحكم وحكم لمدة ٤٤ سنة[١] فوطد الملك كما فعل أبوه، واستمرّ في إرسال الأموال والهدايا لبني العباس، والدعاء للخليفة على المنابر.

وملك بعد ولده زياد بن إبراهيم فلم تطل مدته. وأغلب المؤرخين على أنه لم يحكم سوى سنتين فقط، وكانت وفاته سنة ٢٩١هـ فتولى بعده أخوه أبو الجيش إسحاق بن إبراهيم. ودام ملكه ثمانين سنة وكانت وفاته سنة ٣٧١هـ. وهي مدة طويلة جداً. وقد بلغ من العُمر عِتيّا فتشعّبت عليه أطراف البلاد، كما يقول ابن الديبع، وتغلّب عليه كثير ممن كان تحت طاعته، منهم صاحب صنعاء أسعد بن أبي يعفر الحوالي، إلا أنه كان يخطب له، ويضرب الدرهم على اسمه، ولا يحمل إليه هدية، ولا ضريبة وكان يبلغ ارتفاع (دخل) ابن يعفر في السنة أربعمائة ألف دينار.

---

(١) قال ابن الديبع في قرّة العين أنه حكم ٣٨ سنة وهي مدة طويلة تجعل الحكم مستقرًّا.

وثار بصعدة الإمام الهادي يحيى بن الحسين الرسي، وتغلّب عليها. وتغلّب على أبي الجيش سليمان بن طرف، وبلاده من الشرجة (قريب من حرض) إلى حلي، وكان يضرب السكة (النقود) ويخطب لابن زياد. وبقي لابن زياد، من عدن إلى شرجة ، ومن غلافقة إلى أعمال صنعاء.

وقال عمارة في «المفيد في أخبار صنعاء وزبيد»: رأيت مبلغ إرتفاع (دخل) أعمال بن زياد بعد تقاصرها في سنة ٣٦٦هـ من الدنانير ألف ألف دينار، خارجاً عن الأعواد، والمسك، والعنبر، واللؤلؤ». وهو مبلغ كبير جدًّا في ذلك الزمان. وخلف أبو الجيوش طفلاً اسمه زياد وقيل عبد الله وكفلته أخته، وعبد اسمه رشيد، ولكن الوفاة عاجلت رشيد هذا فتولى الكفالة عبد لِرشيد هو الحسين بن سلامة. وكان حازماً عفيفاً شهماً فأحسن الكفالة وأعاد الدولة الزيادية إلى سابق مجدها، بل كانت له من المبرات أكثر منهم حتى شبّهوه بعمر بن عبد العزيز.

القرامطة: ظهر القرامطة في أيام أبي الجيش. واستولوا على صنعاء سنة ٢٩٣هـ ، وكان على رأسهم الفاجر **علي بن الفضل الخنفري** بعد أن استولى على سرو يافع حيث تظاهر بالزهد والدين ثم انقلب على عقبه.. ولما تمكّن ترك الخليفة الفاطمي عبيد الله المهدي الذي كان يدعو باسمه. وأعلن كفره وفجوره وادّعى النبوّة. وكان المؤذن يؤذن في مجلسه: «أشهد أن علي بن الفضل رسول الله، وأباح الخمر والزنا ونكاح البنات وسائر المحرمات. وأنشد أبياته المشهورة على منبر صنعاء (وقيل هي قصيدة لأحد شعرائه):

خذي الدُّفَّ يا هـذه واضربي ... وغنّـي هزاريـك ثـم اطـربي
تـولّى نبـيٌّ بـين هاشـمٍ ... وهـذا نبـيٌّ بنـي يعـربِ
لكـل نبـيٍّ مـضى شرعـةً ... وهـاتي شريعـة هـذا النبـيّ
فقد حطَّ عنا فروض الصلاة ... وحـطّ الـصيام فلـم نتعـبِ
إذا الناس صلّوا فـلا تنهـضي ... وإن أمـسكوا فكـلي واشربي

ولا تطلبي السعي عند الصفا ولا زورة القـــبر في يثـــربِ
ولا تمنعي نفسك المعرسين مـــن الأقـــربين أو الأجنبـــي
فلماذا حللت لهذا الغريب وصرت محرَّمــــة لـــــلأبِ
ألـيس الغـراس لمـن ربَّـهُ وسـقاه في الـزمن المجـدبِ
ومـا الخمـر إلا كـماء السماء حـلالاً فُقدِّسـتَ مـن مـذهبِ

وكان الأئمة الزيود قد بدأوا بإقامة دولتهم في صعدة، فقام الأئمة بمحاربته، كما قام زميله الداعي الإسماعيلي الفاطمي منصور بن حسن بمحاربته في نهاية المطاف بعد أن تحالفا طويلاً، وحاربته الدولة الزيادية أيضاً.

ولما عظم أمر القرامطة واستحكم له أمر اليمن وقتل النساء والأطفال واستباح كل محرّم خلع بيعة المهدي الفاطمي. **وكان علي بن الفضل إذا كتب لأحد جواباً بدأه هكذا: «من باسط الأرض وداحيها، ومزلزل الجبال ومرسيها علي بن الفضل إلى عبده فلان».** وهكذا انطلق هذا الدجّال الأفّاق من التظاهر بالدين والزهد إلى إعلان الثورة باسم المهدي عبيد الله، ثم ادعى النبوّة، ثم ادعى الألوهية، عليه لعائن الله.

واستطاع طبيب جراح شريف حسني قدم من بغداد أن يتسلَّل إلى الطاغية علي بن الفضل حتى وثق فيه، فحجمه وجعل دهناً فيه السم في أطراف شعره فلما مصَّ المبضع مسحه بأطراف شعره فسمَّ الطاغية، ثم هرب.

ولم يجد حيلة أخرى لشدة حرص علي بن الفضل وخوفه من السم وحرص رجاله على حراسته. فمات ابن الفضل، ولحق أتباع ابن الفضل بالطبيب فقاتلهم حتى قتل في منطقة السحول. فضعف أمر أصحابه من بعده وقتلهم أسعد بن يعفر الحوالي.. وكان قَتْلُ ابن الفضل سنة ٣٠٣هـ وخلصت بذلك البلاد والعباد من شرّه.

وتحولت اليمن في أثناء حكم الزياديين إلى مناطق متعددة ظهر فيهم الأئمة الزيدية في صعدة. والثورات في مناطق متعددة. وبقيت التهائم وعدن تحت حكم آل زياد حتى نهاية دولتهم سنة ٤١٢هـ.

وكانت في اليمن منذ القرن الثالث العديد من الفرق الإسلامية وهي:

(١) **أهل السّنّة**: ومنهم الحنابلة حيث أن الإمام أحمد بن حنبل وصل إلى صنعاء ثم إلى عدن. وتأثر به بعض علماء أهل السنة ونشروا مذهبه. كما أن مذهب الإمام الشافعي كان قد انتشر لأنه دخل اليمن وتأثر به أهل اليمن ونشروا مذهبه. وكان في تهامة أيضاً المذهب الحنفي.

(٢) **الزيدية**: وهم أتباع الإمام زيد بن علي بن الحسين الذي ثار ضد هشام بن عبد الملك، وغَرَّه أهل العراق كما غرّوا جده من قبل، ووعدوه بالنصرة، فلما جاءت جحافل الأمويين فرّوا منه وتعللوا بأنه لا يسب الشيخين أبا بكر وعمر رضي الله عنهما، وقال لهم: اذهبوا فأنتم الرافضة. ثم إن الزيدية بعد أن أوجدوا دولة في الديلم (في إيران) بقيادة الحسن الأطروش أوجدوا دولة في صعدة، واختلفوا إلى فرق أهمها (أ) **المخترعة** وهم أتباع الإمامين أحمد بن سليمان وعبد الله بن حمزة ويرون أن الإمامة تكون في البطنين فقط (أي أولاد الحسن والحسين).. وما عدا ذلك فهم لا يسبّون الشيخين أبا بكر وعمر وينهون عن ذلك. وعقائدهم معتزلة. (ب) **المطرفيّة**: وفيها تطرّف وتأويل واعتماد على فلسفة أرسطو وأن الله سبحانه وتعالى لم يخلق الكون من العدم بل من العناصر الأربعة... إلخ. وتم القضاء عليهم. (ج) **الحسينية** وهم القائلون بمهدية الحسين العياني الذي ادعى أن كلامه أفضل من كلام الرسول وقد تمّ القضاء عليه.

(٣) **القرامطة**: وقد تقدم الحديث عن علي بن الفضل الممثل لهم. وهم وإن كانوا في الأصل من الإسماعيلية إلا أنهم تطرفوا كثيراً وفاقوهم بهتاناً. بل

إن إمام الإسماعيلة الفاطمي حاربهم. وقد استطاع الفاطميون أن يعيدوا الحجر الأسود بعد أن قلعه القرامطة إلى هجر في الأحساء (التي كانت تسمى البحرين).. ولم تستطع الخلافة العباسية أن تقضي عليهم، ولكن الخليفة الفاطمي قضى عليهم. وذلك أنهم أقاموا الدعوة وكسبوا الأنصار باسمه في الشام والعراق واليمن والبحرين (الإحساء)، ثم أخذوا الأمر لأنفسهم بعد ما عرفوا حقيقة دعوته. وزادوا عليه في إعلان كفرهم وفي ذبحهم للمسلمين. وقد حاربهم في اليمن الزيدية والدولة الزيادية وجميع أهل اليمن حتى قضوا عليهم.

الدعوة الإسماعيلية في عدن واليمن

وكان منصور بن حسن صاحب علي بن الفضل، وأمره بالامتثال والدعوة إلى عبيد الله المهدي العبيدي (الفاطمي). ولكن علي بن الفضل استقلّ بالأمر ودعا لنفسه فاختلفا. وتوجه منصور بن الحسن إلى لاعة (في حجة) إلى أن توفي سنة ٣٠٢م. وعند حضوره الوفاة أوصى بالأمر إلى ابنه الحسن بن منصور وإلى عبد الله الشاوري، وأمرهما باتباع أوامر المهدي الفاطمي. فاستطاع الشاوري أن يفوز بتعيين المهدي عبيد الله كداعية في اليمن. فغضب الحسن بن منصور لذلك وقتل الشاوري، فلما تم له الأمر جمع الرعايا وأشهدهم على نفسه أنه قد خرج من مذهب القرامطة إلى مذهب أهل السنّة فأحبّه الناس.. واشتد الأمر على القرامطة بعد ذلك وضعف أمرهم، وعادوا إلى السرية، وكان رؤساءهم مختفون وكان داعيتهم سليمان بن عبد الله الزواحي الحميري، وذلك في أيام الحاكم بأمر الله والخليفة الظاهر وفي أول أيام المستنصر.

واستطاع سليمان الزواحي أن يغري شاباً صغيراً من همدان فجعله نائباً له وجعل له الأمر بعده وهو علي بن محمد الصليحي الذي أقام الدولة الصليحية. وكان والد علي بن محمد عالماً فقيهاً سنيًّا شافعيًّا ولكن ابنه تأثر بالداعي سليمان وأخفى الأمر عن أبيه. وسيأتي الحديث مفصلاً عن الدولة الصليحية.

(٤) **الخوراج**: وهم المعروفون باسم الشراة أي الذين شروا أنفسهم أي باعوا أنفسهم لله. وقد قام طالب الحق عبد الله بن يحيى الكندي وهو من كندة حضرموت، وأقام دولة كبيرة امتدت من عمان إلى جميع اليمن ومنها إلى الحجاز. وانتهت دولته بتكالب الجيوش الأموية عليه في عهد آخر خلفاء بني أمية مروان ابن محمد الملقب بالحمار. ولكن بقيت في حضرموت والمهرة وسقطرى الدعوة الأباضية. وأما عُمان وصلالة فقد تولت زمامها إمامة من الأباضية واستمرت على ذلك إلى القرن العشرين الميلادي.

ولكن حضرموت تنازعتها القبائل والحكومات المختلفة وتقسمت إلى دويلات صغيرة متحاربة وبقي فيها المذهب السنِّي الشافعي مع بقايا من المذهب الأباضي. واختفى هذا المذهب تدريجيًّا بدخول الإمام أحمد بن عيسى المهاجر من ذرية الإمام علي العريضي. وقد دخل حضرموت في بداية القرن الرابع الهجري، واستطاعت ذريته أن توطد للمذهب السنِّي الشافعي مع علماء حضرموت من أهل السنّة. وبقيت على ذلك ونشرته في الآفاق وخاصة في أندونيسيا وماليزيا وشرق إفريقيا وفي صلالة (ظفار)، وأول من أدخل إليها مذهب أهل السنة الإمام محمد بن علي صاحب مرباط، وقبره موجود إلى اليوم، وهو جد آل بني علوي سادة حضرموت.

عدن في أيام دولة بني زياد

زار عدن الرحالة اليعقوبي، وهو مؤرخ وجغرافي، قام منتصف القرن الثالث الهجري برحلة إلى الهند ومصر وبلاد المغرب. وزار عدن في عهد الملك إبراهيم ابن محمد بن زياد، ووصفها في كتابه «كتاب البلدان» بأنها «فرضة صنعاء، تأتي السفن من الحبشة، ومنداه، وجدة، وسليهات والصين، وترسو هنا»[1].

---

(١) اليعقوبي: كتاب البلدان، ص ٣١٩. نقلاً عن حسن صالح شهاب: عدن فرضة اليمن، ص ٨٧.

وفي عهد أبي الجيش زارها **الرحالة محمد بن أحمد المقدسي** وذكرها في كتابه «**أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم**»(١)، وقد أقام في اليمن عاماً كاملاً. **ومما قاله في عدن:** «**عدن** بلد جليل عامر آهل، حصين، خفيف، دهليز الصين، وفرضة اليمن، وخزانة المغرب، ومعدن التجارات، كثير القصور، مبارك على من دخله، مثرٍ لمن سكنه(٢). مساجد حسان، ومعايش واسعة، وأخلاق طاهرة، ونِعَم ظاهرة. وبارك النبي ﷺ في سوق منى وعدن. وهو في شبه صيرة الغنم قد أحاط به جبل بما يدور إلى البحر، ودار خلف الجبل لسان من البحر، فلا يدخل إليه إلا أن يخاض ذلك اللسان فيصل إلى الجبل. وقد شُقَّ فيه طريق في الصخر عجيب، وجعل عليه باب حديد، ومدّوا من نحو البحر حائطاً، الجبل إلى الجبل، فيه خمسة أبواب. والجامع ناء عن الأسواق (وهو الذي بناه عمر بن عبد العزيز، وقيل غيره). ولهم آبار مالحة، وحياض عدة (هي الصهاريج، وهي قديمة موجودة في لحف جبل شمسان في الطويلة. وتمتلئ بالمياه العذبة من الأمطار فتكفي أهل عدن حتى موسم الأمطار الثاني). ويقال إنها كانت في القديم حبس شداد بن عاد. إلا أنها يابسة عابسة، لا زرع ولا ضرع، ولا شجر ولا ثمر، ولا ماء ولا كلأ. كثيرة الحريق والوكف (وهو العيب والفساد)، جامع شعت، وهرج وحش، وحمامات ردّية، يحمل إليهم الماء من مرحلة (هي نهاية وادي تبن في منطقة تعرف بإرم ذات العماد عند القدماء ويعرفها أهل عدن المعاصرون بالعماد).

أَبْين: هي أقدم من عدن، وإليها تنسب عدن لأن بُرَّهم وفواكهم وخضرهم منها لكثرة القرى والمزارع فيها».

---

(١) المقدسي: أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم، تحرير وتقديم شاكر لعيبي، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت ودار السويدي للنشر، أبو ظبي ٢٠٠٣، ص١٠٢.

(٢) أين عدن وأهل عدن اليوم من هذا الوصف بعد أن حطمها الشيوعيون ودار عليها الزمان، ونكبت بحكام من الشيوعيين أولاً ثم من المختلسين ثانياً.

وفي موضع آخر (ص ١١٠) يقول: «ولما ركبت بحر اليمن اتفق اجتماعي مع أبي علي الحافظ المروزي في الجَلَبة. فلما تأكدت المعرفة بيننا قال لي: قد شغلت والله قلبي. قلت: بماذا؟ قال: أراك رجلاً على طريق حسنة تحب الخير وأهله، وترغب في جمع العلوم. وقد قصدت بلاداً غرّت كثيراً من الناس وصدّتهم عن طريق الورع والقناعة. وأخشى إذا أنت دخلت عدن فسمعت أن رجلاً ذهب بألف درهم رجع بألف دينار (أي أكثر من عشرة أضعاف ما دخل به)، وآخر دخل بمائة فرجع بخمسمائة، وآخر بكندر (لبان) فرجع بمثله كافوراً، وطلبت نفسك التكاثر. قلت: أرجو أن يعصم الله.

فلما دخلتها وسمعت أكثر مما قال، غرَّني والله ما غرَّ القوم. وعملت على الذهاب إلى ناحية الزنج (شرق إفريقيا) وأتيت ما ينبغي أن يشترى، وتقدمت فيه إلى الوكلاء، فبرَّد الله عزّ اسمه ذلك على قلبي بموت شريك كنت عاقدته، وكسرت نفسي بذكر الموت وما بعده. واعلم، هُديت، أن مع كل ربح مما ذكرنا خطراً، والأرباح دائماً مع الأخطار، فلا ينبغي لعاقل أن يغترّ بذلك. وليعلم أن الله تعالى يُعطي عبده بركعتين، إذا أخلصهما أكثر من الدنيا بحذافيرها، وما يصنع بنعمةٍ، الموت من ورائها، وجمعٍ لأموال لا بدّ من تركها. ومن خصائص هذا الإقليم أديم (الجلد المبدوغ) زبيدٌ ونيلها (وهو مادة زرقاء) لا نظير له كأنه لازورد، وشروب عدن تفضل على القصب[1]، ومسدّ المهجرة يسمى ليفاً،

(١) فهمها شاكر لعيبي محرر كتاب رحلة المقدسي، أن الشروب نوع من الثياب والقصب هي الثياب المقصّبة أي الموشاة بالفضة أو غيرها. وفهمها حسن صالح شهاب صاحب كتاب عدن فرضة اليمن، بأن شروب هو شرب الماء وأنه شديد الحلاوة مثل قصب السكر، وعلل ذلك بأن ماء عدن ينقل إليها من العماد (نهاية وادي تبن) وماؤه شديد الحلاوة، أو من ماء المطر الذي يجمع في الصهاريج. مع أن المقدسي ذكر أن مياه آبارها مالحة وأنها قليلة الماء فيبدو أن فهم شاكر لعيبي أقرب إلى الصواب.

وبرود (أي ثياب) سحولاً.. وورس عدن وصبر أسقوطره (سقطرى) ومصين (تمر جيد) عُمان.

وفي موضع آخر قال المقدسي: «ومن أجل معايش عدن الواسعة والكسب الوفير تُشدُّ إليها الرحال». ونرى في وصف المقدسي بعض التناقض، فهو معجب بعدن، ومع هذا فهو خائف منها على دينه وقد مدحها تارة، وذمّها أخرى.

الحسن بن أحمد الهمداني مؤرخ اليمن، يصف عدن في كتابه صفة جزيرة العرب (وهو من أهل القرن الرابع الهجري) وكان معاصراً لأبي الجيش إسحاق ابن إبراهيم الذي حكم اليمن ثمانين عاماً (٢٩١ إلى ٣٧١هـ). وذكر الهمداني جغرافية عدن وطبيعتها وتجارتها، وقال: إنها جنوبية تهامية، وهي أقدم أسواق العرب، وهي ساحل يحيط به جبل لم يكن فيه طريق، فقطع في الجبل باب بزير الحديد، وصار لها طريقاً ودرباً، وبها بؤور (أي آبار) ملح (أي مالحة) وشروب (أي عذبة) وسكنها المربون (أي المرابون اليهود) والحماحميون والملاحيون. والمربون يقولون إنهم من ولد هارون (أي النبي هارون). ومن أهل عدن ابن مناذر الشاعر وابن أبي عمر المحدث». وعدّ الهمداني باب عدن من عجائب اليمن وأنه ليس له مثيل في الدنيا(١).

وقد بقيت عدن مركزاً تجاريًّا هامًّا رغم المنازعات الداخلية ورغم تحول جزء من التجارة إلى الخليج العربي وسيراف والبصرة في العصر العباسي.. ويرجع حسن صالح شهاب ذلك إلى أن الدولة الفاطمية التي سيطرت على أجزاء كبيرة من سوريا الكبرى والحجاز وتطلعت إلى اليمن ونشرت دعاتها فيها، كانت في أشدِّ الحاجة إلى دور عدن التجاري الذي لا يقع تحت سيطرة

---

(١) الهمداني: صفة جزيرة العرب تحقيق الأكوع، ص ٩٤. نقلاً عن حسن صالح شهاب: «عدن فرضة اليمن»، ص ٨٩.

عدوتها الكبرى، الدولة العباسية. لذا بقيت التجارة بين مصر والهند عبر عدن رائجة، وأقامت الدولة الفاطمية ميناء عيذاب على البحر الأحمر لتلقّي السفن الآتية من عدن، ومن عيذاب تنقل إلى قوص في صعيد مصر على ظهور الإبل، كما كانت تجارة المغرب تصل إلى قوص ومنه إلى عيذاب ومنها إلى عدن.

وكان تجار المغرب يعرفون بتجار (الكارم) نسبة إلى (كرم) بلد بساحل شمال إفريقيا الغربي كما يقول ابن المجاور في المستبصر. وقد تعاظم نشاط عدن التجاري وارتباطها بعيذاب في عهد الصليحيين وبني زريع وكلاهم من أتباع المذهب الإسماعيلي الفاطمي. وتجار الكارم من المغرب، ثم توطنوا واشتغلوا أساساً بتجارة البهارات حتى أطلق عليها تجارة الكارم، ويقصدون بذلك البهارات.

الحسين بن سلامة

(٣٧١ – ٤٠٢هـ)

بعد وفاة أبي الجيش إسحاق بن إبراهيم بن زياد، كانت الدولة الزيادية قد ضعفت وكثرت الثورات عليها والخروج عليها. وقد سبقت الإشارة إلى خروج صاحب صنعاء أسعد بن أبي يعفر من طاعته (وإن استمر في الخطبة والسكة أي النقود)، وسليمان بن طرف من الشرجة إلى حلى (تهامة السعودية)، وثورة الإمام الهادي يحيى بن الحسين الرسي في صعدة، وثورة القرامطة على يد علي بن الفضل الذي روع البلاد والعباد، حتى تمَّ قتله بالسم بواسطة طبيب شجاع أنقذ المسلمين، ودسّ له السم في محجم، فقتله أنصار علي بن الفضل بعد أن قاتلهم. وذلك سنة ٣٠٣هـ، فضعف أمر القرامطة واضمحلت دولتهم.

وخلّف أبو الجيش إسحاق بن إبراهيم طفلاً صغيراً اسمه زياد وقيل عبدالله فكفله الحسين بن سلامة وعمة الصبي.

والحسين بن سلامة عبد نوبي، ولكنه كان حازماً عفيفاً شهماً حسن السيرة، وكان الأمراء وعبيدهم يحرصون على تربية مواليهم حتى يسندوا إليهم أعمال الدولة، وفي التاريخ الإسلامي كم تولى هؤلاء الموالي أمور الدولة. والناس والمثقفون لا يعرفون سوى دولة المماليك الذين حكموا مصر والشام. ولكن الواقع يقول إن معظم الدول الإسلامية، منذ العصر العباسي إلى العهد العثماني، حكمها وتولى جيوشها وأمرها الموالي. بل إن علماء الدين واللغة العربية والنحو كانوا من الموالي أضعاف ما هم من العرب الأقحاح. فابن طولون كان عبداً للخليفة المعتصم العباسي فولّاه أمر مصر والشام. وكذلك كان الإخشيديون

واشتهر عبدهم كافور. وكان مؤسس الدولة الخوارزمية أيضاً من الموالي وكذلك مؤسس الدولة الغزنوية. ولا تستطيع أن تذكر دولة من دول الإسلام إلّا ويكون مؤسسها أو أحد كبار قادتها من الموالي. وهذه خاصية لم تعرفها أمة من الأمم حيث يصل العبيد والموالي إلى منصة الحكم.

ولا شك، كما تقول دائرة المعارف البريطانية، أن أسوأ معاملة للعبيد كانت في العصور القديمة للدولة الرومانية.. وأما في العصور الحديثة فكانت أسوأ المعاملة عندما استولت أوربا على الأمريكيتين وعلى أستراليا ونيوزيلندة وقارة إفريقيا. ويكفي أن نعرف أن الرجل الأبيض استورد إلى الأمريكيتين ما يقرب من مائة مليون من الأفارقة خلال قرنين من الزمن قتل منهم تحت سياط التعذيب، وفي المناجم وفي الحقول وفي الثورات أكثر من سبعين مليوناً. ولكن الرجل الأبيض يجيد الكلام عن حقوق الإنسان.

ولا يوجد في تاريخ البشرية أسوأ من استبداد الرجل الاستعماري الأوربي. ولا شك أن هناك مجموعات من البيض رفضت هذا الاستبداد والعنصرية البغيضة إلا أن أعدادهم بالنسبة لمجموع أوربا أعداد قليلة.

وكان الحسين بن سلامة قد تدرب على المسؤولية في أثناء حياة سيده رشيد (وهو عبد سابق لأبي الجيش إسحاق بن إبراهيم بن زياد). ووثق فيه رشيد فولّاه جميع أموره، فلمّا مات سيده قام مقامه، وذبّ على ملك مواليه فكان وزيراً لولد أبي الجيش وأخته هند، كما يقول ابن الديبع[(١)].

وكانت الدولة قد تضعضعت وتغلّب ولاة الأطراف والحصون على ما بأيديهم فلم يزل يغزوهم حتى دانوا له، وحملوا الأتاوة، ودخلوا في الطاعة، ولم تبق مدينة ولا حصناً في اليمن إلا استناب فيه من يرضاه، وعادت مملكة بني

---

(١) ابن الديبع: قرّة العيون، ص ٢٧٧ (بتحقيق الأكوع).

زياد الأولى واختط مدينة الكدري شمالي مدينة زبيد وأعاد بناءها. وأعاد بناء العديد من المدن التي كادت تندثر[١].

وكان قد تعلم القرآن والسنّة وشيئاً من الفقه، حَسَنَ السيرة، محسناً إلى الرعية، كثير البرّ والصدقة، معتمداً ومقتفياً لسيرة عمر بن عبد العزيز ﷺ في السلوك.

وقد بنى الحسين بن سلامة الجوامع الكبار، والمنائر الطوال، وحفر الآبار. ومبتدأ عمارته من حضرموت إلى مكة المكرمة ستين مرحلة، في كل مرحلة جامع ومئذنة ومنبر وبئر.

وجدّد الحسين بن سلامة عمارة جامع عدن، ووسّع المسجد من جهة الغرب، وصنع له منبراً. وقال الجندي والأهدل أن الأمير حسين زاد في الجامع جناحين من ناحية الغرب[٢].

وعَمَرَ مسجد الجَنَد الذي بناه معاذ بن جبل صاحب رسول الله ﷺ وكان أول مسجد يتم بناؤه في اليمن.

وللحسين بن سلامة في طريق اليمن - مكة مآثر، وفي كل مرحلة جامع ومئذنة وبئر، ومنها جامع الجفرة، ومسجد الجَنَد، ثم ذي أشرق. ومن الجَنَدَ إلى صنعاء مسافة ثمانية أيام، في كل مرحلة جامع. ثم من صعدة إلى الطائف في كل مرحلة جامع، وبينهما ستة عشر يوماً. ثم من الطائف إلى مكة عمارة متقنة يمشي فيها، في عرضها، ثلاثة جمال بأحمالها، فهذه الطريق العليا.

ووجود جامع يعني وجود بئر ومكان يرتاح فيه المسافرون ويأكلون ويشربون. وأما طريق تهامة فإنها تفترق إلى طريقين: (إحداهما) ساحلية

---

(١) ابن الديبع: قرّة العيون، المصدر السابق.

(٢) د. أحمد صالح رابضة: معالم عدن التاريخية، مركز الدراسات اليمني والمركز الفرنسي للدراسات اليمنية، صنعاء ١٤٢٠ هـ/ ١٩٩٩م، ص ٥١.

و(الثانية) وسطى، وفي كل مرحلة منبر وجامع وآبار حتى يصل المسافر من عدن إلى جدة، وكذلك الطريق الوسطى معمورة بالجوامع والآبار عبر وادي مور وجيزان إلى وادي يلملم وهو ميقات أهل اليمن.

وما أكثر عمارته للطرق المؤدية إلى مكة المكرمة وعرفات والمدينة المنورة. وهو أول من أدار السور على مدينة زبيد. وكانت مدة ملكه ثلاثين سنة. ولزبيد أربعة أبواب جدّدها كلها.

وقال عمارة اليمني في كتابه (تاريخ اليمن) إن الطرق التي أقامها الحسين ابن سلامة كثيرة جداً، والطرق من عدن إلى مختلف مدن اليمن وإلى مكة عديدة، ومنها طريق الساحل، والطريق المتوسطة (الجادة السلطانية) وطريق الجبال والطريق العليا. وكلها تخرج من عدن حتى تصل إلى عدد من مدن اليمن، ثم تتصل حتى تصل إلى جدة ومكة في طرق آمنة. وفي كل مرحلة منها بئر ومسجد.

وكان الحسين بن سلامة كثير الذكر، ويكثر من الصلاة على النبي ﷺ قبل أن ينام، ولا يعلم بذلك أحد، فجاءه فقير من فقراء الصوفية، وطلب منه مبلغاً من المال، وذكر له أن الرسول ﷺ يأمره بذلك؟! فقال الحسين بن سلامة: وما الدليل على ذلك؟ قال الفقير: بدليل أنك تصلي على النبي ﷺ مائتي مرة قبل أن تنام كل ليلة. ولم يكن أحد يعرف بذلك قط، فأعطاه الحسين بن سلامة ما طلبه ولم يكن مبلغاً كبيراً.

فلما مات الحسين بن سلامة بكته اليمن بأكملها، وبكاه أهل الحجاز الذين وصلتهم صدقاته ومكرماته. وانتقل الأمر إلى طفل من بني زياد اسمه عبد الله وكفلته عمّة له وعبد حبشي اسمه مرجان من عبيد الحسين بن سلامة، فاستقرّت الوزارة لمرجان. وكان لمرجان عبدان هما نفيس الذي يتولى التدبير في الحضر ونجاح الذي يتولى المهجم ومور. وكان نجاح رؤوفاً رحيماً بينما كان

نفيس ظلوماً. واستطاع نفيس أن يغري مولاه فسلمه الصبي من آل زياد وعمته، فبنى عليهما جداراً، وهما قائمان ينشدان الله، حتى ختمه عليهما، فكان ذلك آخر العهد بهما. وذلك سنة ٤٠٧هـ.

وكان نجاح بعيداً عن زبيد فلما عاد انتقم من نفيس وأسس دولة بني نجاح التي سيأتي ذكرها.

كان هذا الغلام المقتول ظلماً مع عمته هو آخر من بقي من آل زياد، فانتهت بذلك دولتهم سنة ٤٠٧هـ .

دولة آل نجاح الحبشيّة
ودولة الصليحي الهمداني الإسماعيلية
(٤١٢ – ٤٥٢هـ)

عندما انتهت الدولة الزيادية سنة ٤٠٧هـ بقتل آخر طفل من بني زياد وعمته على يد العبد الحبشي نفيس، قام منافسه وزميله نجاح بتأليب أهل اليمن للانتقام من نفيس ومولاه مرجان على فعلتهما الشنعاء بقتل الطفل وعمته.

وبدأت الحرب الضروس بين نفيس الطاغية، ونجاح المشهور بالعدل والحكم، حتى استطاع نجاح بعد معارك ضارية على باب زبيد أن يقتل نفيس، فدخل زبيد سنة ٤١٢هـ وقبض على مرجان وأخرج جثة الطفل وعمته وصلى عليهما، وبنى عليهما مشهداً. ثم أخرج جثة نفيس وأوقف مرجان حيًّا وبنى عليهما حائطاً، تماماً كما فعلا ببقية آل زياد.

واستولى نجاح على البلاد، وركب المظلة، وضرب السكة باسمه، كما يقول عبد الرحمن بن الديبع في كتابه «قرّة العيون بأخبار اليمن الميمون». وكاتب الخليفة العباسي وبذل له الطاعة (وهي طاعة اسمية لا تتعدى الدعاء للخليفة وإرسال بعض الأموال). فكتب إليه الخليفة يوليه أمر تهامة اليمن، وتقليد القضاء لمن يراه أهلاً. ولم يزل مالكاً لتهامة وعاصمته زبيد. فضبط تهامة بأكملها. ولكن همدان تغلبت على صنعاء، وبنو معن على عدن وأبين والشحر وحضرموت (وليسوا من ولد معن بن زائدة الشيباني الذي ولاه المنصور العباسي على اليمن والذي أثخن القتل في أهل حضرموت حتى قتل منهم خمسة عشر ألف نفر، فانتقم منه أحد أبناء المقتولين واغتاله في سجستان سنة ١٥١هـ

كما تقدم معنا)[1]. وآل معن الذين حكموا عدن وحضرموت والشحر هم من ولد ذي أصبح الحميري. وتغلّب بنو الكرندي من حمير على حصن السمدان وحصن الدملوه وصبر والتعكر والجَنَد والمعافر. وهكذا تولى كل رئيس قبيلة منطقة من مناطق اليمن، وكثرت فيها الدويلات. فكان على عدن وحضرموت والشحر بنو معن، وعلى زبيد والتهائم الدولة النجاحية (من الحبشة)، والأئمة الزيدية في صعدة، وبنو الكرندي في الجَنَد والمعافر (الحجرية).. إلخ. وتولت قبيلة همدان على صنعاء، وهكذا.

الدولة الصليحية

وتزامنت دولة نجاح مع بداية دولة الصليحيين، ودخلت معهم في علاقات ومؤامرات، ومعارك سيأتي ذكرها.

قال ابن الديبع نقلاً عن الخزرجي وهو يصف بداية الدولة الصليحية:

أجمع المؤرخون والإخباريون من أهل اليمن أن القاضي محمد بن علي بن يوسف الهمداني الصليحي والد علي بن محمد الصليحي (مؤسس الدولة الصليحية الإسماعيلية) كان فقيهاً سُنيًّا، حسن السيرة، مرضيّ الطريقة، مطاعاً في أهله وجماعته. وكان الداعي الإسماعيلي سليمان بن عبد الله الزواحي يلوذ به ويركب إليه كثيراً، لرياسته وسؤدده وصلاحه وعمله، فرأى يوماً ولده عليًّا فلاحت فيه النجابة، وكان يومئذ لم يبلغ الحلم. وكان إذا وصل إلى أبيه يخلو به، ويحدّثه، ويطلعه على ما عنده حتى استماله، وغرس في قلبه من علومه وأدبه محبة مذهبه (الإسماعيلي).. فلما حضرت الوفاة سليمان بن عبد الله الزواحي الداعي الإسماعيلي أوصى بجميع كتبه ومالاً جزيلاً للشاب الصغير علي بن محمد

(١) ذكر السيد حسن صالح شهاب أن بني معن يرجعون في نسبهم إلى معن بن زائدة الشيباني، وهو وهم منه. وقد حقق الأستاذ محمد الأكوع محقق كتاب «قرّة العيون» للديبع هذه النقطة وأكد أنهم ليسوا من أولاد معن بن زائدة.

الصليحي، والذي عكف على الدرس، ووقر في نفسه (كما أخبره بذلك الداعي سليمان الزواحي) أنه يملك اليمن، ويقيم الدعوة الإسماعيلية، وصار متضلّعاً فقيهاً في مذهب الإسماعيلية.

ورغم أنه لم يبلغ الخامسة عشرة إلا أنه كتم مذهبه، وأبدى من ضروب العقل والحكمة والتديّن ما أحبّه الناس من أجله، فكان يحجُّ بالناس على طريق السراة ويعلمهم مناسك الحج. وظهر في صورة ناصعة من التقوى والكرم وحسن الخلق حتى كسب قلوب قبيلته همدان. وبدأ بالدعوة سرًّا لمذهبه حتى كثر معه الأنصار. وأشاع في الناس أنه يملك اليمن بأسره.

فلما كانت سنة ٤٣٩هـ استولى على رأس جبل (مسار) في منطقة (حراز) في ستين رجلاً، واستعمل الدهاء والحكمة عندما أحاط به أهل المنطقة، فقال لهم: إنما أحرسه لكم فإذا شئتم نزلت، فانصرفوا عنه.

ولم يزل شأنه يظهر، ووصلَهُ الشيعة الإسماعيلية من أنحاء اليمن وجمعوا له الأموال الجزيلة.

وكان لخوفه من نجاح، يرسل له الهدايا، حتى وثق به، فأرسل له جارية قتلته بالسم سنة ٤٥٢هـ فانتشر أمر الصليحي، وسار إلى صنعاء فملكها، وطوى اليمن سهله ووعره، وبرّه وبحره في مدة وجيزة. وقد حاربه جعفر بن الإمام القاسم بن علي (إمام الزيدية). وسار مع جعفر بن القاسم، شخص آخر يدعى جعفر بن العباس شافعي المذهب، شديد البغض للإسماعيلية، ومعه ثلاثين ألف مقاتل. فتمكن علي بن محمد الصليحي من قتله وقتلِ جميع أصحابه. وبذلك فتحت له الطريق إلى صنعاء وإلى اليمن بأكملها.

وأظهر علي بن محمد الصليحي شجاعة وقوة وكرماً فاتّبعته كثير من قبائل اليمن، وخاصة قبيلته همدان، وأظهر الدعوة للمستنصر معدّ بن الظاهر العبيدي الفاطمي.

ومن أخبار الصليحي أنه خطب يوماً على منبر الجَنَد، وقال: «في مثل هذا اليوم نخطب على منبر عدن إن شاء الله تعالى» فلما كانت الجمعة الثانية خطب على منبر عدن بعد أن احتلها، فكان ذلك مما مَكَّنَ له في القلوب.

وكان الصليحي يدعو للمستنصر العبيدي ويخاف نجاحاً صاحب زبيد. فلما صفا الجو للصليحي أرسل إلى المستنصر العبيدي يستأذنه في إظهار الدعوة، ووجَّه إليه بهدية جليلة منها سبعون سيفاً قوائمها من العقيق، فسرَّ بذلك المستنصر العبيدي وأمر له بالرايات وكتب عليها الألقاب، وعقد له الألوية وأذن له في إعلان الدعوة. ولم تمض سنة ٤٥٥هـ إلا وقد ملك الصليحي الأرض من حضرموت إلى مكة سهلاً وجبلاً، وامتنعت عليه صعدة بأولاد الإمام الناصر ثم استطاع أن يخضعها. واستقر ملكه في صنعاء وأخذ معه ملوك اليمن الذين أزال ملكهم وأسكنهم معه في حراسة مشددة[١].

وولّى ابن عمه أسعد بن شهاب الصليحي أمر التهائم، وكان الداعي متزوجاً من الحُرّة أسماء بنت شهاب الصليحي وهي ابنة عمه وأخت أسعد بن شهاب. وكانت حصيفة ذكيّة فطنة عاقلة فاستطاعت أن تجعل زوجها علي بن محمد الصليحي يولي أخاها أمر التهائم، فدخل أخوها زبيد سنة ٤٥٦هـ **وأحسن سيرته في الرعيّة، وأذن لأهل السنّة في إظهار مذهبهم، وكان يحمل إلى علي بن محمد الصليحي ألف ألف دينار بعد أرزاق الجند وغيرها. وعامل الحبشة (أتباع نجاح) بالصفح حتى زرع محبته بالقلوب**. وأقام الصليحي بصنعاء حتى عام ٤٥٩هـ ثم توجه إلى مكة، واستخلف ابنه المكرم أحمد بن علي على الملك.

(١) عبد الرحمن الديبع: قرّة العيون بأخبار اليمن الميمون، تحقيق محمد بن علي الأكـوع، ص ٢٠٧ – ٢١٢.

وسارت أسماء مع زوجها وكانت من أعيان النساء ولا يخالفها زوجها لوفور عقلها وكمالها وجمالها. فلما تقدم الصليحي إلى مكة ومعه من الأموال والأمراء والجنود عدد كبير. وبعد الصليحي عن جنوده في ثلة صغيرة من عسكره وهو آمن في ضيعة تعرف بأم الدهيم (المهجم)، فهاجمه سعيد الأحول ابن نجاح وقتل الصليحي وأخذ زوجته أسيرة لديه انتقاماً لقتل أبيه بالسم من قبل الصليحي. فلما نودي بقتل الصليحي اختل نظام جيشه وفتك بهم سعيد الأحول ورجاله. وأخذ رأس علي بن محمد الصليحي ورأس عبد الله بن محمد الصليحي وجعلهما على باب المسجد الذي فيه السيدة أسماء بنت شهاب زوجة الصليحي. ثم جعلها في دار وجعل الرأسين في حربة أمام نافذتها. واستولى سعيد على خزائن الصليحي وأمواله. وأقامت أسماء في الأسر بدار شهار لمدة سنة كاملة. وأرسلت سرًّا إلى ولدها المكرّم أحمد بن علي في رغيف خبز رسالة تخبره فيها أنها قد حملت من الطاغية العبد الأسود سعيد الأحول. ولم يكن الأمر كذلك، بل أرادت أن تستفزّ ابنها ورجاله ليهبّوا لإنقاذها. فهبَّ المكرّم وخرج في جيش لجب عازماً على إنقاذها أو الموت، فكثر القتل وهرب سعيد الأحول الذي كان قد أعدَّ خيلاً لمثل هذا الموقف، وسفناً في البحر، فركب السفن إلى جزيرة دهلك (وهي جزيرة بين اليمن وأريتريا اليوم، وهي تتبعها وتقابل بندر ميدي).

ودخل المكرّم أحمد بن علي الصليحي إلى زبيد وكان أول فارس وقف تحت طاقة (نافذة) والدته أسماء، فسلّم عليها وهو تحت المغفر فلم تعرفه، فرفع المغفر فقالت: من كان مجيئه كمجيئك فما أخطأ وما أبطأ. وهكذا فكَّ أمّه من الأسر وقُتل دونها عشرون ألفاً.

وأصاب المكرّم أحمد بن علي الصليحي بعد هذه الحادثة الشلل الرعاش. وسار إلى زبيد ثم إلى صنعاء، وولّى خاله أسعد بن شهاب زبيد والأعمال

التهامية. ولما وصل صنعاء فوّض الأمر إلى زوجته الحرّة السيدة (أروى) بنت أحمد الصليحي فكانت مثل قريبتها أسماء التي تولت تربيتها بعد وفاة والديها في عدن بعد أن انهدم المنزل عليهما.

وكانت الحرّة السيدة (أروى) ذات جمال وكمال وعقل راجح، فلما مرض زوجها تولّت شؤون الحكم. واستعفته من نفسها وقالت: إن امرأة تراد للفراش لا تصلح لتدبير أمر، فدعني وما أنا بصدده. ثم ارتحلت في جيش جرار، وتركته بصنعاء مع جواريه، واتخذت جِبلة (القريبة من أب) داراً، وبنت فيها قصراً له ٣٦٠ نافذة تطلع الشمس كل يوم على واحدة منها. ولا تزال الدار باقية إلى اليوم وتحتاج إلى ترميم، ويأتي إليها السياح وقد زرتها في شعبان ١٤٢٩هـ. وقد عُرِفتْ دارها بدار العزّ، ودار السلطنة، وبنت بجانبها مسجداً جميلاً تصلّي فيه. واختطَّ مدينة جبلة عبد الله بن محمد الصليحي، وهي مدينة بين نهرين (جدولين) جاريين في الشتاء والصيف. وكانت وفاة السيدة أسماء أم المكرّم سنة ٤٧٩هـ بصنعاء. وبنت المسجد المعروف بمسجد الصعدي في صنعاء، ومسجداً آخر، وكانت كريمة تعطي الفقراء وغيرهم.

وفي هذه السنة عاد بنو نجاح فأخرجوا أسعد بن شهاب من زبيد ثم أخرجهم المكرّم منها.

فلما كانت سنة ٤٨١هـ دبّرت الحرّة السيّدة (أروى) قتل سعيد الأحول فأمرت صاحب حصن الشعر أن يكاتب سعيد ويعلمه أن المكرّم مفلوج (مشلول)، وقد عكف على شرب الخمر، وولّى أمره امرأة، وأنت أقوى ملوك اليمن، فإن رأيت أن تطبق على ذي جبلة من تهامة فدولتكم أحبُّ على المسلمين. فحسن موقع ذلك عند سعيد، فخرج في ثلاثين ألف حربة (من حراب الحبشة).. وكانت السيدة (أروى) قد كتبت إلى عمران بن الفضل وأسعد بن شهاب أن يخلفوا سعيداً على زبيد في ثلاثة آلاف فارس، فوصلوا بعد

خروج سعيد وهرب بقية آل نجاح. فلما وصل سعيد الأحول بجيشه تحت حصن الشعر أطبق عليه الجيشان فقُتِلَ وقُتِلَ من معه، وأُسرت زوجته أم المعارك، فأخذوا رأس زوجها على رمح، وأسكنتها السيدة أروى في دار، ونصبت رأس سعيد أمام طاقتها، فكانت الحرَّة السيدة (أروى) تقول: «ليت لكِ عيناً يا مولاتنا أسماء حتى تنظري رأس سعيد الأحول تحت طاقة (زوجته) أم المعارك».

وتوفي المكرّم أحمد بن علي الصليحي سنة ٤٨٤هـ وأسند الوصية إلى الأمير سبأ بن أحمد بن المظفر الصليحي، وكان شجاعاً جواداً شاعراً ولكنه دميم الوجه، فخطب الحرّة السيّدة (أروى) بنت أحمد فكرهت ذلك وأنكرته، فجمع جيشاً وجمعت جيشاً أكثر منه، وتصافّ العسكران بذي جبلة فاقتتلا أياماً. وقال له أخوها لأمها سليمان بن عامر الزواحي: «**والله لا أجابتك إلى مرادك إلا بأمر المستنصر بالله العبيدي**» (الخليفة الفاطمي). فكاتب المستنصر فأرسل لها المستنصر يأمرها بأن تنكح سبأ. وقال لها الأستاذ حامل الرسالة بعد أن مدحها: إن أمير المؤمنين قد زوّجك من الداعي سبأ بن أحمد على ما حضر من المال، وهو مائة ألف دينار عيناً وخمسون ألفاً أصنافاً من التحف. واستشهد بقوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ﴾..

ولم تلبث بعد أخذ وردّ أن قبلت أمر أمير المؤمنين (كما تزعمه هي). فأقامت الضيافات وأنفقت أكثر مما قدّمه من المهر. وندم سبأ على خطبتها فأرسل إليها سرًّا يستأذنها في الدخول، فأذنت فاجتمع بها ليلة، ثم ارتحل. وقيل إنما أرسلت بجارية تشبهها. فلم يجتمعا بعدها.. ولم يزل بحصنه حتى مات سنة ٤٩٢هـ. وبقيت الملكة السيدة (أروى) تحكم اليمن بحكمتها ودهائها رغم تكرر الثورات. وتوفيت الحرّة الملكة السيدة (أروى) سنة ٥٣٢هـ بجبلة وعمرها ثمان وثمانون سنة وقبرت بالجامع الذي أنشأته بجوار قصرها.

وحكمت اليمن أكثر من سبعين عاماً منها عشرون عاماً في عهد زوجها المكرّم أحمد بن علي الصليحي بعد إصابته بالفالج، وخمسين عاماً تقريباً بعد وفاته.

وعندما مات الداعي سبأ بن أحمد الصليحي سنة ٤٩٢هـ خرجت صنعاء وأعمالها من مملكة الصليحي، واستولى عليها السلطان حاتم بن الغشم.

وأقامت السيدة (أروى) للذبِّ عن مملكتها المفضل بن أبي البركات الحميري، وجعلت أخاه أبا خالد بن أبي البركات والياً على التعكر، فلما قُتِل أبو خالد بن أبي البركات تولى أخوه المفضل مكانه على التعكر.

وهبط المفضل بن أبي البركات إلى عدن مراراً، وحارب آل زريع الذين أوقفوا ارتفاع عدن، وكان مائة ألف دينار يدفع للسيدة أروى منذ أن تزوجت المكرّم أحمد بن علي الصليحي واعتُبِرَ مهراً لها دائماً. فحاربهم المفضّل ثم اتفقوا على أن يدفع آل زريع نصف المبلغ أي خمسين ألف دينار فقط.

وللمفضّل مكرمات، منها أنه «**جَرَّ الغيل من خنوة إلى الجَنَد**»، **فكان وادٍ يسيل طوال السنة فارتوت الجَنَد وما حولها.** وخنوة واقعة في مخلاف جعفر، وفيها مصبات أودية عديدة وتسقى بماء منهمر. **وحفر المفضّل في الصخر (الصفا) حتى أخرق بعضها إلى بعض من مواضع لا يُصدّق بها إلا من رآها. وجدّد بناء مسجد الجَنَد** ولم يزل على بنائه إلى أن هدمه مهدي بن علي بن مهدي، فأخربه وحرّقه، حتى قدم سيف الإسلام طغتكين (أخو صلاح الدين الأيوبي) فأعاد البناء وزاد في سمك المسجد.

ثم لما مات المفضّل أقامت السيدة (أروى) ابن عمه أسعد بن أبي الفتوح بن العلاء بن الوليد، إلى أن غدر به رجلان من أصحابه فقتلاه في حصن تعز سنة ٥١٤هـ ، فأقامت السيدة (أروى) علي بن إبراهيم بن نجيب الدولة داعياً سنة ٥١٠، ثم ولّته الدفاع عن مملكتها بعد وفاة أسعد بن أبي الفتوح.

ترجمة موجزة للحرّة السيدة (أروى) بنت أحمد الصليحية

وقد كتب القاضي محمد بن علي الأكوع (محقق كتاب قرّة العيون بأخبار اليمن الميمون للديبع) ترجمة موجزة للسيدة (أروى) بنت أحمد بن محمد بن القاسم الصليحي، قال:

تُلقّب بالحرّة، ومولدها في عدن سنة ٤٤٤هـ. وكفلها الملك والداعي علي ابن محمد الصليحي، وأمها رداح بنت الفارع الصليحية.. وقد مات والداها عندما انهدمت دارهم بعدن، ونجت الطفلة الصغيرة أروى. وكان أبوها والياً على عدن من قبل الملك والداعي علي بن محمد الصليحي فكفلها الداعي وزوجته وأحسنا تربيتها، بل خصّاها بعناية تفوق عنايتهما بأولادهما.. ولهذا نشأت على العلم والتقى والصلاح والكرم، وتعلّمت الأدب وسائر الفنون. وأخذت من الملكة أسماء بنت شهاب زوج الداعي كثيراً من صفاتها وأخلاقها وحكمتها وكرمها وأدبها. وتوسم فيها الداعي الصليحي الملك علي بن محمد أنها سيكون لها شأن، وقال لزوجته أسماء: «أكرميها فهذه والله كافلة ذرارينا، القائمة بهذا الأمر لمن بقي منا».

ثم زوّجها الملك علي بن محمد الصليحي على ابنه الملك المكرّم أحمد بن علي الصليحي، وكان ولي عهده، والقائم بالأمر بعده، واشتهر بالشجاعة والكرم. وكان صداقها خراج عدن دائماً ومستمرًّا يرسل إليها كل عام مائة ألف دينار، واستمر على ذلك دهراً طويلاً حتى مات المكرّم فتوقف حكام عدن من آل زريع عن إرساله، فأرسلت الملكة الحرّة سيدة بنت أحمد المفضل بن

أبي البركات، فحاربهم، واتفقوا على إرسال نصف خراج (ارتفاع) عدن خمسين ألف دينار، ثم لما مات المفضل انخفض المبلغ إلى خمسة وعشرين ألف دينار، ثم توقف آل زريع عن الدفع.

وأنجبت للمكرّم أربعة: علي ومحمد وفاطمة وأم همدان. وأما علي ومحمد فماتا طفلين. وأما أم همدان فتزوّجها أحمد بن سليمان الزواحي، وتوفيت قبل أمها سنة ٥١٦ بعد أن أنجبت له طفلاً، وأما فاطمة فتزوجها شمس المعالي ابن الداعي سبأ، وكانت وفاتها بعد وفاة أمها بسنتين أي ٥٣٤هـ.

ولما فوض الملك المكرّم أحمد بن علي الصليحي أمر المملكة إليها بعد أن أصيب بالشلل قامت بالدولة خير قيام، وأحسنت التدبير واستخدمت الحيلة حيناً، والقوة حيناً آخر، وواجهت ثورات متعددة، وخاصة بعد وفاة المكرّم، فأحسنت التدبير وأقامت الدولة إلى وفاتها (سنة ٥٣٢هـ).

ومآثرها كثيرة، ولها العديد من المساجد العامرة، والأوقاف الكثيرة على الأيتام والفقراء وعلى طلبة العلم. وجعلت مدينة جبلة قبلة القاصدين. وكم عبّدت طريقاً، وأقامت سدوداً، وأجرت مياهاً إلى مناطق متعددة من اليمن.

ورغم أنها كانت من كبار الدعاة إلى المذهب الإسماعيلي الفاطمي إلا أنها مثل من سبقها من الإسماعيلية الصليحيين، سمحت بوجود المذاهب الأخرى ولم تحاول فرض مذهبها. وهذا في الواقع مما يمدح للصليحيين، بل وللدعوة الفاطمية التي لم تحاول فرض مذهبها، كما حاول الصفويون في القرن الخامس عشر الميلادي فرض مذهبهم الجعفري (الاثنا عشري) عندما استولوا على إيران، حيث قاموا بفرض مذهبهم بالقوة، ومنع المذاهب الأخرى وقتل أو طرد كل من يخالف مذهبهم.

وهذا ما سمح لهذه الدولة الإسماعيلية أن تحظى برضى أغلب أهل اليمن في زمنهم وبعد زمنهم. وقد أثنى أهل التاريخ على هذه الدولة، رغم أنهم من

السنّة كالخزرجي والديبع وعمارة الحكمي.

وأوصت الملكة عند موتها بمجوهراتها العظيمة، وقسَّمتها إلى أقسام. فمنها ما أرسلته إلى الخليفة الفاطمي ومنها ما جعلته للدعوة للمذهب في الهند، ولهذا يأتي البهرة من الهند كل سنة إلى اليمن لزيارة قبرها. ومنها ما جعلته في قرابتها (مات أولادها وورثتها قبلها)، ومنها ما جعلته في الأوقاف لمشاريع الخير وللفقراء والأيتام ولطلبة العلم (دون تحديد لمذهب معين).

واستمرت الدولة الصليحية حتى مات الداعي سبأ بن أحمد الصليحي سنة ٤٩٢هـ وكان ملكاً على صنعاء، فخرجت صنعاء من حكم الصليحيين، وضعفت الدولة رغم كل ما بذلته الملكة السيدة (أروى) بنت أحمد. وانتهت الدولة الصليحية بوفاتها سنة ٥٣٢هـ.

بنو معن وبنو زريع في عدن

(٤٠٢ - ٥٦٩هـ)

وضع السيد حسن صالح شهاب فصلاً جيّداً في كتابه عدن فرضة اليمن (ص ٩٨ – ١٢٠) عن تاريخ عدن في أيام بني معن وبني زريع لخّصه من عدة كتب، أهمها كتاب ابن المجاور (تاريخ المستبصر: صفة بلاد اليمن ومكة وبعض الحجاز) الذي دخل عدن في عهد دولة بني أيوب إلى بداية ملك عمر بن علي ابن رسول ووصل عدن من ديبول بالهند سنة ٦١٨ وبقي فيها إلى سنة ٦٢٦هـ. وعهده قريب من عهد دولة آل زريع التي انتهت سنة ٥٦٩، فلا شك أنه عرف كثيراً من أخبارها ممن عاصر تلك الدولة.

ومنه ننقل هذه المعلومات مع حذف وإضافة وقد نقل أيضاً عن المؤرخ والأديب عمارة اليمني الحكمي في كتابه «تاريخ اليمن» الذي عاش في عهد بني زريع، كما نقل عن مراجع تاريخية أخرى.

وينتسب آل زريع والصليحيون إلى قبيلة همدان اليمنية المشهورة. وكلا الفريقين تمذهبوا بالمذهب الإسماعيلي وكانوا يسمونهم الدعاة تابعين للدولة الفاطمية. وقد نشروا مذهبهم في اليمن دون إكراه.. ولا تزال قبائل يام الهمدانية ومناطق حراز تدين بالمذهب الإسماعيلي إلى اليوم.

يقول حسن صالح شهاب: «**بعد وفاة الحسين بن سلامة تمزقت مملكة بني زياد من جديد، فتغلب ولاة المناطق الجبلية على ما تحت أيديهم، وتغلب بنو معن على عدن ولحج وأبين وحضرموت. وظلوا مسيطرين على هذه المناطق إلى أن غزاهم الداعي علي بن محمد الصليحي سنة ٤٥٥هـ ، فاستسلموا له فأبقاهم**

على ولايتها. فلما تزوج المكرّم أحمد بن علي الصليحي بالسيدة بنت أحمد بن محمد الصليحي سنة ٤٥٨هـ جعل صداقها خراج عدن، فكان بنو معن يرفعون إليها خراج عدن. فلما قُتل الداعي علي بن محمد الصليحي سنة ٤٥٩هـ امتنع بنو معن عن دفع الخراج وتغلبوا على ما تحت أيديهم من البلاد، فسار إليهم المكرّم أحمد بن علي وأخرجهم منها، وولّى على عدن العباس ومسعود ابني المكرّم الهمداني، فجعل للعباس حصن التعكر وما يدخل من باب البر، أي عشور البضائع التي تنقل من البر إلى عدن، وجعل لمسعود حصن الخضراء، المطل على الميناء، وباب البحر وما يدخل منه، وأوكل إليه حكم المدينة. فبقيا يبعثان بارتفاع عدن إلى السيدة في كل سنة مئة ألف دينار، (وقد يزيد وقد ينقص، يعني الارتفاع) إلى أن توفي العباس فخلفه ابنه زريع على حصن التعكر وباب البر، وبقي عمه مسعود على حصن الخضراء وباب البحر.

فلما مات المكرّم أحمد بن علي الصليحي سنة ٤٧٧هـ بقي زريع وعمه مسعود يحملان إلى السيدة (أروى) ارتفاع عدن، فلما قتلا على باب زبيد، وكانا يحاربان مع الأمير المفضّل بن أبي بركات، في إحدى غزواته لمدينة زبيد أيام سيطرة بني نجاح عيها، انتقل أمر عدن إلى السيدة، فبعثت إليها المفضل بن أبي البركات فجرت بينه وبينهما معارك انتهت بالاتفاق على نصف ارتفاع عدن. ولما توفي المفضل تغلبا على النصف الآخر، فبعثت السيدة إليهما أسعد بن أبي الفتوح ابن عم المفضل، فقاتلهما ثم صالحهما على ربع الخراج، لكنهما تغلبا على ربع السيدة، ولم يحملا إليها شيئاً بعد ذلك منه. وتولى أمر عدن بعد **وفاتها سبأ ابن أبي السعود بن زريع، ومحمد بن أبي الغارات بن مسعود. ولما توفي محمد بن أبي الغارات،** وهو صاحب حصن الخضراء المسيطر على المدينة والميناء **خَلَفَهُ شقيقه علي بن أبي الغارات** فجرت بينه وبين **الداعي سبأ بن أبي السعود حروب،** شارك فيها بلال بن جرير المحمدي **قائد الداعي سبأ، وواليه على عدن كلها بعد**

استيلائه، أعني بلال، على حصن الخضراء من يد أصحاب علي بن أبي الغارات. وهكذا **صفت البلاد لآل زريع بن العباس. وتوفي سبأ في عدن ودفن في سفح الجبل الذي يقع عليه حصن التعكر من الداخل سنة ٥٣٣هـ. وخلفه ابنه علي الأعز بن سبأ، لكنه لم يمكث طويلاً.** فولي بعده **أخوه محمد بن سبأ،** وهو الذي قتل علي بن أبي الغارات في لحج سنة ٥٤٥هـ. وتوفي محمد بن سبأ سنة ٥٤٨هـ فخلفه ولده **عمران الذي عاش إلى سنة ٥٦٠هـ ، وخلف طفلين هما: محمد وأبو السعود، وجعل كفالتهم إلى أبي الدر جوهر المعظم، فطلع بهما إلى حصن الدُملوة خوفاً عليهما من ياسر بن بلال بن جرير المحمدي. الذي كان يدير أمور الدولة، واستبد ياسر بن بلال بالحكم إلى أن قبض عليه توران شاه بن أيوب سنة ٥٦٩هـ»**(١).

غزو صاحب قيس لعدن

وذكر ابن المجاور في تاريخ المستبصر قصة غزو صاحب جزيرة قيس لعدن. وهي جزيرة في الخليج العربي (الفارسي) استوطنتها قبائل عربية، أغلبها من الأزد، أهل اليمن واشتغلوا بصيد السمك واللؤلؤ، ثم اشتغلوا بنقل البضائع بين موانئ الخليج العربي وكل من الهند وشرق إفريقيا، كبحارة وأصحاب سفن، واشترك بعضهم بالتجارة.

وكانت سيراف (على الجهة المقابلة لخليج هرمز، وهي في إيران) تتحكم في خليج هرمز. وكانت أهم ميناء للتجارة بين الرافدين ودار الخلافة في العراق وبين الهند والصين وشرق إفريقيا. وكان حكامها من الفرس المسلمين السنّة. وقد أورد ابن المجاور أنهم احتلوا عدناً، وبنو صهاريج منها صهريج الزعفران وماؤه أعذب من الفرات. ولكنه لم يذكر متى حكموا عدن، وقد أشرت إليهم في فصل عدن واليمن والفرس.

---

(١) عمارة، تاريخ اليمن، ص ٨١ – ٩٢.

ويقول حسن صالح شهاب أن سيراف بقيت محتفظة بمركزها التجاري الهام إلى أن سقطت الدولة البويهية (وهم من الفرس أيضاً وحكموا بغداد، معترفين بالخليفة العباسي. وكانوا أقاموا للعلم والأدب سوقاً، واشتهروا باهتمامهم بالعلم والأدب والكرم والشجاعة، والعجيب أنهم كانوا من الشيعة الجعفرية الإمامية، ومع ذلك استطاعوا أن يحكموا دولة الخلافة العباسية السنيّة. وبقوا كذلك حتى جاء السلاجقة وحلّوا محلهم وذلك منذ سنة ٤٤٧هـ).

وعندما سقطت دولة البويهيين، أفل نجم سيراف، وبدأ نجم جزيرة (قيس) في الظهور. وفي الحالتين كانت عدن منافساً خطيراً لكل من سيراف وقيس.

ولا يستغرب إذن أن يقوم حكام سيراف، ثم حكام قيس، بمحاولة الاستيلاء على عدن لوجود التنافس التجاري الهام. ولأن سيراف وقيس تخدمان الدولة العباسية وتجارتها، بينما تخدم عدن الدولة الفاطمية المنافسة لها، والمضادة لها في المذهب. فالفاطميون إسماعيلية استطاعوا أن يستولوا على عدن واليمن في أثناء حكم الصليحيين (إسماعيلية) وحكم آل زريع (إسماعيلية أيضاً)، بينما دار الخلافة العباسية سُنيَّة، وإن حكمها أحياناً شيعة مثل البويهيين.

ويقول ابن المجاور إنه كان يجري بين جباة سبأ بن أبي السعود بن زريع ومحمد بن أبي الغارات نزاع على ما يدخل إلى عدن من الماء والحطب في **مكان يعرف بـ (السائلة)، وقتال على الداخل والخارج**. وكان سبأ يجبي ما دخل من البر وله حصن (التعكر)، وابن أبي الغارات يجبي ما دخل من البحر وله حصن (الخضراء) وحكم المدينة. فبقوا على هذا الحال زمناً إلى أن غزاهم صاحب جزيرة (قيس) في عدد من السفن من (الدوانيج) و(البومات) و(النهابيق)[(١)].

(١) الدوانيج والبومات والنهانيق: أنواع من السفن التي اشتهر بها العرب في تلك الأزمنة. والنهانيق هي التي تطلق عليها في حضرموت وعدن (السنابيق جمع سنبوق)، هي سفن شراعية كبيرة تبحر إلى الهند وإلى سواحل إفريقيا الشرقية.

فلما أرست السفن في الميناء بعث رئيس (الجاشو) أي رئيس أصحاب جزيرة (قيس) – كما يسميهم ابن المجاور – إلى ولاة عدن بالتسليم أو الحرب. فبعث صاحب حصن (التعكر) إلى ابن عمه صاحب حصن (الخضراء) يقول: «ما نصنع وهذا العدو قد داهمنا؟» فأجابه: «غلطنا في الكيل فشرد منا الحيل». فقال له صاحب (التعكر): «انزل عن (الخضراء) وأنا أكفيك شرهم. فنزل وسلم الحصن إلى ابن عمه»، فبعث هذا إلى رئيس (الجاشو) يقول إن البلد بلده يولي فيها من يشاء. فلما سمعت (الجاشو) هذا الكلام فرحت ونزلت عن (الدوانيج) و(البومات) إلى الساحل، فبعث إليهم صاحب (الخضراء) **بطعام وشراب كثير، فانشغلوا بالأكل والشرب حتى غلبهم السكر**. فلما رأى رئيس (الجاشو) فِعلَ أصحابه **صاح فيهم**: «**كفّوا عما أنتم عاكفون. ولا شك أنها حيلة لهلاككم**». لكنهم لم يصغوا إليه. فنزل صاحب (التعكر) مع جماعة من أصحابه وأعمل في الجاشو السيف، فلم يسلم منهم إلّا طويل العمر. وبقيت جماجمهم تملأ المكان الذي نزلوا فيه. «فكان إذا أشكل على رجل من أهل عدن موضع سأل: أين من الجماجم؟ فعرف الموضع بالجماجم»[1].

العمران

وصف المقدسي في كتابه «أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم» عدن التي دخلها في عهد أبي الجيش إسحاق بن إبراهيم الزيادي، الذي دام ملكه ثمانين سنة. وقد نقلت مقاطع عديدة من وصفه لعدن عند الحديث عن الدولة الزيادية. وقد وصف القصور العامرة والدور الكبيرة.

وهذا يدلُّ على كثرة المباني والقصور والمساجد. ومشاهدته للقصور يردُّ على ابن المجاور أنه لم يكن بعدن قصور ولا دور من حجر إلا في عهد الزريعيين، وبالذات بعد أن أفشلت هجمة مالك قيس على عدن، فنزل آل زريع من

(١) ابن المجاور: ص ١٢٤ – ١٢٦.

حصونهم، وبنوا القصور والدور الملاح. وزعم ابن المجاور أن أول من أظهر لأهل عدن المقلع (اقتلاع الحجارة من الجبل وتسويتها وإقامة الأبنية منها) هو «أبو الحسن علي بن الضحاك الكوفي» الذي توطَّن عدن واشترى عبيداً يقطعون الحجر من جبال عدن، وكانت الجواري تنقله على أعناقها، فمن حينئذ قطعوا بها، وصارت مقالع يُعرف كل مقلع بصاحبه[١]، ومنهم أبو الحسن الضحاك، وإسماعيل السلامي، وحميد بن حماسة وعبد الواحد بن ميمون[٢].

وقد دخل المقدسي عدن في القرن الرابع الهجري، بينما دخلها ابن المجاور سنة ٦١٨هـ وبقي فيها إلى سنة ٦٢٨هـ ، أي أن بينهما أكثر من قرنين ونصف من الزمان. والقصور موجودة منذ زمن المقدسي، ولا شك أن كثيراً منها مبني بالحجارة التي اشتهرت بها مباني عدن.

دار المنظر

يقع جبل المنظر في امتداد جبل شمسان نحو صيرة، ويفصل بين مدينة عدن وخليج حقات. وإذا صعد إنسان هذا الجبل، وهو غير شديد الارتفاع، رأى منظراً من أجمل المناظر، فعلى يمينه خليج حقات وجبل حقات وأمامه جزيرة صيرة والخليج الأمامي، وعن يساره وخلفه مدينة عدن. ويبدو أن الحكام منذ عهد بني زريع، وربما من كان قبلهم، بنو قصورهم على هذا الجبل. وساحل حقات ممتدّ ويقيم فيه ملوك عدن مسابقات للخيل أو الجمال ويسمحون لسكان عدن بمشاهدة ذلك. وهم يطلّون على المنظر البديع من قصورهم. وأمامهم جبل صغير يسمى (جبل النوبة)، لأن نوبة الحرس كانت تسكن فيه، ولهم فيه حصن صغير. وأمام ناظريهم جبل صيرة والخليج الأمامي

(١) ابن المجاور: تاريخ المستبصر، ص ١٢٦.

(٢) المصدر السابق.

والفرضة (أي ميناء عدن القديم المشهور) وعن يسارهم مدينة عدن. فلا شك أن هذا القصر يستحق اسم قصر المنظر، وهذا الجبل يستحق اسم جبل المنظر.. ثم بنى عليه إسماعيل بن طغتكين قصره المشهور.

وكان الإنجليز قد بنوا فيه قصراً لحاكم عدن، ثم تركوه عندما انتقلوا إلى التواهي في مواقع أجمل وأهم. ثم في العهد الماركسي الشيوعي، تحول إلى قصر لعلي سالم البيض، بينما كان القصر الذي بناه (توني بس) على قمة جبل حقات (ومنظره أروع) قد استولى عليه عبد الفتاح إسماعيل. وكانت الطرق معبّدة إلى هذين الجبلين منذ أيام الإنجليز.

ثم دالت دولة الماركسيين الذين يسكنون أجمل القصور وينهبون أموال الأمة ويحتفظون بالمليارات في بنوك سويسرا، كما فعل الاشتراكي اللينيني علي سالم البيض، وجاء الرئيس علي عبد الله صالح فاستولى على قصر (توني بس) في حُقّات، والذي كان قد استولى عليه عبد الفتاح إسماعيل. ومنع جنوده الناس من الدخول إلى حُقّات بأكملها، كما قام الشيخ عبد الله بن حسين بن الأحمر بالاستيلاء على جبل المنظر، وقام كل واحدٍ منهما بتوسيع قصره إلى قصور. والأيام دول، ولكنها سرعان ما تزول.

وقد دخلتُ قصر المنظر مع محافظ عدن الأستاذ طه غانم، وأخي أحمد للسلام على الشيخ عبد الله بن حسين الأحمر عندما كان في عدن، وكنت وأخي أحمد قد ذهبنا إلى عدن لزيارة الأهل في أيام عيد ذي الحجة.

السور البحري

وصف المقدسي في «أحسن التقاسيم» عدن بأنها «في شبه حصيرة (حظيرة) الغنم قد أحاط بها جبل.. وقد شق في الجبل طريق من الصخر عجيب، وجعل عليه باب حديد (باب عدن المشهور). ومدّوا من نحو البحر حائطاً، الجبل إلى

الجبل (أي من امتداد جبل المنظر إلى جبل المنصوري) حائطاً، فيه خمسة أبواب».

ولكن ابن المجاور يزعم أن من بنى السور هم الزريعيون، وهو أمر غير صحيح، فالسور موجود منذ أيام بني زياد، وقد وصفه المقدسي عندما زار عدن في القرن الرابع الهجري (في أواسطه). وربما تهدم السور البحري بسبب الأمواج التي كانت تشتد وأن بني زريع أعادوا البناء، ثم تهدم بعد ذلك. وأعاده الزنجيلي والي الأيوبيين على عدن في القرن السابع الهجري. وجعلوا أبوابه ستّة بدلاً من خمسة، وزادوا في سمكه وقوّته، وجعل أبوابه من حديد (وسيأتي وصف منشآت الزنجيلي في عدن).

وزعم ابن المجاور أن ناخوذة (ربان وصاحب سفينة) من المغرب دخل عدن، وكانت الضرائب والعشور مرتفعة، فأراد أن يهرّب بضاعته إلى داخل المدينة. فطاف بها ليلاً ورأى داراً عالية منارة بالشموع الكثيرة، فظنّها داراً لأحد كبار التجار، فدقَّ بابها واستأذن، فدخل على صاحب الدار وقال له: إني قدمت الليلة من المغرب ولديّ بعض التحف أريد أن أخفيها من الداعي (سبأ بن زريع)، وهو حاكم عدن. فقال له صاحب الدار: أقبل ولا تخف من الظالمين، فنقل بضاعته وسلعه الثمينة إلى الدار. فلما أصبح الناخوذة وجد أن صاحبه هو الداعي نفسه (حاكم عدن) فقال لنفسه: خفت من المطر فوقعت تحت الميزاب.

ولكن الداعي أكرمه ووهبه عشور مركبه، والدار التي نزل بها وألف دينار ينفقها في عدن. ثم أمر أن يشيّد سور من جبل (الخضراء) إلى جبل (حقات) فأدير سور ضعيف انهدم بفعل الموج، فأدير عليه سور ثانٍ من القصب المشبك. وبقي حتى أعاد بناءه أبو عثمان عمر بن عثمان الزنجيلي في عهد الدولة الأيوبية[1].

(١) ابن المجاور: تاريخ المستبصر، ص ١٢٦ – ١٢٨.

وذكر ابن المجاور صهريج بني زريع في كتابه تاريخ المستبصر[١] فقال، كما ينقله حسن صالح شهاب في كتابه عدن فرضة اليمن[٢]:

صهريج بني زريع

ينسب ابن المجاور **أحد صهاريج عدن الكبيرة إلى بني زريع، ويقع – كما قال** – «**على طريق (الزعفران، أيمن الدرب، في لحف الجبل الأحمر**».

ويطلق اسم الزعفران اليوم على شارع أو حارة في قلب مدينة عدن تقريباً. ويطلق ابن المجاور هذا الاسم **على بئر في عدن يصف ماءها بأنه عذب فرات، كان يصنع منه نبيذ جيد. وبجوار البئر صهريج كبير آخر ينسب عمارته إلى الفرس. ويتضح من هذا الوصف أن موقع كل من بئر الزعفران والصهريجين، كان بجوار مجرى السيل المنحدر من جرف (الطويلة)، حين نزول الغيث الغزير بعدن. ومن المياه المتسربة من مجرى السيل إلى باطن الأرض تكوّن ماء بئر الزعفران العذب. وبلحف الجبل الأحمر**، أي الجبل ذي الصخور الحمراء، يقع الصهريج الذي تنسب عمارته إلى بني زريع، وهو على الطريق إلى (الزعفران)، أيمن الدرب، أي الحائط، الذي كان – كما يبدو – قائماً على طول حافة مجرى السيل، أو الوادي، ليحول دون تدفقه إلى أحياء المدينة، ودون سقوط الأطفال، والمشاة بالليل إلى بطن الوادي.

ويستدل على **كبر صهريج بني زريع بقول** ابن المجاور أن السيل «يقلب؟ إليه يومين. ويضمّن كل عام بسبع مئة دينار». «وضمن بعضهم هذا في منتصف ربيع الآخر سنة اثنين وعشرين وست مئة بألف وثلاث مئة دينار».

(١) المصدر السابق، ص ١٣١ – ١٣٣.

(٢) حسن صالح شهاب: «عدن فرضة اليمن»، ص ٩٨ – ١٢٠.

الصادرات اليمنية (نقلاً عن حسن صالح شهاب: عدن فرضة اليمن)

الفوّة

أهم السلع اليمنية، التي كانت تدخل إلى عدن من البر وتصدر إلى الهند، في عهد بني زريع، سلعتان: **الفوّة والخيل. والفوّة نبات عشبي** له عروق **حمر دقاق طوال يصبغ بها**[١]. وكانت زراعتها مربحة بسبب ما تلقاه من رواج كبير في الهند. بحيث **أن قطعة الأرض (الجريب) التي كانت تغل، إذا زرعت حنطة أو شعيراً ما قيمته خمسة دنانير ملكية، أصبحت تغل، إذا زرعت فوة، ما قيمته ستون ديناراً. فأقبل الناس على زراعتها، وتركوا زراعة غيرها**[٢]. وكانت تزرع بحيث يوافق موسم حصادها موسم سفر المراكب من عدن إلى الهند. وفي سنة ٦١٥هـ **زرع معظم جبال اليمن الخصبة فوة، وتركت زراعة الغلال. وبلغ سهر البهار من الفوّة سنة ٦٢٢هـ ستة وسبعين ديناراً**[٣]. **وكانت ترفع من عدن كل سنة خزانة من ضرائب الفوة عند دخولها إلى عدن من البر، تبلغ مئة وخمسين ألف دينار، قد تزيد أو تنقص**[٤].

وبقيت الفوة تصدر إلى الهند إلى ما بعد تدخل الأساطيل البرتغالية في المياه الشرقية في نهاية القرن الخامس عشر الميلادي. **فقد ذكر بافقيه الشحري في كتابه (حوادث السنين)، أن سفينة حربية برتغالية قبضت على مركب في ميناء الشحر سنة ٩٣٥هـ ، كانت به شحنة من الفوة فاستعاده مالكه من البرتغاليين في (حَيْرِيج) مقابل مبلغ ثمان مئة وألف دينار أشرفي.**

---

(١) القاموس المحيط.

(٢) ابن المجاور، المستبصر، ص ١٧٥.

(٣) المصدر نفسه، ص ١٧٤ – ١٧٥.

(٤) المصدر نفسه، ص ١٤٤ – ١٤٥.

وفي سنة ٩٤٧هـ باغتت سفينتان حربيتان للبرتغاليين أحد المراكب العربية في ميناء (حيريج)، كان يحمل شحنة من الفوة أقلع بها من (المخا) يريد الهند. ولم يطلق البرتغاليون المركب إلا مقابل مبلغ كبير دفع لهم عند وصولهم إلى ميناء (قشن) بساحل المهرة[1].

الخيل

وكان للخيل مثلما للفوة من الرواج في الهند. ومعظم الخيول التي تصدر إلى الهند من عدن كان يؤتى بها من منطقة تهامة، من زبيد شمالاً، المعروفة عند اليمنيين ببلاد الشام. قال الخزرجي في (**العقود اللؤلؤية**): «وفي سنة ثمان وخمسين [وسبعمائة] وصلت التجار من **الجهات الشامية** بعدة من الخيول يريدون بها موسم عدن، كما جرت عاداتهم. فلما دخلوا (فشال) رأتها الأشاعر، ونظروا انتشار الفساد في البلاد، فأخذوا الخيل الواصلة إليهم بأسرها[2]. وللخيل في عدن مكان، تربط به قبل تصديرها إلى الهند، يعرف بمرابط الخيل، لم يحدد ابن المجاور موقعه. وكانت الضرائب التي تؤخذ على الخيل عند خروجها من عدن إلى الهند، تبلغ حوالي مئة وخمسين ألف دينار كل عام[3].

الكندر والمر

نلاحظ أن السلع التي اشتهرت اليمن بإنتاجها، وكانت من أهم مصادر

---

(١) بافقيه الشحري، حوادث السنين، حوادث سنة ٩٤٧ هـ (مخطوط).

(٢) الخزرجي، العقود اللؤلؤية، ج ٢، ص ٩٠. والمقصود الجهات الشامية أي شمال اليمن. وعندما يقول اليمني: الشام، فإنه يقصد الشمال. وكذلك عندما يقول: اليمن، فإنه يقصد الجنوب. فالشام عند أهل اليمن (والعرب) هو الشمال. واليمن هو الجنوب.

(٣) ابن المجاور، المستبصر، ص ١٤٤ – ١٤٥.

ثرائها في **عصور الوثنية، مثل الكندر (اللبان)، والمرّ، والصبر، قد حلّت محلّها، بعد ظهور الإسلام، سلع أخرى كالفوة والخيل وغيرها، ولم تعد تذكر** ضمن صادرات اليمن الهامة. بل إنها لم تذكر، عند ابن المجاور، لا ضمن البضائع التي تؤخذ عليها ضرائب، ولا ضمن البضائع المعفية منها.

لكن هذا لا يعني أنها لم تعد تستعمل، أو تعرض في سوق عدن، فمن المحتمل أنها أصبحت، لقلة الإقبال على شرائها ووفرة المعروض منها في الأسواق، من السلع الرخيصة قليلة الاستعمال، لذلك أهمل ابن المجاور ذكرها.

العطور

رأينا من قبل أن عدن اشتهرت - قبل ظهور الإسلام - بصناعة أجود العطور، وظلت محتفظة بعد ظهوره بهذه الشهرة. وأن تجار البحر كانت ترجع – كما قال **المقريزي** - «**بالطيب المعمول بعدن تفخر به في السند والهند، وترتحل به تجار البر إلى فارس والروم**»[(١)].

وفي القرن السابع الهجري وجد ابن المجاور أهل عدن يشتغلون بصنع العطور، وبيعها في أسواق خاصة بها، لكنه لم يذكر العطور ضمن صادرات عدن[(٢)]. ولعل سبب ذلك يرجع إلى أنها لم تكن تنتج بكميات تجارية، وأن ما يخرج منها من الفرضة كان ضئيلاً ولغرض الاستعمال الشخصي.

الضرائب

يقول **ابن حوقل إن عشور المركب كان يضمّن «بمئة ألف وأربعة عشر ألف دينار مرابطية» كل سنة**[(٣)]. **وابن حوقل زار عدن – كما ذكرنا من قبل – في عهد بني**

---

(١) المرزوقي، الأزمنة والأمكنة، ج ٢، ص ١٦٣.

(٢) ابن المجاور، المستبصر، ص ١٣٧.

(٣) ابن حوقل، صورة الأرض، ص ٣٢.

زريع. والضمان هو **التزام بدفع ما يخمن مقداره** من الضرائب التي تجبيها الحكومة طوال العام من الجمارك وغيرها. **والضامن، وهو الملتزم بذلك، يقوم بنفسه بتحصيل الضريبة التي ضمنها، وما زاد عن المبلغ الذي التزم، أي ضمن دفعه للحكومة يكون من نصيبه. ويكون الضامن، عادة، من المقربين لدى السلطان والمشهورين في البلد، ونظام الضمان ظل قائماً في اليمن إلى عهد قريب جدًّا.**

ويذكر ابن المجاور مقدار الضرائب التي تؤخذ على أهم السلع في فرضة عدن، في أيام وجوده بها، ويقول إن هذه الضرائب استحدثت في عهد بني زريع، ويشير إلى ما استجدّ منها في أيام الأيوبيين **كضريبة (الشواني)، وهي السفن الحربية التي جاءت إلى اليمن مع الأيوبيين من مصر**، وغيرها من الضرائب، كما نلاحظ في الجداول التالية[١]:

ضرائب البهار (البهار: ٣٠٠ رطل)

البضاعة	عشور الفرضة	الشواني	خروجها من الفرضة
الفلفل	ثمانية دنانير	دينار	ديناران
الأنكزة (الحلتيت)	ثمانية دنانير		
قشر المحلب	ثلاثة دنانير ونصف		
الطباشير	واحد وعشرون إلّا ثلث	دينار	
الهيل	سبعة دنانير		
الكتان	سبعة دنانير ونصف		
الفُوَّة	ديناران (ضريبة قديمة)		
	اثنا عشر ديناراً		
	(استجدت في أيام اسماعيل بن		
	طغتكين الأيوبي)		
الحُمَر (تمر هندي)	ثلاثة جوائر		

(١) ابن المجاور، المستبصر، ص ١٤٠ – ١٤٥.

ويوزن البهار بالقبان وهو ميزان كبير توزن به الكميات الكبيرة الثقيلة من السلع.

ضرائب الفراسلة (الفراسلة: ٢٠ رطلاً)

البضاعة	عشور الفرضة	الشواني	خروجها من الفرضة
القرنفل	عشرة دنانير	دينار	
الزعفران	ثلاثة دنانير وثلث		
الكافور	خمسة وعشرون ونصف وسدس		

القماش

الصنف	العدد	ضريبة الفرضة	الشواني	ضرائب أخرى
شقق الحرير (عمل زبيد)	الشقة ٢٠ ذراعاً	نصف دينار وجائز		
الثوب الظفاري		ربع دينار وجائز		
قطع السباعي	الكَوْرَجَة ٢٠ قطعة	ديناران ونصف		
قطع الأحواك	الكورجة	ديناران ونصف		
قطع المحابس	الكورجة	أربعة دنانير		
المقاطع	العشرة	ديناران ونصف		
العقدات	الشعر	نصف وربع جائز		
الثياب الخام الهندية	الكورجة	ديناران ونصف		
فوط السوسي		ربع وجائز		
سواسي الكتان الكبار		جائزان وقيراط		
سواسي الكتان الصغار		جائزان وفلسان		
الشقة البيضاء		ثمن دينار		

سلع لا يؤخذ عشورها بمقدار وزنها

- يؤخذ على الرأس الضأن ربع دينار.
- على الحصان إذا دخل عدن من البر خمسون ديناراً، استجد في أيام الملك الناصر أيوب بن طغتكين بن أيوب، وعلى خروجه إلى البحر سبعون ديناراً.
- الحديد يؤخذ نصفه، استجد في أيام طغتكين بن أيوب سنة ثمان وتسعين وخمس مئة.
- اللاك (الرصاص) يؤخذ ربعه، ويقال ثلثه، وديناران استظهاراً؟
- قطعة النِّيل (صباغ) أربعة دنانير، وخروجها من الفرضة ربع دينار.
- عود (الدفواء؟) يؤخذ نصفه.
- المركب إذا ابتاع يؤخذ من البائع من المئة عشرة دنانير.
- قفْعَة ذرة، وهي كيس ينسج من الخوص، ثمن دينار.
- العوبلي؟ السندابوري ثمانية دنانير، ودينار شواني. ويؤخذ على العوبلي عند خروجه من باب البر نصف دينار، وهو أي نصف الدينار، لضامن دار النبيذ، [والعوبلي – كما يبدو – إناء مملوء بنبيذ من (سندابور) بالسند].

ما لا يؤخذ عليه عشور

١- الوارد من مصر: الحنطة، الدقيق، السكر، الأرز، الصابون، الأشنان، القطارة، زيت الزيتون، زيت الجار؟ الزيتون المملح، عسل النحل إن كان قليلاً، وكل ما يتعلق بالنقل إذا كان قليلاً.

٢- الوارد من الهند: الأرز، الماش المخلوط، السمسم، الصابون، المخاد، الأنطاع، المساور، الأكرار، الهليلج المربى، المغر الكلاهي، النشم، حطب القرنفل، الثياب العرابية؟ تعمل في (بادقلا)، النعال إن كانت بدون شراك، خرز (الديبول).

٣- **من الشحر**: التمر المقلف وهو الذي استخرج نواه، السمك المملح.

٤- **من الحبشة**: الماعز(١).

لكن البضاعة التي لا تؤخذ عليها ضريبة جمركية كان يؤخذ منها زكاة ودلالة، أما ضريبة (الشواني) فلم تكن – كما ذكرنا من قبل – معروفة في عهد بني زريع، وكذلك ضريبة دار الوكالة التي استحدثت في بداية عهد الدولة الرسولية.

استقبال المراكب

كانت المراكب الشراعية عند اقترابها من البلد، الذي تنتهي عنده رحلتها، تنشر الأعلام الخاصة بالبلد وبهوياتها، وعند دخولها الميناء تضرب الطبول، تحية للميناء وابتهاجاً بسلامة الوصول، مع أهازيج الفرح.

وفي بعض المراسي كانت المراكب تستقبل من قبل الولاة والحكام بالحفاوة البالغة، ترغيباً لأصحابها في التردد على المراسي، من أجل الاستفادة من التجارة معها. ففي ميناء (ظفار) بساحل عُمان الجنوبي، مثلاً، كان سلطانها يرسل عبيده ومعهم الكسوة الكاملة لكل من صاحب السفينة أو وكيله، والربان، وكاتب السفينة. وينزل هؤلاء إلى الساحل فيركبون الخيل التي أحضرت لهم، وتضرب أمامهم الطبول وتنفخ الأبواق من ساحل البحر إلى قصر السلطان. فيسلمون على الوزير وأمير الجند. ويقدم الطعام لركاب السفينة وبحارتها لمدة ثلاثة أيام، وفي اليوم الرابع يأكلون بدار السلطان. وهذه المبالغة في إكرام أصحاب السفن هي – من أجل ترغيبهم في التردد على الميناء والاستفادة من التجارة معهم(٢).

أما عدن فكان الأمر فيها يختلف عن (ظفار)، وغيرها من الموانئ التي لم تكن لها أسواق تجارية مثل سوق (عدن)، فقد كان التجار وأصحاب السفن هم الذين

(١) المصدر نفسه، ص ١٤٠ – ١٤٥.

(٢) انظر «أضواء على تاريخ اليمن البحري» للسيد حسن صالح شهاب، ط ٢.

يتسابقون بتجارتهم إلى عدن، طمعاً في الكسب الوفير الذي لا يحصلون على مثله في الأسواق الأخرى. لذلك لم يكن حاكم عدن بحاجة إلى استرضائهم، والتساهل معهم في المعاملة الجمركية، ترغيباً لهم في التردد على عدن.

وكان يعيّن لمراقبة قدوم المراكب شخص ذو بصر حاد، يجلس على ذروة جبل (الخضراء) من ناحية ساحل (أبيَن). فإذا شاهد خيال شيء في الأفق، عند شروق الشمس أو غروبها، نصب أمام ذلك الشيء عوداً، فإذا تحرك يميناً أو يساراً عن العود عرفه أنه طير، أما إذا ظل خيال ذلك الشيء ثابتاً أمام العود، عرف أنه مركب، فيشير إلى زميل له صارخاً بأعلى صوته: هوريا! فيشير هذا إلى زميل ثالث صارخاً بما صرخ به الأول، وهذا ينادي رابعاً يسميه ابن المجاور (الجراي)، فيسرع هذا إلى والي البلد ويعلمه بقدوم المركب، ثم يعلم بعده شيوخ الفرضة. ويعطى المراقبون ديناراً واحداً عن كل مركب من خزينة الفرضة. والمراقب على الجبل (الأخضر) يراقب السفن القادمة من الهند وشرقي إفريقيا والخليج العربي، أما السفن القادمة من مصر وتسمى سفن الكارم فكان المراقب يجلس على ضراس جبل (حقات)[1].

وعند دخول المركب الميناء يركب المبشرون (الصنابيق)، أي الزوارق الصغيرة، للقاء المركب ويصعدون إلى ظهره، ويسلمون على الناخوذة، ويسألونه عن الجهة التي وصل منها. ويسألهم الناخوذة عن حال البلد، وعن الوالي، وأسعار البضائع. ومن يكن له من ركاب السفينة، في البلد، أهل أو معارف، إما أن يهنئوه أو يعزوه – له وعليه – ويكتبوا اسم الناخوذة والبلد التي قدم منها، وأسماء التجار. ويقدم كاتب المركب بياناً بما في المركب من متاع إلى الوالي، ويقدمون له قائمة كاتب المركب، مع ما كتبوه من أسماء التجار،

(١) ابن المجاور: المستبصر، خريطة عدن، ص ١٢٩.

ويحدثونه بأمر المركب، وما فيه من البضائع. ثم يخرجون يطوفون بحارات المدينة يبشرون أهل من وصل في المركب من المسافرين، ويأخذ كل واحد منهم مكافأة بشارته.

فإذا أرسى المركب صعد إليه نائب الوالي والمفتشون. ويفتش الركاب واحداً واحداً، ويبلغ التفتيش إلى العمامة، والشعر، والكمين، وحزة السروال، وتحت الآباط، وما بين الفخذين. وتكون معهم عجوز تفتش النساء. وينزل الركاب في صباح اليوم التالي بأمتعتهم، من فرش ونحوه، وبعد ثلاثة أيام تنزل البضائع إلى الفرضة، فإن كانت من القماش فتحل شدةً شدة وتعدُّ ثوباً ثوباً.

إصلاحات آل زريع في عدن

لم تقم الدولة الصليحية في عدن بأية إصلاحات، وإنما كان همها الأول هو الحصول على ارتفاع (دخل) عدن. فكان الداعي الملك علي بن محمد الصليحي يأخذ هذا الارتفاع من عدن بعد أن تغلّب على بني معن سنة ٤٥٥هـ فأبقاهم على ولايتهم، بشرط أن يستمر دفع الدخل له. وفي عام ٤٥٨ تزوجت السيدة أروى على المكرم أحمد بن علي الصليحي، فجعل صداقها خراج عدن (وكان يبلغ حوالي مائة ألف دينار سنوياً قد يزيد أو ينقص قليلاً، وهذا بعد أن يأخذ حاكم عدن حصته ومصاريف الدولة). فلما قتل الداعي الملك علي بن محمد الصليحي سنة ٤٥٩هـ توقف آل معن من دفع خراج عدن فأخرجهم منها المكرّم أحمد بن علي وولى على عدن العباس ومسعود ابني المكرّم الهمداني من قبيلته وقرابته.

ولكن الدولة الزريعية قامت بإصلاحات عديدة في عدن أهمها:

(١) **العناية بالفرضة (الميناء) في صيرة**، وترتيب الضرائب، وتحديدها. والتيسير على التجار والأهالي في بعض المواد، وخاصة الغذائية، وإعفاؤها من الضرائب.

(٢) العناية ببناء السور البحري.

(٣) العناية بالأسوار وباب عدن.

(٤) كثرة بناء القصور والمساجد الحسان مما يدلّ على الرفاهية وكثرة الأموال التي تحدث عنها عمارة الحكمي بإسهاب في كتابه تاريخ اليمن (وهو معاصر للدولة الزريعية) وابن المجاور في كتابه «تاريخ المستبصر» (وقد أتى بعد زوالها بأقل من نصف قرن). كما ن المقدسي قد وصف عدن أجمل وصف في كتابه أحسن التقاسيم عندما زارها في أواسط القرن الرابع الهجري في زمن أبي الجيش إسحاق بن إبراهيم الزيادي.

وقد بنى آل زريع قصر المنظر البديع، كما أنهم أقاموا بعض الحمامات العامة الجميلة.

(٥) اعتنى آل زريع بالمساجد ويذكرون أن الداعي الملك عمران بن محمد بن سبأ بن أبي السعود جدّد بناء المسجد الجامع في عدن وجدد بناء المنبر وكتب على المنبر اسمه.

(٦) بناء صهريج كبير على طريق الزعفران (في مكب مدينة عدن) يتجمع فيه ماء المطر (وماؤه كما يقول ابن المجاور أعذب من الفرات، ويصنع منه نبيذ جيد). وبجواره صهريج آخر بناه الفرس المسلمون (من سيراف) عندما استولوا على عدن.. وكلاهما بجوار مجرى السيل المنحدر من جرف الطويلة بحيث يتسرب إليها مياه السيل ومن باطن الأرض. وقد أقام بنو زريع أيضاً درباً بجانب طريق السيل ليحول دون تدفقه إلى أحياء المدينة ودون سقوط الأطفال والمشاة في بطن الوادي في الليل.

(٧) كثرة الآبار في داخل عدن (١٨٠ بئراً) وخارجها.

مياه عدن

وصف ابن المجاور مياه عدن وآبارها وأنّ منها مياهاً عذبة جدًّا، وذكر منها بئر الزعفران المتصل بصهريج كبير يقع على طريق الزعفران، أيمن الدرب في

لحف الجبل الأحمر. وقال: «إن هذه البئر عذبة جداً، وكانت ماؤها تستخدم لصنع أجود أنواع النبيذ، بل حسب زعمه إذا ترك هذا الماء في الشمس يرجع نبيذاً، ولا يحتاج إلى عسل».

وهذا البئر والصهريج من عمل آل زريع، وهناك صهريج آخر من عمل الفرس، كما يقول ابن المجاور، ويقصد بذلك الفرس المسلمين السنّة من أهل سيراف الذين استولوا على عدن قبل حكم آل زريع.

قال الأستاذ حسن صالح شهاب: «ويتضح من هذا الوصف (أي وصف ابن المجاور) أن موقع كلٍّ من بئر الزعفران والصهريجين، كان بجوار مجرى السيل من جرف الطويلة، حين نزول الغيث الغزير بعدن، ومن المياه المتسربة من مجرى السيل إلى باطن الأرض، تكوّن ماء بئر الزعفران العذب.

وذكر ابن المجاور عدداً من الآبار الأخرى العذبة، وإن لم تصل في عذوبتها إلى ما وصلت إليه بئر الزعفران، ومنها بئر حلقم عود السلطان، وبئر علي بن أبي البركات، وبئر ابن أبي الغارات، وبئر المقدم. وثلاثة آبار لداود بن مضمون اليهودي (وكان يبيع ماءها للناس). وثلاثة آبار للشيخ عمر بن الحسين، وبئر لعلي بن الحسين الأزرقي، وبئر جعفر. وبعضها أوقاف للمسلمين وأهل عدن، وبعضها ملك لأفراد يبيعون الماء.. وذكر أعداداً من الآبار المالحة، والصهاريج لجمع ماء المطر ومجموع الآبار الحلوة بداخل عدن ١٨٠ بئراً. وأما خارجها فكثيرة وماؤها عذب ومنها بئر أحمد العشير، قديمة طيبة الماء، وبئر أحمد بن المسيب حفرت سنة ٦١٤.. إلخ.

صفات ومكارم آل زريع

وقد اشتهر آل زريع بالكرم كما اشتهر قبلهم الصليحيون، ولكنهم فاقوهم كما يبدو كرماً وشجاعة.

وقد قامت الحرب بين الداعي سبأ بن أبي السعود بن زريع وبين ابن عمه علي بن أبي الغارات وذلك بسبب تطاول آل ابن أبي الغارات وخدمهم على سبأ وسبّهم له أقبح سبّ، فتقاتل القوم بوادي لحج في بنا أبه (بالقرب من الحوطة عاصمة لحج اليوم) أشدَّ قتال، وأرسل بن أبي الغارات لسبأ يقول له: «أثبت فلا بد الليلة من تقبيل الجُشميّات» أي نساء سبأ. فاشتد القتل والطعن حتى حال بينهم سيل، فقال الداعي سبأ لابن أبي الغارات: كيف رأيت تقبيل الجُشميّات؟ فقال وجدته كما قال المتنبي: والطعن عند محبِّيهن كالقبلِ.

فاستحسن الفريقان هذا الرد. وهذا يدل على انتشار الأدب والشعر بين الفريقين من آل زريع آنذاك، بل أن الجنود والمقاتلين استحسنوا هذا الرد، مما يدل على تذوّق الشعر.

ثم صفا الأمر لسبأ وانهزم آل أبي الغارات وزال ملكهم. وتولى بعده محمد ابن سبأ. وكان كأبيه شجاعاً كريماً فوافاه الشعراء يمدحونه. فلما تولى ابنه عمران بن محمد بن سبأ بلغ الأمر ذروته، ومدحه الشعراء من كل صوب ومنهم الأديب الشاعر أبو بكر العندي الذي مدحه بقصائد كثيرة ومنها قوله:

حيّـاكِ يـا عـدن الحيـا حيّـاكِ وجـرى رضـابُ لمـاهُ فـوق لمـاكِ
وافترَّ ثغرُ الـرّوضِ فيـه مُـضاحكاً بالبِـشْر رونـقَ ثغْـرِكِ الـضحّاكِ
ووشـتْ حدائقُـه عليـكِ مطارفـاً فاختـالَ في حبَراتهـا عطْفـاكِ
فلقد خُصِصْتِ بفضلِ سرٍّ أصبحتْ فيـه القلـوبُ وهـنَّ مـن أسْراكِ

وفيها يقول:

وعلام أستسقي الحيـا لـكِ بعـدما ضـمنَ المكـرّمُ بالنـدى سـقياك
وهمتْ مكارمُهُ عليـك فـصافحتْ عـن كفِّـهِ مغنـى الغِنـا مغنـاكِ
وتأرَّجـتْ ريّـاكِ مِـسْكاً عنـدما عبقـتْ بريّـا ذكـرِهِ ريّـاكِ

إلى أن يقول:

واجلــودُ مبتــسمُ الثغــور ببذْلِــهِ أبــداً وبيــتُ المــالِ منــهُ شــاكِ
من دوحةِ الشرفِ الزريعـيّ الـذي رسـختْ بأصــلٍ في المفــاخرِ زاكــي

وقد أورد ابن الديبع في كتابه «قرة العيون» قصائد كثيرة في مدح عمران وأثنى عليه ثناءً عاطراً. ونقل ما ذكره فيه عمارة اليمني المؤرخ والأديب، فقال: «لِلَّـهِ درَّ عمران ما أغزر ديمة جوده، وأكرم نبعة عوده.. ولا يكذب من قال إن الجود والوفاء ملّة عمران، بل خاتمها».

وقال الجندي المؤرخ: إن الأديب أبا بكر العندي الشاعر الذي مدحه في هذه الأبيات (المذكورة آنفاً)، نقله الداعي عمران إلى مكة عندما مات، ودفنه في مقابرها (ربما لوصية أوصى بها قبل وفاته).

وكانت وفاة عمران بن محمد بن سبأ الزريعي سنة ٥٦٠هـ ، وهو آخر ملوك بني زريع المشهورين، وخلّف طفلين هما محمد وأبو السعود، وجعل كفالتهما إلى أبي الدُرّ جوهر المعظم (مولى عمران)، فطلع بهما إلى حصن الدُملوة (بالقرب من تعز)، وهو من الحصون المنيعة خوفاً عليهما من بطش ياسر بن بلال بن جرير المحمدي.

وكان بلال بن جرير المحمدي والياً لآل زريع على عدن، وقاتل معهم آل أبي الغارات وغيرهم ممن حاول الوصول إلى عدن. ثم تولى ابنه ياسر هذه المهمة بعد وفاة أبيه. فلما مات آخر رجالات بني زريع عمران بن محمد بن سبأ استبدَّ ياسر بالأمر في عدن وجعله لنفسه، وبقي على ذلك حتى وصل الملك توران شاه (أخو الملك صلاح الدين الأيوبي) للاستيلاء على اليمن التي تناوشتها الحروب واستبدّ بها بصورة خاصة علي بن يوسف مهدي الذي كان خارجي المذهب، ويعتقد كفر من لم يدخل مذهبه، فقتل أناساً كثيرين، واعتبرهم كفاراً، واستباح أموالهم ونساءهم. فأرسلوا إلى الخليفة العباسي يستنجدونه، فكتب إلى

صلاح الدين الأيوبي، فأرسل أخاه توران شاه في جيش من الغز (والغز أتراك شجعان كانوا في جيش نور الدين زنكي ثم في جيش صلاح الدين الأيوبي) فاقتحم توران شاه الأهوال حتى قضى على دولة ابن مهدي، كما قضى على الدويلات الصغيرة ومنها دولة ياسر بن بلال بن جرير المحمدي الذي استولى على عدن وما حولها، وذلك سنة ٥٦٩هـ. وفيها انتهى حكم آل زريع وأتباعه، وصفت اليمن لحكم الأيوبيين .

دولة ابن مهدي
والدولة الأيوبية في اليمن وعدن

بعد أن انتهت دولة الصليحيين في اليمن وشارفت دولة الزريعيين في عدن على قرب نهايتها عند وفاة آخر ملوكها المشهورين عمران بن محمد بن سبأ سنة ٥٦٠هـ استبد والي عدن من قبل آل زريع بأمر عدن وما حولها وأقام ياسر بن بلال بن جرير المحمدي دولته. كما قامت في داخل اليمن العديد من الدول المتحاربة المتقاتلة.. وكل أمير أو شيخ قبيلة له دولة؟! والأئمة الزيدية في صعدة، وحاتم بن الغشم المغلسي الهمداني على صنعاء (بعد وفاة سبأ بن أحمد الصليحي سنة ٤٩٢هـ). فلما توفي حاتم بن الغشم سنة ٥٠٢هـ تولى بعده عبدالله بن حاتم أمر صنعاء، وبقي أمر صنعاء في همدان الذين ولوا حاتم بن أحمد بن عمران بن الفضل اليامي سنة ٥٣٣هـ. وفي أيامه استولى الإمام المتوكل أحمد بن سليمان على صعدة ونجران والجوف والظاهر، وحارب حاتم على صنعاء وفشل في احتلالها وإخراجها منه. وعلى زبيد آل نجاح ثم الصليحيون ثم آل نجاح مرة أخرى في حروب مستمرة، ثم قام علي بن مهدي بن محمد الحميري الرعيني الذي قضى على دولة الأحباش من آل نجاح.

وكما ظهر علي بن الفضل القرمطي بادعاء الصلاح والتقوى، ظهر أيضاً علي بن محمد الصليحي الهمداني الإسماعيلي، وكذلك ظهر بنفس الطريقة علي (عبد النبي) بن المهدي بن محمد الحميري الرعيني.. وكان يتابع بين الحج، ويلقى العلماء والوعاظ، ويظهر العبادة والنسك والزهد مع فصاحة وبلاغة وحسن صوت وصورة، حتى استمال قلوب العامة فأحبوه لعلمه وزهده

وحسن خلقه وأدبه. ولم يكن يقبل الصدقة ولا حتى الهدية، فظهر سنة ٥٣١هـ فسامحته الحُرَّة (علم) أم فاتك المنصور (من آل نجاح الأحباش حكام زبيد)، في خراج أرضه، وخراج من لاذ به، فازدادت أموالهم حتى اجتمع له تحت إمرته أربعين ألف مقاتل. فسار سنة ٥٣٨هـ واحتل تهامة، وقتل من حاربه، ولكنه انهزم على يد القائد إسحاق بن مرزوق السحرتي فعاد ابن مهدي إلى الجبال، وأراد التحالف مع الداعي محمد بن سبأ الصليحي ضد الأحباش في زبيد، فلم يجبه إلى ذلك، فدبّر قتل القائد سرور الفاتكي سنة ٥٤٩هـ ، ثم هاجم زبيد ودخلها سنة ٥٥٤هـ ، وأباد كثيراً من أهلها. ومات بعد دخولها بحوالى ثلاثة أشهر فتولى ابنه مهدي بن علي بن مهدي، فغزا البلاد ودوّخ الملوك. فلما مات تولّى بعده إبناه عبد النبي، ومهدي بن مهدي واستباحوا بلاداً كثيرة منها لحج وعدن والجَنَد. وتوفي مهدي بن مهدي سنة ٥٥٨هـ بعد أن أصيب بمرض دعاه الديبع (الطازة)، وقال عنه الأكوع، محقق الكتاب، إنه الزُّهري. ثم استولى أخوه عبد النبي على الأمر، وهجم على المخلاف السليماني سنة ٥٦١هـ ثم تعز وصبر ومخلاف جعفر ثم إب سنة ٥٦٢هـ .

وبدأت بعض الهزائم تحل بابن مهدي عندما تحالف حاتم بن علي بن أبي السعود الزريعي وحاكم صنعاء علي بن حاتم اليامي، وانضمت إليهما قبائل همدان وسنحان ومذحج. ووقعت الهزائم بابن مهدي سنة ٥٦٩هـ ، ولكنه جمّع قواته وهجم على عدن فصدَّته، ثم هجم على زبيد واستولى عليها. فلم يلبث إلا يسيراً عندما قدمت جحافل الملك توران شاه (أخو صلاح الدين الأيوبي) في شوال من نفس السنة ٥٦٩هـ فافتتحها ونهبت زبيد نهباً شديداً وقتل عبد النبي ابن مهدي في سنة ٥٧٠هـ .

قال ابن الديبع[1]: «**كان ابن مهدي حنفيّ الفروع، خارجيّ الأصول، يكفّر**

(١) ابن الديبع: قرّة العيون، ص ٣١٧ – ٣١٨.

بالمعاصي ويوجب القتل، ويقتل من خالف اعتقاده من أهل القبلة، ويستبيح وطء نسائهم واسترقاق ذراريهم، ويجعلهم دار حرب. وكان يقتل مستمع الغناء، والمتأخر عن مجلسي وعظه الاثنين والخميس. ويقتل المنهزم من عسكره».

«وكانت هذه الرسوم على العسكر، وأما الرعايا فأمرهم ألطف، واجتمع له ملك الجبال والتهايم، وانتقلت إليه أموال اليمن وذخائرها.. وكانت دولة بني مهدي في اليمن خمس عشرة سنة وشهرين وأربعة عشر يوماً». وانتهى عبد النبي بقتله مشنوقاً سنة ٥٧١[١].

سبب وصول الأيوبيين إلى اليمن

يروي ابن الديبع[٢] عدة أسباب لقيام الملك صلاح الدين يوسف بن أيوب ابن شادي بإرسال أخيه شمس الدولة توران شاه إلى اليمن ليخضعها وهي كالتالي:

(١) **أن الخليفة العباسي الناصر لدين الله أحمد بن المستضيء بالله، تسلّم رسالة استغاثة من اليمن** كتبها الفقيه الحسن بن محمد النساخ إلى الخليفة يشكو إليه فعال ابن المهدي وتكفيره للمسلمين، ومعاملتهم كأنهم كفار في دار حرب مستبيحاً دماءهم وأموالهم ونساءهم. وأن شرَّه قد طمى ووصل عنان السماء. فأرسل الخليفة العباسي إلى السلطان صلاح الدين الأيوبي (وهو أقوى سلاطين المسلمين والذي حرّر القدس ومعظم بلاد الشام من الصليبيين) أن ينقذ المسلمين في اليمن من شرِّ ابن مهدي هذا، فاستجاب

(١) هناك روايات متعددة في وفاة عبد النبي ذكرها ابن الديبع، منها أنه قتل في معركة فتح زبيد سنة ٥٦٩ هـ. والثانية أنه أسر وقتل بعدها سنة ٥٧٠هـ. والثالثة أن بقي في الأسر إلى ما قبل عودة توران شاه إلى دمشق سنة ٥٧١ فأمر بشنقه وشنق أخويه أحمد ويحيى فشنقوا جميعاً.

(٢) ابن الديبع: قرّة العيون، ص ٣١٨ – ٣٢٠.

صلاح الدين لذلك وأرسل أخاه شمس الدولة توران شاه لتحرير اليمن من ظلم ابن مهدي.

(٢) **أن ابن مهدي قتل الشريف وهاس بن غانم الحاكم للمخلاف السليماني،** وأنه أسرف في القتل **فلجأ أخوه قاسم بن غانم إلى مصر واستنجد بصلاح الدين الأيوبي فأنجده.**

(٣) **أن ابن المهدي، بعد أن استولى على اليمن، كان يتبجّح ويقول إنه سيملك الأرض كلها، وسيقضي على الدولة الأيوبية وغيرها، فلما بلغ صلاح الدين ذلك غضب، ورأى من الحكمة المبادرة بغزو ابن مهدي، قبل أن يزداد قوة وعتوًّا.**

وربما كانت هذه الأسباب مجتمعة مع سوء سيرة ابن مهدي، وقتله للمسلمين واعتبارهم كفاراً، وأخذ نسائهم وذراريهم عبيداً، واستحلال فروج النساء المسلمات العفيفات إذا كانوا من أعدائه، ربما كانت هذه الأسباب كلها سبباً في إرسال صلاح الدين أخاه شمس الدولة توران شاه (معناها ملك المشرق) في جيش لجب إلى اليمن سنة ٥٦٩هـ.

ودخل توران شاه زبيد في شوال سنة ٥٦٩هـ بعد قتال عنيف مع قوات عبد النبي مهدي الذي قيل إنه قتل في المعركة، وقيل بل أُسر، فقتله توران شاه مع أخويه أحمد ويحيى قبل عودته إلى دمشق في رجب سنة ٥٧١هـ. وقيل بل مات حتف أنفه في الأسر.

توران شاه يستولي على اليمن ويطلب العودة إلى دمشق

وقد استولى توران شاه على زبيد أولاً لأنها مقرّ ابن مهدي، وقاتل معه الشريف قاسم بن غانم صاحب المخلاف السليماني لأنه كان موتوراً حيث قتل ابن مهدي أخاه الشريف وهّاس بن غانم. ثم نهض توران شاه إلى الجَنَد، وأخذ حصن تعز. ثم نهض لعدن فأخذها من ياسر بن بلال المحمدي الذي كان والياً

على عدن من قِبل عمران بن محمد بن سبأ. فلما مات عمران سنة ٥٦٠هـ ، استولى ياسر على عدن، فأخذها منه الملك شمس الدولة توران شاه سنة ٥٦٩هـ وغزاها برًّا وبحراً ومعه السفن الحربية الشواني. ولما دخل توران شاه عدن أنشده أبو بكر بن أحمد العندي قصيدة طويلة، وهي مليئة بمبالغات الشعراء وإسرافهم في المدح حتى حوّلوا الحكام إلى طغاة وجبابرة، وفيها يقول:

فليأتِ أرضَ الشامِ منكَ ومِصْرِها   أن قد أسرْتَ بها الملوكَ عَبيدا
ولو انّ أفلاكَ البسيطةِ أنصَفَتْ   خرَّت لِعزِّك رُكّعاً وسُجودا
ولو انها أوفتْ مقامَكَ حقّهُ   فرشتْ لمقدمكَ البقاعَ خُدودا

إلى أن قال:

فاستفِتحِ الدُّنيا بسيفِكَ إنّه   حكمُ القضاءِ مُسدّداً تسديداً
فلقد تطاولتِ البلادُ ومهّدتْ   للعزِّ منكَ واستوتْ تمهيدا
وتنافستْ فيك البقاعُ مَشارِقاً   ومغَارِباً وتهائماً ونُجودا
وتلا مدائحَكَ الزمانُ وغرّدتْ   ورقُ الحَمامِ بوصفِها تغْريدا
وبقيتَ منصورَ اللواءِ مظفَّراً   وغدا الزمانُ لما أردْتَ مُريدا
ثم الصلاة على النبيِّ محمدِ المخـ   ـتارِ ما افترَّ الزمانُ جَديدا

وهي قصيدة طويلة جداً. وهؤلاء الشعراء يمدحون كل من توصّل إلى الحكم وانتصر بالسيف، وقتل أعداءه، وخاصة إذا أغدق عليهم العطاء. وكان توران شاه وأخوه طغتكين ممن يتذوقون الشعر، بل وينشدونه ويقولونه، لهذا كان عطاؤهم جزيلاً.

ولما استتبّ الأمر لتوران شاه في اليمن أرسل إلى أخيه صلاح الدين يستأذنه في القفول والعودة إلى دمشق وأرسل بقصيدة أولها:

لــولا محلّــكَ في قلْبــي وأفكــاري ما رنَّحَ الشوقُ أعطافي وتِذكاري
ولا التفتــتُّ إلى مــصرٍ وســاكِنِها وقد تعوّضتُ عن مِصْرَ بأمْصارِ
ولا حننْــتُ إلى أرض الــشآمِ وإن كانتْ مطالِعُ أوطاني وأوطاري
ما الدّارُ إلّا دمشقَ، والمنى حلبٌ والشـ ـوقُ مِصْرٌ وفي الزور آمدا داري
تلــكَ المنــازِلُ لا لَحْــجٌ ولا عــدَنٌ ولا زبيــدٌ ولا أكنــافُ تِعْــشارِ
هــذا عــلى أن قَـدْرَ المُلْـكَ في يمــنٍ غــالٍ، ولكنّــه في دون مِقْــداري
وقــد أبــدتُ الملــوك المنتَمــينَ بِــهِ واقتــدتُهُمْ قَــوْدَ إذلالٍ وإصْــغارِ

وهكذا يتحدث توران شاه إلى أخيه صلاح الدين، حديث المشوق والمحبّ ليرى طلعة أخيه، وليرجع إلى الوطن في دمشق (ما الدار إلا دمشق) والمنى حلب، والشوق مصر، وفي الزور آمدا داري. وزور آمد من مدن الشام وله فيه أهل ودار. ثم ذكر فتوحاته وكيف أذلّ الملوك واقتادهم قود إذلال وإصغار. وهي عقلية مرفوضة في عصرنا، ولكنها مقبولة في زمنهم.

وبعد أن مدح صلاح الدين فتوحاته الجديدة التي بلغته وهو في اليمن أنهى قصيدته بقوله:

وإنْ أعظَمَ قصْدي أن أراكَ على المــألوف، بــاهرَ إشراقٍ وأنــوارِ
فكيفَ لي بــاجتِماعٍ منكَ صــافيةً منهُ الموارِدُ عنْ شوبٍ وإكدارِ

فردّ عليه صلاح الدين يرغّبه في اليمن، وأنه بلد مبارك كثير الأموال. فلما قرأ الكتاب استحضر ألف دينار وقال لأستاذ داره (المسؤول عن شؤون القصر وطلباته): اشتري لنا به قطعة ثلج فقال: لا ثلج في اليمن، فقال له اشتري لنا كذا وكذا مما لا يوجد باليمن، ثم قال: ليت شعري ما أصنع بالأموال إذا لم انتفع بها فيما أريد؟. فعاد الرسول إلى صلاح الدين فأذن له بالعودة. وفيه يقول صلاح الدين شعراً (ويبدو أنهم كلهم شعراء):

ولأنتَ فخرُ الدينِ فخْري في الـوَرى ومــــلاذُ آمــــالي وركـــنٌ أمنـــعُ
النــصرُ إن أقبلْــتَ نحْــوي مُقْبِــلٌ واليُمنُ إن أسرعْـتَ نحْـوي مُـسْرِعُ

وعاد شمس الدولة توران شاه عام ٥٧١هـ ، بعد أن مكث في اليمن ما يزيد على العام، وطّد فيها الأمن وحكم اليمن من حضرموت إلى صنعاء. وجعل نائبه على اليمن مبارك بن كامل بن منقذ (من أسرة آل منقذ التي كان لها دور في محاربة الصليبيين في الشام) حاكماً على زبيد والتهائم، **وجعل عثمان الزنجيلي على عدن ولحج وما حولها إلى حضرموت.** وجعل ياقوت التعزي في التعكر وتعز، ومظفر الدين قايماز على ذي جبلة وأعمالها. وساق معه أموالاً جمّة وخرج من صنعاء متوجهاً إلى الحجاز ومنه إلى الشام، فلما وصل قرب (أشيح) هجم عليه جيش من اللصوص، فنهبوا خزائنه (وهي جرأة كبيرة من هؤلاء اللصوص الذين يهاجمون ملكاً أخضع اليمن بأكملها في أقل من عام). فلما وصل دمشق ولّاه صلاح الدين أمرها، ثم نقله إلى الاسكندرية، وبها كانت وفاته سنة ٥٧٤هـ ، فنقلته أخته إلى دمشق ليدفن في مدرسته التي أنشأها بظاهر دمشق.

وكان نواب توران شاه يرسلون له الأموال من اليمن إلى دمشق، فلما توفي استولى كل والٍ على ما تحت يده. واستولى عثمان الزنجيلي على عدن إلى حضرموت، ثم استولى على ذي جبلة من المظفر قايماز لأنها خرجت من يده. وسيأتي الحديث عن عثمان الزنجيلي مفصلاً لأنه حكم عدن وامتد حكمه إلى حضرموت شرقاً وإلى ذي جبلة غرباً. وكانت له إصلاحات كثيرة في عدن، كما كان شديداً عندما ثارت عليه حضرموت فقتل فيهم مقتلة كبيرة.

وأما المبارك بن منقذ فضبط التهائم وزبيد. وكان بزبيد صوفي يقال له المبارك بن خلف، أقبل عليه الناس، فخشي ابن منقذ أن يعيد قصة ابن مهدي الذي تظاهر بالزهد والصلاح، ومن قبله الداعي علي الصليحي، وقد سبقهم

جميعاً القرمطي المرتد السفاك علي بن الفضل السبأي الخضري. لهذا قام المبارك ابن منقذ بقتل الصوفي المبارك بن خلف، دون أن يبدر منه شيء ضد الدولة، فأصبح ضميره يعذّبه على أنه قتل بريئاً بدون ذنب إلا أوهام ومخاوف لا سند لها ولا دليل، فلم يستطع ابن منقذ النوم حتى كاد يفقد صحته وعقله، فنصحه فقيه بأن يعيد بناء الجامع الذي بنته الحبشة من آل نجاح وهم سُنِّيون، وأن يجعل فيه الخطبة، وأن يخْرب جامع ابن مهدي، ففعل، واستراح ضميره فنام[1]. ثم استأذن المبارك بن منقذ من صلاح الدين فعاد إلى مصر واستناب أخاه خطاب ابن منقذ على زبيد. وقام صلاح الدين بمصادرة الأموال التي عاد بها المبارك بن منقذ من اليمن باعتبارها مال الدولة، وخشي صلاح الدين أن يقوم خطاب بن منقذ بالثورة فأرسل له مملوكه خطلبا ليتولى أمر زبيد واليمن. ودخل خطلبا زبيد سنة ٥٧٤هـ بعد أن دخل عدن وأطاعه الزنجيلي، ثم دخل الجَنَد وتعز والتعكير. ثم دخل زبيد فهرب منه خطاب بن منقذ ثم استرضاه خطاب وعاد كل من حكام المقاطعات إلى ولايته. فلما مرض خطلبا **وأوشك على الموت استدعى خطّاباً بن منقذ وولّاه أمر زبيد. فلما علم صلاح الدين بذلك خشي من انفلات الأمر باليمن، فأرسل أخاه سيف الإسلام طغتكين بن أيوب إلى اليمن في ألف فارس، فوصل زبيد آخر سنة ٥٧٧هـ ، فخرج خطاب بن منقذ للقائه وترجّل له سيف الإسلام طغتكين، فسارا إلى زبيد، ثم إن خطاب بن منقذ استأذنه للعودة إلى مصر فأذن طغتكين. وأخذ خطاب أموالاً جمّة، فلما رجع لتوديع طغتكين قبض عليه وصادر الأموال الهائلة التي معه، وقتله سراً بحصن تعز سنة ٥٧٩هـ.**

وأما **ياقوت التعزّي** فإنه استقبل طغتكين، وسلمه مفاتيح حصون تعزّ، فسُرَّ منه طغتكين وأبقاه على ولايته بتعز.

(١) روى هذه الحادثة ابن الديبع في كتابه قرّة العيون ص ٣٢٧ – ٣٢٨.

وأما **عثمان الزنجيلي** فإنه لما سمع بقبض طغتكين لخطّاب بن منقذ ومصادرة أمواله، خاف من المصادرة، فحمل أمواله ونفسه في البحر متجهاً إلى الشام؛ فأرسل طغتكين الشواني (السفن الحربية) من زبيد فأدركت سفنه فأخذتها، واستطاع عثمان الزنجيلي أن يفرّ بسفينته وما فيها من أموال. وبعث طغتكين والياً على عدن يدعى ابن عين الزمان.

وملك طغتكين اليمن بأكملها. ثم توجه سيف الإسلام طغتكين إلى مكة سنة ٥٨١هـ. فلما عاد من مكة هجم على حصن رجب، وكان فيه بقية آل زريع، فحاصرهم، فلما نفد الماء والطعام استسلموا فقتل منهم سيف الإسلام خمسمائة وخمسين رجلاً(١). واستولى سيف الإسلام على بلاد جنب وذمار. وقام السلطان علي بن حاتم بتخريب قصر غمدان (وهو غير القصر المشهور في الجاهلية) في صنعاء، وخرّب سورها، وأحرق الغلات، حتى لا يستفيد منها سيف الإسلام طغتكين الذي أقبل لمحاربته وذلك سنة ٥٨٣هـ. ثم إن حاتم بن سعد ابن عم السلطان علي بن حاتم الهمداني حاكم صنعاء، استطاع أن يسترضي سيف الإسلام وأعطاه ثمانين ألف دينار حاتمية ومائة حصان، فرجع عن صنعاء. ولكن صنعاء استسلمت لسيف الإسلام، كما استسلمت كل ولايات وحصون اليمن واحداً بعد الآخر.

وتوفي سيف الإسلام طغتكين بن أيوب في شوال سنة ٥٩٣هـ ، بعد أن استولى على اليمن من حضرموت إلى صنعاء إلى تهامة. وكان، كما يقول ابن الديبع، جواداً، ممدّحاً، شجاعاً لا يملُّ الحرب، منصفاً، إذا تظلّم إليه أحد وهو في موكبه أمسك فرسه، ووقف حتى يكشف ظلامته. ودان له اليمن كله، ودان له بنو حاتم بصنعاء، ودخل الجوف، وسوَّر صنعاء وزبيد، وعمّر عدة حصون باليمن. ومعظم حصن تعز من عمارته.. وهو الذي قرَّر قواعد الملك

(١) ذكره ابن الديبع إجمالاً في (قرّة العيون) وذكره الشعبي في تاريخه بتفصيل.

باليمن فضرب الضرائب السلطانية، وقنَّن القوانين. وكان فقيهاً له مقروءات ومسموعات. وهو الذي بنى مؤخر جامع زبيد والجناحين والمنارة، واختطَّ مدينة المنصورة (في ذي سفال تبعد عن الجند بمقدار ثلاث ساعات قبل الطرق الحديثة) قِبلي (أي شمال) مدينة الجَنَد[1].. **ومن مناقبه إنشاء المساجد والمبرات والمدارس والطرق والآبار.**

وكان الملك طغتكين أول من جار على أهل النخل ورفق على أهل الزرع، فأراد أن يشتري الأراضي الزراعية، وأن يؤجرها إلى من أراد حرثها، كما هي العادة في مصر، فاجتمع الصلحاء في جامع ذي أشرق فصاموا ثلاثة أيام ودعوا الله أن يفرّج عن الأمة، فلم يخرجوا إلا وهم يسمعون نبأ وفاة سيف الإسلام طغتكين في شوال سنة ٥٩٣هـ. وقيل إنه مات مسموماً. وكانت وفاة طغتكين بالمنصورة وقُبر بحصن تعز.

وتولى بعده **المعز إسماعيل بن طغتكين فمال إلى المذهب الشيعي الإسماعيلي.** وسار إلى صنعاء أول سنة ٥٩٦هـ ، فقابله الإمام الزيدي عبد الله بن حمزة، فاقتتلوا وانكسر الإمام. ودخل المعز إسماعيل صنعاء. وكان كريماً متلافاً لا يمسك شيئاً. ثم أظهر مذهبه القبيح، وأراد أن يحوّل الجند إلى مذهبه فلم يطاوعوه، فغلب عليه الشحُّ على الجند، والكرم على الشعراء وأهل المجون. وادّعوا أنه أصيب بلوثة فكان يقتل الآدميين ويأكل لحومهم[2]!؟

وادّعى المعزّ إسماعيل الخلافة، كما ادعى أنه من بني أمية (وهو أمر متناقض، فكيف يكون شيعياً من بني أميّة؟ وهو دليل على اضطراب عقله)، وخُطِب له بلقب أمير المؤمنين. وقال في ذلك شعراً (وهو شاعر كبقية آل أيوب وسلاطينهم):

(١) ابن الديبع: قرّة العيون، ص ٣٣٥ – ٣٣٨.

(٢) نفسه، ص ٣٤١ – ٣٤٤.

وإنّي أنا الهادي الخليفة والـذي يقودُ رقابَ الغُلبِ بالضُّمرِ الجردِ
ولا بدّ من بغدادَ أطوي رُبوعَها وأنـشُرُها نـشرَ الـسماسرِ للـبُرْدِ
ويخطَبُ لي فيها عـلى كـلِّ منـبَرٍ وأُظهرُ دينَ الله في الغورِ والنجْـدِ
وأنشُرُ ديـنَ اللَّــهِ بعـدَ خُمولِـهِ وأعلنُ ما قد كان أسَّـسهُ جـدّي

ولسنا ندري من يقصد بجدِّه ها هنا؟ وكيف يستقيم أنه يدّعي أنه من بني أمية؟ (وبنو أيوب من أكراد العراق، وقيل من العرب من قيس غيلان) ثم ينادي بالمذهب الشيعي (غالباً بالمذهب الإسماعيلي الفاطمي لأنه كان رائجاً في اليمن وفي مصر والشام).

واستنكر أبناء عمومته من آل أيوب في مصر والشام أفعاله. وكره أعماله جنوده، **فقتله ثُلَّةٌ منهم، من الأكراد، وذلك في رجب ٥٩٨هـ** بعد أن قاتل قتالاً شديداً هو ومملوكه شرف الدين الحبشي. وقُبِرَ في قبّة الخليفة، شرقي زبيد.

وعاد الأتابك سيف الدين سنقر من مدينة حَجَّة بعد مقتل إسماعيل بن طغتكين وأقبل إليه أنصاره، **وولّوا الناصر بن طغتكين، وكان صغيراً فتولى الأمر سيف الدين سنقر وأعادوا الخطبة لبني العباس**، وذلك في **نفس سنة ٥٩٨هـ**.

وكان سيف الدين سنقر هو الذي ربّى الناصر بن طغتكين. ويُدعى مربّي الأمير، الأتابك، فأحسن السياسة وكاتب الأكراد وصالحهم، وأقطع الأمير وردسار صنعاء، والأمير حسام الدين السيفي تهامة، ما عدا زبيد.

ودخل سيف الدين سنقر في معارك متعدّدة ليوطد الأمر للملك الناصر بن طغتكين، وفي سنة ٦٠٠هـ نزل من السماء رماد أبيض بزبيد ونواحيها (لعله ثلج)، وأظلمت الدنيا ثم نزل رماد أسود وزلازل(١). **وتوفى الأتابك سنقر سنة ٦٠٨هـ** فبقيت اليمن بين رجلين: **الإمام عبد الله بن حمزة الزيدي والأمير**

---

(١) ابن الديبع: قرّة العيون، ٣٤٥ – ٣٤٦.

وردسار الأيوبي. واصطلحا أخيراً على أن يُعطي الإمام عبد الله بن حمزة الأمير وردسار كل سنة مائة حمل موقرة حديداً من صعدة، وعشرة أفراس. وعلى أن يكون البون الأعلى والأسفل للأمير وردسار، والظاهران والجوف وصعدة للإمام عبد الله بن حمزة.

ثم توفي وردسار سنة ٦١٠هـ ، وتوفي الملك الناصر بن طغتكين سنة ٦١١هـ. وعادت اليمن إلى ولايات معتددة. وخاف النساء من بني أيوب. وكان أحد أمراء بني أيوب يدعى تقي الدين عمر الأيوبي قد ترك الدنيا وتصوّف ونوى الحج، فاستغاثت به أمّ الملك الناصر بن طغتكين، فدخل الحصن في تعز، وبايعه الجند، وأُعلن ملكاً على اليمن في ربيع سنة ٦١١هـ. وتحوّل هذا الملك المتصوف إلى اللعب والاهتمام بالجواري حتى قال لهم: «انظروا للملك غيري».

ولما بلغ الملك العادل أبو بكر بن أيوب بن شادي (أخو صلاح الدين الأيوبي)، وهو بمصر ما جرى في اليمن، جهّز حفيده المسعود صلاح الدين في جيوش عظيمة وكان في سن البلوغ، وجعل أتابكه جمال الدين فليت، فوصل زبيد في أول سنة ٦١٢هـ. واستطاع الأتابك أن يوطد الملك لمسعود الذي تزوج بنت الأمير سيف الدين سنقر.

واستمرت الحروب في اليمن إلى أن توفي الإمام عبد الله بن حمزة، **فدخل الملك المسعود الأيوبي صنعاء سنة ٦١٧هـ** ، ثم عاد إلى مصر سنة ٦٢٠هـ ، وقيل سنة ٦٢٥هـ بعد أن استولى على مكة[1]. وولّى مكانه على مصر والحجاز نور الدين عمر بن علي بن رسول نائباً عنه. وبقي آل رسول يحكمون اليمن والحجاز، ويظهرون الولاء لآل أيوب، ويرسلون لهم بالأموال، ويخطبون

(١) ذكر حسن صالح شهاب في كتابه عدن فرضة اليمن، أن الملك مسعود أخذ أموالاً ضخمة شحنها من عدن في سبعين مركباً. فلما وصل مكة، وكانت تحت حكمه، قتلوه بالسم، فلم يستمتع بأمواله ولا بملكه، ولم يصل إلى مصر (ص ١٢٣، ١٢٤).

باسمهم، ثم تركوا ذلك كله عندما ضعف حكم آل أيوب واستقلوا بحكم اليمن والحجاز وأظهروا الدولة الرسولية التي كانت من أقوى الدول في اليمن في العهود الإسلامية وأطولها بقاء.

الأمير الزنجيلي في عدن

(وفاته بعد سنة ٦٢٦هـ/ ١٢٢٩م) وحَكَم عدن من سنة ٥٧١ – ٥٧٩هـ

عندما قدم الأمير توران شاه (أخو صلاح الدين الأيوبي) للاستيلاء على اليمن، قدم إلى زبيد أولاً فاستولى عليها، ثم دخل عدن برًّا وبحراً، وأخذها من ياسر بن بلال المحمدي ومن معه من أولاد عمران بن سبأ الزريعي، **وذلك سنة ٥٦٩هـ**. واستخدم الشواني (وهي سفن حربية) لمهاجمة عدن، فلم تستطع عدن مقاومته آنذاك.

وجعل توران شاه حكم عدن، وما حولها، إلى حضرموت لأبي عمر عثمان ابن علي الزنجبيلي، وقيل الزنجيلي نسبة إلى زنجيلة، قرية من قرى دمشق. وعُرف أيضاً باسم الزنجاري لأن مدرسته في دمشق عرفت باسم المدرسة الزنجارية(١). ولا شك أنه من أهل دمشق وضواحيها فمولده ووفاته بها. وينسب أيضاً إلى تكريت بالعراق، وقد نسبه ابن المجاور لها، وأهله من العراق من الأكراد، هاجروا إلى دمشق وتوطنوها.

وقد ظهر في الدولة الزنكية (نور الدين زنكي) ثم سار مع شيركوه وصلاح الدين الأيوبي إلى مصر فصار من رجال الدولة الأيوبية(٢). ولهذا عندما فتح الملك توران شاه عدن، عيّن فيها عثمان الزنجيلي والياً عليها وعلى ما حولها إلى حضرموت.

---

(١) د. عبد الرحمن الشجاع: «الأمير الزنجيلي وأعمال العمرانية في ثغر عدن». ندوة (عدن بوابة اليمن الحضارية – يناير ٢٠١١) ص ١١ – ٢٤.

(٢) المصدر السابق.

وتوجه عثمان الزنجيلي إلى حضرموت سنة ٥٧٥هـ ليخضعها، وكانت أغلب حضرموت تخضع لحكم آل راشد، وهم أسرة من بني قحطان من حِمْير، وينتسبون إلى سبأ الأصغر (حكموا حضرموت من سنة ٤٠٠ إلى حوالى سنة ٧٠٠هـ مع قيام دول أخرى وضعف دولتهم ثم قيامها مرة أخرى، كما يقول الشاطري) [(١)].

واحتل عثمان الزنجيلي الشحر، ثم تقدم حتى احتل حضرموت، وجعل أخاه الأسود (أو سويد) نائباً، وأبقى آل راشد على ملكهم ليؤدوا له الخراج وينفّذوا أوامره، فلم يرقهم ذلك فخلعوه وحاربوه وأيدهم بعض العلماء، فهاجمهم الزنجيلي وأسر السلطان عبد الله بن راشد وأخاه أحمد وأرسلهما إلى عدن، ثم أطلقهما مع آخرين سنة ٥٧٦هـ . وقام الزنجيلي بإخضاع الثوار ومن أيدهم فقتل منهم عدداً كبيراً. كما كان في حضرموت عمر بن مهدي أحد أسرة آل مهدي الخارجية التي من أجل القضاء عليها أرسل السلطان صلاح الدين الأيوبي أخاه توران شاه إلى اليمن فقضى على آل مهدي في زبيد واليمن. وبقي عمر بن مهدي في حضرموت ومعه بعض الأنصار. ومعلوم أن الأباضية (وهم أقل فرق الخوارج تعصباً) كانوا في حضرموت وكانت لهم دولة في شبام. وبقي مذهبهم في حضرموت مع ضعف فيه، بعد مقتل طالب الحق.

واستطاع الزنجيلي أن يقضي على هذه الثورة، وعلى قوات عمر بن مهدي الخارجي. ويقول الأستاذ محمد الشاطري في كتابه أدوار التاريخ الحضرمي أن الذي قضى على عمر بن مهدي الخارجي هم القبائل النهدية، وليسوا الغُزّ (وهم الأتراك الذين جلبهم توران شاه لقتال أهل اليمن). وقد تم ذلك سنة ٦٢١هـ[(٢)]. ولم تستسلم حضرموت والغزّ للزنجيلي بل كانت فيها ثورات من

---

(١) محمد أحمد الشاطري: أدوار التاريخ الحضرمي، ج١/ ١٦٨ – ١٨١.

(٢) المصدر نفسه، ج١/ ١٦٨ – ١٨١. أي أن ذلك تم بعد عودة الزنجيلي إلى دمشق وهروبه من عدن.

مجموعات من الثوّار والقبائل، واستمرّت الثورات بعد خروج الزنجيلي من اليمن كلها. وقد تمّ ذلك سنة ٥٧٩هـ عندما قام سيف الإسلام طغتكينِ بمصادرة أموال خطاب ابن منقذ، ففرّ الزنجيلي بأموال من عدن في السفن. فأدركته الشواني في البحر الأحمر - وقد خرجت من زبيد بأمر سيف الإسلام طغتكين - واستولت على سفنه، ما عدا السفينة التي كان فيها، فتوجه بها إلى الشام. وقال ابن جبير إنه شاهد الزنجيلي في مكة سنة ٥٧٩هـ بعدما فرّ بأمواله، ولم يكن مطارداً من قوات سيف الإسلام طغتكين، ومعه أمواله. ولهذا فإن الدكتور **عبد الرحمن الشجاع يشك في قصة المصادرة**(١)، خاصة وأن الزنجيلي عاد إلى دمشق دون أن تصادره الدولة الأيوبية. وذكر ابن الأثير أن الزنجيلي كان على صلة دائمة بصلاح الدين الأيوبي عبر الرسائل. وفوق ذلك فإن الزنجيلي ترك أموالاً وأوقافاً كثيرة في عدن، وجعل ريعها للأعمال الخيرية والمساجد والمدارس في مكة وفي عدن.

وعاش الزنجيلي بعد عودته من عدن - كما يقول ابن كثير - فترة في القدس الشريف ووصفه بالأمير، وسمّاه فخر الدين عثمان الزنجاري البخاري؟، وروى أنه كان متولِّياً على القدس سنة ٥٩٧هـ/ ١٢٠١م، وأشرف على بناء قبة المعراج. وهذا يعني أن الزنجيلي كان ذا حظوة عند سلاطين آل أيوب في الشام(٢).

ولاية الزنجيلي على عدن

امتدت ولاية الزنجيلي من سنة ٥٧١هـ بعدما استولى توران شاه على اليمن إلى أن هرب الزنجيلي - كما يقال - من عدن، خوف المصادرة من سيف الإسلام طغتكين سنة ٥٧٩هـ.

---

(١) عبد الرحمن الشجاع: الأمير الزنجيلي وأعماله العمرانية في ثغر عدن. ندوة عدن بوابة اليمن الحضارية، ص ١١ - ٢٤.

(٢) المصدر السابق.

وكانت ولاية الزنجيلي تمتد من عدن إلى باب المندب غرباً، وقال بعضهم إلى المخا[١] وتمتد شرقاً إلى حضرموت. وهي لا شك ولاية واسعة تشمل لحج وأبين وشبوه وحضرموت والشحر.

وكان للزنجيلي دور كبير في توطيد الأمن وإرساء قواعد إدارية ومالية في هذه الولاية. وقد قسَّم توران شاه اليمن بعد أن أخضعها إلى أربع مناطق هامة هي: (١) زبيد (٢) عدن (٣) تعز (٤) جبلة، وجعل على كل منطقة منها أميراً له صلاحيات كاملة بعد أن قرَّر العودة إلى دمشق عام ٥٧١هـ. وكان الزنجيلي أحد هؤلاء القواد الأربعة الذين حكموا اليمن باسم الملك توران شاه.

فلما مات توران شاه توقف الولاة عن إرسال الأموال، فأرسل صلاح الدين مملوكه خطلبا ليضبط الأمور في اليمن، فسارع الولاة في اليمن إلى تقديم الطاعة كما تقدم، ومنهم عثمان الزنجيلي، فلما مات خطلبا أرسل السلطان صلاح الدين الأيوبي أخاه سيف الإسلام طغتكين كما تقدم.

فلما وصل طغتكين استولى على اليمن وأظهر له الولاة الطاعة، ولكنه صادر ابن منقذ بعد أن أظهر له المودة وقتله، فلما علم الزنجيلي بذلك خاف على نفسه، وشحن أمواله في سفن، ناوياً العودة إلى دمشق. ولكن سيف الإسلام أرسل الشواني من زبيد فلحقت بالسفن وصادرتها ما عدا السفينة التي كان فيها عثمان الزنجيلي، ويقال إنه توجه أولاً إلى مكة ومنها إلى دمشق، ومعه أموال جزيلة.

الدولة الأيوبية والزنجيلي وإصلاحاته في عدن

اهتمت الدولة الأيوبية بعدن لعدة أسباب:

(١) أهميتها التجارية القصوى لمصر وتجارتها مع الهند والشرق الأقصى والصين.

---

(١) عبد الرحمن الشجاع: الأمير الزنجيلي وأعماله العمرانية، مصدر سابق.

(٢) منع الخطر الصليبي الذي بدأ يتصل بالحبشة التي يحكمها النصارى.

(٣) محاربة المذهب الإسماعيلي (أتباع الدولة الفاطمية العبيدية) التي قضى عليها صلاح الدين في مصر والشام. وقد كان للمذهب الإسماعيلي دولة قوية في اليمن عهد الصليحيين وأتباعهم بني زريع الذين حكموا عدن دهراً طويلاً.

وكما أسلفنا، استولى توران شاه على عدن وعلى اليمن سنة ٥٦٩هـ وجعل عثمان الزنجيلي والياً على عدن. ورغم بطش الزنجيلي في حضرموت إلا أنه قام بالأعمال التالية في عدن:

(١) بنى العديد من الأسوار والحصون المنيعة حول عدن من البر والبحر. فمن جهة البحر مدّ سوراً متيناً من الحجارة والجصّ على طول ساحل عدن من الجبل الأخضر شمالاً إلى جبل حقات جنوباً وركّب فيه ستة أبواب من الشمال إلى الجنوب هي (**باب الصباغة**)، (**باب حومة**)، (**باب السيلة**) (ومن حومة والسيلة كانت السيول المتدفقة التي تأتي من جبل شمسان (العر) تذهب إلى البحر)، (**باب الفرضة**): ومنه تدخل البضائع الواردة من البحر إلى ساحة الفرضة حيث يتم تعشيرها ووضع الضرائب عليها، ومنه تخرج المراكب إلى عرض البحر، وباب (مِشرف)، وهو جنوبي باب الفرضة، ويعرف أيام الطيب بامخرمة **بباب الساحل**، ويظل مفتوحاً للمشاة بين المدينة والساحل. **وباب حيق، ويعرف عند أبي مخرمة، بباب (السرّ). وهو في أقصى جنوب السور. وكان لا يفتح إلا لأمر مهم، وينفذ إلى حوش (دار السعادة) وهي مقر حاكم عدن. والباب بلحف جبل النوبة**[١].

---

(١) حسن صالح شهاب: عدن فرضة اليمن، ص ١٢٥ – ١٢٦. وجبل النوبة هو امتداد جبل المنظر نحو صيرة. وكان عليه ثُلَّة من الجند في نوبات للحراسة فسمِّي جبل النوبة.

قال حسن صالح شهاب(١): والفرق بين سور الزنجيلي والسور القديم الذي وصفه المقدسي (والذي بناه بنو زريع) أن السور القديم كانت له خمسة أبواب فقط وأن سور الزنجيلي أقوى وأمتن وعليه ستة أبواب من حديد.

ويظهر سور الزنجيلي في رسم لمدينة عدن وضعه أحد البرتغاليين الذين رافقوا حملة البوكيرك في محاولته فتح عدن من جهة البحر سنة ٩١٢هـ/ ١٥١٣م، وقد ضُربت عدن بالمدافع لأول مرة في تاريخها، ومع ذلك صمدت وصدّت الهجوم البرتغالي الذي سيأتي ذكره. والغريب أن هذا السور الذي بني في عهد الزنجيلي (٥٦٩هـ/ ١١٧٤م) بقي لعدة قرون. ولا شك أنه بناء تم تجديده في العهود المتتالية حتى يصمد لعاديات الزمن والهجوم المستمر من الأعداء.

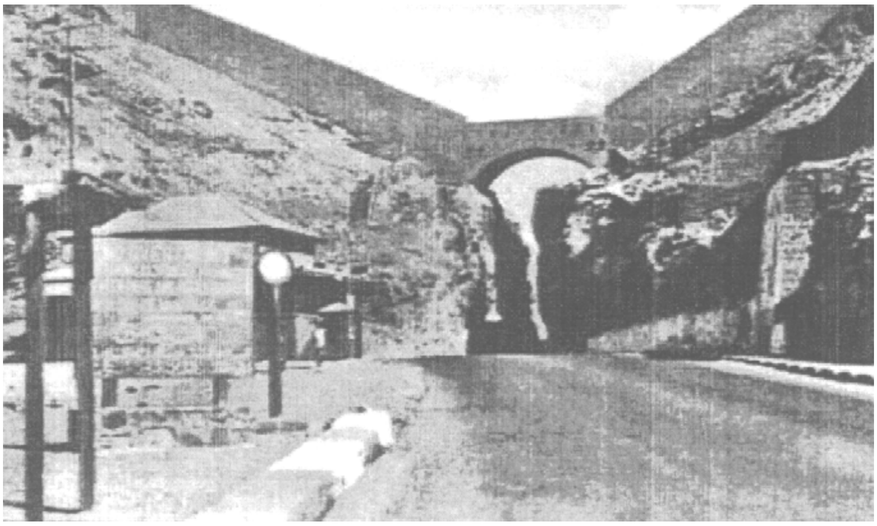
ومدّ الزنجيلي سوراً آخر فوق الجبل المحيط بعدن من جهة البرزخ، وما يعرف الآن بساحل أبين، من حصن الخضراء، المطلّ على الميناء (الخليج الأمامي) والمدينة، صاعداً على رأس جبل نحو الشمال إلى الحصن الذي فوق باب البر (باب عدن والمؤدي إلى المعلا والتواهي وخور مكسر)، وكان الحصن يعرف باسم التعكر.

وبهذا السور يتعذّر تسلّق الجبل والهبوط إلى عدن من ناحية البر، ورتبت عليه حامية. وكان الباب الذي يسدّ به الشق في الجبل (فتحة باب عدن) باب قوي من الفولاذ (كما قال المقدسي) وكل من يحاول تحطيمه يتعرض لوابل من السهام والحجارة التي يقذف بها الحراس من رأس الجبل(٢).

---

(١) حسن صالح شهاب: عدن فرضة اليمن.

(٢) المصدر السابق، ص ١٢٦.



باب عدن قبل هدم السور الذي كان عليه

باب عدن (العقبة) شصر أو فتحة في الجبل. زعم الطيب بامخرمة في كتابه «ثغر عدن» أن أول من فتح الباب شدّاد بن عاد، وجعل عدن سجناً لمن غضب عليه.

وعدَّ الهمداني في كتابه «صفة جزيرة العرب» باب عدن من عجائب اليمن التي ليس لها مثيل في الدنيا، وشبّهه بالشصر أي الطعنة (فهو طعنة في جبل). وقد تم توسيع الباب لتدخل منه القوافل وتخرج منه، ووضع عليه حراسة. وعلى قمته سور، وفي أسفله باب من حديد يغلق كل مساء ويفتح كل صباح.

وفي الصورة نرى أعلى الباب، السور الذي جدده الإنجليز عام ١٨٦٧م. وعلى اليمين للخارج من عدن من الفتحة جبل الخضراء (جبل المنصوري) وامتداداته إلى قرب ساحل صيرة، وإلى جبل حديد، وعليه عدد من الدروب. وعلى يسار الخارج من عدن (يسار الباب) جبل التعكر (شمسان) وتحته الخساف.

وقد أقيم الباب من الحديد في عهد بني زريع وتمت زيادته وتدوير السور حول الجبل في أيام الأيوبيين على يد واليهم الزنجيلي (الزنجبيلي) وقام الرسوليون بتوسعة الفتحة ووضع باب آخر حوله.

وفي عام ١٩٦٣م تم إزالة الجسر وتوسيع الباب ليتسع الطريق المسفلت للسيارات ذهاباً (خروجاً من عدن) وإياباً (عودة إليها). ثم توسيع الباب مرة أخرى بعد الاستقلال.

وأدار الزنجيلي سوراً ثالثاً على جبل (حُقّات) من طرفه الشرقي المطلّ عل الميناء، صاعداً نحو الغرب إلى جبل (العرّ) المعروف بجبل شمسان ويحيط بعدن من جهة الغرب والشمال الغربي. ويعتبر سور حقات مكملاً للسور البحري، ومهمته منع تهريب البضائع، وصدّ الهجمات البحرية من جهة خليج حُقَّات.. وبجبل حقات باب (شق في الجبل عليه سور ويقفل بباب) يؤدي إلى ساحل حقات. وهو يقع أيضاً تحت جبل المنظر والقصر الذي يسكنه عادة حاكم عدن منذ أيام بني زريع.

قال ابن المجاور في المستبصر إن الزنجبيلي ركَّب على سور (جبل حقات) باب حقات[١]. ويعلق حسن صالح شهاب على ذلك، بأن ذلك يعني أن الباب كان في السور وليس في الشق (الفتحة) الموجود الآن في الجبل[٢].

وعلى ذرى الجبال العالية المحيطة بعدن من الغرب والشمال، وهي امتدادات جبل العر المعروف بجبل شمسان، هناك آثار حصون قديمة تؤكد أن هذه الجبال لم تكن تخلو من حصون لمراقبة القادم من بعيد إلى عدن سواء من جانب البر أو البحر.

وعلى جبل صيرة حصن قديم وفيه بئر لحفظ مياه الأمطار، وكانت على الحصن حامية، ولكن ابن المجاور لم يذكره ضمن الحصون التي بناها الزنجيلي، ولعلها بنيت بعد عهده. وقول بعض الباحثين إن حصن صيرة يشبه تماماً الحصون الأيوبية في مصر والشام مما يعني أن الزنجبيلي هو الذي بناه.

(٢) الفرضة[٣]: اهتم الزنجبيلي اهتماماً شديداً بالنشاط التجاري في عدن

---

(١) المستبصر، ص ١٢٨.

(٢) حسن صالح شهاب: عدن فرضة اليمن، ص ١٢٧.

(٣) المصدر السابق.

لأن دخل عدن كله منه. لذلك قام بتوسيع النشاط التجاري وبنى الفرضة (التي تدخل وتخرج منها البضائع) وجعل الفرضة ملاصقة للسور البحري شمالي باب مشرف، وأحاط ساحتها بجدار وجعل لها بابين: باب في السور، ومنه تدخل البضائع من الميناء إلى ساحة الفرضة، وباب إلى المدينة، تخرج منه البضائع إلى المدينة بعد أن يتم وضع العشور عليها.

ويقول بامخرمة في تاريخ ثغر عدن(١) (القرن العاشر الهجري) أن موظفي الفرضة كانوا يجلسون على دكتين مسقوفتين أمام باب (دار الطويلة) غربي الفرضة وبينها وبين الفرضة فضاء، مما يعني أن الجدار المحيط بساحة الفرضة قد تهدَّم بفعل الزمن ولم يعد له وجود. وقال عن (دار الطويلة) كانت متجراً للملوك (أي حكام عدن وحكام اليمن) وصارت الآن دار صلاح بن علي الطائي (كان تاجراً بعدن)، فلما حصل الجور في أيام الناصر الغساني الرسولي هرب التجار من عدن إلى جدة والهند، وخرج صلاح بن علي إلى مينبار فاسستصفت الدولة أمواله (أي صادرتها). ولما تولى بنو طاهر حكم عدن واليمن تعلّقوا بالتجارة، وزيد فيها في أيام الشيخ علي بن طاهر زيادة كبيرة، اشتملت على مخازن كبيرة (من جهة حقات)، ثم زيد فيها زيادة أخرى من جهة شرقي الدار أيام عامر بن عبد الوهاب.

(٣) الأسواق التجارية: يقول ابن المجاور(٢) إن الزنجيلي بنى «القيصارية العتيقة»(٣) والأسواق والدكاكين، ودور الحجر، ورجعت عدن في زمانه (إلى

(١) الطيب بامخرمة: تاريخ ثغر عدن، ص ١١ – ١٢.

(٢) ابن المجاور: المستبصر، ص ١٣٠.

(٣) القيصارية **وتكتب القيسارية**، هي سوق ومكان ينزل فيه التجار الغرباء وفيه أماكن معدّة لبضائعهم، فيسكنون ويلتقون بتجار البلدة، ويبيعون بضائعهم. ويدفعون أجرة محددة لقاء إقامتهم وحفظ بضائعهم ودوابهم ومعاشهم، وقاد انتشرت هذه القيساريات في جميع مدن الإسلام الهامة.

الازدهار والنمو). فلما دخل سيف الإسلام طغتكين بن أيوب إلى عدن، أوقف ابن الزنجيلي جميع أملاكه على مكة (وهو يدل على ذكاء من الزنجيلي لأنه كان معرضاً لمصادرتها لحساب طغتكين فأوقفها على مكة وبالتالي يستحيل على الأمير طغتكين أن يستولي عليها). قال ابن المجاور: «والقيصارية مجموعة من الدكاكين متراصة في صفوف متقابلة، تضمها بناية كبيرة مسقوفة لها أبواب تقفل بالليل»[(١)]. قلتُ: وأعلى الدكاكين غرف لسكن هؤلاء التجار. وقد رأيت في القاهرة (في منطقة الأزهر) قيصارية مشابهة بهذه الطريقة وذلك في بداية الستينيات من القرن العشرين عندما كنت أدرس هناك.

وبنى ابن الزنجبيلي خاناً حوله دكاكين، كانت تعرف بسوق الخان. وكان أبو البهاء جوهر بن عبد الله العدني (أصله عبد حبشي) المتوفى سنة ٦٢٦هـ بزازاً في الخان، واشتهر بأمانته وصدقه، ثم صار من كبار العارفين الأولياء في عدن. وقبره معروف، وهو بجوار مسجده، شمال حافة القاضي بعدن (كريتر). وقد أوقف الزنجبيلي الخان على المسجد الذي بناه في عدن وعرف بمسجد الزنجبيلي.

(٤) **صناعة الزجاج والآجر**: اهتم الزنجبيلي بالصناعة وبنى مصنعاً للزجاج خارج عدن على طريق القوافل القادمة إلى عدن من البر في قرية تسمى لَخَبَه. كما بنى فيها مصنعاً للآجر. وكان ينقل منها الزجاج والآجر إلى عدن[(٢)].

قيصارية (قيسارية) اسماعيل بن طغتكين

اهتم ملوك بني أيوب بالنشاط التجاري في عدن بعد هروب الزنجيلي، وبنى الملك إسماعيل بن طغتكين قيصرية جديدة، وكل دكاكينها لبيع العطور (وكانت عدن تشتهر بالعطور منذ ما قبل الإسلام وفي العهد النبوي وإلى العهود الماضية القريبة).

---

(١) المستبصر، ص ١٣٠.

(٢) المستبصر، ص ١٤٨. ولست أدري أين (لَخَبه) هذه الآن، ولعلها في المنداره التابعة لمدينة الشيخ عثمان.

وقد قام والي عدن رضي الدين محمد بن علي التكريتي بتجديدها في عهد الملك المسعود (لعله الملك المسعود صلاح الدين بن الكامل بن العادل الأيوبي أو الملك المسعود بن المظفر الرسولي، وكلاهما حكم اليمن وعدن). وبنى هذا الوالي أيضاً حماماً فاخراً بها.

وكان من الطبيعي - كما يقول الأستاذ حسن صالح شهاب[١] - أن تزدهر التجارة بعدن، ويزداد سكانها، ويتسع عمرانها. وفي السنوات الأخيرة من الحكم الأيوبي بلغت أطراف عمارة عدن إلى باب البر[٢] (وما تحته منطقة الخساف كانت متروكة لبعض أشجار العرعر والأراك ولوجود بعض صهاريج الماء بها).

ومن أسواق عدن، التي تذكر في تلك الفترة، سوق الصاغة، وسوق الصرافين، وسوق الخان، وسوق الخزف، وسوق القصب (قصب السكر أو الحشائش الطويلة التي كانت غذاء الحيوانات).

ومن الحارات (الحافات): القطيع، الزعفران، البزازين (وكلها موجودة إلى اليوم)، وحافة الأحبوش، وحافة البرابر، وحافة الدناكل.

وأشهر مساجدها: المسجد الجامع (الذي بناه عمر بن عبد العزيز والذي أسلفنا ذكره)، **وجامع أبان** وهو أقدم المساجد في عدن، **ومسجد الزنجبيلي، ومسجد المالكية، ومسجد الشجرة، ومسجد النبي، ومسجد ابن البندار، ومسجد السعي.**

وبعض هذه المساجد اندثر، وقامت مساجد كثيرة في عدن في العهد

---

(١) حسن صالح شهاب: عدن فرضة اليمن، ص ١٢٩.

(٢) باب البر هو باب العقبة أو باب عدن. وهو شقٌّ في الجبل وكان عليه باب من حديد يتم قفله ولا يفتح إلا بأمر الحاكم، ومنه تدخل البضائع ومنه تخرج إلى لحج وأبين واليمن. وكان عليه سور وعليه حراسة، ولم يهدم السور إلا في الستينات (أيام الإنجليز) لتوسيع الطريق للسيارات.

الرسولي الذي تلا العهد الأيوبي، والعهد الطاهري الذي تلا العهد الرسولي. وسيأتي ذكرها في حينها.

بناء القصور والحمامات والدور

اشتهر قصر المنظر الذي بناه بنو زريع، ثم جدّد بناءه ووسّعه الزنجبيلي. وقد تمّ الحديث عنه في فصل الزريعيين. وكيف استولى عليه علي سالم البيض في فترة الحكم الماركسي ثم الشيخ عبد الله بن حسين الأحمر بعد الوحدة. وكل من تولى منصباً هاماً استولى على هذا القصر وجدد بناءه.

دار السعادة: بناها سيف الإسلام طغتكين بن أيوب مقابل الفرضة. وكانت دار الحكم في زمنه. وقيل إن الدار بناها أحد التجار من بني الخطباء، ثم اشتراها أو استولى عليها سيف الإسلام طغتكين. ثم آلت إلى الحكام من بني رسول الغساني. وزاد فيها المجاهد الغساني الرسولي زيادات كبيرة في اتجاه البحر. وموقعها مقابل الفرضة (الخليج الأمامي) من جهة حقات فهي مواجهة لصيرة تماماً. وفي الوقت نفسه تطل على جزء من حقات، وهو منظر بديع وجميل.

دار الطويلة: بناها أحد التجار سماه ابن المجاور (ابن الخائن) واستخدمها الحكام من الأيوبيين والرسوليين كمتجر للملوك.

دار الوكالة ودار الزكاة: وهما مما أضيفا إلى جوار الفرضة لأخذ العشور والزكاة. كما تمّ بناء حمامات كبيرة عامة وجميلة في الطريق من القطيع إلى جهة البحر.

توفير المياه والآبار في عدن

وقد اهتم كل من حكم عدن بهذه المسألة. وهناك الصهاريج منذ ما قبل الإسلام بل منذ ما قبل المسيح (عمرها كما يقال ٢٥٠٠ عام) وهي المعروفة بصهاريج الطويلة، وبنيت بطريقة فنّية تسمح للمياه المتدفقة من جبل شمسان (العرّ قديماً) بالوصول إلى البحر، ولكن بعد أن تحتجز كميات هائلة من المياه العذبة.

وهناك عشرات الآبار الحلوة الماء في عدن وربما مئات الآبار المالحة، وهي التي تستخدم في المساجد للوضوء وللغسل. وفي الفصل السابق عن آل زريع ذكر لعدد من الآبار الحلوة المملوكة والتي يباع منه ماؤها وتلك الموقوفة، ومنها ماء بئر الزعفران العذبة.

وزاد الزنجيلي في عدد الآبار وفي إيصال المياه من الحسوة واللخبة والعماد التي كانت تأتي بها الجمال.

بناء المدارس

اشتهر الأيوبيون ببناء المدارس في مصر والشام والحجاز. وكذلك فعلوا عندما احتلوا اليمن ومنها عدن. وقد بنى الزنجيلي مسجداً ووقف عليه أموال الخان (والخان منزل ينزل فيه التجار مع بضائعهم مقابل أجرة عليهم. وكانت الخانات والقيساريات منتشرة في مدن العالم الإسلامي لأهميتها للتجارة).

وقد أنشأ الزنجيلي رباطاً ومدرسة في مكة. ويقول الدكتور عبد الرحمن الشجاع إن من المتوقع أن يكون فعل ذلك في عدن التي حكمها ثمان سنوات، والتي أثرى منها[١].

وقد بنى الزنجبيلي بعد عودته من عدن مدرسة باسمه في دمشق. وهذا كله من المال الذي جمعه من عدن. ولذا فمن المتوقع جداً أن يكون قد بنى رباطاً ومدرسة في عدن كما بنى مسجده المشهور. وخاصة أن الأيوبيين كانوا يتنافسون في إقامة المدارس والأربطة والمساجد ويوقفون عليها الأوقاف الجزيلة.

---

(١) د. عبد الرحمن الشجاع: الأمير الزنجيلي وأعماله العمرانية في عدن. ندوة عدن بوابة اليمن الحضارية، ص ١١ – ٢٤.

عدن في عهد الملك الأيوبي المسعود حفيد الملك العادل أبي بكر بن أيوب

دخل الملك المسعود عدن واليمن عام ٦١١هـ، ووطد الملك لبني أيوب مرة أخرى بعد أن اضطربت الأمور، رغم صغر سنه عند ذهابه لليمن (سن البلوغ)، ولكن كان معه رجال منهم الأتابك جمال الدين فليت، وطّدوا له الملك.

ودخل الملك المسعود صنعاء عام ٦١٧هـ. وفي آخر أيامه - عندما قرّر العودة إلى مصر - ذهب إلى عدن واستدعى التجار واجتمع بهم في عدن فجاؤوا بتجاراتهم وأموالهم على أساس أنه سيأخذهم معه إلى مصر ليربحوا وتزداد تجارتهم وأموالهم. فلما جاؤوا بالأموال والتجارات والبضائع قال لهم: بيعوني هذه البضائع لتسلموا من العشور، فباعوها فأخذها منهم، وكتب لهم بأثمانها إلى الولاة في اليمن، وأحال عليهم بحوالات إلى كل ناحية، فصاحوا بالويل والثبور كما يقول ابن المجاور[1]، «فلم يلتفت إليهم، ولم يحصل لأكثرهم شيء».

وكان من جملة ما أخذه منهم:

خمسمائة صندوق من فاخر الأقمشة والملبوس، وثلاثمائة بهار (والبهار ٣٠٠ رطل) من العود الرطب والعنبر الفاخر، وأربعمائة سرية (أي جارية). ومن الجواهر واللآلئ والأحجار النفيسة ما لا ينحصر، وسبعون ألف ثوب صيني معلّم بالذهب. ومن الصنائع (أي المصنوعات) ما لا ينحصر عدده، حتى قيل إن المراكب التي أقلت هذا (كله)، سبعون مركباً[2].

---

(١) ابن المجاور: المستبصر، ص ١٤٨.

(٢) المصدر نفسه.

وقال الخزرجي[١] عن الملك مسعود أنه «كان ظالماً سيء السيرة، في رعيته سفاكاً للدماء». ولكن الله لم يمهله فمات مسموماً بمكة المكرمة، وهو في طريقه إلى مصر، فلم يستمتع بهذه الأموال التي نهبها من التجار. وكم نهب من غيرهم. ومات وهو في سن السابعة والعشرين[٢].

وقال ابن المجاور عن سكان عدن في عهده (أيام الأيوبيين) أنهم «عرب مجمّعة من الإسكندرية ومصر والريف (المقصود اليمني)، وعجم وفرس، وحضارم، ومقادشة (صومال من مقدشوه)، وجبالية (من الحجرية وتعز)، وأهل ذبحان، وزيالع (نسبة إلى زيلع في شمال الصومال)، وبربر (أي من بربرة في الصومال) وحبوش (أي من الحبشة). وقد التأم إليها (الخلق) من كل بقعة، ومن كل أرض، وتموّلوا فصاروا أصحاب خيرٍ ونِعَم».

الضرائب المستجدة في العهد الأيوبي

استمرت الضرائب المفروضة في عدن على التجار كما كانت في عهد بني زريع، والتي ذكرنا تفصيلها، وما أضافه إليها الأيوبيون.. فقد أضافوا ضريبة الشواني، وهي سفن حربية جاء بها الملك طغتكين عند استيلائه على عدن.. وكان القراصنة قد انتشروا يهاجمون السفن التجارية، فاستخدم الشواني التي أتى بها لحماية السفن التجارية، فلم يمانع التجار في ذلك حماية لبضائعهم. ولكن القراصنة اختفوا بعد ذلك، وتوطد الأمن، ولم يعد للشواني من حاجة، فكان المفروض أن تلغى ضريبتها، ولكن الأيوبيين أبقوا على هذه الضريبة[٣].

وزادت الضرائب والمكوس في آخر العهد الأيوبي زيادة كبيرة حتى أضرّت

---

(١) الخزرجي: العقود اللؤلؤية، ج١/ ٤١، ٤٢.
(٢) الخزرجي: العقود اللؤلؤية، ج١/ ٤٧ وابن الديبع: بغية المستفيد، ص ٨٥ – ٨٦.
(٣) ابن المجاور: تاريخ المستبصر، ص ١٤٢.

بعدن، كميناء تجاري، ضرراً بالغاً. وخاصة في عهد الملك المسعود آخر الحكام الأيوبيين على عدن واليمن. ففي سنة ٦٢٤هـ (في عهد هذا الحاكم الظالم، أسس دار الوكالة في عدن، وفرضت لدار الوكالة ضريبة: على الدينار الواحد قيراطاً، وعلى كل بضاعة لم يؤخذ عليها عشور يؤخذ عليها زكاة، فصارت الضرائب التي تؤخذ على البضاعة خمس ضرائب:

(١) عشور قديم، وهو مال الفرضة.

(٢) ضريبة الشواني.

(٣) دار الوكالة.

(٤) دار الزكاة.

(٥) الدلالة: وللدلال إن باع البضاعة بالتجزئة فلس على كل دينار، وإن باع جملة فله دينار واحد على كل مائة دينار.

وقد ذكر ابن المجاور[١] أن الناخوذة عثمان بن عمر الآمدي كان معه منّان من العود (والمن الواحد رطلان) من الصنف الردي، فقوّم المنّان في الفرضة بستة دنانير، وقُدِّر عشوره المعتاد للفرضة ديناراً ونصف دينار، وضريبة الشواني نصف دينار. ثم قُوّمَ العود في دار الوكالة بخمسة وعشرين ديناراً، وقُدِّرت عليه ضريبة ثمانية دنانير، فبلغ مجموع ما قُدِّر على العود من الضرائب خمسة عشر ديناراً (فرفض دفع الضريبة فصادروا البضاعة) فبقي عليه تسعة دنانير. وبعد جدال طويل وتوسط من الأمير ناصر الدين بن فاروت أعفوه من الضريبة وصادروا البضاعة.

وذكر بامخرمة في تاريخ ثغر عدن[٢] أن هذا الظلم استمر من آخر العهد الأيوبي إلى بداية عهد بني رسول، وأن أحد التجار ويدعى صلاح بن علي المقيم

(١) ابن المجاور: تاريخ المستبصر، ص ١٤٣ – ١٤٤.

(٢) بامخرمة: تاريخ ثغر عدن.

في عدن وله دار حسنة (دار صلاح) هرب من جملة التجار الذين هربوا من عدن بسبب الظلم وفداحة الضرائب. وخرج صلاح بن علي هذا إلى مينبار (المليبار هو الساحل الجنوبي من ساحل الهند الغربي المعروف اليوم بكيرالا) فاستصفت الدولة أملاكه.

ونتيجة لهذه الضرائب الجائرة، كما يقول حسن صالح شهاب[١]، كان من الطبيعي أن يقل تردد التجار على عدن ويتناقص نشاطها التجاري وكانت ترسو في عدن من سبعين إلى ثمانين سفينة سنوياً ويرفع إلى حِصن تعز (لأن عدن كانت تابعة لها) في كل عام أربع خزائن: خزانة قدوم المراكب من الهند، وخزانة سفر المراكب إلى الهند، وخزانة دخول الفوة إلى عدن، وخزانة خروج الخيل من عدن إلى الهند. وكل خزانة من هذه الخزائن مبلغها مائة وخمسين ألف دينار. وانقطع ذلك في زماننا (كما يقول ابن المجاور) هذا، سنة خمسة وعشرين وستمائة[٢] (وهو بداية تولي يوسف بن عمر الرسولي نيابة عن الملك المسعود الأيوبي الذي وصفنا ظلمه وجشعه).

وهكذا كانت عدن في بداية العهد الأيوبي تنعم بالخيرات الوفيرة، وتنعم معها الدولة، فلما زاد طمع الملك المسعود الأيوبي آخر الأيوبيين في عدن زادت الضرائب زيادة فاحشة، فهرب التجار إلى الموانى الأخرى، وخاصة ظفار المجاورة والتي لا تبعد كثيراً عن عدن.

---

(١) حسن صالح شهاب: عدن فرضة اليمن، ص ١٣٣.

(٢) ابن المجاور: ص ١٤٤ – ١٤٥.

المدارس في اليمن وعدن في العهد الأيوبي[(١)]

كانت الدراسة الدينية، بل وغير الدينية من الطب والفلك والحساب والمنطق، تدرّس في كثير من المساجد الكبيرة في العالم الإسلامي. وكان المسجد، منذ نشأته، مكاناً للتعليم منذ عهد النبي محمد ﷺ، وعهد الصحابة إلى العهود التي تلت، ولم تكن المدارس منتشرة في العالم الإسلامي، إذ كانت وظيفة المدرسة تندرج ضمن وظائف المساجد. وكان من يحتاج من الطلبة والمدرسين إلى السكن يسكنون في بيوت قريبة أو ملحقة بالمسجد.

وبدأت المدارس في الظهور في عهد السلاجقة منذ القرن الخامس الهجري، ثم ازدادت في عهد الأيوبيين الذين اعتنوا عناية كبيرة بإقامة المدارس للطلبة، وتنافس الأمراء والأميرات وذوي النفوذ والأغنياء، بل وكثير من العلماء الذين أمدّهم الله بالمال، بإقامة هذه المدارس وكانت منتشرة في الشام ومصر وفلسطين ومكة المكرمة، وهي كلها مدارس سُنّية، تدرس الفقه الشافعي والحنفي والحنبلي، وأغلب مدارس الأيوبيين كانت شافعية لأنهم كانوا أنفسهم من الشافعية.

أرسل صلاح الدين الأيوبي أخاه توران (طوران) شاه ليستولي على اليمن بسبب استيلاء علي (عبد النبي) بن المهدي بن محمد الحميري الرعيني عليها، وتحوله إلى المذهب الخارجي الذي يدعوه إلى قتل المسلمين باعتبارهم كفاراً.

(١) باختصار وإضافة عن كتاب القاضي إسماعيل بن علي الأكوع: المدارس الإسلامية في اليمن، منشورات جامعة صنعاء ١٤٠٠هـ/ ١٩٨٠م.

وقد أسرف في القتل، فكتب الخليفة العباسي الناصر لدين الله أحمد بن المستضيء بالله كتاباً إلى السلطان صلاح الدين يعرّفه الأوضاع في اليمن، ويطلب منه إنقاذ أهلها من طغيان ابن مهدي (وقد سبق شرح ذلك بالتفصيل). فقام السلطان صلاح الدين بإرسال أخيه توران شاه الذي دخل زبيد في شوال سنة ٥٦٩هـ وقضى على ابن مهدي ثم عاد إلى الشام عام ٥٧١هـ ، وجعل عثمان الزنجيلي على عدن ولحج وأبين إلى حضرموت، وجعل ياقوت التعزي في تعز وما جاورها، ومظفر الدين قايماز على ذي جبلة وأعمالها، ومبارك بن كامل بن منقذ على زبيد وما حولها. فلما مات توران شاه، استقل كل واحد من العمّال (الولاة) بما تحت يده، فأرسل صلاح الدين الأيوبي مولاه (أي عبده المحرر) خطلبا سنة ٥٧٤هـ ، ثم أرسل بعده أخاه سيف الإسلام طغتكين فوطد الدولة مرة أخرى (وصلها سنة ٥٧٥هـ) وبقي بها إلى حين وفاته سنة ٥٩٣هـ .

وكان طغتكين فقيهاً، وطالب علم، وبنى العديد من المساجد والمبرّات والمدارس والطرق. ثم تولى بعده ابنه المعز إسماعيل الذي مال إلى المذهب الإسماعيلي..

وقد بنى **الزنجيلي** مدارس عدة ورباطاً في مكة المكرمة، كما بنى مسجداً في عدن، عُرف باسمه. وبنى مدرسة في دمشق (والزنجيلي هو والي عدن ولحج وأبين إلى حضرموت من قبل توران شاه الأيوبي).

وقد كانت هناك مدارس محدودة في اليمن قبل العهد الأيوبي مثل مدرسة أبي النُّهى بناها الحسين بن علي بن عمر بن أبي النُّهى في آخر المائة الخامسة وأول السادسة في إب. ومدرسة ابن أبي الأمان في جبلة أنشأها الشيخ علي بن إبراهيم ابن الأمان سنة ٥٥٨هـ . كما قام الزريعيون والصليحيون ببناء المساجد والمدارس، وإن كانت مدارسهم تدعو إلى المذهب الإسماعيلي، إلا أنهم لم يفرضوا مذهبهم على أحد.

وفي العهد الأيوبي ظهرت المدرسة الأشرقيّة بتعز، بناها ياقوت الجمالي في عهد الملك سيف الإسلام طغتكين، أخي صلاح الدين الأيوبي. وقد بناها الفقيه أحمد بن علي بن محمد الشعبي نسباً والأشرقي بلداً. توفي وهو على تدريس المدرسة الأشرقية، لبضع وتسعين وستمائة.

المدرسة الياقوتية في ذي السفال، أنشأها جمال الدين ياقوت الجمالي. والمدرسة المجيرية في غرب تعز، بناها الأمير مجير الدين كافور التقوي، وهو أحد خدام الملك طغتكين. وكان محبًّا للعلماء، وله اشتغال بالعلم وخاصة علم الحديث، وروى عنه جماعة من الفقهاء. ومات في تعز ودفن في مدرسته.

وبنى الملك إسماعيل بن طغتكين مدرسة في زبيد، عرفت باسم الميلين والمعزيّة، وذلك سنة ٥٩٤هـ . وجدّد بناءها الملك المسعود ابن الملك الكامل (آخر الملوك الأيوبيين في اليمن) في القرن السابع، ثم أغلقها الأتابك سنقر وبنى مدرسة كبيرة تعرف باسم مدرسة ابن دحمان وتدرس المذهب الحنفي بدلاً من المذهب الشافعي الذي كان الأيوبيون ينتمون إليه.

كما بنى الملك إسماعيل بن طغتكين المدرسة السيفية في تعز، ونقل إليها جثمان والده الملك طغتكين. ودرَّس فيها العلامة علي بن حسن الأشنهي. دخل اليمن من طريق الحجاز وأقام بتعز في المدرسة السيفية، وأخذ عنه جمع من الفقهاء، وقال الجَنَدي: وصلتُ إليه، وهو يقرئ الناس كتاب الحاوي الصغير. ويروى أنه كان معيداً ثم مدرساً بالمدرسة النظامية المشهورة في بغداد.

ودرَّس فيها **محمد بن أبي بكر بن الحسين.. بن طولون.** ودخل اليمن، وتولى التدريس في السيفية بتعز ومدرسة مريم بزبيد وكان أول دخوله اليمن سنة ٨٠٣هـ في العهد الرسولي.

وله كتاب تلخيص أبي الفتح لمقاصد الفتح (أي فتح الباري لابن حجر العسقلاني) وكتاب المشرع الروي في شرح منهاج النووي.

ودرّس بها القاضي محمد بن داود الوحصي بلداً، الخولاني نسباً، في آخر عهد بني رسول. وتولى القضاء في تعز وما حولها في بداية العهد الطاهري مع استمراره في التدريس والفتوى. وفاته سنة ٨٨٦هـ.

المدرسة الفاتنيّة: بناها **فاتن بن عبد الله المعزّي الحبشي، من موالي المعزّ إسماعيل بن طغتكين**. وصحب الفقهاء وابتنى مسجداً في سهفنة، وفيه طلبة أيتام يتعلمون القرآن.

وبنى مدرسة في ذي جبلة عرفت بالمدرسة الفاتنية. ومسجد في ذي جبلة ومسجد آخر في المسانيف، وفيه قبره. **وبنى في المسانيف أيضاً مدرسة.**

مدارس بني غُليس: بناها الشيخ الفقيه علي بن محمد.. ابتنى ثلاث مدارس في وصاب، ووقف عليها من ماله ومال أخيه عمر، وجلب لها كتباً كثيرة، وجعلها موقوفة لطلبة العلم. وللمدارس الثلاث أوقاف على إطعام الطعام. فجمعت بين تعليم الناس وإطعامهم.

المدرسة الأتابكية: في غرب تعز (في بهزيم). بناها الأمير سيف الدين الأتابك سنقر بن عبد الله الأيوبي أحد مماليك طغتكين بن أيوب. وكان من محبي العلم والعلماء واستولى على الحكم بعد قتل إسماعيل بن طغتكين سنة ٥٩٨هـ.

وبنى أيضاً **المدرسة الأتابكية في أبْين. كما بنى فيها جامعاً، وجدّد جامع معاذ ابن جبل في الجَنَد، وبنى مدرسة في غرب تعز، وبنى المدرسة الرحمانية والمدرسة العاصمية في زبيد، وأوقف على جميع هذه المدارس أوقافاً جيّدة.**

ودرّس فيها **الإمام أبو العتيق أبو بكر بن جبريل العَذلي**. انتهت إليه الفتوى في تعز وأصله من السودان (من دولة عدول في أريتريا والحبشة وشمال الصومال). وتولى قضاء تعز ثم اعتذر من القضاء وعاد إلى التدريس في مدرسة أم السلطان (الصلاحية) ثم المدرسة المؤيدية. وقد تفقّه به جمع غفير، منهم

الفقيه محمد بن عبد الله الريمي شارح كتاب التنبيه (للشيرازي) وهو أحد مراجع الشافعية في الفقه، وكانت وفاة أبي العتيق سنة ٧٤١هـ في زبيد. ودرّس بها بعده عدد غفير من العلماء.

المدرسة الرشيدية (في تعز): أنشأها القاضي الرشيد ذو النون بن محمد بن ذي النون المصري (جده ذو النون المصري الصوفي الشهير). قدم إلى اليمن صحبة الملك المسعود يوسف بن الملك الكامل محمد بن أبي بكر بن أيوب آخر الملوك الأيوبيين في اليمن.

تولى أمر عدن مراراً، فحسنت سيرته واشتهر فضله، وحمدت طريقته، وكان مورداً للعلماء ومقصداً للفضلاء.

ثم ولي الوزارة للمنصور عمر بن علي بن رسول (أول ملوك الدولة الرسولية ومؤسسها). وأنشأ المدرسة الرشيدية بتعز (مدينة تعز). وبها كانت وفاته سنة ٦٦٣هـ ودفن في مقبرة تعز بالأجيناد.

ودرّس بها عدد كبير من الفقهاء والفضلاء منهم الفقيه أحمد بن عبد الدائم (الصفي الميموني) وأبو عبد الله محمد بن عثمان النُزيلي، وعلي بن محمد بن إسماعيل الناشري (وآل الناشري اشتهروا بالعلم والفقه والأدب والشعر وتولى كثير منهم منصب الإفتاء والقضاء)، وعمر محمد بن محمد المكرّم المذحجي.

مدرسة ميكائيل: في الجَنَد. بناها ميكائيل بن أبي بكر الموصلي التركماني، وكان من العلماء، فدرّس فيها عدة سنين وأوقف عليها أوقافاً كثيرة. وكان قد قدم اليمن مع الملك المسعود ابن الملك الكامل محمد بن أبي بكر الأيوبي، فولاه حكم الجَنَد، فأقام فيها والياً إلى أول دولة المظفر يوسف بن عمر الرسولي. وبنى مسجداً في رأس نقيل (جبل) سودة. وسقايتان وحوض يجري إليه الماء. وفاته في الجَنَد في عهد المظفر الرسولي. ودرّس بها عدد من العلماء.

هذه بعض المدارس المشهورة التي قامت في اليمن في العهد الأيوبي.

الدولة الرسولية في اليمن
(٦٢٥ - ٨٥٨ هـ)

تعتبر الدولة الرسولية أطول الدول في اليمن، (في العهد الإسلامي) عمراً. وقد ابتدأت من سنة ٦٢٥هـ واستمرت إلى عام ٨٥٨هـ ، أي لأكثر من قرنين وربع قرن من الزمان.

نسب بني رسول

وقد أورد الشيخ علي بن الحسن الخزرجي، مؤرخ الدولة الرسولية، في كتابه «العقود اللؤلؤية في تاريخ الدولة الرسولية» نسباً طويلاً لبني رسول، وأوصلهم إلى جبلة بن الأيهم، الملك الغساني الذي ارتدَّ وتنصّر. وهرب أيام عمر بن الخطاب، عندما كان يطوف، فداس على ثوبه شخص من الرعايا فلطمه جَبَلة، فاشتكاه إلى عمر ﷺ، فقال: إما أن ترضيه أو القصاص، فاستنكف جَبَلة وقال: أنا ملك وهو سوقة. فقال عمر ﷺ: قد سوّى الإسلام بينكما. فقال أمهلني يا أمير المؤمنين، الليلة. فدبّر أمر هروبه من مكة، ومن معه من أصحابه حتى وصل إلى أرض الروم (البيزنطيين) وتنصّر.

وقد أورد الخزرجي أبياتاً منسوبة إلى جَبَلة بن الأيهم، يلوم نفسه فيها على تركه دين الإسلام من أجل لطمة وفيها يقول:

تنصَّرت الأملاك من أجل لطمة ... وما كان فيها لو صبرتُ لها ضررْ
تكنَّفني فيها لجاجٌ ونخوةٌ ... فكنتُ كمن باع الصحيحةَ بالعورْ
فيا ليت أمي لم تلدني وليتني ... رجعتُ إلى القول الذي قاله عمرْ

ونوجز ما قاله الخزرجي (باختصار) [(١)]: «ومن ولد جبلة بن الأيهم بنو رسول ملوك اليمن. وكان اسم رسول محمد بن هارون بن أبي الفتح، وهو من ذرية جبلة بن الأيهم الغساني الذي تنصّر. ثم انتقل أحفاده ومن معهم من قومهم، إلى بلاد التركمان (وذلك أن التركمان استولوا على هذه المناطق) فسكنوا هناك مع قبيلة تدعى منجك، فأقاموا بينهم، وتكلّموا لغتهم، حتى ظنهم الناس أنهم من التركمان.

ثم خرج منهم مجموعة إلى العراق، وكان محمد بن هارون قد وجد حظوة لدى الخليفة العباسي. واختصّه برسالته إلى الشام وإلى مصر، فعرف باسم رسول واشتهر به.

وسكن بنو رسول في مصر ووجدوا لهم حظوة ومكانة عند الأيوبيين. وكانوا يقاتلون معهم فاعتبروا من القوّاد، وظهر منهم علي بن رسول (شمس الدين) وأولاده الأربعة: حسن وعمر وأبو بكر وموسى. وعرفوا بالشجاعة وخاصة والدهم علي بن رسول.

الملك المسعود الأيوبي

وفي آخر أخر أيام الأيوبيين في اليمن اضطربت الأمور بعد وفاة أيوب بن طغتكين مسموماً سنة ٦١٠هـ وقيل سنة ٦١١هـ. وكان السلطان صلاح الدين الأيوبي (الملك الناصر) قد توفي، وتولى أخوه الملك العادل أبو بكر بن أيوب بن شادي، فلما عرف أوضاع اليمن جهز ابن ابنه (حفيده) الملك المسعود صلاح الدين يوسف بن محمد بن أبي بكر بن أيوب في جيش كثيف إلى اليمن وأموال كثيرة. وكان يومئذ في سن البلوغ، وجعل أتابكه جمال الدين فليت، وأرسل معه ثلّة من القادة ومنهم شمس الدين علي بن رسول وأولاده. ودخل الملك

(١) الخزرجي: العقود اللؤلؤية، ج١/ ٢٦ – ٤٤ وابن الديبع: قرّة العيون، ص ٣٥٩ – ٣٧٨.

المسعود صلاح الدين يوسف بن محمد بن أبي بكر بن أيوب زبيد في أول سنة ٦١٢هـ، ووطّد ملكه فيها، ومعه كبار القواد، حتى دانت له اليمن بأكملها».

وقد أوردنا في الفصل السابق ما فعله الملك المسعود عندما أراد العودة إلى مصر سنة ٦٢٥هـ . فجمع الأموال الضخمة، وذهب إلى عدن، واستولى على خزانتها (أموالها)، وطلب من التجار أن يوافوه ببضائعهم ليذهبوا معه إلى مصر، فلما اجتمعوا عرض عليهم شراء بضائعهم حتى يسلموا من العشور، فاضطروا إلى أن يبيعوه ما معهم، فلم يدفع لهم شيئاً وأحالهم على الولاة في اليمن. ولم يستطع أغلبهم أن يحصل على ثمن بضائعه.

ثم خرج إلى مكة في سبعين مركباً إلى جدة. وفي مكة كانت وفاته، فذهبت تلك الأموال التي نهبها إلى غيره.

وذكرنا هناك، أن الملك المسعود وثق في أحد أبناء علي بن رسول، وهو نور الدين عمر بن علي بن رسول، فولّاه أمر اليمن عندما أراد الذهاب إلى مصر. وصار له الملك من دون إخوته لأنه استطاع أن يحوز على ثقة الملك المسعود صلاح الدين يوسف بن محمد بن أبي بكر بن أيوب، الذي اشتهر بالبطش وسرقة الأموال رغم صغر سنه. **فلما توفي المسعود في مكة بعد أخذه الأموال الكبيرة، توثق الملك لنور الدين أبو الفتح المنصور عمر بن علي بن رسول الغساني البيجي التركماني**، ورغم ذلك استمر في استعمال العملة الأيوبية (السُّكة)، والدعاء لهم على المنابر حتى تسلّم الحصون في تعز والتعكر وغيرها، ودخل صنعاء ورتَّب الأمور في اليمن كلها بما فيها أراضي الأئمة الزيدية، حيث خضع له الأمير يحيى بن عبد الله بن حمزة وإخوته، ووهّاس بن أبي القاسم، وعقدوا حلفاً وصلحاً مع الملك نور الدين المنصور عمر بن رسول الغساني، وذلك سنة ٦٢٧هـ .

الملك المنصور عمر الرسولي (٦٢٩ -٦٤٧هـ)

وعندما استقرت الأمور للملك المنصور عمر بن علي بن رسول الغساني، ودانت له اليمن، بل ومكة المكرمة والحجاز، أمر بضرب السكّة (العملة) باسمه، وأمر أن يخطب له في سائر أقطار اليمن، وذلك سنة ٦٢٩هـ .

وفي سنة ٦٣١هـ ، جهز المنصور عمر بن علي بن رسول خزانة عظيمة (أموالاً وهدايا) وعسكراً إلى مكة، إلى الشريف راجح بن قتادة، فأخرج العسكر المصري من مكة، وأرسل بهدية عظيمة إلى الخليفة المستنصر العباسي ببغداد وطلب منه أن يكون نائب الخليفة العباسي في اليمن بأجمعه، فأرسل له الخليفة ذلك مع الأعلام والتشريفات التي وصلت سنة ٦٣٢هـ بطريق البحر من البصرة.

وكان الملك المنصور عمر بن علي الرسولي الغساني يواصل إرسال الهدايا والجنود إلى شريف مكة، ومحاربة الجنود المصريين، لأن مصر كانت حريصة على الحجاز ومكة لعدة أسباب: (أولها) المكانة الدينية، (وثانيها) أن ميناء جدة كانت تأتيه البضائع بعد أن تأتي من عدن فتصل إليها ومنها إلى مصر. وكانت بضائع مصر تذهب أولاً إلى جدة، ثم بعد ذلك إلى عدن. فالتجارة بين مصر والحجاز وخاصة مكة عبر جدة، كانت في منتهى الأهمية للدولة الأيوبية.

ولم تتوقف المعارك والمناوشات والثورات في اليمن ضد الملك المنصور عمر ابن علي الرسولي وهو أمر معتاد، منذ فترة طويلة في تاريخ اليمن، وكذلك الحجاز، إلا أنه استطاع أن يخضعها لحكمه مرَّة بعد مرَّة. وذهب الملك المنصور بنفسه إلى مكة سنة ٦٣٥هـ ليوطّد ملكه فيها. وبذل الأموال، فانضم إليه كثير من جند مصر، مع تحالفه مع شريف مكة. وخضعت له المدينة أيضاً وتصدَّق بمالٍ جزيل لأهل الحرمين الشريفين، ودفع أموالاً كبيرة لإقامة المساجد والمدارس، وجعل لها أوقافاً، فأحبَّه الناس. وبقي في الحجاز حتى نهاية سنة ٦٣٦هـ ، فلما عاد منها قام صاحب المدينة الشريف شيخه بالثورة على حكم

المنصور، وهاجم مكة سنة ٦٣٧هـ واستولى عليها، فأرسل الملك المنصور عمر جنداً كثيفاً، ففرَّ الشريف شيخه إلى مصر.

ودخل الملك المنصور مكة مرة أخرى سنة ٦٣٩هـ ، وصام بها، وأبطل المظالم والمكوسات عن مكة المكرمة، ورجع السنة التالية ٦٤٠هـ إلى اليمن.

وفي سنة ٦٤١هـ ، عمّر المدرسة المنصورية بمكّة المكرَّمة.

واستولى المنصور على اليمن الأعلى والأسفل ودانت له البلاد. ولكن الأمور في اليمن لا تبقى على حال ولو لبضع سنين. ففي عام **٦٤٦هـ** ، قام الإمام أحمد بن الحسين القاسمي وتحالف مع أولاد محمد بن حمزة فحاربهما الملك المنصور عمر بن علي بن رسول، واستمرت الحرب و انتصر الملك المنصور حتى استولى على صنعاء وأخضع المتمرّدين.

وفي العام نفسه، قام والي مكة فخر الدين بن السلاح بإعادة المكوس والجبايات فعزله الملك المنصور، وقام الشريف أبو سعيد بمنع الوالي من الهروب بالأموال إلى العراق كما كان يريد، فشكره المنصور على ذلك.

وفي الرابع من شوال سنة ٦٤٧هـ ، استشهد الملك المنصور نور الدين عمر علي بن رسول في قصر الجَنَد. وثبَ عليه جماعة من مماليكه فقتلوه، ولم يكن عنده أحد من أولاده. وكان سبب ذلك مؤامرة دبَّرها ابن أخيه أسد الدين محمد بن الحسن لأن عمه كان قد أقطعه صنعاء وأراد أن يعزله بابنه المظفر، فحقد عليه ودبّر قتله.

ومن مآثر الملك المنصور عمر بن علي الرسولي مدرسة بمكة المكرمة، ومدرستان بتعز (الوزيرية والغرابية)، ومدرسة بعدن، وثلاث مدارس بزبيد: شافعية، وواحدة حنفية، ومدرسة للحديث النبوي، **ومدرسة بالمنسكية بسهام. ورتَّب في كل مدرسة إماماً ومدرّساً ومعيداً، ومؤذنين، ومعلماً، وأيتاماً يتعلمون القرآن، ووقف على كل ما يقوم به.**

وابتنى في كل قرية من التهائم مسجداً وجعل لها أوقافاً. وله عشرات الحصون والطرق والمصانع وعمارة البرك والآبار.

وكان الملك المنصور حنفي المذهب ثم صار شافعياً، وله من الولد ثلاثة: المظفر وهو أكبرهم (ولد بمكة سنة ٦١٩هـ) وهو الذي تولى الملك بعده، والمفضل والفائز.

وكانت **مدة ملك الملك المنصور عمر بن علي الرسولي ثمانية عشر عاماً استقلالاً**، لأنه كان يحكم قبل ذلك باسم الملك المسعود الأيوبي.

ولما توفى المنصور عمر بن علي بن رسول، سار المماليك بأسرهم إلى زبيد ثم إلى مدينة فشال، وكان بها الأمير أبو بكر بن الحسن بن علي بن رسول، أخو أسد الدين محمد بن الحسن، فلقّبوه المعظّم، وحلفوا له بالولاء، وقصدوا مدينة زبيد فحاصروها حصاراً شديداً، وكان بها يومئذ الأميرة (الدار شمسي) أخت الملك المظفر ووالدته، والطواشي (وهو العبد المخصي المسؤول عن نساء الملك) بدر الدين الملقّب بالصغير. وكان محبوساً بزبيد، سجنته زوجة الملك المنصور عمر بن علي بن رسول المعروفة (ببنت جوزة) لأنه يوالي المظفر يوسف بن عمر ابن علي بن رسول (الابن الأكبر للمنصور علي بن علي) ولا يوالي ابنيها المفضل والفائز. فلما مات الملك المنصور قامت أخت الملك المظفر (الدارشمسي) بإطلاق سراحه، وأعطته مالاً جزيلاً، فاستخدم الرجال، وأغلق المدينة وحفظ أسوارها، ورتّبَ المقاتلة، وحارب المماليك والأمير قائماز (مملوك). واستمر الحصار حتى سمعوا بالمظفر يوسف بن علي بن عمر رسول قادمٌ بجيش كثيف إلى زبيد، فارتفعوا حينئذ.

الملك المظفر يوسف بن عمر بن علي بن رسول (٦٤٧ -٦٩٤هـ)

كان للملك المنصور ثلاثة أبناء هم المظفر يوسف (وهو الأكبر)، والمفضل والفائز وهما من زوجته بنت جوزة التي كانت لها حظوة كبيرة عند المنصور، فجعلته يقرّب أبناءها ويبعد المظفر، وخاصة المفضّل حتى حلف الجند له

بالولاء (وولاية العهد بعد أبيه) حتى ضاق المظفر، وهمّ بالخروج إلى العراق، فسمع بمقتل والده وانحياز المماليك إلى ابن عمه أسد الدين محمد بن الحسن، وقيام الإمام الزيدي أحمد بن الحسين وانتشار أمره في البلاد، واستيلاء أخويه المفضل والفائز على الحصون والخزائن، فعزم الملك المظفر يوسف بن عمر على استعادة ملكه الذي ينبغي أن يكون له. وكان له من المحبّة في القلوب، وخاصة الجند، ما مكَّنه من ذلك مع همة عالية وشجاعة فايقة، وكرم غامر.

وكان خروجه بإشارة من الشيخ الجليل العلامة المشهور بالولاية أبي الغيث ابن جميل، فسار العرب والناس في صفه بعدما رأوا موقف الإمام أبي الغيث ابن جميل ينحاز له ويؤيده.

وتوجه أولاً إلى محاربة ابن عمه فخر الدين، فاضطرب أمره وتخلى مماليك فخر الدين عنه، وانضموا إلى الملك المظفر يوسف بن عمر فأسروا فخر الدين وسلموه إلى المظفر.

ودخل المظفر زبيد غرّة ذي الحجة سنة ٦٤٧هـ في موكب عظيم، ومدحه الشعراء. ثم خرج، فاستولى على لحج وعدن وأبين وحصون المعافر كلها، ثم استولى على تعز وحصن يمين ومنيف وجبا وحصن رجب، وذلك كله سنة ٦٤٨هـ.

وفي هذه الأثناء، اتفق الإمام أحمد بن الحسين والأمير أحمد بن عبد الله بن حمزة (من الأئمة الزيدية) وهجموا على صنعاء، وكان يحكمها أسد الدين محمد ابن الحسن (ابن عم المظفر يوسف بن عمر بن علي بن رسول)، فخرج منها، واستولى الإمام أحمد بن الحسين على صنعاء، ثم على ذمار وجهاتها. وكان أسد الدين محمد بن الحسن بن علي بن رسول في براش، وهو يقاتل الإمام أحمد بن الحسين، فلما طال عليه القتال أرسل أسد الدين إلى الأمير أحمد بن عبدالله بن حمزة فأشار إليه أن يرجع إلى ابن عمه الملك المظفر، فخرج بجيش كثيف إلى الملك المظفر وقام بنو حاتم بالصلح بين المظفر وأسد الدين فاصطلحا.

وطلع المظفر إلى صنعاء في آخر سنة ٦٤٨ هـ وتسلم حصن التعكر، وقدم اثنان من أعمام المظفر إلى تهامة في سنة ٦٤٩هـ وهما الحسن وأبو بكر ابني علي بن رسول، فأمر بإكرامهما غاية الإكرام، ولما اجتمع بهما، أمر بحبسهما بحصن تعز.

وكتب المظفر إلى الخليفة العباسي المستعصم مع هدايا سنيّة وأموال جزيلة، يطلب منه الاعتراف به حاكماً على اليمن والحجاز ليحل محلّ أبيه الملك المنصور. فأجابه إلى ذلك، فلما وصل رسول الخليفة إلى براقش (في اليمن) جاء الخبر بدخول التتار بغداد، وقتل هولاكو للخليفة المستعصم، وقتل أهل بغداد. وكانت تلك الواقعة، أعظم وقعة ونكبة حلّت بالمسلمين.

وفي سنة ٦٥٠هـ ، دخل أسد الدين محمد بن الحسن في طاعة الإمام وباع عليه حصن براش بمائتي ألف درهم، وانتقض الصلح بين الإمام أحمد بن الحسين والسلطان المظفر يوسف بن عمر بن رسول.

واستولى المظفر على الدملوه ودانت له البلاد. وعاد أسد الدين محمد بن الحسن إلى ابن عمه، فسيّره في جند كثيف إلى صنعاء. فلما علم به الإمام خرج من صنعاء، وبذلك دانت اليمن للمظفر، وأعاد المظفر حكمه في الحجاز واستولى على مكة. ولكن مكة ثارت على الوالي الذي أرسله المظفر وهو الحسين ابن عليّ برطاس وذلك سنة ٦٥٣هـ فعاد إلى اليمن سالماً.

وفي سنة ٦٥٤هـ ، ظهرت النار بالمدينة، وهي النار المشهورة التي شوهدت من الشام. وقد أخبر بها النبي ﷺ. وسببها ثوران براكين الحرّة بالمدينة المنوّرة. وفي رمضان من السنة نفسها، احترق المسجد النبوي ما عدا محل القبر الشريف. وفي سنة ٦٥٥هـ احتلّ المظفر دثينة (بلاد الجحافل) وتوابعها.

وفي سنة ٦٥٥هـ ، اجتمع علماء الزيدية وعابوا على الإمام أحمد بن الحسين وأنكروا أفعاله ثم قاتلوه وقتلوه. قال الجَنَدي: قتل في اليوم الذي قُتل فيه الخليفة المستعصم ببغداد من قِبَل هولاكو.

واستتبت الأمور للمظفر يوسف بن عمر الرسولي واستولى على حجة، وصارت صنعاء تحت حكمه فولّى عليها الأمير علي بن يحيى العنسي (سنة ٦٥٧هـ).

وتوفى الأمير الحسن بن علي بن رسول (عم المظفر) سنة ٦٦٢هـ ، ومن مآثره المسجد بعكار. وتاب ابنه الأمير أسد الدين محمد بن الحسن في السجن ونسخ كتباً كثيرة ومصاحف. ومن مآثره مدرسة في مدينة إب وأوقف عليها وعلى الدرسة (الطلبة) والأساتذة أوقافاً جمة. وكانت وفاته سنة ٦٦٦ هـ.

وفي سنة ٦٥٩هـ ، حجّ الملك المظفر يوسف بن عمر بن علي بن رسول وكسا البيت المعظم بعد أن تشرف بغسله بنفسه، وتصدَّق بصدقات واسعة ثم عاد إلى زبيد سنة ٦٦٠هـ .

وتسلم الملك المظفر الحصون المختلفة المنيعة مثل المصنعة وعزّان، وجميع حصون المخلافة وحصون العرائس وحصن براش في صعدة.

وحصلت مجاعة في حضرموت، فذهبوا إلى صاحب ظفار (سالم بن إدريس الحبوظي) وطلبوا منه المدد والطعام، فأعطاهم الميرة مقابل أن يسلّموه حصونهم، فلما رجع إلى ظفار استعادوا حصونهم، فتألم لذلك. وكان الملك المظفر قد أرسل هدية إلى ملك فارس في عدة سفن، فطرحتهم الريح بساحل ظفار. فاستولى صاحب ظفار سالم بن إدريس الحبوظي على الهدايا القيمة واعتبرها غنيمة له، وتعويضاً من الله على ما أنفق من مال على أهل حضرموت. فأرسل له المظفر يطالبه بإعادتها، فأبى، ثم جهز سالم بن إدريس الحبوظي من ظفار سفناً وجيشاً للاستيلاء على عدن. فغضب المظفر وقدم إلى عدن وأشرف بنفسه على تهيئة أسطول بحري كبير وأنفق أموالاً ضخمة لذلك وجهز جيشاً ومراكب. وسار إليهم قائده الأتابك أزدرمر في ثلاث فرق:

(١) فرقة بطريق البحر ومقدمهم الأمير سنجر الترنجلي[١] نقيب المماليك البحرية.
(٢) فرسان العرب وعددهم ثلاثمائة وأخذوا طريق حضرموت بقيادة الشيخ بدر الدين عمر الجنيد.
(٣) طريق الساحل وهم أربعمائة فارس، ومقدمهم الأمير حسام الدين لؤلؤ النويري[٢] وهو أمير العلم المنصوري.

واجتمعوا جميعاً في (ريسوت) (ميناء المهرة وقريب من ظفار)، فتقابل جيش الملك المظفر وجيش سالم بن إدريس الحبوظي. وقتل الحَبوظي، ثم طلب أهل ظفار الأمان، فأمّنهم ودخل الأمير ظفار، وخُطب للملك المظفر على منابرها وقُبِضَ على كافة بني الحبوظي (حكام ظفار) وحُملوا إلى زبيد. وتسلَّم العسكر السلطاني مدينة شبام بحضرموت ومنطقة ظفار (الحبوظي)، واستسلم آل يماني وغيرهم فأكرمهم والي حضرموت الجديد محمد بن محمد بن ناجي وخضعت البلاد للملك المظفر.

ولما قتل سالم ابن إدريس الحبوظي تمّ الملك للمظفر يوسف بن عمر الرسولي وأرسل له ملك عُمان وملك الصين وملوك الهند الهدايا.

وفي سنة ٦٨٥هـ، ضُرِبَتْ السِّكَّة المظفّرية بصعدة، ونزل أميرها الشريف علي بن عبد الله بن الحسين بن حمزة إلى الباب السلطاني فتلقاه الملك المسعود حسن بن الملك المظفر يوسف بن عمر وأكرمه.

ولما انتقضت مناطق بالقرب من صنعاء، أرسل الملك المظفر يوسف بن عمر ابنه الأشرف عمر بن يوسف والياً على صنعاء، فدخلها الأشرف وخرّب بلاد الثائرين تخريباً شديداً. فكانت صنعاء وما حولها إقطاعاً للأشرف وذلك منذ سنة ٦٨٥هـ.

---

(١) ذكر حمزة لقمان في تاريخ عدن، أن قادة الأسطول هم فارس بن أبي المعالي الجزائري ومحمد ابن محمد ناجي وهمام بن علي المليكي والأمير بدر الدين حسن بن علي المذحجي.
(٢) سمّاه لقمان التويرزي (ص ٧٣ – ٧٤).

وفي سنة ٦٩٥هـ ، أقطع الملك المظفر منطقة ظفار الحبوظي لابنه الواثق نور الدين، فسار إليها من بحر عدن، فوقف بها إلى وفاته سنة ٧١١هـ ، واستقلّ أولاده بالمُلك فصاوروا ملوك ظفار إلى زمن ابن الديبع (وفاته ٩٤٤هـ).

قال ابن الديبع في كتابه قرّة العيون (ص ٤٠١): «وكان الواثق خيّراً، لم تُعرف له صبوة، وكان مشاركاً في الفقه والنحو واللغة، وكان شاعراً فصيحاً.

وانتقل الملك المظفر يوسف بن عمر الرسولي إلى رحمة الله في شهر رمضان سنة **٦٩٤هـ** ، وهو ابن ٧٤ سنة وحكم مدة ٤٦ سنة.

وقد جعل ولاية عهده في ابنه عمر بن يوسف الملقَّب بالملك الأشرف. وعارض في ذلك أخوه المؤيّد داود بن يوسف فذهب إلى الشحر التي ولّاه والده عليها وكانت معه عمته الشمسية، وكانت تحبّه وتؤثره على إخوته.

وقد عرف الملك المظفر يوسف بن عمر بن رسول بالحكمة والدهاء، ودانت له البلاد من أطراف عُمان إلى جميع أصقاع اليمن. وكانت له مكرمات عديدة ومدارس ومساجد وأوقاف وطرقات وحصون. وقال عنه الفقيه محمد الحضرمي معلم المظفر: «كان مولانا المظفر يكتب كل يوم مائة آية من كتاب الله، ويكتب تفسيرها، ويحفظها مع تفسيرها، ويدرسها عن ظهر غيب.. رحمه الله تعالى»[١]. وكان يقرأ على العلماء الفقه وعلم الحديث وغيرها من العلوم. وقد صنف كتاب المعتمد في الأدوية المفردة[٢]. وله كتاب «المخترع في فنون من الصنع»[٣]، وفيه فصول عن صناعة مواد الكتابة، ويعتمد في كثيرٍ منها على كتاب «عمدة الكتّاب وعدّة ذوي الألباب» يتعلق بمعرفة أدوات الكتابة من تأليف المعزّ بن باديس أو ابنه تميم. وقد أضاف إليه المظفّر الكتابة بالذهب والفضّة واللازورد، وعمل المواد اللاصقة وأنواع الصباغات، وفيه فصل عن

---

(١) ابن الديبع: قرّة العيون، ص ٤٠٦.

(٢) طُبع في بيروت ١٩٨٢، دار المعرفة.

(٣) لطف الله قاري: الحبر والمداد في كتب الصناعات الشاملة.

دهانات الأسقف وتجليد الكتب، وما يمحو الدفاتر والرقوق وقلع الآثار من الثياب، وصبغ الأقمشة كالحرير والقطن والكتّان، وفصل عن تركيبات النفط للأسلحة وللألعاب النارية وأعمال السيرك والألعاب المبهرة.

وكان للملك المظفر سبعة عشر ولداً ذكراً، أكثرهم ماتوا أطفالاً، وعاش بعده منهم خمسة منهم، هم: عمر الأشرف (الكبير)، وداود المؤيد، وإبراهيم الواثق، وأيوب المنصور، والحسن المسعود. وكلهم وليَ ملكاً وخُطب له وضربت السكّة باسمه إلا المسعود(١).

وكان الملك المظفر جواداً، ولد بمكة المكرمة، وأبوه أمير بها من قبل المسعود الأيوبي، وكان بذّالاً للأموال، وخاصة في الحروب، وأُعطي من حسن السياسة والتدبير ما لم يعطه أحد من الملوك(٢).

ومن مآثره مدرسة بتعز، وبنى جامع عدينة، ودار الضيف، والخانقة بحيس، وجامع المهجم، وجامع واسط المحالب، ومدرسة بمدينة ظفار الحبوظي، ووقف على ذلك كله ما يقوم به. وابتنى خادمه تاج الدين بدر المظفري بزبيد مدرسة للشافعية، ومدرسة للقرّاء بالقراءات السبع، ومدرسة للحديث النبوي، ودار ضيافة. وبنى خادمه مختص نظام الدين أيضاً مدرسة بزبيد تعرف بالنظاميّة. ومسجد بزبيد(٣).

وكان له خمسمائة فارس في مصر يجاهدون الفرنج تحت إمرة ملوك مصر.

ولاية العهد من المظفر إلى الأشرف

في جمادى الأولى سنة ٦٩٤ هـ (أي قبل وفاة المظفر بعدة أشهر) أسند الملك المظفر يوسف بن عمر بن علي بن رسول حكم الشحر لابنه المؤيد داود بن

---

(١) ابن الديبع: قرة العيون، ص ٤٠٤.
(٢) المصدر السابق.
(٣) المصدر السابق، ص ٤٠٤ – ٤٠٥.

يوسف، وأرسله حاكماً عليها وعلى حضرموت. واستخلف ابنه الأكبر الأشرف عمر بن يوسف ليكون ملكاً بعده وأخذ له البيعة، وألقى خطبة بليغة، قال فيها:

«أما بعد، فقد ملَّكَنا عليكم من لم نؤثر فيه داعي التقريب على باعث التجريب، وعاجل التخصيص على آجل التمحيص، ولا ملازمة الهوى والإيثار على مداومة البلوى والاختبار، وهو سليلنا الخطير، وشهابنا المنير، وذخيرتنا الذي وُفِقَّ على المراد، ونصرُنا الذي نرجو به إصلاح البلاد والعباد، ونؤمِّل فيه من الله الفوز والنجاة في الميعاد. وقد رسمنا له من وجوه الذبِّ والحماية، ومعالم الرفق والرعاية، ما قد التزم بوفاء عهده، ومضى عزمه بجدّه وجُهده، والمسؤول في إعانته من الأعوان من عنده. ولن نعرّفكم من حميد خصاله، وسديد أفعاله إلا ما قد بدا للعيان، وزكا مع الامتحان، وفشى من قِبَلِكم على كل لسان.

وقد حدّدنا له أن يكون بكم رؤوفاً رحيما، جواداً كريما، ما أطعتموه على المراد، ومطاوعة الانقياد. فأما من شقّ العصا، وبان عن الطاعة وعصى، فهو بعض منه، فكونوا له خير رعيّة بالسمع والطاعة يكن لكم بالبرِّ والإحسان خير ملك ووال»[1]. ويا لها من خطبة بليغة وقال فيها أبياتاً من شعره (ومعظم الملوك والحكام كانوا يقولون الشعر في تلك الأزمنة الغابرة):

وشـــهدتُمْ بــه وشـــاهدتُموهُ — وحمـدتُمْ عُقْبـاهُ في كـلِّ أمْـرِ
مـن حنـاديس ظُلمـةٍ شـملتكُمْ — كان في كشفِها لكُمْ ضـوءَ فجْـرِ
سيفه مغمدٌ علـيكُمْ، ومسلولٌ — عـلى كـلِّ مـن رمـاكُمْ بنُكْـرِ
لم يزلْ منذ حلَّ عن جيدِهِ الطوقُ — خليقـاً بكـلِّ حمـدٍ وشُـكْرِ

وتوفى الملك المظفر يوسف بن عمر في شهر رمضان ٦٩٤هـ (أي بعد أقلّ من ثلاثة أشهر من هذه الخطبة).

---

(١) حمزة علي لقمان: تاريخ عدن وجنوب الجزيرة العربية، ص ٧٦.

الملك الأشرف الكبير عمر بن يوسف بن عمر بن علي بن رسول (٦٩٤-٦٩٦هـ)

لما تولّى الملك الأشرف عمر بن يوسف المُلك، نَفسَ عليه أخوه داود المؤيد ذلك، وكان أبوه قد أقطعه الشحر، فخرج حتى وصل أبْين. ومالت طائفة من الجند إليه، فأخذ حصن السمدان، وعزم على حصار عدن، فتوجه إليها، فرأى في بعض نواحيها درباً متشعّثاً، فطلب صيَّاداً من أهل عدن، وسأله عن الجبل وهل فيه طريق يفضي إلى باب عدن، فدلّه على ذلك. وأرسل معه ثلاثمائة رجل، وأمرهم ألا يظهروا حتى يروا المؤيد نفسه. فتوجه المؤيد نحو الباب في الصباح، فتأهب الوالي لقتاله، فلم يشعر إلا والثلاثمائة رجل من ورائهم (الذين دخلوا سرًّا عن طريق الدرب الذي دلّهم عليه الصياد)، فاستسلموا وطلبوا الأمان، فأمّنهم. واستولى على عدن ولحج.

وفي سنة ٦٩٥هـ ، سارت العساكر الأشرفية لمقاتلة المؤيد، فالتقوا في أبْين. فانهزمت الجحافل التي كانت مع المؤيد، ونُهبت خزائنه، وأحاط به العسكر من كل جانب، فأُسر مع ولديه المظفر والظافر، وأخذوا الجميع إلى حصن تعز. فلما علم الأشرف أمر بإكرامهم وأرسلهم إلى حصن تعز، وذلك في التاسع من المحرم سنة ٦٩٥هـ.

ووصل الملك الأشرف عمر بن يوسف بعد ذلك إلى زبيد يحملون المصاحف والمقدمات، وعاد بعد ذلك إلى تعز، وبها كانت وفاته سنة ٦٩٦هـ. وكانت مدة حكمه أقل من سنتين.

وكان أولاده: الناصر في القحمة، والعادل في صنعاء، بينما كان أخوه الملك داود المؤيد في حصن تعز، فأخرجه الجند وبايعوه. وذهب إلى أخيه، وبكى بكاءً شديداً، ثم أمر بتجهيزه، ودفنه في مدرسته الأشرفية (التي بناها الملك الأشرف) في تعز، وقبره معروف بها.

وكان الملك الأشرف من العلماء وله تصانيف في الطب منها كتابه «الجامع» الذي أشاد به الأطباء. وله في الفلاحة والزراعة كتاب التفاحة في معرفة

الفلاحة. وكتاب الاصطباح، وكتاب الدلائل في معرفة الأوقات والمنازل. وله كتاب طرفة الأصحاب في معرفة الأنساب، طبع في دمشق. وله كتاب مشهور في تعبير الرؤيا على حروف المعجم يُسمّى الإشارة في العبارة، كما يقول الديبع في كتابه قرّة العيون (ص٤٠٧).

ومن مآثر الملك الأشرف: أنه رفع الحيف والظلم عن أهل النخل، وجعل الفقهاء والعدول هم الذين يخرصون النخل للزكاة. وقد كان له العديد من المساجد، بالإضافة إلى اهتمامه بالعلم والعلماء. ولم يكتفِ بالعلوم الشرعية، بل ظهرت علومه الواسعة في الطب والفلاحة والفلك وغيرها من العلوم النافعة، فإذا كانت مؤلفات السلطان هكذا فكيف بالعلماء من رعيته. ولا شك أن نهضة علمية كانت موجودة في عهد الملوك من آل رسول.

الملك المؤيد داود بن يوسف بن عمر بن علي بن رسول (٦٩٦ -٧٢١ هـ)

كان الملك المؤيد هماماً فارساً مقداماً جواداً كريماً. وكان مولده في الجَنَد، وقد درَّبه والده على الحكم فأقطعه التهائم، ثم صنعاء، ثم الشحر. ولما تولّى المؤيد الحكم بعد أخيه المظفر، اجتمع الأشراف (الزيدية) واتفقت كلمتهم على حرب المؤيد فهزمهم. ولم ينازعه الأمر أبناء أخيه الملك الأشرف (عمر بن يوسف) وكان العادل بصنعاء والناصر بالقحمة، فأبقاهما على الولاية، فاستعفيا من ذلك.

واستوزر الملك المؤيد القاضي على بن محمد بن اليحيوي المعروف بالصاحب، وهو أخو الفقيه أبو بكر اليحيوي صديق المؤيد.

وفي سنة ٦٩٨ هـ ، دخل الملك المؤيد عدن وعيّد بها عيد النحر، وكان السماط على شاطئ بحر حقات (بعدن) فقام الشعراء على السماط بأنواع المدائح[1]، وشاهد سباق الخيل من قصره (دار الطويلة). وفي سنة ٦٩٩ هـ توفي

(١) تمت الاحتفالات والاستعراضات في ساحل حقات، وسمح للشعب بحضورها، وأكرم المؤيد نواخيذ الهند وغيرها، وأمر بإبطال الضمان، وأظهر العدل، فانتعشت التجارة، وأكرم التجار وردّ هداياهم النفيسة بمثلها، وخلع عليهم الخلع.

الأمير علي بن عبد الله (حفيد ابن حمزة) وكان ولده إدريس من الفرسان والعلماء والشعراء وله كتاب «كنز الأخبار في التواريخ والأخيار».

وفي سنة ٧٠٠هـ ، نزل المؤيد تهامة ونواحيها، وأتاه الشعراء بمدائحهم، فأكرمهم. وعيّن الأمير سيف الدين ابن طغرطل والياً على عدن ولحج ومحمد بن الحسين بن نور والياً على أبْين. وفي سنة ٧٠٣هـ وصل من مصر الأمير بدر الدين مكتوب المرقبي يخبر بنصر المسلمين على التتار في معركة عين جالوت، وأنه قُتل منهم مائة وعشرون ألف قتيل، فاحتفل السلطان والمسلمون بذلك النصر المبين.

وفي سنة ٧٠٧ هـ ، أمر الملك الناصر محمد بن قلاوون بالاستيلاء على، اليمن فمات المسؤول عن الحملة وجميع أهل داره في أيام قلائل، فرجع قلاوون عن عزمه ذلك وتشاءم من الحملة.

الملك المؤيد في عدن وما حولها

اهتم الملك المؤيد داود بن يوسف بعدن اهتماماً بالغاً لأنها ميناء اليمن ودخلها من الفرضة والتجارة كبير. وكما أسلفنا، قضى في عدن عيد النحر سنة ٦٩٨هـ ، وأقام الاحتفالات والمهرجانات في ساحل حقات. وشاهد سباق الخيل من قصره (دار الطويلة) وهي امتداد جبل النوبة ومطلة على صيرة من جهة وعلى حقات من جهة أخرى. وهي بذلك شبيهة بدار المنظر إلا أن دار المنظر شمالها. وتتصل بشمسان، فتطل على حقات من جهة وعلى صيرة التي تقع جنوبها وعلى مدينة عدن التي تقع على يسار الدار. والمنظر منها بديع، ولهذا سُمّيت دار المنظر. وقد ذكرنا أن أول من بناها آل زريع، ثم جدّدها الأيوبيون وخاصة الزنجيلي حاكم عدن القوي في أيامهم، ثم آل رسول.

وفي آخر العهد الأيوبي، أيام الملك المسعود يوسف بن محمد بن أبي بكر بن أيوب الذي حكم اليمن من سنة ٦١١ حتى سنة ٦٢٥هـ ، هرب التجار من عدن بسبب كثرة الضرائب والمكوس وبسبب ما فعله بهم الملك المسعود من

أخذ بضائعهم التي لم يدفع ثمنها، بل أحالهم على الولاة في اليمن، ولم يستطع التجار استرداد أموالهم، فهربوا من عدن إلى الموانئ المجاورة. وكان الأمر على ذلك في بداية العهد الرسولي في أيام الملك المنصور عمر بن علي بن رسول الذي كان يحكم اليمن أولاً باسم الأيوبيين، ثم استقل بذلك وأخذ الولاية من الخليفة العباسي سنة ٦٣١هـ . ومنذ ذلك العهد بدأت بعض الإصلاحات في عدن، ولكنها لم تظهر آثارها إلا فيما بعد، في عهد المظفر يوسف بن عمر وعهد ابنه الأشرف عمر بن يوسف بن عمر، وارتقت كثيراً في عهد الملك المؤيد داود بن يوسف بن عمر.

وقد قام المؤيد بإبطال الضمان على التجار، وأظهر العدل، وأزال كثيراً من المكوس وقدَّم الهدايا للنواخيذ[١]، وشجع التجار على دخول عدن فازدهرت التجارة في عهده ازدهاراً كبيراً، وازداد انتعاش المدينة، ووصلت المباني إلى الخساف تحت باب عدن، وكثرت فيها المساجد والمدارس والحمامات العامة.

وعيّن المؤيد الولاة وضبط الأمور وحارب قبائل الجحافل أهل دثينة الذين أكثروا من الغارات والثورات، فأخضعهم إخضاعاً تاماً بحلول سنة ٧٠٣هـ بقائده الشريف عماد الدين إدريس بن علي[٢].

ومن حكمة الملك المؤيد وكرمه، أنه قدم إلى عدن أحد كبار تجار الشام ويدعى عبد العزيز بن منصور الحلبي، قدم بسفن كثيرة من الهند والصين، ومعه من الحرير الصيني كمية كبيرة، ومن المسك أربعمائة وخمسين رطلاً، وعدد ضخم من الفخار الصيني والأواني المطعمة بالذهب، والثياب المختلفة الألوان من الحرير والقطن والكتان، وعدد كبير من المماليك والجواري. فتقرر عشور ما وصل به من بضائع إلى ميناء عدن ثلاثمائة ألف دينار. فذهب التاجر إلى الملك

(١) النواخيذ: جمع ناخوذة وهو ربان السفينة وصاحبها في أغلب الأوقات.
(٢) حمزة لقمان: تاريخ عدن، ص ٧٩.

المؤيد وقدَّم له الهدايا النفيسة والأموال، وأثبت أن جميع بضائعه مرسلة من تجار الهند المسلمين صدقة للحرمين الشريفين. فأعفاه الملك المؤيد من جميع تلك الضرائب والمكوس، ولم يكتف بذلك، بل أعطاه عوضاً عن هداياه خِلَعاً نفيسة وخيلاً مطهمة، وأمر نواب الميناء بإعفائه من العشور وإكرامه، فكانت تلك الواقعة التي سارت بها الركبان أكبر دعاية للملك المؤيد ولميناء عدن. فأقبل التجار نحوها من كل مدن الدنيا، فازدادت بذلك غنًى وثروة وأمناً.

وعيّن الملك المؤيد ابن طغرطل (سنة ٧٠٠هـ) ثم عزله بعد سنتين وعيَّن بدلاً منه الشريف عماد الدين إدريس بن علي الذي أخضع أهل دثينة المفسدين (الجحافل) إخضاعاً تامًّا سنة ٧٠٣هـ . واستقرّت الأمور في عدن ولحج وأبين ودثينة. ثم عيّن المؤيد نائباً جديداً في لحج هو الأمير عمر بن بالبال الدويدار الرومي[1]، والأمير حسن بن علي الحلبي نائباً في عدن، وذلك سنة ٧٠٣هـ . وعيّن الأمير بهرام نائباً على أبين وأعمالها سنة ٧٠٤هـ . وفي هذه السنة نزل مطر غزير في عدن تبعته سيول كثيرة تدفقت إلى البحر، فخرّبت بيوتاً وأغرقت أناساً.

وفي سنة ٧٠٨هـ فرغ الصناع والعمال من بناء قصر فخم (المعقلي) بمدينة ثعبات فسُرَّ بذلك المؤيد.

وسارت حروب متفرقة كالمعتاد في اليمن، ولكن الملك المؤيد أخضعهم جميعاً، ولكن الفتن ما تلبث أن تعود. واشتد الوجع بالملك المؤيد داود بن

(١) يطلق اسم الرومي على ما يعرف اليوم بتركيا لأنها كانت مقر الدولة البيزنطية والتي يسميها المسلمون الروم. وكل منطقة الأناضول التي احتلها المسلمون السلاجقة منذ القرن الخامس الهجري كانت من الدولة البيزنطية. ولا تزال تعرف مناطق في تركيا اليوم باسم الروملي، وهناك قلعة مشهورة باسم الروملي حصار. ويغلط كثير من الكتاب عندما يظنون أن هؤلاء هم من الروم والواقع أنهم من الأتراك السلاجقة وغيرهم، بما فيهم بعض أهل تلك البلاد.

يوسف بدار الشجرة (في العصيفرة شمال تعز) فأمر ولده الملك المجاهد علي بن داود بالطلوع إلى حصن تعز ليضبط أمره. **وتوفى الملك المؤيد سنة ٧٢١هـ.**

ومن مآثره: المدرسة المؤيدية بتعز، وبها قبره. وابتنت كريمته مدرسة بزبيد ومسجداً بتعز، ومدرسة بظفار الحبوظي. وكذلك ابنته الأخرى بنت مدرسة بتعز وأخرى بظفار الحبوظي. وابتنى الأمير محمد بن ميكائيل (أستاذ دار أي مسؤول القصر) مدرسة بزبيد.

وكان قويًّا شجاعاً حتى إنه أمر بالأسد أن يطلق في مجلسه، وأخذ السيف والجحفة، فأقبل الأسد عليه، وداعبه ساعة ثم ضرب الأسد بالسيف وألقاه عقيراً وقد خرجت حشوته. كما كان كريماً، فقد أعطى خزائن عدن بأكملها للأمير شمس الدين علي بن رضوان، أحد ندمائه (وهو كرم في غير محله لأنه أخذ مال الأمة وأعطاه لنديمه).

وكان المؤيد مشاركاً في كل علم، وله مطالعة في الكتب المبسوطة في كل فن، وسمع الحديث من أساطين هذا العلم، واختصر كتاب «الجمهرة في البيزرة». والبيزرة هي الصيد بالبازي أي الصقر. وجمع من أشعار الجاهليين ومن بعدهم شيئاً كثيراً. واحتوت خزائن كتبه مائة ألف مجلد من نفائس الكتب - كما يقول محمد بن علي الأكوع الذي حقّق كتاب قرّة العيون للديبع وعلّق عليه (ص٤٢٢)-.

الملك المجاهد علي بن داود بن يوسف الرسولي (٧٢١-٧٦٤هـ)

أخذ والده له البيعة من الجند في مرض موته فلم يختلف عليه اثنان. فلما تولّى الملك عزل الأتابك الأمير يوسف بن يعقوب وولّى محله عمر بن يوسف بن منصور فضبط الأمور. وقبض على ابن عمه الناصر بن الملك الأشرف بدسيسة من عمر بن يوسف فأمر السلطان بحبسه في عدن. وكان عمر الملك المجاهد حين تولّى الملك خمس عشرة سنة.

ثم ذهب السلطان إلى الدملوة وتفقّد خزائنه، ولكنه لم يعط الجند والأمراء أعطياتهم، كما هو معتاد عند طلوعهم الدملوة، فنفروا منه وسعوا في فساد دولته. فثار الجند والمماليك وأخذوا المجاهد أسيراً إلى عمه المنصور، فطلع المنصور إلى حصن تعز في زي المملكة وطلع المجاهد معه مكرّماً معزّزاً. ووزّع الملك المنصور الولايات والإقطاعات على أولاده وعلى ابن أخيه الناصر بن الأشرف.

ودبرت أم المجاهد مؤامرة لعزل المنصور واعتقاله، ولكن الجند ثاروا وأرادوا مبايعة الناصر بن المنصور. فلم يمكّنهم المجاهد من ذلك، وأباح نهب بيوتهم، فنهبت بيوت الأمراء من آل رسول حتى أوقفتهم أم المجاهد. واستولى المجاهد مرة أخرى على الملك وعفا عن أولاد عمه.

وطلب المجاهد من عمه المنصور أن يكتب إلى ولده الظاهر بتسليم حصن الدملوة، فكتب إليه، ولم يمتثل الأمر فحاربه المجاهد.

وقام الظاهر بن المنصور باستخدام المماليك الذين لم يأمنوا المجاهد وفرّق فيهم الأموال، فهاجموه ونصبوا المنجنيق، وضربوه بها وهو في تعز، فلم ينالوا منه شيئاً، فاستولوا على تهامة وأخذوا عدن، وأقاموا الظاهر بعدن ملكاً. ثم افترقت كلمتهم، فنزل المجاهد إلى عدن وحاصرها مدة، ثم ارتفع عنها.

وسار المماليك إلى زبيد فملكوها للظاهر واستولوا على خراجها، ولم يكن للظاهر سوى الخطبة.

وهاجمهم المجاهد. وطالت المعارك بين الجانبين واستمرت الفتن في اليمن. وفي **سنة ٧٢٥ هـ سار ابن الدويدار إلى لحج يريد عدن لنفسه، فحصر عدن حصاراً شديداً، فأشار لهم السلطان المجاهد أن يخدعوه، فقام الوالي ابن الصليحي بإتمام الصلح، وأراد ابن الدويدار دخول عدن فقالوا له البلد بلدك، ولكن الرأي أن تدخل في جماعة من العقلاء ويترك الجند، ففعل. فبات يسكر هو وأصحابه، فلما أصبح دخل الحمام فهجم عليه رجال الوالي وقتلوه ومن معه.**

وكان أخو ابن الديودار خارج المدينة، فلما بلغه قتل أخيه هرب ببقية العسكر إلى حصن منيف وهلك فيه[(١)].

وكانت زبيد تخطب للملك الظاهر، والأموال تذهب للمماليك، الذين يحكمون البلد. وهجم مجموعة من العوارين (البلطجية) على جامع زبيد يوم الجمعة، والخطيب على المنبر، فقالوا له: اخطب للملك المجاهد.. وهدّدوه فخطب، ولم يخطب للظاهر بعد ذلك في تهامة[(٢)].

وفي نفس السنة ٧٢٥هـ ، أرسل السلطان محمد بن قلاوون إلى اليمن هدايا للملك المجاهد وفيهم ألفي فارس وألفي راجل فأكرمهم المجاهد، ولكنهم انتهبوا بيوتاً كثيرة في زبيد، وغلت الأسعار ونهبوا القرى المحيطة. ثم ساروا إلى تعز فاستطاع الظاهر أن يغريهم بالمال والوعود الكثيرة حتى يقفوا معه بدلاً من المجاهد، فأرادوا أن يقبضوا على المجاهد فخرج من الباب سرًّا، وطلع إلى حصن تعز. ثم كاتبهم المجاهد طالباً منهم أن يعودوا إلى بلادهم، وكتب لهم بذلك كتاباً حتى يعودوا للسلطان محمد بن قلاوون. وأرسل السلطان المجاهد إلى مصر بهدية سنيّة مع القاضي جمال الدين محمد بن موسى.

وعاد المجاهد يحاول الاستيلاء على عدن ليأخذها من يد ابن عمه الظاهر

---

(١) ابن الديبع: قرّة العيون، ص ٤٢٧. وذكر حمزة لقمان في تاريخه، ص ٨٣ أن الأمير ابن الدويدار كان نائباً على لحج منذ أيام المؤيد (والد المجاهد). وفي شعبان ٧٢٣هـ أعلن العصيان على المجاهد وحاصر عدن، وكان فيها عسكر من يافع، لم يكونوا على وئام مع المجاهد، فسلموا ابن الدويدار عدن. فدخلها وخطب للملك الظاهر ابن المنصور، وألقى القبض على حاكمها حسن بن علي الحلبي وأرسله للظاهر في الدملوة. وتم إرسال خزانة عدن مع جعفر بن الأنف إلى الملك الظاهر بالدملوة. ثم استولى المجاهد على عدن. وحاول ابن الدويدار الاستيلاء عليها سنة ٧٢٥هـ ففشل - كما ذكره ابن الديبع.

(٢) ابن الديبع، قرّة العيون، ص ٤٢٨.

فتقاتلا في المباءة، خارج عدن (وهي تحت باب عدن ويقول عبد الله المحيرز في كتابه «العقبة» إنها بالقرب من محطة الكباش في دكّة المعلّا). ثم عَلم أن نجدة فيها ألف فارس ستأتي مع ابن الأسد (أحد كبار المماليك) والإمام محمد بن مطهر لنصرة الظاهر، فرجع المجاهد إلى تعز وكان ذلك سنة ٧٢٦هـ.

وفي سنة ٧٢٧ هـ ، عاود الملك المجاهد الهجوم على عدن. وكان أهلها يخرجون لمقاتلته في المباءة، ولم يستطع دخولها. وفي سنة ٧٢٨هـ استطاع المفضل ابن المجاهد أن يدخل عدن، فدخلها أولاً ثم دخلها والده. وأقام السلطان بعدن من صفر إلى جمادى الأولى (٧٢٨هـ) ثم خرج إلى الدملوة ثم إلى الجَنَد. واستقرت الأمور نسبيًّا للمجاهد بعد استيلائه على عدن. وقتل المجاهد والي عدن وناظر الميناء وجماعة من المماليك والعسكر، ومع ذلك استمرت المؤامرات والفتن. وكل شيخ قبيلة يجمع أفراد قبيلته ويستولي على ما تحته، وكل عبد من العبيد المماليك يكوِّن مجموعة من العبيد، ويستولي على أي بلدة قريبة منه، فإن لم يستطع قام بالسلب والنهب.. والبلاد في فوضى عارمة، والسلطان وجنوده في معارك لا تنتهي ضد أقاربه والمماليك والأعراب، إلخ.. وهو مسلسل يسبب الغثيان. مع وجود بعض الأعمال الإنشائية الجيّدة، ومنها أن السلطان المجاهد أمر بعمارة درب زبيد وسائر أبوابها وخنادقها والمدرسة المجاهدية في مكة، وذلك سنة ٧٣٩ وسنة ٧٤٠هـ .

وفي سنة ٧٤٢هـ ، ذهب الملك المجاهد للحج ثم رجع في صفر سنة ٧٤٣هـ . وأنفق أموالاً كثيرة في الحج وكسا الكعبة، وكسا أمير الركب المصري وأمير الركب الشامي، وتصدَّق بصدقات كثيرة في بلاد الحرمين الشريفين.

وفي سنة ٧٤٤هـ ، قام ابن المجاهد الملقب بالملك المؤيد بمخالفة والده ومحاربته، لأن والده قدَّم أخاه المظفر عليه، فلاطفوه حتى استسلم، فحبسه والده وضربه، فمات في الحبس بعد أيام وذلك سنة ٧٤٥هـ . ثم ذهب المجاهد

إلى عدن سنة ٧٤٧ ثم سنة ٧٤٩ هـ . وفي سنة ٧٥١هـ ، ذهب الملك المجاهد للحج مرّة أخرى، فتآمر عليه جنود مصر وأحاطوا به وهو بمنى فاستسلم على ألا يمسّوا أحداً غيره، فأخذوه إلى مصر مع احترام واحتشام. وكانت معه جدّة ابنه العادل ويسمّونها «جهة صلاح». وطريقتهم في تسمية الأميرات، أن تُدعى كل واحدة باسم المملوك (الطواشي) الذي يدير شؤونها فيقولون جهة فلان. فلما رجعت «جهة صلاح» إلى اليمن ضبطته ضبطاً جيداً[١] حتى عاد الملك المجاهد من مصر بعد أن أقام بها عشرة أشهر، ووصل إلى زبيد آخر ذي الحجة سنة ٧٥٢هـ .

وفي سنة ٧٥٣هـ ، أطلق الملك المجاهد جميع الأسرى من أبناء عمومته وأقاربه بشفاعة والدته.

وانتقل السلطان إلى رحمة الله تعالى سنة ٧٦٤هـ، وتولّى ولده الأفضل الملك من بعده، ودفن والده بمدرسة المجاهد في تعز[٢].

وكان المجاهد ذكيًّا جواداً شاعراً مشاركاً في كثير من العلوم، حتى قيل إنه أعلم بني رسول[٣] ، ومن شعره المخمس:

أنا شبل الملـك زيـن الكتـبِ
يوســـف جـــدّي وداود أبي
والشهيد القرم زاكي الحسب
وعـليّ القيـل[٤] عـالي المنـصبِ جـــدُّنا بعـــد رســـولٍ جـــدِّنا[٥]

(١) ابن الديبع: قرّة العيون، ص ٤٤١.
(٢) المصدر السابق، ص ٤٤٠.
(٣) المصدر نفسه، ص ٤٤٥.
(٤) القيل: لقب لكلِّ ملكٍ أو أمير في اليمن منذ أقدم العصور.
(٥) وعليّ بن رسول هو مؤسِّس هذه الدولة في اليمن.

إن تكنْ أضحتْ عُلاهُمْ خبرا
فالعُلا منّيَ بالعينِ تُرى
أنا كالليثِ إذا ما زأرا

أنا كالبحرِ إذا ما زخَرا المنايا في يميني والمُنى

أبذلُ المالَ ولا أجمعُهُ
كلُّ عافٍ نحونا منجَعُهُ
وإذا القرنُ طغى أصرعُهُ

وإذا ولّى فلا أتبعُهُ وإذا لاذَ بعفْوي أمِنا

ومن مآثره: أنه بنى مدينة ثعبات وسورها وقصورها، وله المخترعات الفائقة في فن البناء والهندسة. وله مدرسة بمكة، ومدرسة بتعز جعلها جامعاً، وجامع بثعبات وآخر في النويدرة، ومسجد ببستان الراحة بزبيد، ومدرسة بدار الوعد بتعز وجعل لها الأوقاف العظيمة.

وكان محبًّا للعلماء، عادلاً برعيته، وأزال عنهم كثيراً من المكوس، وله ديوان شعر، ومدحه الشعراء، ومدة حكمه أربع وأربعون سنة.

وكانت وفاة المجاهد علي بن المؤيد سنة ٧٦٤هـ بعدن. فسار به ابنه الملك الأفضل إلى تعز وقبره بمدرسة المجاهدية، واستقر هو بقصر ثعبات. ودخل حروباً عدة حتى وطّد ملكه.

وذكر حمزة لقمان(١) أنه هجم على عدن في ٢٦ محرم ٧٦٤هـ (قبل وفاة والده) معلناً العصيان على والده، ونزل إلى لحج ومنها إلى الأخبه. واتفق مع قبيلة العقارب للهجوم على عدن ففشلت الخطة. وانهزم المظفر فعاد إلى أبْين واستولى عليها وحبس واليها ثم أطلق سراحه. ولما علم المجاهد بذلك جرّد

---

(١) حمزة لقمان: تاريخ عدن، ص ٩٠.

حملة لقتال ولده ولكن ابنه اختفى منه. ودخل المجاهد عدن التي مات فيها في ٢٥ جمادى الآخرة سنة ٧٦٤هـ، فظهر الأفضل بعد وفاة أبيه وجهزه ونقله إلى تعز حيث دفنه في مدرسته المجاهدية.

الملك الأفضل العباس بن المجاهد علي بن المؤيد داود بن الأشرف عمر ابن يوسف الرسولي (٧٦٤ - ٧٧٨هـ)

كان أرشد أولاد المجاهد، فأجمع أهل الحل والعقد على ولايته بعد أبيه، وانتظمت بيعته بعدن، وسار بجثمان والده إلى تعز فقبره في المدرسة المجاهدية وكالمعتاد ثارت مناطق متعددة، وخاصة عند موت الملك، فقضى الملك الأفضل على هذه الفتن، ومنها فتنة ابن ميكائيل، وفساد القرشيين سنة ٧٦٥هـ، والمعازبة سنة ٧٦٦هـ. ودخل الأفضل عدن مرة أخرى سنة ٧٦٦هـ، وأقام فيها العدل، وأبطل كثيراً من المكوس وأحسن إلى التجار والنواخيذ فتحسنت التجارة.

ووصلت الهدايا من مصر سنة ٧٦٨هـ، ومن كنبايه ومن الهند وغيرها، ومنها كاليكوت (في الهند) وفيها كثير من غرائب الأطيار والأشجار وأنواع الفل والورد. وتصدّق الملك على الرعايا بصدقات كثيرة ذلك العام.

وفي سنة ٧٧١هـ، خرج الأشراف بحرض حتى هزموا الوالي، ثم ذهبوا إلى زبيد فانكسروا ورجعوا خائبين. وفي سنة ٧٧٢هـ، ثار بعض القرشيين فقتل السلطان مشايخهم. واستمرت الثورات والمناوشات ولكن الأمور كانت تنتهي في صالح السلطان الملك الأفضل العباس بن المجاهد. ودخل الملك الأفضل عدن سنة ٧٧٥ هـ ونشر فيها العدل، وكسا النواخيذ.

وفي سنة ٧٧٧هـ، قام الإمام (الزيدي) صلاح بن علي بالنزول إلى تهامة في جيوش عظيمة حتى قرب من زبيد وأقام بشرقيّها ثلاثة أيام، ولكنه رجع بعد أن يأس من الاستيلاء عليها.

وفي سنة ٧٧٨هـ ، نزل الملك الأفضل من تعز إلى زبيد وأقام بقصره المعروف بالخورنق(١) ثم وصل ولده الأشرف.

ثم انتقل الملك الأفضل إلى رحمة الله تعالى في شعبان سنة ٧٧٨هـ . فلما مات، بايع رجال الدولة الملك الأشرف إسماعيل بن العباس، ثم نقل أباه إلى تعز ودفنه بمدرسته(٢).

وكان الملك الأفضل يقظاً حازماً فاضلاً فقيهاً نحويًّا، عارفاً بالأنساب والتواريخ، وله مصنفات، منها: كتاب «نزهة العيون في تاريخ الطوائف والقرون»، وكتاب «العطايا السنيّة في المناقب اليمنيّة»، وكتاب «نزهة الأبصار في اختصار كنز الأخيار». واختصر تاريخ ابن خلكان، وله أيضاً كتاب «بغية ذوي الهمم في أنساب العرب والعجم». وله كتاب «بغية الفلاحين في الأشجار المثمرة والرياحين». وقد طبع. وله مجموع كامل مخطوط قال محمد بن علي الأكوع محقق كتاب ابن الديبع «قُرَّة العيون» أن عنده نسخة منه بخطه الجميل الملوكي بلفظ «العباس بن علي».

وهو الذي جدّد سور مدينة زبيد وعمّر خنادقها. ومن مآثره: مدرسة بناحية الحبيل وفيها منارة عجيبة. ومدرسة بمكة المكرمة ورتّب لها أوقافاً. وخلّف سبعة أولاد: أكبرهم الملك الأشرف إسماعيل الذي تولى بعده، وعبد الله المنصور، وعلي المجاهد، ومحمد المفضل، وأبو بكر المؤيد، وعمر المظفر، وعثمان الفائز. وكانت مدة حكمه أربع عشرة سنة وأشهراً.

---

(١) الخورنق والسدير من قصور الجاهلية المشهورة التي بناها المناذرة في جنوب العراق. وامتلأ بالقصص والأساطير.

(٢) كان كل ملك من ملوك بني رسول يبني مدرسة خاصة به في تعز، وكل واحد يموت يُقبر في مدرسته.

الملك الأشرف إسماعيل بن العباس الرسولي الغساني (٧٧٨ - ٨٠٣ هـ)

انتظمت البيعة للملك الأشرف إسماعيل بن العباس بن علي بن داود الرسولي سنة ٧٧٨هـ . وأقام بتعز من شعبان إلى ذي الحجة ثم نزل زبيد، ورتّب أمور الدولة. وفي عام ٧٨٠هـ أمر بعمارة دار النصر في زبيد. وفي عام ٧٨١هـ ثار المعازبة في طريق النخل، فأتتهم العساكر حتى أخضعهم. وفي نفس العام أخذ مدينة إب قهراً. ودخل عدن سنة ٧٨١هـ ، وأبطل المكوس المستحدثة وأوقف أرضاً بلحج على رباط الشيخ أبي الغيث بعدن.

وفي سنة ٧٨٤هـ ، وصل جماعة من أشراف مكة وقوادها يريدون خدمة السلطان الأشرف إسماعيل فأكرمهم، وعند عودتهم إلى بلادهم انضموا إلى المفسدين فقاتلهم أمير حرض بهادر الشمسي فقتل كثيراً منهم، ثم توجهوا إلى مكة فمنعهم أميرها من دخولها.

وفي ٧٨٥هـ ، وصل الشريف الأمير داود بن محمد بن عبد الله بن يحيى بن الحسن بن حمزة صاحب صنعاء إلى الأبواب السلطانية، فقوبل بالإجلال والترحاب. وفي **سنة ٧٨٦هـ ، وقع زلزال في عدن وسقطت بعض الدور**. وفي نفس سنة ٧٨٦هـ ، عُيِّن القاضي أحمد بن أحمد الناشري قاضياً بمدينة زبيد. وفي سنة ٧٨٧هـ ، وصل العلم بظهور تيمورلنك واستيلائه على مملكة الشرق واتجاهه إلى الشام. **وفي عام ٧٨٩هـ ، هجم الإمام الناصر صلاح الدين بن المهدي على عدن فانهزم، وأصيب جنوده بداء الجدري فانسحب مسرعاً**[١].

وقتل المفسدون المنصور عبد الله أخا الملك الأشرف إسماعيل وهو في طريق زبيد، فأمر الأشرف بحملة إلى تعز، وقبره عند والده، وذلك سنة ٧٨٨ هـ. وفيها وصل كتاب التفقيه في شرح التنبيه تصنيف القاضي جمال الدين محمد

(١) حمزة لقمان: تاريخ عدن، ص ٩٢.

الريمي مزفوفاً بالطبلخانة إلى مقام السلطان، وكان في أربعة وعشرين جزءاً، فحباه السلطان ثمانية وأربعين ألف درهم.

وفي سنة ٧٩١هـ ، رتّب السلطان مدرّسين بجامع المملاح ومقرئ ومحدّث وطلبة وأيتام لطلب العلم، وأجرى عليهم الأموال والأوقاف. وفي سنة ٧٩٢هـ ، استمر القاضي أبو بكر بن يحيى بن عجيل في القضاء الأكبر لليمن بأكملها.

وفي سنة ٧٩٥هـ ، أحصوا المساجد والمدارس في زبيد فوجدوها مائتين وبضعاً وثلاثين، وعدّوا المعاصر فكانت تسعاً وأربعين معصرة.

وفي سنة ٧٩٦هـ ، ماتت زوجة السلطان الأشرف إسماعيل وأم أولاده الأفضل، الناصر، والفائز، والمجاهد، التي يدعونها جهة الطواشي معتب، وكانت كثيرة الصدقة.

وفيها، أي سنة ٧٩٦هـ ، وصل القاضي **مجد الدين الشيرازي، صاحب القاموس في اللغة** والذي ألفه للملك الأشرف، **وصل من ثغر عدن** فأكرمه السلطان بما يليق بحاله.

ومجد الدين هو محمد بن يعقوب بن محمد بن إبراهيم الفيروزبادي الشيرازي الشافعي اللغوي، نزيل مكة المكرمة. ولد بشيراز سنة ٧٢٩هـ ، ثم دخل اليمن وولي قضاء الأقضية في اليمن لمدة عشرين سنة متوالية. ولما دخل اليمن أكرمه الملك الأشرف إسماعيل وتزوّج ابنة مجد الدين الشيرازي. وكانت وفاته في ٢٠ شوال سنة ٨١٧ هـ . وترجم له الإمام الشوكاني في البدر الطالع والإمام ابن حجر العسقلاني. وقالوا إنه كتب للملك الأشرف يطلب الإذن بالخروج من اليمن، فكتب له الملك: والله، يا مجد الدين، لخروجي من ملكي أيسر من أن تخرج من مملكتي!! مما يدل على عظيم مكانته لدى السلطان الأشرف، وعلى مدى احتفاء هذا السلطان بالعلم والعلماء.

وفي سنة ٧٩٧هـ ، وصل **الإمام صلاح بن علي (بن يحيى)** إلى السلطان

الأشرف وسلمه حصن دروان، فكساه السلطان وأنعم عليه وأعطاه عشرة آلاف دينار. وفي سنة ٧٩٨هـ ، سار السلطان إلى إب فمنعوه من الدخول وقاتلوه، فقاتلهم وأخرب ديارهم. وبعد أن أدّب السلطان أصحاب حصن الخضراء في جبل حبيش توجّه إلى زبيد واستوطنها واخترع فيها القصور العجيبة وعمارة العين من وادي زبيد. وفي سنة ٧٩٩هـ ، نهب الأحيوف (قبيلة من الصبيحة) قافلة عدن وكانت ثمانين جملاً عليها من الذهب والفضة أكثر من عشرة لكوك (اللك يساوي مائة ألف) من الدنانير (أي فيها مليون دينار ذهباً).

وفي سنة ٨٠٠هـ ، أكمل القاضي مجد الدين الشيرازي تأليفه المسمى الإصعاد (ثلاثة أجزاء) وحمل إلى باب السلطان. **ووصلت هدية ملك سيلان (سيرلانكا) إلى السلطان الأشرف إسماعيل وهي أربعة فيلة وشجرة من العنبا (المنجة) وتحف كثيرة.**

وفي سنة ٨٠٢هـ ، استولى الأمير بدر الدين محمد بن زياد على خزانة عدن وفيها لكوك، وهو من مرتب من قبل السلطان، لأخذها فأغراه أتباعه بأخذها. فحاربه السلطان لمدة نصف شهر، ثم طلب الأمان من السلطان فأمّنه وأعاده إلى أحسن من حالته الأولى. وقد ذهب الأشرف إلى عدن مراراً آخرها سنة ٧٨١هـ .

وفي سنة ٨٠٣هـ ، توفي السلطان الأشرف إسماعيل بتعز، فجعل قبره في مدرسته بمدينة عدينة (في لحف قلعة تعز القاهرة ولها منارتان جميلتان). وكان ملكاً جوداً كريماً عطوفاً. ومن مآثره مدرسة بتعز، وزيادات في جامع عدينة تعز وجامع المملاح بزبيد، وعدة طرق (سبل). وبساتين جميلة فيها عجائب الأشجار في زبيد.

وكان الأشرف إسماعيل محبًّا للعلم والعلماء كما تبيّن من موقفه من مجدالدين الشيرازي، وإكرامه العلماء. ومشاركته في العلوم أقل من مشاركة من سبقه من آل رسول الغسانيين، بل إن ابنه كان أكثر مشاركة منه في العلوم. وقال حمزة لقمان في «تاريخ عدن» أنه كانت للأشرف إسماعيل مصنفات في النحو

والفلك وأخبار الخلفاء والملوك. وأنه أوقف أرضاً في لحج على رباط الشيخ أبي الغيث بعدن[١].

الملك الناصر أحمد بن إسماعيل بن العباس الرسولي الغساني (٨٠٣ - ٨٢٧ هـ)

لما مرض الملك الأشرف إسماعيل في آخر أيامه أخذ البيعة لابنه الناصر، ولكن ما إن مات الأشرف حتى أخذ السيري حصن الحمراء وساعده ابن مهدي صاحب سناح. فقام الناصر بأخذهما والاستيلاء على أموالهما وأراضيهما، وأخضع بلاداً كثيرة بدأت بنقض العهد والثورة. وملك سهام وزبيد وما حولها. وفي سنة ٨٠٤هـ، أخذ حصن ريمة وسائر ما هنالك. وفي سنة ٨٠٨هـ، أخذ السلطان دثينة قهراً. وفي سنة ٨٠٩هـ ، أخذ مدينة جازان. ثم أعاد صاحب جازان بشفعة العلماء وكان محبوباً لفعله الخير.

وفي سنة ٨١٢هـ ، توفي الشيخ معوضة بن تاج الدين جدّ السلاطين من الدولة الظاهرية التي خلفت الدولة الرسولية. وفي سنة ٨١٧هـ ، قدم الشيخ طاهر بن معوضة على السلطان فأكرمه إكراماً يليق به. وكانوا ولاة له.

وفي سنة ٨٢٠هـ ، قصد الإمام الناصر صاحب صنعاء بلاد بني طاهر، فتجهّز السلطان لحربه. وتقابلا في موضع يقال له الصرم. وانكسر الإمام وتبعهم السلطان إلى وادي خبان ثم سار إلى أبين ودثينة ثم عدن ثم تعز ثم زبيد وذلك لتوطيد أركان المملكة.

وفي سنة ٨٢٢هـ ، قام الحسين بن إسماعيل (أخو السلطان الناصر أحمد بن إسماعيل) بالاستيلاء على زبيد وادعى السلطنة وتلقب بالظافر، فحاربه السلطان وحبسه ونقله إلى حصن تعز، واستطاع حسين أن يغري بعض العسكر

(١) حمزة لقمان: تاريخ عدن، ص ٩٢.

فأخذه السلطان وأمر أخاه الظاهر بكحله (أي بالمرود المحمى بالنار في عينه فقوّر عينه). وندم السلطان على ذلك. ثم نزل إلى زبيد وأمر بعمارة المرسى الجديد بالفازة.

وفي سنة ٨٢٣هـ ، قدم على السلطان وفد الصين بثلاثة مراكب عظيمة وهدايا نفيسة ما قيمتها عشرين لكًّا من الذهب. فاجتمع السفير الصيني بالملك الناصر ولم يقبّل الأرض بين يدي الناصر كعادة السفراء بل قال له: سيّدك صاحب الصين يسلم عليك، ويوصيك بالعدل في رعيتك. فقال له: مرحباً بك، وأكرمه. ثم كتب كتاباً لملك الصين يقول له: إن ملك الصين يظن أن كل الناس عبيده، والظاهر أن فيهم حمقاً وجهلاً بأحوال البلاد وملوكها. وإلا فالأدب موجب أن لا يخاطب غيره من الملوك إلا باللطف والإجمال.

وكان للملك الناصر أحمد بن إسماعيل مشاركة في العلوم واطلاع على الكتب، إلا أنه أحدث في آخر أيامه مظالم وقرّب المبتدعة حتى ضاق الناس، وخرج عليه أخوه الحسين مرتين. وأولع الملك الناصر في آخر عمره بشرب الخمر، وقرّب الإسماعيلي ابن الأُنف، وأقبل على كلام ابن عربي في «الفتوحات المكية» و«النصوص» وما فيها من مخالفات.

ومن مآثر الملك الناصر أنه عمّر المرسى بساحل وادي زبيد، وعمّر حصوناً عدّة، وأحدث دوراً كثيرة وبساتين وساق لها الماء من أماكن بعيدة. والدار الكبيرة بزبيد من عمارته.

وقامت زوجة أبيه «جهة فرحان» ببناء مدرسة بزبيد (الفرحانية) وبركة مسجد الأشاعر بزبيد.

وكان الناصر موصوفاً بالكرم والحلم (ما عدا ما فعله بأخيه الحسين من تقوير عينيه) وتوفى في جمادى الأولى سنة ٨٢٧ هـ ، فحمل إلى تعز ودفن إلى جنب أبيه الأشرف بالمدرسة الأشرفية بذي عدينة من مدينة تعز.

الملك المنصور عبد الله بن أحمد بن إسماعيل بن العباس الرسولي (٨٢٧ - ٨٣٠هـ) [1]

كان عدلاً شجاعاً ذا دين متين وأزال كثيراً من المنكرات. وكان له قراءة قبل ولايته في الفقه والعربية. وأبطل غناء النساء بباب الملك، وأبعد الكرماني عن بابه. وكان ذا رأي وتدبير على صغر سنه، محبًّا للفقهاء والمساكين، يحضر صلاة الصبح جماعة بمسجد الأشاعر بزبيد، وبالجامع المظفري بعدينة بتعز.

ولكن لم يتم له أمر بسبب قلة المال بيده، فبحث عن المال بالمصادرة حتى صادر أخته وصادر زوجة أبيه الناصر وأخذ منهما مالاً كثيراً.

وكانت وفاته سنة ٨٣٠هـ، ومدة حكمه ثلاث سنوات فقط، ومات في زبيد، وحمل إلى تعز وجَعل عند جده الأشرف بن الأفضل ووالده بالمدرسة الأشرفية.

الملك الأشرف إسماعيل بن أحمد بن العباس الرسولي (٨٣٠ - ٨٣١ هـ)

كان الأشرف صغير السن عند موت أخيه المنصور عبد الله بن أحمد، فتولى الملك جماعة من أعيان الدولة، وجعلوه صورة، فاختلفت كلمتهم.. وكثرت في أيامه الفتن وخاصة من الأعراب (البدو) وانتهبوا الضعيف. وحدث في سنة ولايته جدب عام، فلما رأى رجال الدولة ذلك أخرجوا عمه يحيى بن الأشرف إسماعيل، وولّوه الحكم في جمادى سنة ٨٣١هـ، وتلقب بالظاهر فقام بالأمر خير قيام.

الملك الظاهر يحيى بن إسماعيل بن العباس الرسولي (٨٣١ - ٨٤٢ هـ)

لما تولّى الملك الظاهر، كما تقدم، قرّب القاضي محمد بن إسحاق، وصادر القاضي شرف الدين العلوي مصادرة شاقة وأخذ منه نحو مائة ألف دينار. وبعد عامين من ولايته نكّل بالجند الذين خلعوا ابن أخيه لأنهم طغوا وبغوا وزعموا أنهم يقيمون من شاؤوا ويخلعون من شاؤوا فأبادهم قتلاً. ثم إن

---

(١) ابن الديبع: قرّة العيون، ص ٤٧٦.

الظاهر أراد أن يتزوج زوجة شرف الدين العلوي وأمره بطلاقها، فطلّقها زوجها ثم تزوّجها الظاهر. وهرب العلوي إلى مكة فنكل بإخوته وأهله.

وفي سنة ٨٣٤ هـ، خرج العبيد وأغاروا على تهامة ونهبوا المحالب، حتى نزل السلطان فأصلح المعازبة ثم هاجم العبيد وقضى عليهم.

وفي سنة ٨٣٥ هـ، قدم على السلطان الشيخ علي بن طاهر معوضة إلى مدينة تعز، وتزوج السلطان ابنة الشيخ علي بن طاهر بن معوضة..

وفي سنة ٨٣٦ هـ، حصلت غارات من الأعراب ونهب وسلب، فأدّبهم السلطان. وثار بركان في جبل في البحر بين كمران ودهلك وظهرت فيه نار ودخان وقواصف شديدة وذلك سنة ٨٣٥هـ. وكان دخانه يُرى من نواحي سردد كالسحاب المركوم. ولما احترق جميعه ظهرت النار في جبل آخر(١).

وفي صفر سنة ٨٣٨هـ، ظهرت النار مرة أخرى في الجزر الجبلية بين دهلك وكمران. وكان يسمع دوي الزلازل والبركان كالرعد من أماكن بعيدة.

وفي نفس السنة خرج العباس بن الأشرف على أخيه الظاهر ولجأ إلى العبيد الخارجين وأغاروا على المحالب في صفر ٨٣٩ هـ فانهزموا.

وفي سنة ٨٤٠هـ، دخل الطاعون مدينة صنعاء ومات خلق لا يحصون(٢). وكان ابتداؤه في بربرة وعدن سنة ٨٣٩ ثم لحج وأبين ثم تعز، وكان يموت في اليوم الواحد ما بين الخمسمائة والألف. ومات مجموعة من الفقهاء في تعز منهم الحافظ محمد بن أبي بكر الخياط، وقاضي تعز العرشاني، وقاضي الدملوة.. وهلك من أهل عدن بضعة عشر ألفاً، ومن تعز كذلك، وضربت قرى كثيرة، فتصدّق السلطان الظاهر بصدقات كثيرة، وأمر بقراءة القرآن وقراءة صحيح البخاري وبالدعاء برفع البلاء عن المسلمين.

---

(١) ابن الديبع: قرّة العيون، ص ٤٨١.

(٢) ابن الديبع: قرّة العيون، ص ٤٨٣.

وممن مات بالطاعون، إمام الزيدية علي بن صلاح وكثير من فقهائهم. ولم يبق من بيت علي بن صلاح الإمام إلا امرأة واحدة ومولاه قاسم (سنقر).

ومات الملك الظاهر في شهر رجب سنة ٨٤٢هـ، بمدينة زبيد، ثم نقل إلى تعز وقبر بمدرسته الظاهرية. وأبطل ضمان الحسبة وردّ كثيراً من المظالم. وبنى عدداً من المدارس والمساجد(١).

الملك الأشرف إسماعيل بن يحيى بن إسماعيل بن العباس الرسولي الغساني (٨٤٢-٨٤٥هـ)

تولّى بعد وفاة والده الملك الظاهر يحيى بن إسماعيل، ودانت له البلاد. وظهرت بسالته - وكان يومئذ شابًّا - فسفك الدماء وشدَّد الغارة على الأعراب (البدو) ولكنه لم يستطع أن يقضي عليهم.

وفي سنة ٨٤٣هـ، هجم القرشيون على قرية المملاح ظاهر زبيد فحاربهم الأشرف إسماعيل فانتصر عليهم.

وكان المعازبة يكثرون من الثورات، فدعاهم الأشرف إلى سماط ووليمة كبيرة في بيت الفقيه (اسم مدينة والفقيه هو ابن عجيل) فلما قعدوا يأكلون ضرب العسكر رؤوس أربعين منهم. وتم ذلك في جمادى الأولى سنة ٨٤٥ هـ. واشتهر ذلك اليوم بيوم السماط.

ومن مآثره البركة التي أنشأها بجامع زبيد. وجعل دَرَسة (طلبة يطلبون العلم ويقرأون القرآن عقب كل صلاة) ورتّب لهم ما يقوم بهم.

---

(١) كانت أم الملك الظاهر يحيى وأم أخيه الملك الناصر أحمد تعرف بأم الملوك «جهة الطواشي مرجان»، أي أن المسؤول عن شؤونها كان العبد المخصي مرجان. وقد بنت مسجداً بعدن (قريب من المسجد الجامع في عدن). وبنت المدرسة المرجانية في لحج وسبيلاً في الأخبة، وتوفيت سنة ٨٣٦هـ. كما بنت زوجة الظاهر يحيى المعروفة بالسيدة الحرّة «جهة الطواشي ياقوت» المدرسة الياقوتية بحافة البصال في عدن (حمزة لقمان في تاريخ عدن، ص ٩٥).

ومات الأشرف سنة ٨٤٥هـ ، في مدينة تعز، ودفن عند والده بالمدرسة الظاهرية. وكان الأشرف آخر ملوك الرسوليين من بني غسان الذين كان لهم ملك، وأما من أتى بعده فكانت لهم صورة الملك فقط حتى استولى عليها الطاهريون الذين أقاموا دولة باذخة. وكانت عدن أهم مدنهم.

المظفر يوسف ومن بعده

تولّى بعد وفاة الأشرف إسماعيل ابن عمه المظفر بن يوسف. وكان يحكم صورة والحكم الحقيقي لآل طاهر.

وانشق جماعة من العبيد وفروا إلى زبيد وأقاموا **محمد بن إسماعيل بن عثمان** ابن الأفضل العباس ملكاً ولقّبوه أيضاً بالأفضل، وكان الأمر إلى هؤلاء العبيد. وانشقَّ فريق آخر من العبيد على الأفضل محمد بن إسماعيل فأعلنوا أحمد بن الناصر ملكاً. وتشعَّث الأمر، فبايعت جماعة أخرى **المسعود صلاح الدين بن الأشرف بن الناصر**.

واضطربت الأمور على بني رسول وساءت أحوالهم وكثرت الفتن بينهم. وتعاون بنو طاهر مع المظفر يوسف الذي تحصَّن بعدن، وجرت معارك في لحج بين أنصار المظفر يوسف والمسعود صلاح الدين. واستعان المظفر يوسف بالشيخ عامر بن طاهر فأخرجوا المسعود من تعز وخرج منها إلى موزع ثم توجه إلى عدن فذهب إليه المظفر لقتاله ولم ينتصر عليه. وفي سنة ٨٥٤هـ ، خرج المظفر من تعز فاستولى عليها المسعود. وفي سنة ٨٥٨هـ ، قامت المعارك بين الشيخ عامر بن طاهر والمسعود في لحج، وبعد معارك عدة لجأ المسعود إلى خنفر. ثم جاءه العسكر من زبيد ليكون ملكاً على زبيد فخرج معهم إليها، ولكنه وجد مقاومة من حاكم زبيد، فخلع المسعود نفسه وذهب إلى مكة المكرمة. وزحف الشيخ عامر بن طاهر وشقيقه الشيخ علي بن طاهر نحو عدن واحتلوها في ٢٣ رجب ٨٥٨هـ ، وبذلك بدأت دولة الطاهريين وانقرضت دولة بني رسول.

الدولة الرسولية وعدن

كان الملك المسعود صلاح الدين يوسف بن محمد بن أبي بكر بن أيوب (حفيد الملك العادل أبو بكر بن أيوب بن شادي) آخر الملوك الأيوبية في اليمن. وقد وصل زبيد سنة ٦١٢هـ ، وأعاد المملكة بعد أن تشعثت فرقاً ودويلات، ولكنه كان ظالماً. فلما أراد العودة إلى مصر جمع الأموال ظلماً وذهب إلى عدن - كما أسلفنا في فصل سابق - وأخذ خزانتها، وطلب من التجار أن يوافوه إلى عدن فاجتمعوا فيها، فطلب شراء بضائعهم ليعفيهم من الضرائب والعشور، فباعوه إياها، فلم يدفع لأحد منهم ثمن بضاعته وإنما أحالهم على الولاة في اليمن فذهبت أموال أكثرهم هدراً.. وضاعف الضرائب والمكوس.. وجمع من الأموال والبضائع ما ملأ به سبعين سفينة كبيرة، وأرسلها إلى مكة (عن طريق جدة) وسافر سنة ٦٢٥هـ . وكان المسؤول عن اليمن ونائب الملك نور الدين المنصور عمر بن علي بن رسول الغساني. وهو الذي ساعد الملك المسعود في نهبه لأموال الناس، كما كان هو الذي زاد من الضرائب والعشور في عدن حتى هرب التجار منها.

فلما وصل الملك المسعود مكة مع أمواله وكنوزه أماته الله فجأة، وهو شاب في الخامسة والعشرين، فلم يستمتع بها في الدنيا وستكون حسرة وندامة عليه يوم القيامة. واستمر نور الدين المنصور عمر بن علي بن رسول في تثبيت ملكه، ثم أعلن انفصاله عن الدولة الأيوبية وطلب من الخليفة العباسي أن يجعله على اليمن والحجاز، فأرسل له بذلك الخلع والأعلام التي وصلت إلى المنصور سنة ٦٣٢هـ .

وغيّر الملك المنصور عمر بن علي بن رسول سياسته في أخذ الضرائب

الباهظة والعشور المتكرر من تجار عدن. وبدأت حالة عدن الاقتصادية تتحسن وتنتعش. واستمر الانتعاش في عهد خلفائه، مع وجود حالات تزداد فيها الضرائب، ولكن ملوك بني رسول عموماً يعيدونها إلى الوضع المقبول، فزادت التجارة حتى بلغت الضرائب ما يزيد على ألف ألف (عشرة لكوك) من الدنانير وكانت قبل ذلك لا تزيد على مائتي ألف دينار (لكين).

وقد وصف كثير من الرحالة عدن في هذه الفترة، منهم ابن بطوطة وصلاح الدين بن البرهان صاحب كتاب «مسالك الأبصار». وأدرك ابن المجاور حكم المنصور عمر بن علي بن رسول. والمعلومات المتعلقة بعدن في هذه المصادر، تصف حالتها العامة، وما استجد من الضرائب والضمانات في هذا العهد، والجور الذي حدث في أيام بعض ملوك بني رسول، وهروب التجار من عدن، والعلاقات الخارجية، ومحاولات بعض مراكب التجار القادمة من الهند وغيرها الامتناع عن تفريغ حمولتها في ميناء عدن، وغير ذلك.

وسننقل ما ذكره حسن صالح شهاب عن عدن في العهد الرسولي من كتابه «عدن فرضة اليمن»، (ص ١٤٨ – ١٧٠) بتصرف وحذف وإضافة.

الوصف العام

يقول ابن بطوطة[(١)]:

«عدن مرسى بلاد اليمن، على ساحل البحر الأعظم، والجبال تحفّ بها، ولا مدخل إليها إلا من جانب واحد. وهي مدينة كبيرة، ولا زرع بها لا شجر ولا ماء. وبها صهاريج يجتمع فيها الماء أيام المطر، والماء [العذب] على بُعد منها، فربما منعته العرب، وحالوا بين أهل المدينة وبينه حتى يصانعونهم بالمال والثياب. وهي شديدة الحر. وهي مرسى أهل الهند، تأتي إليها المراكب العظيمة

(١) سافر ابن بطوطة من (طنجة) مسقط رأسه بالمغرب (مراكش) في شهر رجب سنة ٧٢٥ هـ.

من (كنباية) و(تانة) و(كولم) و(قالقوط) و(فندرانية) و(الشاليات) و(منجرور) وفاكنور) و(هنور) و(سندابور) وغيرهما. وتجار الهند ساكنون بها وتجار مصر أيضاً. وأهل عدن ما بين تجار، وحمالين، وصيادين للسمك. وللتجار منهم أموال عريضة. وربما يكون لأحدهم المركب العظيم بجميع ما فيه لا يشاركه فيه غيره، لسعة ما بين يديه من الأموال. ولهم في ذلك تفاخر ومباهاة»(١).

وأقام **صلاح الدين بن البرهان** مدة بعدن، ووصفها في كتابه «**مسالك الأبصار**» بأنها بلد تجارة تأتي إليها المراكب من الحجاز والسند والهند والصين والحبشة، ويمتار أهل كل إقليم ما يحتاج إليه إقليمهم من البضائع.

«ولا يخلو أسبوع من عدة سفن وتجار واردين عليها. وبضائع شتى ومتاجر منوّعة. والمقيم بها في مكاسب وافرة، وتجائر مربحة. ولحطّ المراكب عليها وإقلاعها مواسم مشهورة، فإذا أراد ناخوذة السفر بمركب إلى جهة من الجهات، أقام فيه علماً برنك [بلون] خاص به، فيعلم التجار بسفره، ويتسامع به الناس. فيبقى كذلك أياماً، ويقع الاهتمام بالرحيل، وتسارع التجار في نقل أمتعتهم، وحولهم العبيد بالقماش السري، والأسلحة النافعة، وتنصب على شاطئ البحر الأسواق ويخرج أهل عدن للتفرج هناك». وقال: «إن المقيم بها يحتاج إلى كلفة في النفقات لارتفاع الأسعار في المآكل والمشارب، ويحتاج المقيم بها إلى ما يتبرد به في اليوم مرات في زمن قوة الحر.. ولكنهم لا يبالون بكثرة الكلف ولا بسوء المقام لكثرة الأموال النامية»(٢).

العمران

قول ابن بطوطة إن عدن «مدينة عظيمة» يؤكد أن عدن لم تعد في النصف الأول من القرن الثامن الهجري تلك المدينة الصغيرة التي شاهدها ابن حوقل في

(١) ابن بطوطة: تحفة الأنظار، ج ١، ص ١٥٩ (طبعة مصر – ١٩٦٧).
(٢) صبح الأعشى للقلقشندي، ج٥/ ١٠ – ١٢.

منتصف القرن السادس. فبعد هذا التاريخ اتسعت عمارتها حتى وصلت في العقد الثالث من القرن السابع إلى قريب الباب[١]. إلا أن غالبية مساكنها كانت من الخوص، وهي مساكن الحمالين وغيرهم من العاملين لدى التجار من الأحباش والبربر. فأهل عدن – كما قال ابن بطوطة – ما بين تجار وحمالين.

مآثر الرسوليين

ومن مآثرهم في عدن، **المدرسة المنصورية** التي أسسها نور الدين عمر بن علي بن رسول (الملك المنصور) مؤسس الدولة الرسولية. وجعلها قسمين: (أحدهما) للشافعية والثاني للحنفية[٢]. **ومن مآثرهم منارة الملك الظاهر عند باب عدن البحري. وباب الزيادة في باب عدن أقامه الملك الناصر سنة ٨٠٩ هـ.**

وقد أقامت أم الملك الظاهر يحيى وأخت الملك الناصر أحمد مسجداً بقرب المسجد الجامع، ويبدو أنه في القطيع. كما قامت ببناء المدرسة المرجانية في لحج وأوقفت عليها أوقافاً. وكانت تعرف باسم أم الملوك الحرّة «جهة الطواشي مرجان» والطواشي (العبد المخصي) مرجان هو المسؤول عن شؤونها وأموالها ومزارعها وأوقافها. وقد ماتت سنة ٨٣٦هـ .

كما قامت زوجة الملك الظاهر يحيى المعروفة باسم السيّدة الحرّة «جهة الطواشي ياقوت» بإنشاء المدرسة الياقوتية في عدن، في حيّ البصال (حاليًّا شارع الملك سليمان) وقد أعيدت المدرسة وأعيد بناء المسجد بواسطة أهل الخير في عدن. وكتبتُ عنها فصلاً في ذكر معالم عدن الدينية من هذا الكتاب، وكتب عنها الدكتور رابضة كتاباً لطيفاً وهامًّا.

وقد اشتهر الملوك الأيوبيون بإنشاء المدارس والأوقاف والسُبُل والمساجد والمبرّات، ولكن آل رسول فاقوهم في تلك المساجد والمبرّات والمدارس في

---

(١) ابن المجاور: تاريخ المستبصر، ص ١٤٧. والمقصود باب عدن البريّ القديم.
(٢) الطيب بامخرمة: تاريخ ثغر عدن، ج٢/ ص ١٧٩.

اليمن. وفيما سبق ذكرنا كل ملك ومبرّاته ومبرّات زوجاته أو والدته أو عبيده. وهي كثيرة جدًّا.

واهتم الملك المؤيد داود بن يوسف بن عمر الرسولي، عندما دخل عدن، بإعادة بناء دار المنظر ودار الطويلة والأسواق. وأقام الاحتفالات بساحل حقات وسمح للعامة حضور تلك الاحتفالات والاستعراضات. وشجع الملك المؤيد التجار وخفّف من العشور والضرائب، فازدادت التجارة وكبرت مدينة عدن حتى وصل العمران إلى قريب من باب عدن.

وأوقف الملك الأشرف إسماعيل بن العباس الرسولي أرضاً في لحج على رباط الشيخ أبي الغيث بعدن.

وكانت لهم صدقات واسعة واهتمام بالعلم والعلماء، بل كانوا يؤلفون الكتب البديعة في الطب والفلاحة، والفلك والتاريخ والنحو.. وكان كثير منهم شعراء يجيدون نظم القصيد، كما مرَّ معنا.

ومن المساجد التي بنيت في العهد الرسولي في عدن: مسجد ابن البصري، مسجد السماع، مسجد الدوري، مسجد الشيخ جوهر ومسجد البيلقاني (بالقطيع) كما يذكره بامخرمة في تاريخ ثغر عدن.

النشاط التجاري

(١) في عهد السلطان نور الدين الملك المنصور عمر بن علي بن رسول

قال حسن صالح شهاب في كتابه (عدن فرضة اليمن):

تحت عنوان «خراب عدن» يقول **ابن المجاور** إن الدليل على صدق **من تنبأ بخراب عدن في سنة سبع وعشرين وست مئة «دخول نور الدين عمر بن علي ابن رسول إلى عدن يوم الأربعاء السادس والعشرين من شهر رجب سنة أربع وعشرين وست مئة. وفي يوم الإثنين الثاني من شعبان طرح الفُوّة على كل من كان في عدن، من غريب وقريب، وقوي وضعيف، ورجل وامرأة.. على سعر**

البهار مئتي دينار وثمانين ملكي. وضرب الخلق بالخشب، وكانت الأيام شبه أيام المحشر. كل منهم محتشر ينادي: أين المفر؟ فلما كانت سنة خمس وعشرين وست مئة أخذ جميع فلفل التجار، وجميع الخف والنحاس، والبربهار. حسب الفلفل البهار بأربعين ديناراً وطرحه على أهل الكارم بستين ديناراً، وأخذ الصفر من أهل الكارم على سهر البهار بستين ديناراً، وطرحه على أصحاب الخف بثمانين ديناراً. وأعطى أصحاب الفلفل الفُوّة على سهر البهار بأربعة وثمانين ديناراً. ويأخذ البهار بهار وربع، وإذا أعطى، أعطى البهار بهار إلاّ ربع. ويخرج بعد ذلك من هذه البضائع الواصلة العشور، والشواني، ودار الوكالة، ودار الزكاة، والدلالة، يفضل مع التاجر لاش في لاش.. وأخذ جميع عُطب (قطن) من وصل من الهند مع التجار مستهلك، لا بيع ولا شراء. وضمَّن القبان السنة بعشرين ألف دينار، والسليط على كل بهار يصل خمسة دنانير. وسوق الخضرة، والجواري، والرطب، واللحم، وجميع الدواب بأحد عشر ديناراً. ولم يبق شيء يدور عليه اسم وحرف إلاّ وقد رجع فيه ضمان، ما خلا الماء والسمك»(١).

وقبل ملاحظاتنا على كلام ابن المجاور هذا، سنشرح ما ورد فيه من الأسماء التي قد يصعب فهمها على بعض القراء. فالبهار يساوي ثلاثمائة رطل بغدادي. والخف: ما لا يحسب عشوره بالوزن من السلع كالأقمشة ونحوها. والكارم: تجار مصر وما يليها من شمال إفريقيا. والعُطْب: القطن. والقبان: ميزان كبير توزن به السلع بالبهار. والسليط زيت السمسم. وأصحاب الفلفل: تجار المليبار، بلاد الفلفل، بساحل الهند الغربي (وهي المعروفة الآن بكيرالا).

وأول ما نلاحظه في هذا الوصف للجور واحتكار بيع السلع وشرائها بعدن في آخر العهد الأيوبي، أن نور الدين عمر بن علي بن رسول كان، حين حدوث هذا الجور، نائباً للملك المسعود صلاح الدين يوسف الأيوبي. فابن المجاور لم

(١) ابن المجاور: المستبصر، ص ١٤٨.

يقل: «الملك نور الدين»، وإنما ذكره باسمه المجرد. فإذا كان نور الدين قد تصرف حقًّا هذا التصرف الجائر مع تجار عدن، فإنه ربما فعل ذلك بأمر سيد الملك المسعود، الذي كان – كما ذكرنا من قبل – يثق ويأنس به كثيراً.

ويتفق ما وصفه ابن المجاور من ظلم التجار ونهب تجاراتهم بعدن مع ما رواه بعض المؤرخين من **أن الملك المسعود، حين عزم على العودة إلى مصر، أمر من ينادي في البنادر، بأن «من أراد من التجار أن يسافر إلى الديار المصرية فليسافر مع الملك المسعود» قبل سفره بمدة. فأقبلت التجار من كل ناحية بأنواع التجارات والبضائع. فاجتمع بهم في ثغر عدن، وقال لهم: بيعوني هذه البضائع التي عندكم لتسلموا من العشور. فباعوها عليه، فأخذها منهم، وكتب لهم بأثمانها إلى اليمن، وأحال لهم بحوالات إلى كل ناحية، فصاحوا بالويل والثبور. فلم يلتفت إليهم ولم يحصل لأكثرهم شيء. وكان جملة ما أخذه منهم «خمس مئة صندوق من فاخر الأقمشة والملبوس، وثلاث مئة بهار من العود الرطب والعنبر الفاخر، وأربع مئة سرية. ومن الجواهر واللآلئ والأحجار النفيسة ما لا ينحصر، وسبعون ألف ثوب صيني معلم بالذهب، ومن الصنائع ما لا ينحصر عدده. حتى قيل إن المراكب التي أقلت هذا سبعون مركباً». ويقال إن الملك المسعود «كان ظالماً، سيء السيرة في رعيته، سفّاكاً للدماء»(١).**

فكان من الطبيعي بعد هذه التصرفات الجائرة، والضرائب الجمركية الباهظة، أن يهرب التجار المقيمون في عدن من عدن، وأن يمتنع تجار البحر من التعامل معها، وأن يضعف، نتيجة لذلك، نشاطها التجاري.

وقد استفادت من هذا الوضع السيئ للتجارة في عدن ثغور أخرى، أشهرها ثغر (ظفار)، حيث أخذت السفن التجارية من الهند والشرق الأقصى تفرغ حمولتها فيه في أيام السلطنة الحبوظية. واتسع نشاط ظفار التجاري، عند

---

(١) الخزرجي: العقود، ج١، ص ٤١ – ٤٢.

سقوط الخلافة العباسية على أيدي التتر، وانقطاع الطريق التجارية البرية بين (البصرة) والشام، فتحولت السفن التجارية، التي كانت تقصد ميناء البصرة وسيراف، إلى ظفار[١].

ولا يعرف مدى ضعف النشاط التجاري في عدن، في عهد الملك المنصور نور الدين، فمصادر تاريخه، التي بين أيدينا، لا تذكر ما كان يرفع إلى عاصمته من دخل عدن من الضرائب الجمركية، التي يمكن من خلالها معرفة ما إذا كان هذا النشاط ضعيفاً أم قويًّا. إلا أنه من المؤكد أن الحركة التجارية في ميناء عدن لم تتوقف، فقبل وفاة الملك المنصور بيومين أو ثلاثة أيام وصل إليه رسول بهدية من ملك الهند[٢]. فتبادل الهدايا والرسائل الودية، كان عادة مألوفة بين ملوك البلدان التي تربط بين بعضها البعض علاقات تجارية متطورة.

(٢) في عهد المظفر

بعد مقتل السلطان نور الدين حاول المماليك أن يقيموا الأمير فخر الدين أبو بكر بن علي بن رسول ملكاً على اليمن، فسارع المظفر بمن معه من العسكر إلى زبيد في ذي القعدة من سنة ٦٤٧ هـ ، أي بعد شهر تقريباً من وفاة والده نور الدين، وكان الأمير فخر الدين ومن معه من المماليك محاصرين لها، ففك الحصار عنها. وقبل أن يتسلم معظم حصون اليمن، التي كانت تحت سيطرة والده، ويستولي على تعز وصنعاء، توجه من زبيد في شهر صفر ٦٤٨ هـ إلى عدن واستولى عليها وعلى لحج وأَبْيَنْ[٣].

وفي عدن اجتمع بالتجار وأعيان البلاد. وسأل التجار عن سيرة حكام عدن من القضاة وغيرهم، محاولاً بذلك التودد إليهم، وكسب ثقتهم بعدالته،

---

(١) Cavin, *Aden Under British Rule*, P. 11.

(٢) الخزرجي: العقود، ج١، ص ٨٣.

(٣) المصدر السابق، ج١، ص ٨٨ – ٩٤.

وطمأنتهم على أموالهم وتجاراتهم. فكان ممن سألهم عن سيرته من قضاة عدن **القاضي أبو بكر بن محمد الجنَيْد** فأثنى عليه التجار ثناءً حسناً وأجمعوا على عدالته ونزاهته. ولما قال السلطان للقاضي بهاء الدين، قاضي عدن في ذلك الوقت: «بلغنا أن القاضي [أبا بكر الجنيد] فقير ويجب أن تزيد في رزقه. فكم ترى تزيده؟ فقال: عشرة دنانير، وكانت ثلاثين ديناراً، فعتب التجار على القاضي بهاء الدين، حيث لم يجعل الزيادة أكثر من ذلك»(١). **وقدمت التجار للمظفر الهدايا من التحف والأموال. وسلمه الوالي دخل عدن من الضرائب لتلك السنة، ومبلغه خمس مئة ألف دينار**(٢).

وبعد أن سيطر المظفر على عدن، وبث في قلوب تجارها الطمأنينة على تجاراتهم، وضمن بذلك المورد المالي لسير أمور دولته، توجه إلى تعز وتسلم حصونها، واستكمل بعدها السيطرة على بقية المناطق التي كانت خاضعة لحكم أبيه.

وهكذا كان كل واحد من المتنافسين على الملك يحاول أن يسيطر على عدن قبل الآخرين، ليضمن بذلك المورد المالي لتثبيت ملكه ومواصلة الحرب ضد منافسيه. وكمثال على ذلك أيضاً: **حينما علم الملك المؤيد بوفاة والده المظفر وهو في الشحر خرج منها ثائراً ضد أخيه الأشرف الذي ولاه أبوه المظفر الملك قبل موته، ووصل إلى أبين حيث انضمت إليه طائفة من العسكر هناك، وسار إلى عدن. وأرسل ثلاث مئة من خيرة رجاله مع صياد خبير بمسالك الجبل المنقور فيه باب عدن، وتسلقوا في جنح الظلام إلى رأس الجبل من جانب ضعيف من الدرب، أي السور، الممتد على رؤوس الجبال.** وقد أوصاهم المؤيد بأن لا يظهروا حتى يروه مع بقية العسكر بالقرب من الباب. وفي الصباح توجه المؤيد

---

(١) الخزرجي: العقود اللؤلؤية، ج١، ص ٢٥٢.

(٢) د. محمد عبد العال: بنو رسول وبنو طاهر، ص ٣٩٠، عن كتاب: (السمط الغالي الثمن في أخبار الملوك من الغز في اليمن).

نحو الباب. وكان والي المدينة قد جمع عسكره وخرج من الباب متأهباً للقتال «فثار عليهم أولئك الرجال وصاحوا من رأس الجبل، ونزلوا إلى الباب فملكوه، وهرب الوالي وعسكره إلى داخل المدينة، وصاحوا الأمان الأمان»[(١)]. وبعد أن سيطر على عدن توجه منها إلى لحج وأبين واستولى عليهما، لكن الجحافل الذين أتى بهم من أبين، وهم معظم عسكره، هزموا في معركة (الجوّة) أمام عساكر أخيه الملك الأشرف ونهبت خزانته وآلته[(٢)]، سنة ٦٩٥ هـ.

ودولة بني طاهر أيضاً بدأت – كما سنرى فيما بعد – **بالسيطرة على عدن، ثم بسطت سيطرتها بعد عدن على بقية المناطق.**

وخير شاهد على استعادة عدن لمركزها التجاري في عهد المظفر أن التجار المسلمين المقيمين في الصين، لما حرم ملك الصين عليهم الختان لجأوا إلى السلطان المظفر ليشفع في الإذن لهم بالختان، فكتب المظفر كتاباً بذلك إلى ملك الصين، وبعث به مع «هدية سنية توافق مراده، فقبل شفاعته»[(٣)].

وقد ازداد نشاط عدن التجاري اتساعاً، بعد أن سيطر المظفر على ظفار الحبوظي. وكان سبب غزو المظفر لها، أن سالم بن إدريس الحبوظي صاحب ظفار قبض على هدية كان المظفر قد بعث بها مع سفير إلى ملوك فارس، فرمت الريح بالسفن التي تحمل الهدية إلى ساحل ظفار. فأمر المظفر واليه على عدن بالتقدم إلى ظفار. لكن هذا فشل في التغلب على قوات الحبوظي، وعاد إلى عدن، فتبعه الحبوظي بالسفن مع حليفه راشد بن شجيعه، صاحب الشحر، وأغار على عدن، فاستشاط المظفر غيظاً، وأمر «بعمارة الشواني والمراكب والطراريد وأنواع مطايا البحر»، وجهّز جيشاً من ثلاث فرق: فرقة سارت في

(١) الخزرجي: العقود اللؤلؤية، ج٢، ص ٢٨٥.
(٢) المصدر السابق: ج٢، ص ٢٨٩.
(٣) المصدر نفسه: ج١، ص ١٧٩.

البحر على المراكب مع المؤن والعتاد، وفرقة سلكت طريق الساحل، والفرقة الثالثة سلكت طريق حضرموت الداخل. والتقت عساكر المظفر جميعها في (ريسوت)، ثم سارت إلى ظفار، وجرت بينها وبين عسكر سالم بن إدريس الحبوظي معركة قصيرة انتهت بهزيمة عسكر الحبوظي، وقتل في المعركة سالم بن إدريس، **ودخلت عساكر المظفر ظفار يوم ٢٨ من شهر رجب سنة ٦٧٨ هـ**[١].

ويقول الخزرجي إنه بعد فتح ظفار وصلت إلى المظفر هدايا من صاحب الصين وعُمان «ووصل صاحب البحرين إلى زبيد»[٢]. كما أدى ذلك إلى إدخال الرهبة في نفوس قراصنة البحر العربي، فأمنت تجار البحر على أرواحهم وأموالهم فيه وازداد إقبالهم على ثغر عدن.

(٣) في عهد بقية ملوك بني رسول

سلك من جاء بعد المظفر من ملوك الدولة الرسولية مسلك المظفر في إنعاش نشاط عدن التجاري، من خلال إبطال بعض الضرائب، وترغيب التجار في السكنى بعدن، وتشجيع النواخيذ وتجار البحر على التردد إليها. والأمثلة على ذلك كثيرة. منها أن **الملك المؤيد** عندما دخل عدن وعيّد عيد النحر بها سنة ٦٩٩ هـ قدم له التجار المقيمون بها «التقاديم النفيسة، على عوائد الملوك، فردّها السلطان، وأمر بإفاضة الخلع عليهم، والتشاريف والمراكب من البغال المختارة، بالعدد الكاملة، والسروج المذهبة، والزنانير (نوع من الثياب) المنوعة. وأجرى نواخيذ الهند على جاري عادتهم، وأمر بإكرام النواخيذ والتجار المترددة إلى الثغر المحروس، وأمر بإبطال ضمان بيت الخل. وأقام بفضله موسم العدل. وشاهد موسم الخيل من باب الطويلة. وسارت النواخيذ والتجار

---

(١) الخزرجي: العقود، ج١، ص ٢٠٩ – ٢١٢.

(٢) المصدر السابق، ج١، ص ٢١٣.

الكارمية ناشرين لواء عدله في أمصارهم»[١].

قوله: «باب الطويلة» يعني باب دار الطويلة، المتقدم ذكره، وكان يشرف على ساحة الفرضة. و«موسم الخيل»: موسم خروجها من عدن إلى الهند، ويوافق موسم هبوب الرياح الجنوبية الغربية في المحيط الهندي، وكان السفر بها من عدن إلى الهند يجري في أول موسم هبوبها وآخره.

والملك **الأفضل العباس** أقام في عدن أياماً من شهر شوال سنة ٧٧٦ هـ «فنشر شيئاً من العدل لا يعهد، وكسى النواخيذ، وأبطل كثيراً مما أحدثه العمال، وصارت التجارة تذكره بالجميل ونائله الجزيل، إلى كل ناحية في البر والبحر»[٢].

وقد أدت هذه السياسة إلى زيادة إقبال تجار البحر على عدن، فقصدوها من أقصى موانئ المحيط الهندي، وأقصى موانئ الشرق الأقصى. ففي سنة ٧٠٣ هـ، **في عهد الملك المؤيد (٦٩٦ – ٧٢١هـ)، وصل إلى عدن أحد التجار من بلاد (الخطا) على طريق الصين[٣]، يقال له عبد العزيز بن منصور الحلبي، بمال عظيم شأنه، وكان معه من الحرير ثلاث مئة بهار. البهار الواحد ثلاث مئة رطل بالبغدادي، ومن المسك المفرغ في أواني الرصاص أربع مئة رطل وخمسون رطلاً، ومن الفخار الصيني جملة مستكثرة، ومن الأواني الشم المطعمة بالذهب، ومن الصحون الكبار جملة جيدة، ومن الثياب المختلفة الألوان مثل ذلك. ومن المماليك والجواري شيء كثير. ومن الفضة الماس؟ خمسة أرطال زعم أنها صدقة للحرمين على يديه من تجار تلك الناحية. فتقرر عشور ما وصل به إلى ثغر عدن المحروس ثلاث مئة ألف درهم»[٤].**

---

(١) الخزرجي: العقود، ج١، ص ٣٢٠ – ٣٢١.

(٢) المصدر السابق، ج٢، ص ١٥٤.

(٣) (الخطا): يجعلها ابن بطوطة بالجزء الشمالي من الصين. انظر الرحلة.

(٤) الخزرجي: العقود، ج١، ص ٣٥٠.

ومما يؤكد أيضاً نجاح هذه السياسة في إنعاش الحركة التجارية بعدن في هذه الفترة، زيادة دخل عدن من الضرائب الجمركية خلالها. ونلاحظ هذه الزيادة في القائمة التالية لواردات عدن من هذه الضرائب المرفوعة في بعض السنين إلى ثلاثة من ملوك هذا العهد، وهم: الأشرف، والناصر، والظاهر. وترفع هذه الواردات كل سنة إلى السلطان، وتعرف في مصادر التاريخ اليمني بالخزانة السعيدة:

التاريخ	مقدار الخزانة
	١ - الأشرف
١٧ ذو القعدة ٧٩٦هـ	خمسة لكوك (خمسة مئة ألف) من الدنانير، عدا الذهب، والقماش، والطيب، والتحف[١].
محرم سنة ٨٠٢ هـ	سبعة عشر لكًّا، ومن الأصناف ما قيمته ثلاثة لكوك[٢].
	٢ - الناصر
جمادى الثانية ٨١٣ هـ	من المال قدر عشرة لكوك، غير التحف والهدايا من القماش الفاخر، والمشموم (الطيب)، ومن الحيوانات كالفهود، والدرر (الببغاوات) وحمير الفرا[٣].
جمادى الثانية ٨١٧ هـ	من الذهب والفضة والقماش ما يزيد على عشرة لكوك[٤].
	٣ - الظاهر
رمضان ٨٣٤ هـ	من النقد، والذهب، والمصاغ والحلي، والتحف من الطيور، وأنواع الطيب المفتخرة، والصيني، والبلور، وأواني الفضة، والذهب، والبز المصري، والشيرازي، والعراقي ما ينيف على خمسة لكوك. ووصل مع الخزانة السعيدة جماعة من التجار والنواخيذ بهدية للسلطان الظاهر[٥].

(١) مجهول: تاريخ الدولة الرسولية، ص ١٢٤ (تحقيق الحبشي).
(٢) المصدر السابق، ص ١٣٠.
(٣) المصدر نفسه، ص ١٦٠.
(٤) المصدر نفسه، ص ١٧٢.
(٥) المصدر نفسه، ص ٢٤٢ – ٢٤٣.

رمضان ٨٣٥ هـ	من النقد الذهب والفضة، ومن الحرير والبز ما يزيد على ثلاثة لكوك[١].
الحجة ٨٣٦ هـ	من المال النقد والذهب العين قدر أربعة لكوك، ومن البز خمسين حملاً، ومن التحف والأطياب، والرقيق. وغير ذلك من الهدايا ما يأتي ثمنه مئة ألف دينار. ووصل مع الخزانة الناخوذة كَرْوَة. وأمر السلطان قاضي عدن، الذي أتى بالخزانة، بأن لا يؤخذ من تجار (كالقوط) غير العشور. وسمح لهم بالقواعد وغيرها، وكسى الناخوذة كسوة فاخرة، وسمح له بشيء من العشور، وطابت خواطر التجار[٢].

لكن زيادة العائدات الجمركية قد يكون سببها أيضاً الزيادة في الضرائب، فأبو مخرمة يقول إن (دار صلاح)، المتقدم ذكرها، كانت لصلاح بن علي الطائي، أحد تجار عدن. فلما حصل الجور في أيام الناصر الغساني هربت التجار من عدن إلى جدّة، والهند. فهرب صلاح بن علي إلى (منيبار)، بساحل الهند الغربي. وفي أيام الملك الظاهر (٨٣١ – ٨٤٢ هـ) زادت محاولات التجار والنواخيذ في الامتناع عن تفريغ بضائعهم في فرضة عدن، والتوجه بها إلى جدّة. وعرف هؤلاء بالمجوّرين.

رصد سفن المجوِّرين ومصادرتها

المجَوِّر (بفتح الجيم وتشديد الواو مع الكسر): يطلق في اللهجة العامية باليمن على من سلك ببضاعة طريقاً خفية غير الطريق المألوفة، هرباً من رجال الجمارك على هذه الطريق. ويطلق في بعض مصادر التاريخ اليمني على من كان يتجاوز ميناء عدن من التجار والنواخيذ في عهد الملك الظاهر الرسولي، ويتعامل مع ميناء جدة. وفي قواميس اللغة: من يسلك طريقاً غير الطريق المألوفة.

(١) المصدر نفسه، ص ٢٤٩.

(٢) المصدر نفسه، ص ٢٧٠.

ويقال إن أول من تعامل من التجار مع جدة تاجر يدعى الخواجة إبراهيم، من تجار (كاليقوط) (كالكتا)، أهم موانئ (المنيبار) أو (المليبار) بساحل الهند الغربي. وكان من قبل أحد التجار المترددين على عدن، فحصل عليه جور في عدن آخر أيام الملك الناصر، فامتنع عن التعامل معها[(١)]. وفي سنة **٨٢٧هـ، وهي السنة التي توفى فيها الناصر**، توجه إلى جدة ونجح في بيع تجارته بها، ولما عاد إلى الهند شجع تجار الهند وغيرهم على التعامل مع جدة ومقاطعة ميناء عدن. ووصل في السنة التالية **إلى جدة**. وبرفقته أربعة عشر مركباً[(٢)]. **وتبعه كثير من تجار (هرمز) وغيرهم، بحيث بلغ عدد السفن التي وصلت إلى جدة في عام ٨٢٩ هـ أربعين سفينة، وبلغ مقدار ما حمل إلى مصر من واردات جدة من الرسوم الجمركية في ذلك العام أكثر من سبعين ألف دينار**[(٣)].

وتفاقم نشاط المجوِّرين في أيام الظاهر، فضعفت بسبب ذلك الحركة التجارية بعدن، وانخفضت بالتالي وارداتها الجمركية. الأمر الذي جعل الناصر يصدر أمراً بمنع السفن التجارية القادمة من المحيط الهندي من الوصول إلى جدة، ووضع مراكب الديوان بباب المندب لرصد مراكب المجوِّرين، والقبض عليها. وتوجه بنفسه مع بعض العسكر إلى باب المندب في شهر رجب سنة ٨٣٣هـ، وتفقد وضع المراكب بالباب وترتيب العسكر فيها[(٤)].

وكانت أول مواجهة بين مراكب المجوِّرين ومراكب الديوان في السادس عشر من شهر رجب سنة ٨٨٣ هـ، بعد سفر الناصر من باب المندب بعشرة أيام تقريباً. حيث وصل أحد مراكب المجوِّرين إلى باب المندب، فلحقه الأمير

---

(١) محمد عبد العال: بنو رسول وبنو طاهر. عن (قلادة النحر) لأبي مخرمة ج٣، ص ١٠٣.
(٢) المقريزي، (السلوك لمعرفة دول الملوك)، ج٤، ص ٧٠٧ – ٧٠٨. (انظر «بنو رسول وبنو طاهر» لمحمد عبد العال).
(٣) المصدر نفسه.
(٤) مجهول: الدولة الرسولية، ص ٢٢٣.

سيف الدين سنقر في بعض مراكب الديوان وبعض الجلاب (جمع جلبة)، وهي سفن اشتهر بها البحر الأحمر. ثم وصل مركب آخر من مراكب المجوِّرين فلحقه النقيب شجاع الدين عمر بن مسعود في المركب (الناصري) وبعض الطراريد (جمع طراد، نوع من السفن السريعة) فقبضوا على المركب، وقتلوا الناخوذة وجماعة من التجار، واستأسر بعض منهم، ولجأ الباقون إلى بلاليجهم، أي مقصوراتهم بالسفينة (جمع بليج) وصاروا يرمون العسكر بالنبال فجرحوا بعضاً منهم، فاغتاظ النقيب من ذلك وأمر بإحراق المركب، فأشار عليه بعض من كان معه بعدم إحراقه لأن المركبين قد صارا مرتبطين، فلم يصغ لشورهم، وهدد النفطي بالقتل إن لم يفعل ذلك. فلما رماهم النفطي بالنفط، وأحرق مركب التجار، امتدت النار إلى أحد جانبي مركب النقيب، فهرب عسكره من النار إلى الجانب الآخر من المركب، فمال المركب وغرق، ومات أكثر الناس في البحر بينهم النقيب عمر. أما الأمير سنقر فلم يقبض على المركب الذي لاحقه، وعاد إلى (المخا)، فصادف قبل وصوله إلى المخا مركباً آخر من مراكب المجوِّرين فقبض عليه. وكتب بذلك إلى الملك الظاهر فأمر بإرسال المركب إلى مرسى (الأهواب) بساحل زبيد[١].

هذا التصرف الأحمق لم يرجع لعدن ما فقدته من تجارة العبور، ويرغم التجار على العودة بتجاراتهم إلى عدن. بل كانت نتيجته عكس ذلك، إذ زاد التجار إصراراً على مقاطعة ميناء عدن، كما أساء إلى سمعة عدن التجارية في البلدان التجارية في المحيط الهندي والشرق الأقصى، فقطعت علاقاتها الودية مع اليمن. **ورأى فيه مماليك مصر ضياعاً للأموال التي بدأت تتدفق إلى خزائنهم من فرصة جدّة. فبادر السلطان المملوكي برسباي إلى تهديد السلطان الظاهر بغزو اليمن إن لم يمتنع عن التعرض للسفن التجارية بباب المندب ومنعها من**

(١) مجهول: الدولة الرسولية، ص ٢٢٤.

السفر إلى جدة[(١)].

ومع أن مصادر تاريخ هذه الفترة، التي بين أيدينا، لا تذكر أية مواجهة بين مراكب الديوان بباب المندب وبين مراكب المجوِّرين، بعد المواجهة المذكورة، إلا أن مراكب المجوِّرين التي تتحطم على صخور البحر الأحمر المجاور لليمن، وتلك التي لم تقدر على مواصلة سفرها إلى جدة بسبب معاكسة الرياح لمجراها، أو غيره من الأسباب، كانت تصادر أو تعاد تحت الحراسة إلى ميناء عدن. ففي شهر شعبان من عام ٨٣٨ هـ، مثلاً، قبض أصحاب (الحديدة) على مركب للمجوِّرين، وأبلغوا السلطان الظاهر بذلك، فأمر بمصادرته وأرسل بعض قضاته مع العسكر لينقلوا شحنة المركب إليه. فنقلوا إلى (المَهْجَم)، حيث يقيم السلطان، ما خف من البضائع، وساروا بالتجار، والمعلم، والبحارة، جميعهم تحت الأسر. وقوّم ما في المركب من أصناف البهار، والبز الغالي، اليزدي، والحرير، والبهرم؟ والشاشات، وغير ذلك بما يزيد على مئة ألف دينار[(٢)].

وفي شهر ذي القعدة سنة ٨٣٢هـ ، وقع مركبان من مراكب المجوِّرين على صخور جزيرة (زقر). فأرسل السلطان الأمير زيد الدين شكر العدني مع الناظر وجماعة من العسكر، فتقدموا إلى موضع المَكْسر، وأخرجوا ما في المركبين من البضائع، فكان ما وصلوا به منها إلى السلطان الظاهر ما تزيد قيمته، مع النقد، على مئة ألف دينار[(٣)].

وفي ذي القعدة سنة ٨٣٧هـ ، عاكست الرياح الشمالية مجرى مجموعة من سفن المجوِّرين كانت متجهة إلى جدة، ومع أن المسافة بينها وبين جدة لم تكن

---

(١) محمد عبد العال: بنو رسول وبنو طاهر، ص ٤٥٩ (عن ابن شاهين الظاهري، كتاب زبدة كشف الممالك).

(٢) مجهول: الدولة الرسولية، ص ٢٩١.

(٣) مجهول: الدولة الرسولية، ص ٢١٤.

طويلة إلا أن الرياح لم تمكنها من التقدم إلى جدة فعادت إلى عدن، وطلب أصحابها الصفح من السلطان والإذن لهم بدخول ميناء عدن، فصفح عنهم السلطان وحطّ عنهم خمس العشور[١].

وكإجراء مضاد لمحاولة منع السفن التجارية من الوصول إلى جدة أصدر مماليك مصر أمراً بمصادرة البضائع التي تحملها السفن اليمنية من عدن إلى جدة، ومضاعفة العشور عليها إذا وصلت إلى جدة على سفن غير يمنية[٢].

هذه التصرفات حطمت – كما قلنا – مركز عدن التجاري، وفقدت بسببها دولة بني رسول أهم مواردها المالية، إذ لم يزد مجموع متحصلات عدن من الرسوم الجمركية في سنة ٨٤٠هـ على مئة وخمسين ألف دينار تقريباً[٣]. فكان ذلك من أهم عوامل سقوطها، حيث لم تعمر بعد هذا التاريخ سوى سنوات قليلة، سادت خلالها الاضطرابات في اليمن، التي أتاحت لإمام الزيدية السيطرة على معظم المناطق الشمالية منها، ولبني طاهر التغلب على من تبقى من ملوك بني رسول، والسيطرة على الأجزاء الباقية منها.

العلاقات الخارجية

العلاقات التجارية بين عدن وموانئ البلدان البحرية حول المحيط الهندي، والبحار المتفرعة منه، قديمة جداً، وقد عرفنا بعض ملامحها من وصف (بريبلوس) المتقدم ذكره.

أما العلاقات الودية، المتمثلة في تبادل السفارات والهدايا بين ملوك هذه البلدان وملوك اليمن، فلا تذكر إلا في بعض مصادر تاريخ الدولة الرسولية.

---

(١) المصدر نفسه، ص ٢٨٠.

(٢) الدكتور محمد عبد العال، بنو رسول وبنو طاهر، ص ٤٥٩، نقلاً عن:

W. Heyd: *Histoire du commerce du levant au Moyen Age,* T. 2 , p. 445 .

(٣) المصدر نفسه، ص ٣٠٤.

لكن هذا لا ينفي وجود هذه العلاقات قبل زمن بني رسول، حتى وإن لم يرد لها ذكر في مصادر تاريخ الدول التي سبقتهم. فالمعروف أن هذه المصادر قليلة جدًّا. ولا تذكر بالتفصيل أخبار هاته الدول مثل مصادر أخبار بني رسول.

والدول التي كانت لها علاقات ودية مع اليمن هي: الصين، والهند، ومصر، وفارس، وأجزاء من ساحل إفريقيا الشرقي.

ونذكر هنا بعض ما سجلته المصادر من الهدايا والسفارات المتبادلة بين ملوك هذه الدول وملوك بني رسول، لأن هذه الهدايا والرسل كانت تصل إلى اليمن عن طريق عدن، وتصحبها التجار مع بضائعهم.

العلاقات مع الصين

١ - **المظفر بن يوسف بن نور الدين.**

- هدايا وصلت بعد فتح ظفار الحبوظي سنة ٦٧٨هـ [(١)].

٢ - **الأشرف أبو العباس.**

- هدية فيها من العجائب ما لم يدخل اليمن مثله من قبل، سنة ٧٩٠هـ[(٢)].

٣- **الناصر أحمد بن إسماعيل بن العباس الرسولي الغساني (٨٠٣ - ٨٢٧هـ).**

في عهد امبراطور الصين (1403-1424) Zheng – Zhou.

أحد أباطرة الإمبراطورية (مينج) Ming Dynasty [(٣)].

وأمير البحرية الصينية (شنج هاو) Cheng – ho.

---

(١) الخزرجي: العقود، ج١، ص ٢١٣.

(٢) مجهول: الدولة الرسولية، ص ٨٧.

(٣) حدّد زمن ملك الصين المعاصر للسلطان الناصر الرسولي البروفسور (Shang Yi) من Institute of History, Sichuan Academi of Social Sciences, Sichuan, China. في رسالة بعث بها إليّ بتاريخ ١٢ ديسمبر ١٩٨٨. والكلام للسيد حسن صالح شهاب في كتابه «عدن فرضة اليمن».

١- **وصول رسول ملك الصين بثلاثة مراكب عظيمة** [في سنة ٨٢٣هـ] **فيها من الهدايا النفيسة ما قيمته عشرون لكًّا من الذهب** [مليونان]. وقابل رسول الصين الملك الناصر «فلم يقبِّل الأرض بين يديه بل قال له : سيِّدك صاحب الصين يسلم عليك ويوصيك بالعدل في رعيتك. فقال [الناصر]: مرحباً! ونعم المجيء جئت. وأكرمه وأسكنه بدار الضيافة. ثم كتب الناصر إلى صاحب الصين كتاباً يقول فيه: الأمر أمرك والبلد بلدك. وجهَّز له الوحوش البرية، والثياب الفاخرة السلطانية جملة مستكثرة، وأمر بتشييعه إلى عدن»(١).

وجاء في كتاب «قرّة العيون لابن الديبع» أنه كتب كتاباً لملك الصين يقول فيه: إن ملك الصين يظن أن كل الناس عبيده، والظاهر أن فيهم حمقاً وجهلاً بأحوال البلاد وملوكها. وإلا فالأدب موجب أن لا يخاطب غيره من الملوك إلا باللطف والإجمال.

٢- **وصل العلم إلى السلطان الناصر بوصول الزنك** [الجنوك] **«وفيها رسول صاحب، وصحبته هدية سنية من الملك خاقان إلى مولانا السلطان الملك الناصر. فورد مرسوم مولانا السلطان الملك الناصر إلى القاضي جمال الدين ابن إسحاق، هو والطواشي رسول صاحب الصين، بأن يصلوا إلى الأبواب الشريفة من الثغر المحروس** [عدن]**، فوصلوا وصحبتهم الهدية، وفيها من التحف، وظباء المسك وفطير؟**(٢) **الزباد، والدرر** [الببغاوات] **الملونة، والأوز، والبشاخين العجيبة، والعود العال، وغير ذلك من الأواني.**

---

(١) ابن الديبع: بغية المستفيد، ص ١٧.

(٢) هناك ظباء المسك يخرج من غدة وقط الزباد (وهو أكبر من القط العادي) يستخرج من غدة منه الزباد. وأما حوت العنبر فيخرج مادة من بطنه وهو في البحر تعرف بالعنبر. وهذه الثلاثة من أجود أنواع الطيب.

وورد المرسوم على العسكر المنصورة، أن يلقوهم والأمراء كافة. وكان ذلك نهار الأحد ١٨ من شهر صفر سنة ٨٢٦ هـ»(١).

٤- الظاهر يحيى بن إسماعيل

- «**وصل ناخوذة الزنك** [الجنوك]، **وهو خادم صاحب الصين، بالهدية لمولانا السلطان، نصره الله تعالى، إلى** (الحج)، **ووصل صحبته سيد الوزراء شهاب الدين أحمد بن إبراهيم المحالبي**، والشيخ جمال الدين محمد أبو حيان، نهار الأربعاء ٢٥ شهر جمادى الأخرى سنة ٨٣٥ هـ»(٢).

العلاقات مع الهند والسند والبنغال

١- المنصور نور الدين عمر بن علي بن رسول

- وصل إليه في مدينة الجَنَد رسول ملك الهند قبل وفاته بيومين أو ثلاثة أيام، فأكرمه وأنعم عليه. قتل المنصور في قصر الجَنَد ليلة السبت ٩ ذي القعدة سنة ٦٤٧ هـ(٣).

٢- الأفضل العباس بن المجاهد

- في سنة ٧٦٨هـ وصل رسول صاحب (كنبايه)، ورسول ملك السند بالتحف والهدايا، وغرسات شجر الفلفل الأحمر والأصفر والأزرق(٤).

- في سنة ٧٧٠هـ وصلت هدية صاحب (كاليقوط)، ووصل شيء كثير من غرائب الأشجار والأطيار(٥).

---

(١) مجهول: الدولة الرسولية، ص ٢٠٢.
(٢) المصدر السابق، ص ٤٧.
(٣) الخزرجي: العقود، ج٢، ص ٨٣.
(٤) المصدر السابق، ج٢، ص ١٣٥.
(٥) المصدر نفسه، ج٢، ص ١٣٩.

٣- الأشرف إسماعيل بن العباس

- في سنة ٧٧٩هـ وصل رسول الخليفة من الهند مع هدية صاحب الهند[١].

- خروج سفراء الأشرف إلى ملك الهند صاحب (دلهي) في سنة ٧٨٠هـ[٢].

- في سنة ٧٨٣هـ وصلت هدية صاحب بنجالة (أي البنغال) و(تانه)[٣] وفيها تحف كثيرة من الدرر متحدثة فصيحة، وقماش نفيس، وثياب رفيعة[٤].

- وصلت هدية من صاحب (بنجاله) فيها أنواع التحف والطرف، والطيور، والأفيال الملبسة بأنواع السندس[٥]، وذلك في سنة ٧٩٣هـ.

- في شهر رمضان من سنة ٧٩٥ هـ، وصل كتاب من (كاليقوط) إلى السلطان، من القاضي بها ومن التجار المقيمين فيها، يستأذنونه في إقامة الخطبة له بها. ولم يك يخطب فيها لأحد من ملوك اليمن، ولا من ملوك مصر، ولا من غيرهم. وكان صاحب (دلي) قد غلب عليهم في أول الدهر، وكذلك أيضاً صاحب (هرمز) فكانوا يخطبون لهما معاً. فلما جاء كتابهم إلى السلطان قبل ما بذلوه من الطاعة، وأنعم عليهم إنعاماً تامًّا، وأذن لهم بإقامة الخطبة له[٦].

- في شهر رمضان سنة ٧٩٨هـ، وصل إلى باب السلطان ولد سلطان (دلي)، فأكرمه إكراماً حسناً. وكان اسمه (كوجرشاه بن طغرخان بن فيروز شاه) سلطان الهند. وكان لفيروز شاه، المذكور عدة أولاد. فلما توفي ولي الملك منهم طغرخان والد هذا الولد المذكور، فأقام طغرخان في الملك أياماً ثم نازعه أحد إخوته وقتله، وقتل عدة من أولاده، واستولى على الملك. وكان هذا الولد صغيراً، ولم يعلم به

---

(١) مجهول: الدولة الرسولية، ص ٨٠.

(٢) المصدر السابق، ص ٨١.

(٣) تانه: على ساحل إقليم (جزرات) بالجزء الشمالي من ساحل الهند الغربي.

(٤) المصدر السابق، ص ٨٥. والدرر هنا جمع درّة وهي نوع من الببغاء الفصيحة.

(٥) المصدر نفسه، ص ١٠٦.

(٦) الخزرجي: العقود، ج٢، ص ٢٢٤.

عمه، فلما شب خشي على نفسه، فخرج من الهند إلى اليمن[١].

٤- **الناصر أحمد بن إسماعيل**

- في سنة ٨٢٧هـ وصلت هدية من الهند من صاحب (كنبايه) صحبة الناخوذة (ناصه)، وفيها من سائر التحف والأطياب، والبز المفتخر، والفرش، والحرير. وغير ذلك[٢].

مصر، وإمارات ساحل إفريقيا الشرقي:

تبادل الهدايا والسفارات بين اليمن ومصر – كما قال الجرموزي في وصف هدية المؤيد بن المظفر بن نور الدين الرسولي إلى صاحب مصر - «لا تكاد تتأخر بين عامين أو ثلاثة»[٣]. وهدايا مصر، وإمارات ساحل إفريقيا الشرقي، المقابل لليمن من الغرب، مثل (دنكل) أو (أريتريا)، والجزر المجاورة له مثل (دهلك) و(سواكن)، كان أغلبها يصل إلى ميناء (الأهواب) وغيره من موانئ اليمن الغربية. لذلك أغفلنا ذكرها هنا.

فارس

لم يرد في مصادر تاريخ دولة بني رسول أي ذكر لتبادل السفراء والهدايا بين اليمن وفارس في عهد هذه الدولة، عدا تلك الهدية التي بعث بها المظفر مع سفير له إلى ملوك فارس. فاستولى عليها سالم بن إدريس الحبوظي صاحب ظفار، بعد أن ألقت الريح بالسفن التي تحملها على ساحل ظفار - كما ذكرنا ذلك من قبل-.

---

(١) الخزرجي، العقود، ج٢، ص ٢٨٥.
(٢) مجهول، الدولة الرسولية، ص ٢٠٧.
(٣) الخزرجي، العقود، ج١، ص ٣٦١.

ملوك الدولة الرسولية ومشاركاتهم العلمية

تميّزت الدولة الرسولية في اليمن بأن كثيراً من ملوكها كانوا علماء، مشاركين في كثير من العلوم، كما أن الباقين كانوا يجلّون العلماء ويشجعونهم على تآليفهم. وكثير منهم كان يحضر مجالس العلم بل ويشارك فيها(١).

ومن الملوك العلماء من بني رسول **الملك المظفر يوسف بن عمر بن علي بن رسول (٦٤٧ – ٦٩٤هـ)**، وهو ثاني ملوك هذه الدولة، وهو ابن مؤسسها عمر ابن علي بن رسول (الملك المنصور نور الدين).

وكانت له علاقة وطيدة بالعلامة الولي المشهور أبي الغيث بن جميل، وهو الذي أشار عليه بالخروج لاستعادة ملكه بعد وفاة أبيه، وبعد تشعّث الأمر، واستيلاء أخويه الفضل والفائز على الخزائن والحصون، ومبايعة الجند ابن عمه أسد الدين محمد بن الأسد، واستيلاء الإمام (الزيدي) أحمد بن الحسين على مناطق كثيرة، فجمع الله القلوب على محبته حتى استعاد ملكه.

وكان المظفر – رغم انشغاله بأمور الدولة، وكثرة الخارجين والطامعين في الملك – لا يترك مجالس العلم والعلماء. **قال عنه شيخه الفقيه محمد الحضرمي: «كان مولانا المظفر يكتب كل يوم مائة آية من كتاب الله، ويكتب تفسيرها، ويحفظها مع تفسيرها، ويدرسها عن ظهر غيب». وكان يقرأ على العلماء الفقه والحديث وغيرها من العلوم**. وقد أوردنا في ترجمته نص ولاية العهد لابنه الأشرف عمر بن يوسف، وهو في غاية البلاغة، وفيه أبيات من نظمه.

وقد طبع له كتاب «**المعتمد في الأدوية المفردة**» عدة طبعات (الأولى) أصدرتها مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي بالقاهرة سنة ١٣٢٧هـ و(الثانية) دار المعرفة بيروت سنة ١٤٠٢ هـ/ ١٩٨٢م.

(١) ابن الديبع: قرّة العيون، ص ٤٠٦.

قال الخزرجي[(١)]: «لما افتتح الملك المظفر، مدينة ظفار، ذكر في كتابه إلى الملك الظاهر بيبرس صاحب مصر أنه يحتاج إلى طبيب لمدينة ظفار، لأنها وبيئة. وقال: **ولا يظن المقام العالي أنّا نريد الطبيب لأنفسنا، فإنّا نعرف بحمد الله من الطبّ، ما لا يعرف غيرنا. وقد اشتغلنا فيه من أيام الشبيبة اشتغالاً كثيراً. وولدنا عمر الأشرف من العلماء بالطب وله كتاب «الجامع» ليس لأحد مثله**».

وقال المظفر في مقدمة كتابه إنه اختصر كتابه هذا من عدة كتب: (أولها) كتاب أشهر عشابي المسلمين وصاحب أكبر فارموكوبيا طبية الطبيب والصيدلاني **عبد الله بن أحمد البيطار «الجامع لمفردات الأدوية والأغذية»** المتوفى سنة ٦٤٦. **(الثاني) كتاب «منهاج البيان فيما يستعمله الإنسان» للحكيم يحيى بن جزلة البغدادي المتوفى سنة ٤٩٣هـ.**

وهذا الكتابان من أشهر الكتب في الأدوية في التراث العربي الإسلامي. ولكنه لم يكتف بذلك، وإنما أخذ أيضاً فوائد منتقاة من «أبدال الزهراوي»، وكتب ابن الجزار، وكتاب الحكيم أبي الفضل حسن بن إبراهيم التفليسي[(٢)]. وقد قام الملك المظفر بترتيبه على حروف المعجم ورمز لكل كتاب من مراجعه بحرف، فكتاب ابن البيطار رمز له بالحرف (ع) وابن جزلة بالحرف (ج) وأبدال الزهراوي بالحرف (ز) وابن الجزار باسمه. ثم أضاف إلى ذلك جدولاً بأسماء الأدوية والألفاظ بلهجة أهل اليمن لأن أسماء الأدوية والنباتات تختلف من قطر إلى قطر. مع شرح مختصر لهذا الدواء أو النبات. فكان يضع الاسم المشهور في كتب الطب والصيدلة ثم يضع أمامها ما يقابله أو شرحاً له من كلام أهل اليمن، ووضعه على حروف المعجم. فكان بذلك كتاباً يستفيد منه عامة أهل اليمن. وهو، لا شك، كتاب حافل ومرجعي في الأدوية المفردة والنباتات التي كانت

---

(١) الخزرجي: العقود اللؤلؤية، ج١/ ٢٧٨.

(٢) تفليس هي تبليس عاصمة جمهورية جورجيا التي انفصلت عن الاتحاد السوفييتي، وهي في جنوب القوقاس.

مشهورة ومعروفة في القرون الوسطى، وأسهمت فيها الحضارة الإسلامية. وللملك المظفر – كما ذكرنا سابقاً – كتاب «المخترع في فنون من الصنع» وفيه فصول عن صناعة مواد الكتابة، وفيه فصل عن تجليد الكتب، وفصل عما يمحو الدفاتر والرقوق، وفصل عن الكتابة السرية، التي لا تظهر إلا بعد وضع مواد خاصة لإظهارها، وفصل عما يزيل الآثار والأصباغ من الثياب وكيفية صبغها، وفصل عن تركيبات النفط للأسلحة والألعاب النارية وأعمال السيرك وكثير من الألعاب المبهرة، وكيفية عمل دهانات السقوف وأنواعها، وفصل عن كيفية صناعة الصابون العادي منه والمعطّر. وتحدث عن صنع ما نعرفه اليوم بقنابل المولوتوف من النفط، والمفرقعات (القنابل اليدوية)، مع التركيز على المواد الأولية الموجودة في اليمن. وهو يتحدث عن كل ذلك بخبرة شخصية ومعلومات غير موجودة عند غيره نتيجة محاولاته وتجربته.

الملك الأشرف (الكبير) عمر بن يوسف بن علي بن رسول (٦٩٤ - ٦٩٦هـ)

وقد اشتهر الأشرف بأنه أكثر ملوك بني رسول اشتغالاً بالعلم والتأليف، ومن كتبه في الطب كتاب «**الجامع**» في الطب الذي أشاد به والده في خطابه إلى السلطان بيبرس بمصر كما تقدم، وأشاد به الأطباء والحكماء.

وله كتب في الفلاحة والزراعة، ومنها: كتاب «التفاحة في معرفة الفلاحة»، وكتاب الاصطباح، وله كتاب في الفلك بعنوان «الدلائل في معرفة الأوقات والمنازل». وله كتاب «**طرفة الأصحاب في معرفة الأنساب**» (في أنساب العرب والقبائل وملوك الدول)، طبع في دمشق، وله كتاب مشهور في تعبير الرؤيا على حروف المعجم سمّاه «**الإشارة في العبارة**»(١).

وكان الأشرف، مثل والده المظفر، حريصاً على دروس الفقه والحديث

---

(١) ابن الديبع: قرّة العيون، ص ٤٠٧.

والنحو واللغة، مع اهتمامه بالعلوم الأخرى الهامة، مثل: الفلاحة (الزراعة) والطب، والفلك والأنساب.

الملك المؤيد داود بن يوسف بن عمر (٦٩١ - ٧٢١ هـ)

رغم أن الملك المؤيد انشغل بتثبيت ملكه وبالحروب المستمرة، إلا أنه - مثل بقية ملوك بني رسول - «كان مشاركاً في كل علم، وله مطالعة في الكتب المبسوطة (أي الموسعة) في كل فن، وسمع الحديث من أساطين هذا العلم. واختصر كتاب البيزرة»[(١)]. والبيزرة هي علم الصيد بالبازي (الصقر).

وقد جمع كثيراً من أشعار الجاهليين والإسلاميين، وكان يحفظ الكثير منها، وينظم الشعر، مثل كثير من ملوك ذلك الزمان.

وقال المحقق والمؤرخ القاضي محمد علي الأكوع في تعليقه على ما أورده ابن الديبع عن الملك المؤيد «واحتوت خزائن كتبه مائة ألف مجلد من نفائس الكتب»[(٢)]. وهو أمر لا يتحقق إلا لشخص أحبّ الكتب والعلم محبّة شديدة، إلا أن شؤون الملك لم تترك له فرصة للتأليف.. وكانت مكتبته الحافلة زاداً للعلماء وطلبة العلم ينهلون من ينابيع علومها، وفيض أسرارها.

الملك المجاهد علي بن داود بن يوسف الرسولي (٧٢١ - ٧٦٤هـ)

رغم أن المجاهد انشغل بالملك وبإخماد الثورات والمؤامرات على حكمه دهراً طويلاً، إلا أنه - مثل بقية أسرته - كان شغوفاً بالعلم والأدب والشعر «حتى قيل إنه أعلم بني رسول»[(٣)]. وله ديوان شعر. وله شعر جميل، وقد أوردنا في ترجمته مثالاً من شعره المخمس فانظره.

(١) ابن الديبع: قرّة العيون، ص ٤٢٢.
(٢) المصدر السابق، ص ٤٢٢.
(٣) المصدر نفسه، ص ٤٤٥.

الملك الأفضل العباس بن المجاهد علي بن داود (٧٦٤ - ٧٧٨ هـ)

كان الأفضل – كما يقول ابن الديبع[١] -: «يقظاً، حازماً، فاضلاً، فقيهاً، نحويًّا، عارفاً بالأنساب والتواريخ، وله مصنفات منها: كتاب «نزهة العيون في تاريخ الطوائف والقرون» (في علم التاريخ). وكتاب «العطايا السنيّة في المناقب اليمنية» (في مناقب اليمن). وكتاب «نزهة الأبصار في اختصار كنز الأخيار». وكتاب «بُغية ذوي الهمم في أنساب العرب والعجم» وهو في الأنساب. واختصر تاريخ ابن خلكان. وكل هذه الكتب في التاريخ والأنساب ومناقب البلدان.

وله في الزراعة والفلاحة كتاب «بغية الفلاحين في الأشجار المثمرة والرياحين»، وقد طبع - كما يقول القاضي محمد بن علي الأكوع في تحقيقه لكتاب ابن الديبع «قرّة العيون في تاريخ اليمن الميمون» وعنده كتاب مجموع من عدّة كتب منها: كتاب في الأنساب وكتاب في علم الفلك، وكتاب في النحو، وقال الأكوع منه نسخة في تعز، ونسخة في دار الكتب المصرية.

الملك الأشرف إسماعيل بن العباس بن علي الرسولي (٧٧٨ - ٨٠٣هـ)

وكان له اهتمام كبير بالعلم والعلماء. وفي زمنه استدعى القاضي مجد الدين الشيرازي صاحب القاموس وكتاب الأصعاء، استدعاه من عدن (الثغر المحروس) إلى زبيد، فأكرمه الملك الأشرف أيّما إكرام. وتزوّج الملك الأشرف إسماعيل ابنة مجد الدين الشيرازي، ومن محبته له كتب له خطاباً عندما علم بأنه يريد العودة إلى مكة المكرمة (فهو نزيل مكة وفيها ظهر علمه) **قال فيه**: «**والله يا مجد الدين، لخروجي من ملكي أيسر من أن تخرج من مملكتي**»[٢].

وقال الأستاذ حمزة لقمان في كتاب «تاريخ عدن»: كانت للأشرف مصنفات

---

(١) ابن الديبع: قرّة العيون، ص ٤٥٥، ٤٥٦ .

(٢) المصدر السابق، ص ٤٦٤ (في الهامش).

في النحو والفلك وأخبار الخلفاء والملوك»[١]. وكان خبيراً بالزراعة، وله بستان سرياقوس في وادي زبيد، وغرس فيه من عجائب الأشجار. وللأشرف مشاركة في الكثير من العلوم[٢]. وولده الناصر أحمد بن إسماعيل أحسن من أبيه في المشاركة في العلوم، وله اطلاع واسع على الكتب وله عناية بالتحصيل[٣].

ورغم أن من أتى بعد الملك الأشرف إسماعيل من آل رسول، لم يعرفوا بتأليف الكتب إلا أن اهتمامهم بالعلم والأدب والشعر ظل مستمرًّا، وإن كان لم يبلغ مبلغ سلفهم، لضعف الدولة، وكثرة الفتن، فلم يظهر في هذه الفترات أي مؤلف منسوب لهؤلاء الملوك، حسب علمي.

وبالإجمال فإن الدولة الرسولية تعتبر من الدول القلائل التي نبغ في ملوكها علماء وشعراء. كما أنها اهتمت اهتماماً بالغاً بالعلماء، وبإنشاء المدارس، وبتشجيع العلماء والاحتفاء بهم، وإعطائهم الأموال وخاصة عند تأليفهم الكتب النافعة.

وهذا الاهتمام بالعلماء ليس مقصوراً على بني رسول، بل هو عام في كل أرجاء الدول الإسلامية، ولكن الذي تميّز به بنو رسول أنهم شاركوا في العلم، وظهر منهم عدد من العلماء والمؤلفين كما أسلفنا، وهو ما لم يظهر بهذا العدد في أي دولة من الدول الإسلامية، حسب علمي.

---

(١) حمزة لقمان: تاريخ عدن.
(٢) ابن الديبع: قرّة العيون، ص ٤٧٠ .
(٣) المصدر السابق، ص ٤٧٠.

المدارس في اليمن وعدن في العهد الرسولي

لا شك أن الدولة الرسولية كانت من أهم الدول التي قامت في العهود الإسلامية في اليمن، بل لا تبعد عن الحقيقة إذا قلنا أنها أهم تلك الدول فهي أطولها عمراً (٦٢٥ – ٨٥٨ هـ)، وأقواها، إذ امتد حكمها في معظم الوقت من ظفار إلى الحبوظي (في سلطنة عمان) إلى مكة المكرمة في المملكة العربية السعودية شاملة بذلك جيزان ونجران وعسير. كما كانت من الدول القليلة التي اهتمت اهتماماً بالغاً بنشر العلم وبناء المدارس والمساجد. وكان اهتمامهم بالعلم والعلماء كبيراً، ولذا نجد بعض العلماء المشهورين في بلادهم يأتون إلى اليمن ليلتقوا بعلمائها ويدرّسوا في مدارسها. ويجدون الإكرام من حكامها.

وقد اشتهر حكامها بكثرة علومهم، وكان بعضهم يؤلف الكتب في مجالات مختلفة وذكرنا بعض الأمثلة لذلك كتب الملك الأشرف (الكبير) عمر بن الملك المظفر يوسف بن الملك المنصور. وهي كتب في الطب والزراعة والفلك والأنساب والتاريخ وتعبير الرؤيا. وكان والده المظفر من أهل العلم ويدلُّ عليه خطابه الذي ألقاه لتولية العرش بعده لابنه الملك الأشرف فكان في غاية القوة والبلاغة. كما يدل خطابه للظاهر بيبرس حينما طلب منه بعض الأطباء ليرسلهم إلى ظفار الحبوظي لأنها وبينه وأنه لا يطلب ذلك لنفسه لأنه عالم بالطب وابنه الأشرف من علماء الطب، كما يدل عليه انتقاده الشديد للفقهاء الذين تمالأوا على قتل عالم قدم من الشام يعرف بالمقدسي. وكان يدرّس علم الكلام هو والفقيه محمد بن سالم العنسي فأراد الفقهاء قتلهما، فلما بلغ الخبر

المظفر كتب كتاباً عجيباً مليئاً بالعلم والحكمة يقرأ في المسجد وبَّخ فيه هؤلاء العلماء توبيخاً شديداً على تعصبهم وجهلهم.

المدارس في عهد الملك المنصور عمر بن علي بن رسول

وقد أقام الملك المنصور وأولاده ونسائه وخدمه مدارس ومساجد عدة. وسنذكر فيما يلي:

المدارس المنصورية

هناك عدة مدارس **بناها الملك المنصور عمر بن علي بن رسول، مؤسس الدولة الرسولية باليمن**. وقد حكم اليمن أولاً باسم الدولة الأيوبية (٦٢٥ – ٦٢٩) ثم حكمها باسمه مباشرة منذ سنة ٦٢٩ إلى وفاته سنة ٦٤٧. والمدارس التي بناها المنصور عديدة كالتالي:

(١) **المدرسة المنصورية في الجَنَد**: ورتّب فيها مدرساً ومعيداً ودَرسة وأيتاماً يتعلمون القرآن وإماماً ومؤذناً ورتب لها الأوقاف.

(٢) **المدرسة المنصورية في عدن**: وجعل فيها قسمين أحدهما لتدريس الفقه الشافعي والآخر لتدريس الفقه الحنفي. وأوقف لها أوقافاً كثيرة في لحج وعدن. ودرّس فيها أبو طاهر شمس الدين الزكي بن الحسن البيلقاني المناظر الأصولي المنطقي الفقيه البارع، أخذ على الإمام الفخر الرازي ثم عاد إلى بلده وكان معه ابن عمه ثم سافرا إلى عدن، ثم إلى مكة والإسكندرية. وعُيّن ابن عمه قاضياً، وكان يكره تولي القضاء، فلبث أياماً ثم توفي. وانتقل الزكي إلى عدن ودرّس في مدرستها. وطلب السلطان المظفر يوسف بن عمر بن رسول بعد أن سمع بعمله وأراد أن يأخذ عليه المنطق فقال له الفقيه أبو بكر بن دعاس: يا مولانا السلطان! أما بلغك قولهﷺ: «البلاء موكّلٌ بالمنطق». فتطيّر السلطان من ذلك وقال للفقيه الدعاس: حُلتَ بيننا وبين الانتفاع.

وأعاده السلطان المظفر إلى عدن وجعله مسؤولاً عن المدرسة المنصورية فيها. ودرّس فيها الفقه وأصوله والمنطق والمواريث والحساب. وعارض قاضي عدن محمد بن أسعد العنسي المنطق، وكان القاضي حنبليًّا، والبيلقاني شافعياً أشعريًّا، فاستطار بينهما النزاع، وكتبوا للملك المظفر بذلك فعرض المظفر كتبهما جميعاً (البيلقاني والقاضي) على قاضي القضاة بهاء الدين الذي قال: «يا مولانا هذا رجل جاء بشيء لا يحتمله أهل اليمن ولا يعرفونه. وإذا سمعوه أنكروه، ونسبوا صاحبه إلى الخروج من الدين». ولكن أصحاب عدن جميعاً صاروا شافعية أشعرية، ولهذا ردَّ الطيب بامخرمة في كتابه «ثغر عدن» على من تهجَّم على العلامة الزكي بن الحسن البيلقاني، واعتبرهم متعصّبين، وذكر أن عدن في عهده (القرن العاشر) صارت كلها شافعية أشعرية. وكانت وفاة البيلقاني في عدن سنة ٦٧٦ هـ.

ودرّس بها العلامة الفقيه عبد الرحمن بن أبي بكر الأبْيني (من أبْين) الهمداني. وتولّى بعد عزل البيلقاني.

ودرّس بها الفقيه أحمد بن علي الحرازي، وكان عالماً بالفقه والنحو واللغة والأصول والقراءات والحديث. وكان قد تفقَّه على عبد الرحمن الأبْيني. وانتفع به كثيرون منهم البهاء الجَنَدي المؤرخ. وتولى الفقيه الحرازي أيضاً القضاء في عدن ودرّس فيها العلامة البارع المحقق محمد بن سعد (باشكيل الخزرجي الأنصاري) وتولى قضاء زبيد، ثم عزل، ثم أعيد للتدريس في المدرسة المنصورية وبقي فيها حتى عام ٧٢٠هـ، فاستأذن لزيارة أهله في الشحر، فأرسل أخاه لينوب عنه في التدريس. ثم سافر إلى مكة المكرمة للحج سنة ٧٢٣هـ فعاد إلى اليمن. ولقيه الفقهاء في تعز وكتب له المجاهد علي بن داود الرسولي (٧٢١ – ٧٦٤هـ) كتاباً بأشياء من الجلالة والاحترام، ولكن شخصاً تهدده في لحج فرجع خوفاً من (الخندار) إلى تعز. فلما نزل السلطان المجاهد إلى عدن سنة ٧٢٩هـ نزل بصحبته..

(مولده سنة ٦٦٤ لم يعرف تاريخ وفاته) وله كتاب الوسيط ومجموع الفتاوى.

ودرّس بها محمد بن عبد الله الجزري. من أهل الجزيرة (جزيرة ابن عمر بين دجلة والفرات في شمال العراق وجنوب تركيا) من أهل فارس. وكان أديباً وخبيراً في الكتابة (في دواوين الدولة) فعيّنه الملك المظفر ديوان النظر بثغر عدن. وكان يدرِّس في المكتبة المنصورية. وقرأ عليه السلطان المظفر شيئاً من العلم. وكان يدرِّس أيضاً في بيته، وفي الفرضة (في ثغر عدن) ويحضره عدد من الطلاب. وكان يعمل كل يوم سماطاً يحضره جمع من التجار وجميع الفقراء.. واتهم بأخذ أموال (من الضرائب) فحبس وصودر وضُرب. وكانت وفاته لنيّف وستين وستمائة.

ودرَّس بها أيضاً أبو محمد عبد العزيز بن أبي القاسم الأبْيني. وكان معيداً في المدرسة المنصورية بعدن ثم تولى القضاء وعزل نفسه منه. وخلفه في التدريس والقضاء ابنه أبو القاسم بن عبد العزيز.

ودرّسَ بها أبو بكر بن محمد الرُّعيني المعروف بابن المقرئ. كان عالماً محقّقاً لعلم الفرائض (المواريث) والحساب والجبر والمقابلة (اللوغاريثمات). وكانت وفاته في رمضان سنة ٧١٤هـ.

ودرّس بها سالم بن عمران بن أبي السرور بعد وفاة ابن المقري.

كما درّس بها يحيى بن الزكي بن الحسن البيلقاني (وقد ذكرنا والده وما جرى له).

(٣) المدرسة المنصورية العُليا في زبيد.

بناها الملك المنصوري عمر بن علي بن رسول لتدريس المذهب الشافعي. ودرّس بها الإمام أحمد بن عبد الله بن أسعد الوزيري. والذي درّس أيضاً في تعز في مدرسة بالقرب من حصن تعز واشتهر فيها حتى عُرفت المدرسة باسم المدرسة الوزيرية لطول تدريسه فيها..

ودرّس فيها أحمد بن سليمان الحكمي وإليه انتهت رئاسة الفقه والفتوى.

تفقّه بالفقيه صالح بن علي الحضرمي والفقيه أبي بكر بن عبد الله الريمي. وتفقّه به جماعة وعزله الملك المؤيد سنة ٦٩٧هـ لأنه أفتى ببطلان وصية الدار الشمسي (عمة السلطان) لأنها أوقفت جُلَّ أملاكها لابن أخيها الملك المؤيد في حين أن الوارث لها أخوها الفائز بن المنصور. فلم يبالِ بالملك. واستمر في التدريس في الجامع وفي بيته. وكانت وفاته سنة ٧٠٣ هـ.

ودرّس بها بعد الشيخ الحكمي الفقيه الصالح الزاهد محمد بن أبي بكر بن محمد بن رشيد إلى وفاته سنة ٧٠٥ هـ.

ودرّس بها أحمد بن أبي بكر المعروف بابن سرور.

ودرّس بها أحمد بن عبد الرحمن الشماطي السعدي. كان أبوه شيخ الحديث في عصره، وكان ابنه أفقه منه وفاته سنة ٧٩٧. وغيرهم كثير.

(٤) المدرسة المنصورية السُفلى بزبيد لتدريس المذهب الحنفي

بعد أن بنى السلطان الملك المنصور عمر بن علي بن رسول المدرسة المنصورية العليا للشافعية قال له الفقيه أبو بكر بن عيسى المعروف بابن حنكاس (في الطريق): يا عمر. ما فعل بك أبو حنيفة، إذ لم تبن له مدرسة؟ فأمر الملك المنصور ببناء هذه المدرسة. وجعلها قسمين: أحدهما لأصحاب حنيفة. والآخر لأصحاب علم الحديث. وجعله المنصور أول من تولى التدريس بها لعلمه وفضله. ومن سعة علمه كان يدرِّس أيضاً فقه الشافعي. وكانت وفاة ابن حنكاس سنة ٦٦٤هـ.

ودرّس بها الفقيه الحنيف، النحوي اللغوي الأديب محمد بن الحسن الصُّمَّعي. وفاته سنة ٦٧٦هـ.

ودرّس بها أبو بكر بن عيسى السدوسي الملقب بالسراج. كان من أئمة المذهب الحنفي في اليمن آمراً بالمعروف، ناهياً عن المنكر. تفقّه بابن حنكاس

وانتهت إليه الرئاسة في مذهبه وكان مثله آمراً بالمعروف ناهياً عن المنكر مع الكبير والصغير. وكانت له رغم ذلك منزلة عالية عند السلطان المظفر يوسف ابن عمر الرسولي ثم عند ولديه الأشرف والمؤيد. وفاته سنة **٧٠٣**هـ.

ودرّس بها أبو بكر بن عمر المقصري. وانتهت إليه الرئاسة في المذهب الحنفي.

كما درّس فيها موفق الدين الزيلعي، قدم من زيلع وتوطن زبيد، وانتفع جمع غفير.

كما درّس بها الفقيه الحنفي علي بن عثمان المطيب. وكان أوَّل من تولّى القضاء من المذهب الحنفي في اليمن.

ودرّس بها عدد غفير من العلماء الفضلاء.

المدرسة الخامسة والسادسة

وللملك المنصور عمر بن علي بن رسول (مؤسس الدولة الرسولية) **مدرستان في تعز** (إحداهما) **تعرف بالغرابية** نسبة إلى عبد الله غراب، مؤذن المدرسة، وكان رجلاً صالحاً صيّتاً (أي قوي الصوت جداً) **و(الثانية) الوزيرية** نسبة إلى **الإمام أحمد بن أسعد الوزيري لطول تدريسه بها**. ودرَّس أيضاً في المدرسة المنصورية العليا في زبيد.

ودرَّس بها **الفقيه محمد بن مضمون.. بن أبي عمران**. كان فقيهاً عالماً عاملاً شاعراً، تفقّه بالإمام أحمد بن محمد البريهي ولزم مجلسه إحدى عشرة سنة وسلك مسلكه.

ولما بنى المنصور عمر بن علي بن رسول هذه المدرسة توسَّل إلى ابن مضمون حتى أقنعه بالتدريس فيها، فكان أو من درّس بهذه المدرسة. وقال له المنصور: أحبُّ أن أقرأ عليه ونزولي إلى المدرسة يومياً يشقُّ عليك وعليّ وعلى

الناس، فإن رأيت ذلك فعلتُ، وإن رأيت يأتيك الركبدار (صاحب الركب القائم على الخيل والبغال) ببغله تركبها وتطلع الحصن فاقرأ عليك في خلوة. فكان يطلع إليه يومياً إلى الحصن. وكانت وفاته سنة ٦٣٣هـ في بلدته الملحمة.

وها هنا ملاحظة في تلطف الملك المنصور واستئذانه من الفقيه محمد بن مضمون وتأدبه معه. كما لاحظنا كيف خاطب الفقيه الحنفي الملك المنصور في قارعة الطريق وأوقفه قائلاً له (بدون ألقاب): «يا عمر ما فعل بك أبو حنيفة؟ إذ لم تبنِ له مدرسة!!».

ولا شك أن هذا السلطان وكثير من ذريته الذين تولوا الحكم كانوا على خُلقٍ ودين وتواضع ومحبة للعلماء وتوفيرٍ لهم. بل إن كثيراً منهم كانوا مشاركين في مختلف العلوم وقد ذكرنا في أثناء الحديث عن الدولة الرسولية بعض مؤلفات ملوكهم.

المدرسة السابعة والثامنة

وقام الملك **المنصور بإنشاء مدرسة في مكة المكرمة سنة ٦٤١هـ** ودرس بها محمد النجم الأنصاري. كما بنى أيضاً **مدرسة في المنسكية** وعرفت أيضاً باسم المدرسة المنصورية وهي في **وادي سهام في منطقة بين المنصورية والمرواعة، ووادي سهام في تهام اليمن**.

وللملك المنصور عمر بن علي بن رسول مبرات كثيرة، ومساجد عديدة، وسُبل وأوقاف. وكانت له مشاركات في العلم وطلبه. فما أجمل سيرة هؤلاء الملوك من بني رسول لولا ما شاب دولتهم من حروب بين الأخوة وأولاد العم طمعاً في الملك.

وقد شارك في بناء المدارس الفقهاء والأثرياء وانتشرت المدارس في المدن وفي القرى حتى وصلت النجوع والقرى البعيدة. وكان أقل ما يوجد ما يسمى

المعلامة لتدريس القرآن الكريم والكتابة ويضاف إلى ذلك أحياناً شيئاً يسيراً من الحساب.

المواد والكتب

وأما المدارس فقد كانت تعنى بتدريس الفقه وعلم الحديث وعلم الفرائض (المواريث) وأصول الفقه، وأصول الدين، والتفسير وعلوم اللغة وخاصة النحو والصرف وعلم البلاغة والعروض والقوافي. ويدرّس علم الفلك والزيج في بعض المدارس.. وأما المنطق وعلم الكلام فكان في العادة يواجه محاربة بمحاربة الفقهاء مع أنه كان يدرس في عدن وفي زبيد وفي تعز في بعض المدارس. وأما الطب والحساب والجبر والمقابل (علم اللوغاريثمات) وعلوم الزراعة فكانت نادراً ما تدرّس، ومع هذا برز مجموعة من العلماء أجادوا هذه العلوم ودرّسوها.

وكان لكلٍّ مذهب مدارسهم الخاصة. وقد اعتنى بنو رسول بالمذهب الشافعي خاصة لأن مذهبهم منذ أن تحول الملك المنصور عمر بن علي بن رسول من المذهب الحنفي إلى المذهب الشافعي. ولكنهم بنو أيضاً مدارس للأحناف. وأما المذاهب الأخرى مثل المذهب المالكي والمذهب الحنبلي فلم تكن لها مدارس خاصة بها، وذلك لندرة أتباعها.

وأما المذهب الزيدي فله أتباعه ومدارسه وعلماؤه في صعدة بوعد ذلك في صنعاء وغيرها من مدن شمال اليمن.

وأما المذهب الإسماعيلي وهو مذهب الدولة الصليحية والدولة الزريعية فقد كانت لهم مدارس تدرّس مذهبهم، إلا أنها اندثرت بعد اندثار دولتهم، ما عدا في منطقة نجران حيث بقيت قبائل يام على المذهب الإسماعيلي وكذلك منطقة حراز في اليمن.

وكانت الدولة الطاهرية شافعية فاهتمت مثل الدولة الرسولية بالمذهب الشافعي وكانت الكتب المعتمدة للتدريس في المذهب الشافعي هي: «التنبيه» و«المهذب» للإمام أبي إسحاق الشيرازي وشروحهما وحواشيهما. و«الوسيط» و«الوجيز» للغزالي وشروحهما. و«الحاوي» للقزويني و«مختصره» للمقري. و«المنهاج» للنووي، و«معين أهل التقوى» لعلي بن أحمد الأصبحي، و«البيان» ليحيى بن أبي الخير العمراني. وفي الحديث: «الأمهات الست»، وفي آيات الأحكام: «تيسير البيان» لمحمد بن علي الموزعي. كما كان يعتمد في علم الفرائض على كتاب «الكافي» لإسحاق بن يوسف الصُردفي وشروحه. وفي أصول الفقه كتاب «اللمع» لأبي إسحاق الشيرازي وشروحه و«جمع الجوامع» للسبكي وشروحه.

وكان «المختصر في علم النحو» لابن عباد و«مقدمة» طاهر بن بابشاذ وشروحها معتمدان في مدارس الشافعية. كما كان كتاب «نظام الغريب» (في اللغة) لعيسى بن إبراهيم الوحاظي معتمداً.

وكانت الكتب المعتمدة عند الأحناف: «الجوهرة المنيرة في مختصر القدوري» وشرحه، لأبي بكر الحداد، و«درر المهتدي وذخر المقتدي» لأبي بكر الهاملي، وشرحه «سراج الظلام» لأبي بكر الحداد، وغير ذلك.

وعند الزيدية كتب كثيرة أوسع مما ذكر عند الشافعية والأحناف ذكرها تفصيلاً إسماعيل الأكوع في كتابه «المدارس الإسلامية في اليمن» (ص ١٠ – ١١).

أوقات الدراسة:

كانت الدراسة تبدأ من غرة شهر المحرم من كل عام وتنتهي في جمادى الآخرة. ويخصص شهر رجب في أرجاء اليمن الأسفل لقراءة «**صحيح البخاري**». وفي اليمن الأعلى لقراءة الفرائض (المواريث).. وتتوقف الدراسة في شهري شعبان ورمضان للصيام وقراءة القرآن. وتستأنف بعد عيد الفطر حتى نهاية ذي القعدة. وتتوقف في شهر ذي الحجة.

طريقة التدريس

عند الشافعية (والأحناف): يقرأ أحد الطلبة الدرس ثم يشرحه الشيخ. وهذه الطريقة لا تزال متّبعة عند أهل السنّة وخاصة في المساجد وفي المدارس الخاصة في البيوت. وهذه الطريقة تساعد الطلاب على تقويم ألسنتهم بالنحو ومعرفة أسماء الأعلام والأماكن (في علم الحديث).

وأما الزيدية: فيقرأ الشيخ الدرس ثم يشرح للطلاب، ثم يسألهم خلال الشرح ويترك لهم مجالاً للأسئلة. وفي اليوم التالي يطلب الشيخ من طلابه ملخصاً للدرس السابق، ويسمى هذا التلخيص: الضابط.

وكان المدرّسون يعيّنون في الدولة الرسولية والطاهرية من قِبَل صاحب المدرسة وينفق عليهم الأموال. أما المدرّسون في المدارس الزيدية فكانوا متطوّعين.

وكانت معظم المساجد تقوم بالتدريس أيضاً بالإضافة إلى إقامة الصلوات والجمع والخطب والمواعظ. وفي هذه المدارس كانت تلحق بها ما يسمى «المعلامة» لتعليم الأطفال الصغار قراءة القرآن والكتابة. وفي مصر تسمّى الكتاتيب. وقد خُرِّج كثر من الحفّاظ من هذه الكتاتيب أو «المعلامات» ويلتحقون بعد ذلك بالمدارس وكان النظام في مصر أن يحفظ الطالب القرآن الكريم قبل دخول الأزهر الشريف. ثم تغير النظام أخيراً، وأصبح كثير من طلبة الأزهر لا يحفظون القرآن كاملاً وإنما يحفظون سوراً وأجزاءً متعددة منه.

المدارس في عد الملك المنصور التي بناها أتباعه

لم نتعرض ها هنا للمدارس التي بنتها الأميرات من البيت الرسولي في عهد المنصور فقد جمعنا المدارس التي بنتها النساء في فصل خاص لتبيين دور المرأة العلمي في اليمن وخاصة في العهد الرسولي.

المدرسة النظامية في ذي هزيم (جنوب غرب تعز)

بناها نظام الدين مختص بن عبد الله المظفري. كان مولى لغازي جبريل في الدولة الأيوبية ثم خدم السلطان المنصور عمر بن علي بن رسول فجعله مربّياً لولده المظفر فأحسن تربيته وأدّبه أحسن تأديب. وكان يضرب المثل به فيقال: تأديب مختص أو أديب مختص. وكان شجاعاً مقداماً ذا همة، راغباً في طلب الأجر من الله تعالى.

وأقام عدة مدارس نظامية:

(١) **المدرسة النظامية في ذي هزيم (تعز)**: درّس بها الفقيه إبراهيم بن القاسم الخزرجي الأنصاري (وفاته سنة ٦٥٥هـ). والفقيه الصالح عمر بن مسعود الأَبْيني (من أَبْين)، تفقَّه بالفقيه محمد بن إسماعيل الحضرمي والفقيه علي بن عمر الحضرمي وإبراهيم بن علي بن عجيل. وقد تفقَّه بالأَبْيني عدد كبير من الفقهاء، منهم: محمد بن سالم البابة، وإبراهيم بن عيسى الجندي. (وفاته سنة ٦٥٨هـ). ودرّس بها الفقيه سعيد بن منصور الجيشي المعروف بسعيد ابن أنعم (وهو لقب والده) (وفاته سنة ٦٧٤هـ)، وغيرهم كثير.

(٢) **المدرسة النظامية في زبيد**: وقد درّس بها أبو الحسن علي بن أحمد من آل بني كنانة (أهل الضحي). تفقّه على يد إسماعيل بن محمد الحضرمي. وتولّى القضاء في القحمة ثم عزل نفسه. وكان مبارك التدريس وفاته سنة ٦٩٢هـ. ودرّس بعده ابنه إسماعيل بن علي ثم ابنه الآخر محمد بن علي. واستمرت في أولادهم. ودرَّس بها الفقيه الشاعر الأديب إسماعيل بن أبي بكر المقرئ الشاوري. وله ديوان شعر و«كتاب الإلهام لما في الروض من الأوهام»، وكتاب «الإرشاد في اختصار الحاوي» في فروع الفقه. ولم

يستعمل في الكتاب بأي كلمة معرفة بأل التعريف. وقد شرحه ابن حجر الهيثمي في ثمانية مجلدات. وله كتاب «الذريعة إلى نصر الشريعة»، وكتاب «الروض في مختصر الروضة» للنووي، وكتاب يجمع الفقه والتاريخ والنحو والعروض سماه «عنوان الشرق الوافي». وله كتب كثيرة. ودرّس بالمدرسة النظامية العلامة المقرئ يوسف بن يونس الجبائي التعزي وغيرهم كثير.

(٣) **المدرسة النظامية في ذي السفال**: في قرية الوحص ببلاد بحرانة وجرّ ساقية فيها الماء من الجبل إلى المدرسة المذكورة والقرية. وعيّن فيها المدرسين وهذا ما يوضح أن الاهتمام ببناء المدارس لم يكن مقتصراً على المدن المعروفة مثل زبيد وجبل تعز والجَنَد وعدن، ولكنها شملت قرى صغيرة غير معروفة.

(٤) **المدرسة النظامية في ذي جبلة**: وجعل لها المدرسين والأوقاف.

وهكذا نرى أحد خدم الملك المنصور عمر بن علي بن رسول، وهو نظام الدين مختص بن عبد الله المظفري (نسبة إلى الملك المظفر الرسولي الذي أدبه ورباه مختص) يقوم بالمشاريع العدية والمدارس الكثيرة والمبرات، وسواقي المياه ومختلف أنواع البر والخير.

الملك المظفر يوسف بن عمر بن رسول (٦٤٧ -٦٩٤هـ)

كان الملك المظفر أكبر أبناء الملك المنصور عمر بن علي بن رسول. وقد رباه تربية ممتازة ولكن زوجته الثانية بنت جوزة جعلته يقرّب ابنها المفضل حتى حلف له الجَنَد بالولاء، فلما مات الملك المنصور استطاع المظفر الوصول للحكم بعد معارك مع ابن عمه فخر الدين وإخوته. وكانت أخته المعروفة باسم الدارشمسي لبيبة حازمة استطاعت مع الطواشي افتخار الدين ياقوت أن تحتال على ابنة جوزة وابنيها المفضل والفائز في إخراجهم من حصن الدُّمْلُوة الذي كانوا متحصنين فيه. وبذلك ثبتت الملك لشقيقها الملك المظفر يوسف وانتزعته من أخيها غير الشقيق المفضل وشقيقه الفائز وأمهما ابنة جوزة.

وكان الملك المظفر جواداً شجاعاً، عالماً، أدّبه المربي المشهور نظام الدين مختص. ولد بمكة المكرمة عندما كان أبوه الملك المنصور عمر والياً بها من قِبَل المسعود الأيوبي.

وقد قال عنه الفقيه محمد الحضرمي، معلّم المظفر: كان مولانا المظفر يكتب كل يوم مائة آية من كتاب الله، ويكتب تفسيرها، ويحفظها مع تفسيرها، ويدرِّسها عن ظهر غيب وكان يقرأ على العلماء الفقه والحديث وغيرها من العلوم.

ومن آثاره العديد من المدارس والمساجد والمبرّات. وسنستعرض هذه المدارس باختصار. ولكن من المهم أن نعرف أن هذا الملك الذي كان مشغولاً بكثير من الأحداث الجسام لم يتأخر عن مجالسة العلماء والفقهاء والأخذ عنهم. كما أنه كان بنفسه من هؤلاء العلماء وله العديد من الكتب، منها: «الأربعين في الحديث» وهي أربعين حديثاً جمعها كما يفعل كثير من العلماء. و«تيسير المطالب في

تسيير الكواكب» في علم الفلك، و«درج السياسة في علم الفراسة». وهو علم يحتاج إليه من يتولى الشؤون العامة وخاصة أمور الحكم. وكتاب في الخيل بعنوان: «ما يدل على الخيل من ملاحة وقباحة». وكتاب في الطب: «المعتمد في الأدوية المفردة» وقد نسب تارة إليه وتارة إلى ابنه الأشرف عمر بن يوسف. والمطبوع باسم المظفر (طبع في بيروت، دار المعرفة، ١٩٨٢م). وقد ذكر المظفر نفسه أن ابنه الأشرف من العلماء بالطب وله كتاب «الجامع» فيه. وسيأتي الكلام عن مؤلفات المظفر في حينه. وللملك المظفر أيضاً كتاب «اللمعة الكافية في الأدوية الشافية». وله كتاب «المخترع في فنون الصُنع» (أي مخترعات في الصناعة).

ويا له من ملك عجيب واسع العلم والمعرفة، مع حلم وكرم واتساع في المملكة.

المدرسة المظفرية في تعز

أنشأها المظفر يوسف بن عمر، ورتّب فيها مدرّساً ومعبداً وعشرة من الطلبة ورتّب فيها إماماً ومؤذّناً ومعلّماً، وعشرة أيتام يتعلّمون القرآن وقيّماً. ودرّس بها الفقيه أبو الحسن علي بن الحسن الأصابي القُعيطي (من وادي قعيطة في وصاب) وكان فقيهاً في الأصول والفروع، نحويًّا، عارفاً بالحديث والتفسير، كامل الفضل. وفاته سنة ٦٥٧هـ. ومن آثاره «الرد على الزيدية» وكتاب «الرد على من يكفّر تارك الصلاة». ودرّس بها أحمد الأصبحي الفقيه الإمام. وتفقّه به كثير من أهل عصره. وله كتب كثيرة منها: «أسرار المهذب»، و«غرائب الشرحين» (شرح الرافعي والعجلي) و«معين أهل التقوى على التدريس والفتوى». وفاته سنة ٧٠٣هـ. ودرّس بها محمد بن علي الكشغري (من شغر وهي الآن في سينكيانج، التركستان الشرقية، في الصين). كان عالماً محقّقاً لا سيما في النحو واللغة والتفسير. وكان حنفي المذهب ثم تحول إلى المذهب الشافعي. وبنى أربطة في اليمن، ومات في موزع سنة

٧٠٥هـ . ومن آثاره: «أعلام الصحابة، المختصر من أسد الغابة لابن الأثير»، و«سلافة العارف اختصار عوارف العوارف»، و«مجمع الغرائب في غريب الحديث»، و«مختصر صحاح الجوهري» و«مختصر الكشاف».

ودرّس بها علي بن عثمان الأشنهي وعيسى بن مُطَير الحَكمي. ولما قابل الملك المظفر سأله عن مقروءاته فأعلمه، فسأله السلطان: لِـمَ لَـمْ تقرأ من كتب أصول الدين؟ فقال له: قد قرأت ما عرفت به صفات ربي: كتاب الله وسنّة نبيّه، والنحو واللغة فقال المظفر: صدقت. ونعمَ ما عملت. وهذا يدل على سعة علم المظفر وحسن إدراكه. وعيّنه مدرّساً. وفاته سنة ٦٨٠هـ .

ودرّس بها عدد كبير من العلماء منهم: القاضي عز الدين عبد العزيز بن علي ابن أحمد النويري القرشي المكي. من أكابر الفقهاء والعلماء مجوِّداً لجميع فنون العلم واللغة. وفد إلى اليمن في أوائل المائة التاسعة، فأحسن إليه الناصر أحمد بن الأشرف. فدرّس وأفتى وتولّى القضاء، وكان شديداً فيه، فشكاه الناس إلى السلطان فعزله عن القضاء. وسافر في أعقاب ذلك إلى مكة المكرمة سنة ٨١٥هـ.

وقد بنى الملك المظفر جامعه المشهور في تعز وجامع المهجم وجامع واسط المحالب، وبنى خانقاه بحيس ودار للضيفان، ومدرسة بمدينة ظفار الحبوظي (في سلطنة عمان الآن).

وابتنى خادمه تاج الدين بدر بن عبد الله المظفري بزبيد مدرسة للشافعية تسمى المدرسة التاجية ومدرسة أخرى في الوجيز من أرياض تعز، ومدرسة للقراء بالقراءات السبع، ومدرسة للحديث النبوي ودار ضيافة، وكلها في زبيد وكان أستاذه ومربِّيه مختص (نظام الدين) قد بنى العديد من المدارس – التي أشرنا إليها – وكان للملك المظفر خمسمائة فارس في مصر يجاهدون الفرنج تحت إمرة ملوك مصر.

وبنى الأمير نجم الدين عمر بن سيف الدين، أخو الملك المظفر لأمه،

مدرسة في حافة الملح في تعز. ودرّس بها عدد من الفقهاء: منهم، أبو الخطاب عمر بن محمد المتوجي المرّاني الخولاني. وتوجه إلى عدن لقضاء دين عليه هناك فمات بها سنة ٧٠٩هـ . ودرّس بها ابنه محمد بن عمر المتوجي، الذي تولّى التدريس والقضاء.

المدارس الأسدية
نسبة إلى أسد الدين محمد بن الأمير الحسن بن علي بن رسول

الأمير أسد الدين محمد بن الحسن بن علي بن رسول هو ابن عم الملك المظفر يوسف بن عمر بن علي بن رسول. وكانت بينه وبين عمه الملك المظفر بعض المناوشات. فقد كان أول الأمر والياً على صنعاء من قبل المظفر، فخرج منها واستولى عليها الإمام أحمد بن الحسين. وذهب أسد الدين محمد بن الحسن إلى براش، وطال القتال بينه وبين الإمام أحمد بن الحسين، فرجع إلى ابن عمه الملك المظفر.. وقام بنو حاتم بالصلح بينهما.. وعادت المياه إلى مجاريها. وطلع المظفر بعد ذلك إلى صنعاء وأعاد احتلالها. ودانت له اليمن وذلك سنة ٦٤٨هـ.. وفي عام ٦٥٠هـ عاد الخلاف بين المظفر وابن عمه أسد الدين محمد ابن الحسن، فدخل أسد الدين في طاعة الإمام، وباع له حصن براش بمائتي ألف درهم. واستولى الإمام على صنعاء فطلع المظفر مرة أخرى إلى صنعاء وأعاد احتلالها.

وكان الأمير أسد الدين كريماً جواداً شجاعاً، يضرب المثل بقوته، فقد كان يقبض على الركاب الحديد فيضم بعضه إلى بعض. وكانت صنعاء إقطاعاً للأمير أسد الدين من عمه المنصور، فلما تولى المظفر ثار عليه الحسن بن علي (والد أسد الدين) وأخوه أبو بكر بن الحسن، فاعتقلهما المظفر ووضعهما في السجن بعد أن استسلما له. فغضب أسد الدين وأدى ذلك إلى ما سبق ذكره. وانتهى به الأمر إلى أن وضعه المظفر في السجن مع أبيه وأخيه.

وقد اشتغل الأمير أسد الدين محمد بن الحسن في السجن بطلب العلم. وكان الفقهاء يأتون إليه في السجن فيقرأ عليهم، ومن هؤلاء الفقيه المحدّث أحمد بن علي السُّرددي ونسخ في السجن عدة مصاحف وعدد من الكتب، وجعلها على المدارس التي أقامها، وهي:

(١) المدرسة الأسدية في مدينة إب

قال عنها القاضي إسماعيل الأكوع في كتابه «المدارس الإسلامية في اليمن» (ص ٩٦) «ما تزال عامرة إلى اليوم».

وقد درّس بها الفقيه محمد بن أحمد.. ابن مضمون، الذي اشتهر بالنحو والخطابة. تولى قضاء صنعاء فكان شديداً في الأحكام مبالغاً في إقامة الحق وإحياء السنَّة ومحاربة الإسماعيلية، فبذلوا الأموال لعزله فعُزِلَ. وانتقل بعدها مدرِّساً في المدرسة الأسدية في مدينة إب، فانتفع به خلق كثير، واستمرَّ بها حتى وفاته سنة ٧١٥هـ.

ودرّس بها القرارات الفقيه المقرئ عفيف الدين عثمان بن عمر الناشري.. وفاته سنة ٨٤٨هـ، وقد عيّنه الملك الظاهر يحيى بن الأشرف مدرِّساً في مدرستيه الظاهرية والمرشدية، وكلاهما في تعز. وبقي بها عشر سنوات، ثم انتقل إلى إب وتولى التدريس في المدرسة الأسدية والمدرسة الجلالية.

ومن آثاره كتاب «إيضاح الدُّرَّة المضيئة في قراءات الثلاثة الصحيحة المرضية، و«البستان الزاهر في طبقات علماء بني ناشر»، و«دُرّ الناظم في رواية حفص من قراءة عاصم»، و«شرح على الحاوي والإرشاد» في مجلَّدين، و«الهداية إلى تحقيق الرواية في رواية قالون والدوري الكبير» في علم القراءات.

(٢) مدرسة أسد الدين في قرية الخبالي من أعمال ذي جبلة

درّس بها الفقيه عمر بن عبد الله المعروف بابن عقبة. (وهو من آل عقبة القضاة في منطقة جبلة) وفاته سنة ٦٩٧هـ. ودرّس بها عمر بن محمد الصُّهباني

وعمر بن عمران الحُبيشي.

وأوقف الأمير أسد الدين كتباً كثيرة، منها ما نسخه بنفسه في السجن على مدرستيه وعلى مدرسة ذي عقيب.

(٣) المدرسة الأسدية في حافة الميهال من مغربة تعز، وتسمى أيضاً مدرسة دار الأسد

بنتها ابنة الأمير أسد الدين محمد بن الحسن. وهي أيضاً زوج الملك المظفر يوسف بن عمر بن علي بن رسول. وهي أم ولده الواثق وابنته ماء السماء. وفاتها سنة ٧٠٤هـ . وقد درّس في مدرستها علي بن أحمد بن محمد بن منصور الجنيد. كان فقيها ماهراً ونحويًّا ولغويًّا وطبيباً بارعاً. حسن الأخلاق. استمر مدرِّساً فيها ثم انتقل إلى المدرسة الصلاحية في زبيد. ثم قلده الملك المجاهد القضاء الأكبر إلى حين وفاته سنة ٧٥٣هـ . ودرّس فيها عثمان بن محمد الشرعبي، وفاته سنة ٧١٨هـ . ودرّس بها صالح بن أحمد بن عمران الحميري.. كان محققاً بدقائق الفقه، ثبتاً في الفتوى، مباركاً في التدريس، معروفاً بالأدب واللغة. قرأ على الإمام جمال الدين الريمي ونفيس الدين العلوي ومجد الدين الفيروزبادي.. وكان أبوه وجده من الفقهاء المعروفين. وفاته بعد ٨١٠هـ . ودرّس بها عبد المجيد ابن علي الناشري (من الأسرة التي أنجبت عشرات الفقهاء المشهورين) وفاته سنة ٨٥٧هـ . ودرّس بها الفقيه أحمد بن علي الجنيد بعد وفاة والده الذي درّس بها. حظي عند السلطان المؤيد ونال درجة رفيعة وفاته سنة ٧٢٩هـ .

الملك الأشرف (الكبير) عمر بن يوسف بن عمر بن علي بن رسول

(٦٩٤ -٦٩٦هـ)

لما تولى الملك الأشرف عمر بن يوسف نازعه أخوه الملك المؤيد داود الذي كان والياً على الشحر فدخل عدن. والتقى الجيشان في أبْين وانهزم جيش الملك المؤيد داود ثم قام الأشرف بإكرام أخيه وولديه المظفر والظافر.

وكان الملك الأشرف من العلماء وله تصانيف في الطب منها كتابه «الجامع في الطب»، وكتاب «التفاحة في الفلاحة»، وكتاب «الدلائل في معرفة الأوقات والمنازل» (في الفلك والمواقيت)، وكتاب «الاصطباح»، وكتاب «طرفة الأصحاب في معرفة الأنساب»، و«كتاب في تعبير الرؤيا». وله كتاب «الإبدال لما عدم في الحال» وهو استبدال الأدوية غير الموجودة بأخرى يكثر وجودها. وله كتاب «الاسطرلاب» و«التبصرة في علم النجوم» في علم الفلك. وله «شفاء العليل في الطب» وكتاب «المعتمد في الأدوية المفردة» ونسب إلى والده الملك المظفر. وله كتاب في الطب البيطري «المغني في البيطرة». ورغم قصر مدة حكمه إلا أنه عُرف بالعلم والحكمة والحزم والكرم وقد بنى **المدرسة الأشرفية في مغربة تعز**.

وقد بنى المدرسة وأجرى لها الماء من جبل صبر، وجعل فيها بركة ومطامير، ورتَّب فيها إماماً ومؤذناً ومقيماً ومعلماً وأيتاماً يتعلّمون القرآن. ومدرِّساً للفقه الشافعي وجماعة من الطلبة. وأوقف على الجميع..

وقد درّس بها الفقيه أبو بكر بن أحمد المعروف بابن المقرئ، وفاته ٧١٤ هـ. ودرّس بها يوسف بن محمد بن علي الجعفري نسباً الأصابي بلداً. كما درّس بها محمد بن يوسف النزاري نسباً الصِّبري بلداً.

المدرسة الأشرفية في زبيد

بنتها ابن الملك المظفر ونسبتها إلى أخيها الملك الأشرف. وقد ذكرناها في المدارس التي أنشأتها النساء من الأميرات وغيرهن.

وقد درّس فيها الإمام علي بن أبي بكر الناشري. تفقّه بأبيه وأخيه وعمه والقاضي محمد بن عبد الله الريمي. وأخذ عن الزين العراقي وزين الدين المراغي وبرهان الدين الأبناسي وجمال الدين الأميوطي في مكة المكرمة. كما أخذ عن مجد الدين الفيروزبادي بعد استقراره في اليمن.

وتولى التدريس سنة ٧٩٥هـ في المدرسة الأشرفية. وكان الملك الأشرف يجلّه ويبجّله. وفاته سنة ٨٤٤هـ . وله العديد من المؤلفات منها: «التمر اليانع وتحفة النافع»، و«الجواهر المثمنات: المستخرج من الشرح والروضة والمهمات». و«روضة الناظر في أخبار دولة الملك الناصر»، وكتاب «الفوائد الزوائد لما أدرك في الروضة من الشرح وفي الشرح من الزوائد».

ودرّس بها شيخ الإسلام عبد الرحمن بن عبد الكريم الغيثي المقصري الزبيدي. وفاته سنة ٩٧٥هـ، وله العديد من المؤلفات.

ودرّس بها ابنه عبد السلام بن عبد الرحمن وتتولَّى الفتيا في زبيد. مات بعد والده بثلاثة أشهر سنة ٩٧٥هـ . وله مجموعة من المؤلفات مثل والده. وتولّى القضاء في لحج ونظر مسجد الحنفية في عدن.

ودرّس بها محمد بن علي بن أبي بكر الناشري.

المدرسة المظفّريّة في تعز (حي المحاريب)

بناه السلطان المؤيد داود بن المظفر يوسف، وسمّاها باسم ابنه المظفر حسن ابن داود الذي مات في زمن أبيه وأوصى ببناء مدرسة في حي المحاريب في مدينة تعز. وكان المظفر حسن قد تولى أمر صنعاء ومخالفيها في عهد أبيه سنة ٦٩٦ هـ، واشتهر بالعدل والحكمة وحسن الخلق ومتانة الدين. وكانت وفاته في ذي القعدة سنة ٧١٢هـ . وأوصى بأن لا يُناح عليه، ولا يُشقَّ عليه ثوب، ولا يُغشَّى نعشه إلا بثوب أبيض وأن لا يعقر على قبره شيء من خيله (وكل هذه الأمور قد حدثت وصارت عادة وخاصة للملوك والأمراء). وأوصى أن يُدفن في مقابر عامة المسلمين.. وقد نفذ والده هذه الوصايا إلا أنه دفنه في مدرسته المؤيدية.

وقد أقام الملك المؤيد داود بن المظفر يوسف العديد من المدارس كالآتي:

(١) **المدرسة المؤيدية في تعز** (في غرب تعز في حافة القماطين)

بناها الملك المؤيد داود بن يوسف بن عمر بن علي بن رسول (٦٩٦ –

٧٢١هـ) وذلك سنة ٦٧٢هـ قبل أن يتولى الملك. وكانت عمارتها على يد القاضي أبي بكر بن محمد اليحيوي. ورتّب فيها مدرِّساً ودَرَسة (طلبة) ومعيداً، وإماماً ومؤذّناً. ومعلماً وأيتاماً يتعلمون القرآن. ومقرئاً يُقرئ القرآن بالقراءات السبع. وقد وقف عليها خزانة من الكتب النفيسة وأراضي من أجود الأراضي الزراعية في مخلاف جعفر وبساتينها في وادي ظُبا والوحص، وعيّن قيّماً على المدرسة، ومسؤولاً عن الوقف وإدارته.

تولّى الملك المؤيد الحكم بعد وفاة أخيه الملك الأشرف في ٢٣ محرم سنة ٦٩٦هـ واستوزر الملك المؤدي القاضي علي بن محمد بن عمر اليحيوي.

وكان المؤيد شجاعاً كريماً فارساً هماماً. وكان مشاركاً في كثير من العلوم. وكان يحفظ مقدمة طاهر بن بابشاذ، وكفاية المتحفّظ في اللغة، والجمل للزجاجي. وكان يهوى جمع الكتب والتحف. وكان عنده أكثر من عشرة نساخين ينسخون له الكتب، لذا احتوت مكتبته على نفائس الكتب، وبلغ عددها مائة ألف مجلد.

وقد صنّف الملك المؤيد كتاب «الجمهرة في البيزرة» أي الصيد البازي وهو الصقر.

وقد دُفن الملك المؤيد في هذه المدرسة، كما دفن فيها ابنه المظفر حسن. وقد درّس في المدرسة المؤيدية بتعز، النجم محمد بن أحمد الطبري الفقيه النحوي. درّس فيها النحو، ثم اعتذر من التدريس فعينه المؤيد مدرِّساً في مدرسته أم عفيف بزبيد. ودرّس بها الفقيه البارع عبد الحميد بن عبد الرحمن الجيلوني. قدم من الحجاز سنة ٧١٩هـ وعيّنه المؤيد مدرساً في مدرسته، ثم اختلف مع قاضي القضاة أبي بكر بن الأديب، فخرج إلى عدن ومات في الطريق إليها في شهر ربيع الآخر سنة ٧٢٣هـ . ودرّس بها عبد الرحمن بن عمر الحبيشي المذحجي الذي كان إماماً في كثير من العلوم، في الفقه وأصوله والتفسير والحديث والنحو.. واشتهر بالفصاحة ونظم الشعر. طلبه الملك المجاهد للتدريس في مدرسة والده

المؤيد بتعز، ثم ترك التدريس وعاد إلى بلده وصاب، وتولّى فيها القضاء. وفاته سنة ٧٨٠هـ . ومن مؤلفاته: «أحكام الرئاسة في آداب أهل السياسة»، و«آداب المسافر ومقاصده»، و«الإرشاد للأمراء والعلماء والمتعلمين والمتنسكين والعبّاد» و«الاعتبار لذوي الأبصار» (نظم في مائتي بيت مع شرحها)، و«بُلغة الأديب إلى معرفة الغريب في اللغة»، و«التوشيح والثناء والذكر والرجاء»، و«صحيح المعتقد للألباب والمعتمد في الآداب» (منظومة في ٢٤٠٠ بيت)، و«كتاب المنسك»، و«كتاب المستجاد» و«مجموع الفتاوى الحُبيشيّة»، و«النظم والتبيان» نظم فيه كتاب «التنبيه» في الفقه في أكثر من عشرة آلاف بيت. وله ديوان شعر في مجلَّدين.

ودرّس بها النحو الفقيه النحوي القاسم بن عبد الله البارقي. كما درّس بها النحو أيضاً تاج الدين عبد الباقي اليماني. ودرّس بها إسحاق الكلالي وغيرهم.

وكان تاج الدين عبد الباقي اليماني من مواليد عدن في رجب سنة ٦٨٠هـ ونشأ بها. ثم انتقل والده بالأسرة إلى مكة المكرمة فأقاموا بها ثماني سنوات. ثم عادوا إلى عدن وقرأ على الفقيه أحمد بن علي الخرازي وغيره، وكان جيّد الخط، وأقام في تعز وعمل كاتباً. فخرج من تعز إلى مصر والشام وجالس علماءها، فأخذ عنهم وأخذوا عنه. **ولقّبوه بتاج الدين. وأكرمه ملك حماه**. ثم عاد إلى اليمن وقد سبقته شهرته فأكرمه السلطان المؤيد وأمره أن يقرئ ولده المجاهد النحو. وهو أول من رتّبه المجاهد بمدرسته لإقراء النحو فدرّس بها سنتين، ثم اعتذر، فأرسل المجاهد إلى مدرسته المعروفة بأم عفيف في زبيد، فدرّس بها الفقه سنتين. ثم غادر اليمن إلى مصر سنة ٧٣٠ هـ وتولى بها التدريس في المشهد النفيسي (مسجد السيدة نفيسة في القاهرة) وشهادة البيمارستان المنصوري. ثم تحول إلى القدس. ثم عاد إلى القاهرة سنة ٧٤١هـ وبها توفى سنة ٧٤٣هـ.

ومن مصنفاته: «إشارة التعيين إلى تراجم النحاة واللغويين» و«الاكتفاء في شرح ألفاظ الشفاء للقاضي عياض اليحصبي» و«بهجة الزمن في تاريخ اليمن»

و«لقطة العجلان: المختصر من وفيات الأعيان». «وزهر الجنان في المناظرة بين القنديل والشمعدان». و«مختصر الصحاح للجوهري». و«مطرب السمع في شرح حديث أم زرع».

وقد درّس بهذه المدرسة أيضاً الفقيه محمد بن عبد الرحمن البريهي والفقيه أحمد بن يحيى الكندي وأحمد بن أبي بكر الأحنف وعلي بن محمد الناشري. ودرّس القراءات عبد الله محمد بن علي الناشري. وكان عَلَماً في وقته في القراءات.. وغيرهم كثير.

(٢) مدرسة أم عفيف (في زبيد)

بناها الملك المؤيد داود بن يوسف بن عمر. ودرّس بها عدد ممّن درّس في المدرسة المؤيدية بتعز (وقد سبق ذكرهم) كما درّس بها القاضي محمد الطبري المعروف بالنجم والفقيه اللغوي عبد الباقي بن عبد المجيد اليماني (العدني).

(٣) المدرسة المظفرية في حي المحاريب في تعز: وقد سبق ذكرها.

المدرسة المجاهدية في تعز (الملك المجاهد ٧٢١ – ٧٦٤هـ).

بناها السلطان المجاهد علي بن السلطان المؤيد داود بن السلطان يوسف المظفر سنة ٧٣١ هـ . وهي مدرسة كبيرة وجعلها مدرسة وجامعة وخانقاه. وقد تولى عمارتها القاضي محمد بن مؤمن اليحيوي.

وكان الملك المجاهد ملكاً جواداً شجاعاً شهماً، مشاركاً في عدة فنون ويقال أنه كان أعلم بني رسول. ثبت حكمه بعد معارك مع عمه المنصور وابنه الظاهر، واستمر حكمه ٤٤ سنة، تخللتها عدة مناوشات وثورات كما هو معتد في تاريخ اليمن السياسي.

ومن مآثره أنه بنى مدينة ثعبات وسورها وقصورها، وله المخترعات الفائقة في فن البناء والهندسة. وله مساجد عدة في تعز وثعبات والنويدرة ومسجد ببستان الراحة بزبيد. وله المدرسة المجاهدية ومدرسة بمكة المكرمة،

ومدرسة بدار الوعد في تعز (في دار العدل). وأقام دار العدل لإنصاف المظلومين. وكان المجاهد شاعراً ومن شعره المخمس:

أنا شبل المُلك، زيـن الكتـبِ
يوســف جــدي، وداود أبي
والشهيد القرم زاكي الحسبِ
وعـلي القيـل عـالي المنـصب جــدُّنا بعــد رســولٍ جــدُّنا

وقد نقلت بعضها عند الحديث عنه فانظره هناك.

وقد توفي المجاهد في عدن سنة ٧٦٤ هـ فنقله ابنه الأفضل إلى تعز ودفنه بمدرسته المجاهدية.

وقد صنف المجاهد كتاب «الأقوال الكافية في الفصول الشافية» وكتاب عن الخيل وصفاتها وأنواعها وبيطرتها، وله ديوان شعر.

وقد درّس في المجاهدية في تعز الفقيه المحدث تقي الدين عمر بن عبد الله المكي الحنفي تفقّه بزبيد على يد الفقيه المحدث إبراهيم بن عمر العلوي والفقيه علي بن نوح والفقيه إبراهيم بن مهنا. ودرس في المجاهدية من سنة ٧٤٧هـ حتى وفاته سنة ٧٦٨هـ .

ودرّس فيها الفقيه عمر بن أبي بكر العرّاف والمحدّث محمد بن علي المقري المصري وقد درّس في عدة مدارس منها المدرسة المؤيدية ثم المدرسة المجاهدية إلى وفاته سنة ٧٤٥ هـ .

ودرّس بها الفقيه إسماعيل بن أبي بكر الشاوري وموسى بن عمر الغزولي وسليمان بن إبراهيم العلوي ومحمد بن راشد السكوني والإمام أحمد بن محمد الربيعي الحميري المشهور بالشلفي (وفاته سنة ٨٣٢هـ). ومن تأليفه كتاب «كافية الرائض في علم الفراض»، ثم شرحه بكتاب «نهاية الخايض في علم الفرايض» وله كتاب «هداية السالك إلى مقاصد المناسك» ودرّس بها الفقيه

علي بن سعيد الزبيدي. أقام في مكة نحو ثلاثين سنة وذهب إلى الشام ومصر. وفاته بزبيد سنة ٨١٨هـ.

مدرسة دار العدل (دار الوعد) في تعز

بناها السلطان المجاهد علي بن داود بن يوسف الرسولي. وجعل فيها خانقاه وأوقف عليها أوقافاً جيدة.

المدرسة الأفضلية في تعز (بجوار المدرسة المجاهدية)

أنشأها السلطان الأفضل العباس ابن الملك المجاهد علي ابن الملك المؤيد داود الرسولي وذلك في عام ٧٦٥هـ، وكانت من أجمل المدارس. قال عنها ابن الديبع في بغية المستفيد: «ليس لها نظير في البلاد» وقال الخزرجي: أمر فيها بعمارة منارة لم يكن في البلاد مثلها. وذلك أنها على ثلاث طبقات: فالطبقة الأولى مربّعة الشكل، والثانية مثلثة الأركان قائمة الحروف، والثالثة مسدَّسة الشكل عجيبة المنظر».

وقد أوقف عليها أراضي جليلة في وادي ظبا والأجناد، ونخيلاً في موزع. وقد زار المدرسة الرحالة الدانيماركي كارستون نيبور سنة ١٧٦١م ورسمها مع صورة تعز. وقد رتب الملك الأفضل لها جميع ما تحتاجه المدارس وداراً لإطعام الفقراء والمساكين والضيفان والغرباء.

وكان الملك الأفضل شهماً عادلاً حازماً فقيهاً عارفاً بالنحو والأدب واللغة والأنساب والتواريخ، ومشاركاً في العلوم الأخرى.

حكم اليمن من سنة ٧٦٤ إلى وفاته سنة ٧٧٨ في زبيد. ونقل جثمانه إلى تعز ودفن في مدرسته الأفضلية.

ومن مآثره: مدرسة في مكة المكرمة قبالة باب الكعبة المشرفة. وتجديد سور مدينة زبيد. وخفّف عن المزارعين الضرائب. ومدرسته الأفضلية في تعز. ومن مؤلفاته: «بغية الفلاحين في الأشجار المثمرة والرياحين» (في علم الفلاحة)،

و«بغية ذوي الهمم في التعريف بأنساب العرب وأصول العجم»، و«الدرّ والقعيان: المختصر من تاريخ ابن خلكان»، و«العطايا السنيّة والمواهب الهنيّة في المناقب اليمنية» ذكر فيه ملوك اليمن ووزرائها وعلمائها. و«اللمعة الكافية في الأدوية الشافية» في الطب. و«نزهة الأبصار في اختصار كنز الأخيار». و«نزهة الظرفاء وتحفة الخلفاء». و«نزهة العيون في تواريخ طوائف القرون». و«الوسائل في إلغاز المسائل».

وقد درّس بالمدرسة الأفضلية عدد من الفقهاء المشهورين في زمنهم منهم **الفقيه عبد الله بن صالح البريهي**. وصفه الملك الأفضل صاحب المدرسة في كتابه «العطايا السنيّة» بقوله: «وكان صالحاً تفقّه به جماعة كثيرون. وهو مبارك التدريس ذو فنون كثيرة في العلوم.. وهو باقٍ إلى الآن في مدرستنا التي أنشأناها». ودرّس فيها من سنة ٧٦٥ إلى وفاته سنة ٧٩٨هـ (أي ٣٣ سنة).

ودرّس بها القاضي أبو بكر بن علي بن محمد الناشري. ودرّس بها الحديث سليمان بن إبراهيم بن عمر العلوي.

المدرسة الأشرفية (الكبرى) بتعز

ابتناها الملك الأشرف إسماعيل بن العباس (الملك الأفضل) بن علي (الملك المجاهد) بن داود (الملك المؤيد) بن الملك الأشرف الكبير عمر بن يوسف (الملك المظفر) بن عمر (الملك المنصور) مؤسّس الدولة الرسولية.

وقد تم بناء هذه المدرسة سنة ٨٠٠ وعيّن فيها عدداً من المدرسين في الفقه (الشافعي) والحديث والنحو والأدب وغيرها من العلوم الهامة وأوقف عليها مكتبة نفيسة. وقد ذكر الخزرجي في العقود اللؤلؤية أنها: «مدرسة حسنة الشكل، بها بابان، شرقي وغربي، وباب يماني (جنوبي). ومقدّم فسيح، وشمسية رحيبة، وتكوين عجيب، وابتنى فيها مطهراً نفيساً».

وأوقف عليها أوقافاً كثيرة. ودرّس فيها علي بن أبي بكر بن علي بن محمد

الناشري (أسرة العلم والفقه في اليمن)، ورضي الدين ابن خياط ومحمد بن الجزري الإمام الحافظ المقري صاحب الجزرية المشهورية في علم القراءات. ولد في دمشق سنة ٧٥١هـ وصار إماماً في علم القراءات، وتصدّر للتدريس والإفتاء والإقراء في جامع دمشق، وابتنى في دمشق مدرسة للقرآن، ومدرسة في شيراز. وتنقَّل في الأقطار ودخل اليمن سنة ٨٢٨هـ ، وشارك في تدريس علم الحديث وفي الإنكار على ابن عربي. وكان هو المرجع في علم القراءات. ومن كتبه «النشر في القراءات العشر» في مجلَّدين و«طبقات القراء» في مجلد، و«غايات النهايات في أسماء رجال القراءات»، وعدة الحصن الحصين من كلام سيّد المرسلين» في الأذكار والأدعية، و«التوضيح في شرح المصابيح»، و«التمهيد في التجويد». وكانت وفاته في شيراز سنة ٨٣٣هـ وقيل بل سنة ٨٣٤هـ .

الأشرفية الجديدة في تعز

بناها الملك الأشرف إسماعيل بن العباس. وهل هي اسم ثانٍ للأشرفية الكبرى أم مدرسة أخرى غيرها؟ لم يجزم القاضي إسماعيل الأكوع في كتابه «المدارس الإسلامية في اليمن» بأيهما. ولكن المدرسين بهذه المدرسة غير المدرسين في الأشرفية الكبرى التي ذكرنا نبذة عنها.

فقد درّس في الأشرفية الجديدة عبد الرحمن بن هبة الله العنسي الملحاني. كان عالماً محققاً في القراءات والنحو واللغة، ومشاركاً في غير ذلك من العلوم، وله شعر حسن. وفاته بعد سنة ٨١٥هـ . ودرّس بها الإمام سليمان بن إبراهيم ابن عمر العلوي. ودرّس بها شيخ الإسلام الحافظ عبد الرحمن بن محمد بن عبد الرحمن العدناني المالكي التونسي المعروف بالبرشكي. دخل اليمن هو الإمام الجَزري سنة ٨٢٨هـ . وأقام بزبيد مدة ودرّس فيها. وانتقل إلى تعز فقرأوا عليه موطأ مالك (وكان أعلى من في زمنه سنداً إلى الإمام مالك). قال البريهي: وحضرت ختام القراءة عنده بالمدرسة الأشرفية الجديدة فاجتمع خلق كثير ضاقت المدرسة عنهم. وكانت وفاته سنة ٨٣٩هـ .

المدرسة الظاهرية (في تعز) (٨٣١ – ٨٤٢هـ)

بناها الملك الظاهر يحيى بن الملك الأشرف إسماعيل ابن الملك الأفضل العباسي ابن الملك المجاهد علي ابن الملك المؤيد داود الرسولي. وبنى فيها منارتين إحداهما بدرجتين ليس لهما في اليمن نظير. وأوقف عليها أوقافاً جمة، وكتباً كثيرة. وفي الوقفية الغسانية تفصيل للبناء ولمن يقوم عليها ووظائفهم، وتفصيل للأراضي الموقوفة عليها (انظر تفصيلها في كتاب الأكوع: المدارس الإسلامية في اليمن).

وكثرت في عهده الفتن، وظهر الطاعون سنة ٨٣٩ هـ في عدن ولحج وأبْين، ثم صنعاء، عام ٨٤٠هـ، ومات خلق لا يحصون، فتصدَّق الملك الظاهر بصدقات كثيرة وأمر بقراءة القرآن وقراءة صحيح البخاري وبالدعاء، حتى رفع الله عن المسلمين البلاء.

ومات الملك الظاهر سنة ٨٤٢هـ بمدينة زبيد (لم يمت بالطاعون)، ونقل إلى تعز وقُبر بمدرسته الظاهرية.

ومن مآثره: إبطالِ ضمان الحسبة، وردٍّ كثير من المظالم وبناء عددٍ من المدارس والمساجد، ولكنه كان أيضاً مشهوراً بسفك الدماء وقتل كثير من أنصاره وأعوانه لأخطاء يعفى عنها.. وقد درّس في الظاهرية بتعز محمد بن أحمد ابن أبي بكر الناشري (أسرة العلم في اليمن)، وقد انتهت إليه رئاسة الفتوى وتولّى منصب قاضي القضاة بزبدي سنة ٨٤٤هـ.

وكان مقرّباً للملك الظاهر يحيى بن إسماعيل، وقلّده أمر مدرسته التي أنشأها بتعز، وكان يدرّس أيضاً في الأشرفية والفرحانية في تعز. ودرّس في الصلاحية والفرحانية بزبيد.

ولما زالت الدولة الرسولية وقامت الدولة الظاهرية كانت له مكانة عند السلطان علي بن طاهر بن معوضة.. ولد محمد بن أحمد الناشري في زبيد سنة

٧٨٢ هـ وبها كانت وفاته ٨٧٤هـ وله العديد من المؤلفات، منها: «إيضاح الفتاوى في النكت المتعلّقة بالحاوي».. ودرّس بالظاهرية أيضاً عثمان بن عمر الناشري والقاضي إسماعيل بن عبد الصمد الموزعي وكان يدرّس في الجامع المظفري والمدرسة الظاهرية في تعز. وفاته سنة ١٠٣٢هـ ودرّس بها الفقيه علي ابن محمد بن مهدي المرشي والفقيه الأديب محمد بن عبد الله البريهي وفاته بعد سنة ٨٤٠ هـ.

المدرسة الظاهرية في عدن

وقد بنى الملك الظاهر يحيى بن إسماعيل مدرسة في عدن.وبنت أمه وأم أخيه الملك الناصر عدة مدارس، ومنها مدرسة في عدن. وكانت تعرف باسم أم الملوك. والمسؤول عنها العبد المخصي مرجان ولذا يقال له «جهة الطواشي مرجان». ومدرستها بقرب جامع عدن (الذي بقيت منه المنارة). وبنت المدرسة المرجانية أيضاً في لحج وسبيلاً في الأخبة. وتوفيت سنة ٨٣٦هـ.

وقامت زوجة الظاهر المعروفة باسم «الحرة جهة الطواشي ياقوت» ببناء المدرسة الياقوتية بحافة البصال (شارع الملك سليمان حاليًّا) في عدن.. وقد ذكرنا مآثر هؤلاء النسوة عند الحديث عن دور النساء في بناء المدارس. وقد بنت زوج الملك الظاهر:

- المدرسة الياقوتية بزبيد.
- المدرسة الياقوتية بعدن.
- المدرسة الياقوتية في ذي السفال في رباط البريهي.
- المدرسة الياقوتية في حيس.

وبهذا ننهي ما بناه الملوك والأمراء من بني رسول في اليمن رجالاً ونساءً.

وقد بنى كثير من الفقهاء وعامة الناس مدارس وكان لها دور كبير في نشر الثقافة الدينية واللغة العربية والنحو والشعر، وشيء من علوم الفلك (التقويم

ومعرفة الأوقات والقبلة) وشيء من التاريخ. وفيما سبق غنية ومن أراد المزيد عن المدارس الإسلامية في اليمن فليراجع كتاب القاضي إسماعيل بن علي الأكوع «المدارس الإسلامية في اليمن» منشورات جامعة صنعاء ١٤٠٠ هـ/ ١٩٨٠م، فهو كتاب فريد في بابه - رحم الله مؤلفه رحمة الأبرار - وقد أهداني بقلمه كتابه هذا، وزارني في عيادتي في جدة أكثر من مرة.

المدارس التي أنشأتها النساء من الأميرات وغيرهن في اليمن في العهد الرسولي

المدرسة الغومانية في جبلة

ويقال لها (مدرسة غومان) وتقع في الشمال الغربي من جبلة. وكان بها قصر غومان ولم يبق لهما أثر. بنتها الحُرَّة لؤلؤة زوج الأمير علي بن رسول، وكانت من عنس. وعلي بن رسول قدم إلى اليمن مع الملك المسعود يوسف بن محمد بن أبي بكر بن أيوب سنة ٦١٢ هـ ، وكان معه أربعة من الأبناء هم حسن وعمر وأبو بكر وموسى، وكانوا جميعاً من قواد الدولة الأيوبية واستطاع عمر بن علي ابن رسول أن يحوز على ثقة الملك المسعود يوسف بن محمد الأيوبي وأن يتولّى الأمور، فلما غادر اليمن الملك المسعود، أقام عمر بن علي بن رسول الدولة الرسولية وتلقّب بالملك المنصور. وقد ذكرنا بعض مآثره.

وكانت هذه الامرأة معروفة باصطناع المعروف والإحسان إلى الفقراء. وقد أقامت هذه المدرسة في منطقة جبلة. وكان أمر التدريس فيها إلى الفقهاء بني الشهابي ثم تزعمها منهم القضاة بنو عمران، فلما وليَ بنو محمد بن عمر أعادوها إلى بني الشهابي وممن درّس فيها يحيى بن سالم الشهابي الكندي. سافر والده من بلد بني شهاب، عرب صنعاء وسكن ذي جبلة (مدينة الملكة الحرة السيدة أروى). وتفقه ابنه يحيى وكان له صحبة بالقاضي الرشيد. وتولى أمر هذه المدرسة. (وفاته سنة ٦٧٠ هت. وتولى التدريس بعده ابنه عبد الرحمن بن يحيى ابن سالم الشهابي وقد انتهت إليه رئاسة الفقه والفتوى بذي جبلة. ولما أنشأت السيدة الحرّة الدار النجمي المدرسة الشرقية كان أول مدرِّس فيها.

المدرسة النجمية في ذي جبلة

ما تزال ذي جبلة معروفة إلى اليوم بهذا الاسم، ولكن المدرسة خربت، ولم يبق منها إلا المسجد الملحق بها.

والدار النجمي هو لقب الأمير بنت الأمير علي بن رسول وأخت الملك المنصور عمر بن علي بن رسول. وأمها هي التي أنشأت المدرسة الغومانية. وقامت هذه المرأة بشراء دار واسعة لأبي الحسن علي بن محمد المعروف بابن المعلم وجلتها مدرسة باسم زوجها الأمير نجم الدين بن أبي بكر بن زكريا، أحد أمراء الأكراد القادمين إلى اليمن مع الأيوبيين. وكان زوجها أميراً شجاعاً مقداماً، كثير فعل الخير والمعروف. وقد بعثه الملك المنصور عمر بن علي بن رسول إلى حضرموت للاستيلاء عليها، فقتل هناك.

وقد بنت هذه المرأة الصالحة المدرسة والمسجد الملحق بها وجعلت لها الأوقاف الكثيرة.

المدرسة الشرقية

بنتها أيضاً الأميرة المعروفة بالدار نجمي ونسبتها لأخيها شرف الدين موسى بن علي بن رسول المتوفى بمصر. كما بنت هذه المرأة الصالحة **المدرسة الشهابية نسبة لأخيها شهاب الدين محمد بن علي بن رسول. وابتنى خادمها فاخر المدرسة الفاخرية بذي السفال، كما بنت وصيفتها (زات دارها) المدرسة الزاتية بذي جبلة. وابتنى بعض حاشيتها مدرسة البرحة** في قرية البرحة من عزلة النقيلين (والنقيل هو العقبة في الجيل).

إذن نحن مع أسرة تتنافس في بناء المدارس والمساجد والمبرات. وقد ذكرنا المدارس العديدة التي بناها الملك المنصور عمر أخوها. كما ذكرنا المدرسة الفوماتية التي بنتها أمها الحرة لؤلؤة، زوجة الأمير علي بن رسول.

وقد بنت الدار النجمي ثلاث مدارس: المدرسة النجمية والمدرسة الشرفية

والمدرسة الشهابية (الأولى منسوبة إلى زوجها، والثانية إلى أخيها شرف الدين موسى، والثالثة إلى أخيها شهاب الدين محمد). وكل هذه المدارس في ذي جبلة.

وبنت وصيفتها المدرسة الزاتية، وابتنى خادمها المدرسة الفاخرية، وابتنى بعض حاشيتها مدرسة البرحة.

وهذا موقف كريم، يبادر كل من اتصل بهذه الأسرة، ولو بالخدمة، أو الولاء، ببناء المدارس والمساجد والمبرّات، مما يدلُّ على كرم نفس، ورفعة خلق، ومتانة في الدين، ومحبّة للعلم، رحمهم الله بواسع رحمته ورفع درجتهم ومقامهم عنده.

مدرسة أم السلطان في تعز

وهي مدرسة أقامتها أم السلطان المظفر يوسف بن عمر بن علي بن رسول وزوجة الملك المنصور عمر بن علي بن رسول.

ودرس فيها رجل من أهل العلم عُرِف باسم المقدسي. وكان يتكلم في علم الكلام هو والفقيه محمد بن سالم العنسي المعروف بابن البابة. فسخط الفقهاء عليها وأرادا قتلهما فكتب الملك المظفر إلى هؤلاء الفقهاء قائلاً: «أظلمتم الضياء، وخبطتم في عشواء، فاقتصروا عن هذه الأهواء، واشتغلوا بالنصوص. فإنك يا بن آدم (يعني المتفقهة) وأمثالك ممن هو في تلك الجهة لم تحط علماً بما في كتابك. لو سُئل أحدكم عن مسألة على قولين، لم يكن في قدرته الجواب حتى يكشف ويطالع. وإذا كان بغيتكم ما أفنيتم فيه أعماركم، فكيف تخرجون إلى أهوية تقيمون لها أمثالاً بظاهر ألفاظكم، مما يستدل بها على أهويتكم، فاعتمدوا على الكتاب والسنّة، والصحيح من حديث الرسول ﷺ. واتركوا التمسك بالموضوعات عن النبي ﷺ، فلها علماء يوردون ويثورون، ولستم من ذلك النمط في شيء. فالحذر كل الحذر، ومن حذَّر فقد أنذر، فإن اقتصرتم (أي أوقفتم هذه المعركة) وإلا قصركم السيف عن طول اللسان، فإن قصدكم التلبيس على العوام بقيل وقال. والسلام».

وقد أمر الملك المظفر بن يوسف بن عمر بن رسول بقراءة هذا الخطاب على المنبر، فكفّ العلماء عن النيل من المقدسي وابن البابة. وهجروا المقدسي.

ويا له من خطاب يدل على علم غزير، وعقل منير، من ملك واسع العلم حازم حكيم.

وقد درّس في هذه المدرسة أيضاً عثمان بن محمد الهزاز اليحيوي وابنه محمد، ودرّس بها أبو حفص عمر بن سلمان وغيرهم كثير.

المدرسة السيفية الكبرى (مدرسة أم السلطان) في زبيد

(جنوبي مسجد الجبرتي)

أقامتها المرأة الصالحة أم السلطان المظفر يوسف بن عمر بن رسول. ودرّس بها عدد من العلماء منهم محمد بن عمر بن أبي بكر (وفاته سنة ٦٦٤هـ)، ومنهم **أبو الحسن علي بن سالم الأبْيني**(١). استدعاه الملك المؤيد داود بن يوسف ابن عمر بن رسول (أخو الملك الأشرف عمر بن يوسف وابن الملك المظفر وحفيد الملك المنصور) إلى زبيد ورتّبه مدرِّساً في المدرسة السيفية الكبرى. وممن تفقّه به الفقيه جمال الدين محمد بن عبد الله الرّيمي. امتحن بالقضاء في زبيد، فكان قويًّا في غير عنف، ولا تأخذه في الله لومة لائم، واستمر في القضاء حتى وفاته في شهر صفر سنة ٧٣٣هـ.

ودرّس فيها علي بن محمد الناشري (وجيه الدين). وآل الناشري اشتهروا بالفقه وتولّوا الفتيا والقضاء والتدريس في اليمن.. ومن مؤلفات علي بن محمد الناشري «غُنية ذوي التمييز فيما شذّ من الوسيط عن الوجيز» في الفقه. ودرّس

---

(١) هناك عدد كبير من العلماء ينتسبون إلى أبْين وإلى دثينة وإلى عدن، مما يدل على انتشار مدارس العلم في كل أصقاع اليمن، ومنهم أعداد من حضرموت ومن دوعن (بحضرموت) والشحر. ولا شك أن زبيد كانت مدينة العلم.. ولكن المدن الأخرى مثل تعز وصنعاء والجَنَد وعدن لم تكن تقل عنها كثيراً.

فيها ابنه القاضي أبو بكر بن علي الناشري. تولّى القضاء في حيس، ثم عزل نفسه، ثم انتقل إل تعز ودرّس في المدرسة الأفضلية والشمسية في تعز، وتولّى الإفتاء وتفقه به جمع كبير. وتولى أحوه عمر بن علي الناشري التدريس في السيفية إلى وفاته سنة ٧٥١هـ.

ودرّس بالسيفية من آل الناشري أيضاً أبو بكر بن أبي المعالي بن عبد الله الناشري واشتهر بالفقه والخطابة والخط الجميل. وكان وحيد وقته في الفرائض (علم المواريث) وفاته سنة ٨٢١ هـ. وترجم له ابن حجر العسقلاني والسخاوي والعفيف عثمان الناشري، وغيرهم.

المدرسة الشقيرية في مدينة الجَنَد

بنتها ماشطة الحرّة ابنة جوزة ابنة الأتابك سنقر، وهي زوج الملك المنصور عمر بن علي بن رسول. وكانت هذه الماشطة متزوجة بمملوك يسمى شقير، فبنت هذه المدرسة وسمتها المدرسة الشقيرية.

وما أعجب هذا؟! نجد ماشطة زوجة الملك تقوم ببناء المدارس والمساجد ورأينا قبل ذلك وصيفة الدار نجمي (أخت الملك المنصور عمر بن علي بن رسول) تبني مدرسة الزاتية في ذي جبلة، وابتنى خادمها فاخر المدرسة الفاخرية في ذي سفال. وكل من انتمى بخدمةٍ أو ولاءٍ لهؤلاء الأمراء أو الأميرات من بني رسول، نجدهم يتسابقون في عمل الخير، وبناء المدارس والمساجد والمبرّات، مما يدل على عمق التديّن في الأسرة الرسولية، حتى أنهم جعلوا مواليهم وخدمهم يتسابقون مثلهم في هذه الأعمال الخيرية.

وقد درّس بالمدرسة الشقيرية الفقيه العلامة إبراهيم بن عيسى بن مفلّت (وكان آخر من يُعدُّ فقيهاً من بني مفلّت). وحسده أقرانه وخافوا أن يسمع به الملك المظفر فيقرّبه فوشوا به عنده، ولكنه سمع من آخرين كلاماً حسناً عنه، فطلب من ابنه الأشرف أن يستدعيه ويقرأ عليه. ففعل فوجده فقيهاً كاملاً،

(وكان الأشرف من المشاركين في العلم كأبيه) وتوفى بالجَند سنة ٦٩٠هـ .

ودرّسَ بها الفقيه يوسف بن عمران الحرازي وأحمد بن ابراهيم المعروف بابن الصارم ومحمد بن يوسف الخولاني، وعلي بن سيرين الواسطي الذي نزل في المدرسة الشقيرية فمرض ومات بها سنة ٦٦٤هـ مبطوناً (أي مصاباً بالإسهال الشديد والغالب أنه الكوليرا).

المدرسة الأسدية في تعز

بنتها ابنة الأمير أسد الدين محمد بن الحسن بن علي بن رسول. وقد تزوجها ابن عم والدها الملك المظفر يوسف بن عمر بن علي بن رسول. وهي أم ولده الواثق وابنته ماء السماء. وكانت امرأة صالحة كثيرة الصدقة. وفاتها سنة ٧٠٤هـ. ودرس في مدرستها علي بن أحمد الجنيد وعثمان محمد الشرعبي وصالح بن أحمد الجنيد وعثمان بن محمد الشرعبي وصالح بن أحمد بن عمران الحميري، وعبد المجيد بن علي الناشري وغيرهم.

مدرسة النجمية في قرية المعين غرب جبلة

بنتها الحرّة حبيبة ابنة الأمير بدر الدين الحسن بن علي بن رسول، فيكون أبوها أخاً للملك المنصور عمر بن علي بن رسول. وتكون هي ابنة عم الملك المظفر يوسف بن عمر بن علي بن رسول.

مدرسة بني خضر

بنتها زهراء ابنة الأمير بدر الدين الحسن بن علي بن رسول، وهي أخت حبيبة المتقدم ذكرها وكانت من أعيان النساء عاقلة ولبيبة. وهي والدة محمد بن أحمد بن خضر الملقب بدر الدين وكان فارساً شجاعاً محباً للعلم وجمع مكتبة ضخمة. وفاته سنة ٧٠٧ هـ.

المدرسة الياقوتية ويقال لها المدرسة الافتخارية (في الدُّمْلُوة)

ابتناها الطواشي (وهو العبد المخصي لخدمة الأميرات) **افتخار الدين ياقوت بن عبد الله المظفري. كان خادماً للسلطان الملك المظفر، وتولى خدمة أخت المظفر المدعوة الدار شمسي**[1]. ودرّس بها الفقيه يوسف بن أحمد بن عطية الخياط. قرأ على جماعة من الفقهاء والمحدثين منهم محمد بن أحمد بن ظهيرة في مكة المكرمة والإمام نفيس الدين العلوي. وتولى القضاء في الدُّمْلُوة وانتهت إليه الرئاسة بالفتوى والتدريس في تلك الجهة وفاته سنة ٨٤٠ هـ.

المدرسة الشمسية في تعز

بنتها الدارشمسي أخت شقيقة للملك المظفر يوسف بن عمر بن علي بن رسول، وابنة الملك المنصور عمر بن علي بن رسول. كانت حازمة لبيبة، ساعدت أخاها المظفر للوصول للحكم. كانت في زبيد حين مقتل أبيها، فبذلت المال وحصنت المدينة حتى لا يهجم عليها المماليك. واحتالت على زوجة أبيها بنت جوزة وأخويها المفضل والفائز المنافسين لشقيقها في الملك حتى أخرجتهم من حصن الدُّملُوة.

وقد درَّس في هذه المدرسة أبو بكر بن آدم بن إبراهيم الجبرتي الزيلعي. كان من المحققين في الفقه وانتهت إليه رئاسة الفتوى في تعز، وتفقّه به جمع كثير وفاته سنة ٦٧٦ هـ.

وممّن درّسوا بها: أبو بكر بن جبريل بن أوسام العَدَلي (نسبة إلى مملكة العدل أو العدول التي قامت في الحبشة وأريتريا وشمال الصومال). ودرّس بها داود بن إبراهيم الجبرتي الزيلعي. فهؤلاء ثلاثة من العلماء الكبار أتوا من زيلع (شمال

(١) لا يظهر اسم المرأة في العهد الرسولي إلا نادراً، ولذا تلقب بألقاب كثيرة، أو تعرف باسم خادمها وعبدها الطواشي (العبد المخصي) الموكل بشؤونها.

الصومال حاليًّا) وأريتريا.. وكان داود بن إبراهيم زاهداً لا يحفل بأهل الدنيا ولا يقوم لهم وفاته سنة ٧٠٩هـ.

ودرّس بها الفقيه عبد الله بن محمد بن علي الحضرمي والقاضي أبو بكر بن علي بن محمد الناشري وأبو بكر بن محمد بن صالح الهمداني المعروف بابن الخياط. وقد درّس في العديد من المدارس منها الأشرفية والشمسية والمجاهدية.. وفاته سنة ٨١١هـ.

ودرّس بها القاضي أحمد بن موسى بن عمران الشافعي. تولى القضاء بعدن ثم تولاه في تعز. ثم تصدّر للتدريس والفتيا. وجُعل له النظر على المدرسة الشمسية والمدرسة السابقية والتدريس بهما.

ودرّس بها عمر بن محمد المكرَّم المذحجي وغيرهم كثير من أعلام الفقه والحديث والقراءات.

المدرسة الشمسية في زبيد

بنتها الأميرة الدارشمسي ابنة عمر بن علي بن رسول وشقيقة الملك المظفر يوسف بن عمر. ورتبت فيها إماماً ومدرساً ومؤذناً وأيتاماً يتعلمون القرآن وأوقفت عليها في وادي زبيد وقفاً جيداً.

فهذه ثلاث مدارس بنتها وأنفقت عليها الدارشمسي ابنة عمر بن علي بن رسول، وهي: المدرسة الشمسية في تعز، والمدرسة الشمسية في زبيد، والمدرسة الياقوتية في الدُّمْلُوة (بناها خادمها وخادم أخيها الملك المظفر). كما بنت العديد من المساجد ولها العديد من المبرات وأعمال الخير.

المدرسة السابقية (مدرسة مريم) في زبيد

بنتها الحُرَّة مريم بن الشيخ الشمس ابن العفيف. وزوجة السلطان المظفر يوسف بن عمر بن علي بن رسول. كانت عاقلة لبيبة حازمة. **ومن مآثرها: المدرسة الجديدة في مغربة (غرب) تعز، ومدرسة ذي عقيب في قرية ذي عقيب.**

وكانت وفاتها بمدينة جبلة سنة ٧١٣ هـ ،ودفنت في مدرستها في ذي عقيب.

مدرسة مِدْيّة في أعلى وادي ظُبا (ذي السفال)

بنتها عائشة بنت محمد بن علي بن رسول وهي زوج الملك المظفر يوسف ابن عمر بن علي بن رسول (ابن عمها) وهي أم ولده المؤيد. وقد أوقفت عليها أفضل أراضيها. ويقول القاضي إسماعيل في كتابه «المدارس الإسلامية في اليمن» أنها لا تزال عامرة، إلا أن سقفها الجميل قد أخذ يتساقط بسبب إهمال ولاة الوقف، وقد أُصلح بعضه بطريقة أفسدت جمال السقف. ويوجد على باب المدرسة حجرة في أصل البناء مزبور (مكتوب) عليها آية الكرسي. ومن تحتها اسم المدرسة وبانيها. ولكن الكتابة لم تعد واضحة.

المدرسة الأشرفية في زبيد

بنتها الأميرة نبيلة ابنة السلطان الملك المظفر يوسف بن عمر بن علي بن رسول وتُدعى (جهة دار الدملوه). وكانت امرأة صالحة تقية بارّة بأهلها، محسنة إلى من لاذ بها. وقد ابتنت مدرسة في ظفار الحبوظي (منطقة ظفار شرق حضرموت وتقع في سلطنة عمان الآن) ومدرسة في تعز، ومسجداً في جبل صبر. وأوقفت على كل هذه المشاريع الخيرية أوقافاً جمة.

وهكذا نجد بنات الملك وأخواته وزوجاته يتنافس في أعمال الخير وبناء المساجد والمدارس (وفي ذلك فليتنافس المتنافسون). فلِلَّه درّهُم من أسرة كريمة جديرة بالملك. ولولا ما يحدث بينهم من تنازع على الملك وقتال الأخ لأخيه أو ابن عمه لكانت الدولة الرسولية دولة مثالية يحتذى بها.

المدرسة الواثقية (النورية) في زبيد

بنتها الجهة الكريمة ماء السماء ابنة السلطان الملك المظفر بجوار منزل أخيها الواثق فنسبت المدرسة إليه. وكانت كثيرة الإحسان والشفقة على أهلها ومن يلوذ بها وعلى الفقراء والمساكين.

ولها من المآثر إعادة بناء مسجد تهدّم في قرية عكار من ضواحي جبلة. وبنت في حدبة تعز مسجداً. وكانت وفاتها سنة ٧٢٤هـ .

مدرسة ضراس (في قرية ضراس)

بنتها **الحرة ابنة محمد بن الحسن بن علي بن رسول**. وتوجد على باب المدرسة كتابة نصها: «بسم الله الرحمن الرحيم. أمرت بعمارة هذه المدرسة المباركة السعيدة والدة مولانا صلاح الدين ابن مولانا شرف الدين ابن مولانا محمد بن علي بن رسول. أجزل الله ثوابها، وجعل الجنة مآبها بمحمد وآله، بتاريخ الثاني عشر من شهر ربيع آخر سنة ٦٧٧هـ، وصلى الله على النبي وآله».

كما توجد كتابة على الجانب الأيمن تنصّ على اسم المشرف على بناء هذه المدرسة وأخرى تنص على اسم المعمار (المهندس) الذي قام بالبناء ونصّها: «عمارة سعد السَّياد عمر بن عبد الله النجار».

المدرسة الصلاحية (مدرسة أم السلطان) في زبيد

أنشأتها الآدر الكريمة جهة الطواش شهاب الدين صلاح بن عبد الله المؤيدي[1]. وهي والدة الملك المجاهد علي بن الملك المؤيد داود بن يوسف الرسولي. واسم هذه المرأة آمنة بنت الشيخ إسماعيل بن عبد الله الحلبي المعروف بالنقّاش. وتم البناء وبداية التدريس سنة ٧٣٠هـ، وجعلت فيها مدرسين للفقه الشافعي، والحديث النبوي، والنحو وعشرة أيتام يتعلمون القرآن، ورتبت فيها إماماً ومؤذناً وقيّماً. وأوقفت على ذلك خيار ما تملك. وابتنت قبالة هذه المدرسة **خانقاه**، ورتّبت فيها شيخاً ونقيباً وفقراء وأوقفت عليهم وقفاً جيداً.

وابتنت مدرسة في قرية المَسلب من وادي زبيد، ومدرسة في قرية السلامة، ومسجداً في قرية التُرَيْبه، ومسجداً في المُجلَّية في تعز.

---

(١) الطواشي هو عبد مخصي ليدخل على النساء. ويكون مختصًّا بإحداهن. وتعرف الأميرة باسم هذا الطواشي المسؤول عن أعمالها، فيقال جهة الطواشي فلان.

وكانت امرأة عاقلة، سديدة الرأي، حازمة، تحب العلماء والصلحاء تكرمهم وتجلّهم، وتقوم بالغرباء والمنقطعين. وكانت تدور على بيوت الفقراء تتفقّدهم بالعطايا الوافرة والصلات النافعة.

ولما غدر المماليك بابنها الملك المجاهد علي بن المؤيد داود واعتقلوه في حصن تعز، بذلت الأموال، واستخدمت الرجال، حتى أطلقوا سراحه وأعادته إلى ملكه. وقامت بأعمال المملكة حينما حج ابنها الملك المجاهد سنة ٧٥١هـ وأسره المصريون وأخذوه معهم، إلى مصر، فأدارت المملكة بحكمة وحزم حتى عاد ولدها في آخر ذي الحجة سنة ٧٥٢هـ . وكانت جدة ابنه العادل معه ويدعونها «جهة صلاح» على اسم الطواشي المنوط بخدمتها. فعادت بعد الحج وساهمت في ضبط أمور الدولة مع والدة المجاهد حتى عاد الملك المجاهد إلى بلده.

وهذا أمر عجيب حيث نرى دور المرأة الاجتماعي والديني والسياسي يتجلّى بوضوح في اليمن، بشكل غير مسبوق ولا ملحوق. فقد كانت الملكة الحرة السيدة أروى الصليحية ملكة لليمن الذي تولّت أمره ودبرت شؤونه في أثناء حياة زوجها المكرم أحمد بن علي الصليحي بعد أن أصيب بشلل رعاش (مرض باركنسون). ثم بعد وفاته إلى أن توفيت سنة ٥٣٢هـ، وكانت بذلك أول امرأة تحكم حكماً مباشراً في الإسلام، وكانت مدة حكمها خمسين سنة.

والملكة السيدة (أروى) بنت أحمد بن القاسم الصليحي من مواليد عدن، وقد انهدم المنزل وهي صغيرة ومات أبوها وأمها، فكلفها الملك والداعي علي ابن محمد الصليحي وزوجته أسماء بنت شهاب. وزوّجها الداعي علي بن محمد الصليحي على ابن المكرم أحمد بن علي الصليحي. وكانت أسماء بنت شهاب امرأة حازمة عاقلة، وشاركت زوجها في الحكم.

وها نحن نرى في الدولة الرسولية عدداً من النساء كان لهنّ دور بارز في السياسة.. ومنهن والدة الملك المجاهد علي بن الملك المؤيد داود بن يوسف

الرسولي. وكانت وفاة والدة المجاهد آمنة بنت إسماعيل الحلبي (النقاش) المعروفة باسم الآدر الكريمة جهة الطواشي شهاب الدين صلاح بن عبد الله المؤيدي في شهر ربيع الثانيب سنة ٧٦٢ في مدينة تعز تغمّدها الله بواسع رحمته.

وقد درّس في مدرسة الصلاحية عدد من العلماء الأجلاء منهم الفقيه المحدث المجتهد أبو اسحاق إبراهيم بن عمر بن علي العلوي. انتهت إليه الرئاسة في علم الحديث، وعنه أخذ كثير من فقهاء عصره. وكان متواضعاً على جلالة قدره، له قبول عظيم عند الخاص والعام مولده بزبيد سنة ٦٩٣هـ، ووفاته بها سنة ٧٥٢هـ . ودرّس بها بعده ابنه محمد بن إبراهيم العلوي. كما درّس بها أحمد بن أبي بكر بن علي الناشري (ناصر السنّة). ولي القضاء مراراً وأنكر على الصوفية كتابات ابن عربي وخاصة كتاب الفصوص. وفاته سنة ٨١٥هـ . وله مجموعة من الكتب منها الإفادة في مسألة الإرادة، وكتاب عن فساد عقيدة ابن عربي واختصار أحكام النساء لابن العطار.

ثم درّس بها ابنه محمد بن أحمد بن أبي بكر الناشري، وله شعر جيد، وأخذ طريق الزهد وابتعد عن مناصب الدولة، وفاته سنة ٨٧٣هـ .

وقامت والدة الملك المجاهد علي بن الملك المؤيد الرسولي المعروفة بالآدر الكريمة جهة الطواشي شهاب الدين صلاح بإنشاء المدارس التالية:

(١) المدرسة الصلاحية في زبيد.

(٢) المدرسة الصلاحية في قرية المسلب خارج زبيد وتعتبر من ضواحيها.

(٣) المدرسة الصلاحية في قرية السلامة في وادي نخلة (شرق مدينة حيس) وتدعى أحياناً مدرسة السلامة.

(٤) المدرسة الصلاحية في قرية التُربية وتدعى مدرسة التُربية.

هذا بالإضافة إلى الخانقاه قبالة المدرسة الصلاحية في زبيد، وبعض المساجد والمبرّات.

المدرسة الفاتنية في زبيد

بنتها جهة الطواشي كمال الدين فاتن بن عبد الله المؤيدي. وهي ماء السماء ابنة السلطان الملك المؤيد داود بن يوسف بن عمر بن علي بن رسول (٦٩٦ – ٧٢١هـ). وكانت امرأة عالية الهمّة، كريمة، وكان أخوها المجاهد يجلّها كثيراً.. وفاتها سنة ٧٦٨هـ . وحتى لا يحدث التباس فهناك عبد آخر من موالي الملك المعز إسماعيل بن طغتكين الأيوبي (القرن السادس الهجري)، ويدعى فاتن بن عبد الله الحبشي المُعزّي نسبة إلى المُعزّ إسماعيل بن طغتكين. وقد قام فاتن هذا ببناء مدرسة الفاتنية في حبلة وبنى في المسانيف مدرسة أخرى تعرف أيضاً بالفاتنية. وله عدة مساجد أحدها في ذي جبلة وآخر في المسانيف، وفيها قبره.

وها نحن نتعرف على اثنين من الموالي: أحدهما مولى للمعز إسماعيل بن طغتكين، والآخر مولى للملك المؤيد داود بن يوسف الرسولي. وكلاهما يُدعى فاتن وبينهما قرن ونصف من الزمان. وكلاهما قام ببناء المدارس والمساجد.

مدرسة النظاري (في بعدان من أعمال إب)

في قرية النظاري في بعدان بنتها امرأة من عامة الناس، لم يذكر القاضي إسماعيل بن علي الأكوع اسمها في كتابه «المدارس الإسلامية في اليمن».

وقد درّس فيها عدد من الفقهاء منهم أبو محمد الحسن بن علي.. ابن فضل وفاته سنة ٧١٨هـ . ومنهم المقرئ الأجل علي بن عمر بن منصور الأصبحي، وكان يغلب عليه علم القراءات، وفاته سنة ٧٩٠هـ . ثم درّس بها بعده محمد ابن أبي بكر الأصبحي وفاته ٨٣٠هـ .

مدرسة جوهر في تعز ومدرسة جوهر في زبيد

بناها جوهر عبد الله المجاهدي نسبة إلى الملك المجاهد علي بن الملك المؤيد ويعرف بالطواشي جوهر الرضواني.

وقد رتّب فيها إماماً ومؤذناً وقيّماً ومعلمين ودَرَسة (طلبة) وأيتاماً يتعلّمون القرآن وجعل فيها حماماً وأوقف عليها كتباً جليلة في مكتبة عامرة. وقد كتب الوقفية المعروفة بالغسانية تفاصيل البناء وتفاصيل الأوقاف وتفاصيل الموظفين ومهامهم. وتدريس الفقه الشافعي، وعلم الحديث، والتفسير، والفرائض (المواريث)، والنحو، واللغة، والرقائق، والوعظ.

وقد خدم الآدر الكريمة جهة الطواشي شهاب الدين صلاح المؤيدي والدة السلطان الملك المجاهد وجعلته زمام بابها، وأضافت إليه أمر دارها، فارتفع شأنه وعظم أمره.

وأرسله السلطان المجاهد سفيراً إلى مصر، ثم ندبه مرة أخرى سفيراً إليها، فغرقت به السفينة بعد إقلاعها من المخا، وذلك سنة ٧٥٥ هـ.

وله مآثر أخرى فقد بنى مدرسة في زبيد، وسبيلاً في ملتقى الطريقين بين باب شبارق وباب القُرتب من زبيد.

مدرسة سلامة (المدرسة المؤيدية) في تعز

بنتها «جهة الطواشي مرشد سلامة المجاهدي». ابنة الملك المجاهد علي بن الملك المؤيد داود بن يوسف الرسولي. وفاتها سنة ٨٠٤ هـ.

وقد جاء لهذه المدرسة تفصيل وصفي في الوقفية الغسانية ذكرها كاملة القاضي إسماعيل بن علي الأكوع في كتابه القيِّم: «المدارس الإسلامية في اليمن». وفي الوقفية تفصيل كامل للأراضي الموقوفة عليها. ثم تفصيل لمهام موظفيها، والعاملين فيها، ومدرِّسيها، وطلابها، والأيتام الذين يدرسون القرآن فيها.

وقد درّس فيها محمد بن عمر بن عبد الله العوادي ودرّس وأفتى. وولّاه الملك الناصر أحمد بن الأشرف قضاء تعز سالكاً طريق الحق، يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر. وأمر بهدم معابد اليهود المحدثة لليهود في مدينة تعز (وأبقى

على القديمة كما هو مقرر في الفقه الإسلامي). وكان يقضي حوائج بيته بنفسه، ثم طلب من السلطان أن يعفيه من القضاء فأعفاه ولزم الاعتكاف في المساجد للعبادة والتدريس والوعظ. وأضيفت إليه المدرسة الظاهرية الكبرى، ودرّس بمدرسة سلامة ابنة الملك المجاهد. وفاته في تعز سنة ٨١٦هـ ، وفي تاريخ البريهي سنة ٨١٠هـ .

المدرسة المعتبيَّة في تعز

بنتها الجهة الكريمة جهة الطواشي الأجلّ جمال الدين مُعتب بن عبد الله الأشرف، وهي زوجة الملك الأشرف إسماعيل ابن الملك الأفضل العباس ابن المجاهد علي بن المؤيد بن الأشرف الأكبر عمر بن يوسف الرسولي (٧٧٨ – ٨٠٣هـ). والطواشي مُعتب هو المسؤول عن زوجة السلطان الأشرف إسماعيل.

كانت «جهة مُعتب» امرأة كثيرة الخير، تفعل المعروف كثيراً على يد غيرها. وكانت تأمر بإصلاح الطرق والمدرجات والعقبات في الجبال، وتزيل ما يتضرّر به المارّون من شجر وغيره. تزوج بها السلطان إسماعيل (الأشرف) وأنجبت له عبد الرحمن الفائز وأحمد الناصر والعباس والأفضل وعلي المجاهد. وتوفيت بزبيد في شهر صفر سنة ٧٩٦هـ.

وجاء في الوقفية الغسانية، تفصيل لمبنى المدرسة ووظائف العاملين بها والطلبة وتفاصيل الوقف عليها. وواجبات كل مسؤول وموظف. وقد ذكر تفاصيل البناء والواجبات القاضي إسماعيل بن علي الأكوع في كتابه «المدارس الإسلامية في اليمن» (ص ٢١٠ – ٢١١).

وقد درّس بها عدد من العلماء، منهم: الإمام رضي الدين ابن الخياط، والفقيه حسن عبد الرحمن بن أحمد، انتهت إليه الرئاسة في الفتوى. ومنهم: شمس الدين علي بن الياس الحموي، قدم إلى اليمن سنة ٧٩٧هـ. وكان له الباع الأطول في العلوم كلها واشتهر بالأدب فأقامه السلطان في المدرسة المعتبية،

وتولّى الخطابة والوعظ في جامع المظفر في تعز.. ثم غادر اليمن. ودرّس بها علي ابن سعيد الزُّبيري المعافري، عالم محقق في النحو واللغة والأصول والفرائض (المواريث) وعلم المنطق والجبر والمقابلة. وأخذ عن علماء اليمن في زمنه، ثم علماء مكة والمدينة ومصر والشام. ثم عاد إلى اليمن سنة ٨٦٤هـ ، وأقام في المدرسة المُعتبيّة بتعز، ودرّس هذه العلوم المختلفة، ثم عاد إلى مكة المكرمة.

المدرسة الفرحانية في زبيد

بنتها زوجة ثانية للملك الأشرف إسماعيل بن الملك الأفضل العباس. ويقال لها الحُرَّة جهة الطواشي جمال الدين فرحان (لأن المسؤول عن شؤونها هو العبد المخصي الطواشي جمال الدين فرحان). وهي أم الملك الظاهر يحيى بن الملك الأشرف إسماعيل.

وقد بنتها بعد وفاة زوجها. وتوفيت في زبيد سنة ٨٣٦هـ. وقام ابنها الملك الظاهر ببناء مدرسة كبيرة على ضريحها أسماها (المدرسة الفرحانية) وسماها ابن الديبع في «قرة العيون في تاريخ اليمن الميمون» (التربة الفرحانية). ورتّب فيها إماماً وخطيباً ومدرِّسين وطلبة وأيتاماً، وعشرين قارئاً يقرؤون القرآن عند ضريحها. وجعل النظر في كل ذلك إلى شيخ الإسلام جمال الدين محمد بن أحمد الناشري. ولها مآثر كثيرة في مكة وزبيد وتعز ولحج.

المدرسة الفرحانية في تعز

بنتها الحُرَّة جهة الطواشي فرحان. وكانت هذه المدرسة ملحقة بجامع المظفر في تعز الذي كان يُعرف بجامع ذي عدينة. ودرس بها عدد من العلماء منهم عبد الرحمن بن محمد الحرازي الرعياني ومحمد بن أحمد بن أبي بكر الناشري، والقاضي عبد الرحمن بن محمد الجواتي وغيرهم كثير.

المدرسة الياقوتية في رباط البريهي من (ذي السفال)

هناك عبدان مخصيّان تولّيا أمور أميرات من البيت الرسولي. وكلاهما كان

يُدعى ياقوت. ولذا نسبت المدارس إليه. فأما (الأول) فهو الطواشي افتخار الدين ياقوت بن عبد الله المظفري. كان خادماً للملك المظفر يوسف بن عمر الرسولي (٦٤٧-٦٩٤هـ). وتولى خدمة أخت المظفر المعروفة باسم الدارشمسي. وقد سبق ذكرها وما قامت به من أعمال ومدارس ودورها السياسي.

وأما (الثاني) فهو الطواشي اختيار الدين ياقوت الذي كان مختصًّا بخدمة زوج الملك الظاهر يحيى بن الملك الأشرف إسماعيل الرسولي (٨٣١- ٨٤٢هـ). وبين الإثنين قرن ونصف من الزمان. ولهذا التزم التنبيه.

وقد بنت الحرَّة جهة الطواشي اختيار الدين ياقوت المدارس التالية:

(١) **المدرسة الياقوتية في رباط البريهي في ذي سفال:** وكان الساعي بعمارتها الفقيه جمال الدين محمد بن أبي السرور البريهي، الذي جعلته ناظراً على المدرسة وأوقافها إلى أن مات سنة ٨٤٣هـ.

وقد جاء وصف المدرسة والبناء والشروط والموظفين ومهامّهم، والأوقاف التي أرصدت لها في الوقفية الغسانية. وقد نقل وصل المدرسة القاضي إسماعيل بن علي الأكوع في كتابه القيم «المدارس الإسلامية في اليمن» (ص ٣٢٨ - ٣٢٩).

(٢) **المدرسة الياقوتية بزبيد:** ورتبت فيها إماماً ومدرساً ومقرئاً بالقراءات السبع وطلبة وأيتاماً. وأوقافاً ودرّس بها محمد بن إسماعيل.. بن مبارز وأبو القاسم بن أبي بكر الغساني الذي اختصر إحياء علوم الدين للغزالي.

(٣) **المدرسة الياقوتية في حيس:** وقد درّس فيها أبو بكر بن أحمد.. بن دعسين.. تولى القضاء في موزع ثم عزل نفسه لما عرف أن راتبه من المكوس (الضرائب وهي محرّمة في الإسلام). وقَبِلَ أن يكون مدرِّساً في حيس فتفقَّه به، جماعة إلى أن مرض، فنقل في آخر رمق من حياته إلى بلدته الخوخة فمات بها سنة ٨٤٢ هـ. ومن آثاره كتاب الدُّر النضيد في أنساب بني أسيد.

(٤) **المدرسة الياقوتية بعدن:** وهي مدرسة ألحقت بمسجد البصّال (الذهيبي) المشهور. وقد ترجمتُ للذهيبي (البصال) في معالم عدن(١). وفاة هذا العالم الناسك أبي عبد الله محمد بن أحمد الذهيبي في سنة ٧٤٨ هـ، أي قبل زمن الأميرة «جهة الطواشي اختيار الدين ياقوت زوجة الملك الظاهر (٨٣١ – ٨٤٢هـ)، أي بينهما قرن من الزمان. وقد اشتهر الشيخ الذهيبي بتقواه وصلاحه وعلمه. وصحب الشيخ عمر المعروف بابن الصفار وتفقّه على يد الفقيه عبد الرحمن من ذرية الشيخ سفيان المشهور وقرأ عليه كتاب التنبيه للإمام الشيرازي في الفقه الشافعي.

وللبصّال (الذهيبي) تلاميذ كثيرون أشهرهم الإمام عبد الله بن أسعد اليافعي. وللذهيبي شرح للتنبيه، وضعه لطلبته وانتفع به طلبة العلم.

وفي هذا المسجد أقام الإمام محمد بن أحمد باحميش عند قدومه من غيل باوزير (حضرموت) وذلك سنة ٨١٦هـ. وتولّى الباحميش بعد ذلك القضاء في عدن والتدريس في مسجد البصال وفي أول عهد الدولة الظاهرية صار قاضي القضاة.

وقد درّس العلامة الشيخ محمد بن أحمد باحميش في المدرسة الياقوتية. وذكر القاضي إسماعيل بن علي الأكوع في كتابه «المدارس الإسلامية في اليمن» أن الإمام جمال الدين محمد بن يحيى التهامي درّس بها.

وقد أُعيد بناء المسجد والمدرسة على يد مجموعة خيّرة على رأسهم الشيخ الفاضل أمين باوزير وسميت مدرسة الفاروق (في الدور العلوي للمسجد). وأما المسجد فقد تم تجديده مرات عدة.

---

(١) معالم عدن التاريخية والدينية وهو الجزء الأول من هذا الكتاب.

والمسجد معروف في عدن وكان الشارع يسمى «حافة البصال» ثم تحوّل إلى حافة البزازين (لوجود تجار البز فيه)، ثم حافة التنباك (لوجود تجار التبناك)، ثم عُرف باسم شارع الملك سليمان، بعد أن توطن اليهود هذه المنطقة. وبنت لهم حكومة عدن مدرستين إحداهما للبنين والأخرى للبنات في شارع البنوك الذي يطل على شارع الملك سليمان.

وقد عاشت هذه الأميرة زوجة الملك الظاهر الرسولي في القرن التاسع الهجري، وكانت حية سنة ٨٤٠هـ. ولم تعرف سنة وفاتها.

فجزى الله هذه الأميرة المعروفة باسم جهة الطواشي اختيار الدين ياقوت، التي بنت العديد من المدارس والمساجد والمبرّات، جزاها الله كل خير وبلَّ ثراها بواسع الرحمة وأدخلها فسيح جناته.

الدولة الطاهرية

(٨٥٨ - ٩٤٥هـ/ ١٤٥٤ - ١٥٣٨م)

بداية الدولة

بدأت الدولة الطاهرية مثلما بدأت الدولة الرسولية. وذلك بأن يتولى رجال منهم الحكم للدولة السابقة مستعينين بهم، فلما انقضت الدولة السابقة حلّت محلّها الدولة الجديدة. وكما كان الملك المسعود يوسف بن محمد بن أبي بكر الأيوبي آخر ملوك الدولة الأيوبية في اليمن، واعتمد على عمر بن علي بن رسول (مؤسس دولة بني رسول) عند عزمه على السفر إلى مصر بطريق مكة سنة ٦٢٥هـ ، فولّاه أمر اليمن يحكمها باسمه، كذلك كان في آخر أيام الدولة الرسولية نزاع بين الملك المظفر وابن عمه الملك المسعود (من آل رسول)، واستعان المظفر بالمشايخ من بني طاهر، فاستولوا على عدن ولحج، ثم ملكوا معظم تهامة وأجزاء من اليمن. ثم إن الملك المسعود، لما رأى تشعّث الأمور، تنازل عن الحكم للملك علي بن طاهر (الملك المجاهد) ولأخيه عامر بن طاهر (الملك المظفر). وابتدأت بذلك دولة الطاهريين، وذلك سنة ٨٥٨هـ .

نسب آل طاهر

وقد ذكر مؤرخ الدولة الطاهرية العلّامة عبد الرحمن بن علي الديبع الشيباني الزبيدي في كتابه «بغية المستفيد في أخبار زبيد» وفي كتابه «قرّة العيون بأخبار اليمن الميمون» أن بني طاهر بن معوضه يرجعون في نسبهم إلى عمر بن عبد العزيز القرشي الأموي، الذي يعتبر خامس الخلفاء الراشدين.. والناس

مؤتمنون على أنسابهم. وقد حاول القاضي محمد بن علي الأكوع الحوالي، محقّق كتاب قرّة العيون أن يشكك في هذا النسب، واتهم المحدّث العلامة الديبع بأنه يُداهن آل طاهر، ويُثبت لهم نسباً لأن عامر عبد الوهاب الطاهري أراد ذلك. وهذا افتئات على العلماء الأجلاء، وعلى آل طاهر. وذكر أنهم من أرومة يمنية ونبعة يعربية (والأكوع شديد التعصب إلى حدِّ الهوس بحمير واليمن) من قبيلة الذراحن الحميريين سكان (جُبَنْ).. فأول ما ظهروا كشخصيات مرموقة في أيام الملك الأشرف إسماعيل بن الأفضل، ثم في أيام الملك الناصر. وقد كانت لهم ولاية واسعة في بلادهم وما جاورها، ثم تصاهروا مع آل رسول، ثم حصل لهم الغُلب على الملك..

الملك المجاهد ٨٥٨ - ٨٨٣هـ

وقد دخل المجاهد علي بن طاهر بن معوضة عدن، ليلة الجمعة الثالث والعشرين من شهر رجب سنة ٨٥٨هـ متسوراً لجبالها، فلما أصبح دخلها أخوه الظافر عامر بن طاهر بجيشه. وكان المؤيد بن الظاهر الرسولي بها، فأحسنا إليه واشتريا ما معه من الخيل والسلاح والدور وأجريا عليه النفقة.

ثم لما خلع الملك المسعود الرسولي نفسه، راسل كبراء أهل زبيد المجاهد علي بن طاهر، وبذلوا له الطاعة. وكان آنذاك في عدن، قد استولى عليها وقبض حصونها. وخرج الحاكم المحلي في عدن زين الدين جياش بن سليمان الشبلي متفقاً مع المجاهد على أن يذهب إلى زبيد، فكاتب العبيد لأنهم المتحكمون في شؤونها بعد أن تنازل المسعود الرسولي الذي قرّر ترك الحكم والصراع حوله، وذهب إلى مكة المكرمة ليقيم فيها ويعبد الله تعالى. ولما وصلت كتب جياش بن سليمان السنبلي إلى العبيد في زبيد، اختلفوا. فمنهم من رضي بدخوله، ومنهم من كره ذلك، ولكن كبير العبيد يوسف بن الفلفل أدخله إليها. واستطاع جياش السنبلي أن يفرّق كلمتهم، ويزيدهم اختلافاً، كما استطاع أن يجتذب إلى

صفه عبيد السيد وعبيد الشمسي وأن يوافقوا على دخول المجاهد علي بن طاهر زبيد وأن يبايعوه ملكاً، وأخذ منهم العهود والمواثيق، وبذل لهم الأموال. ثم أرسل للملك المجاهد علي بن طاهر بمبايعة أهلها، ومنهم كبارها وقضاتها وعلمائها وعلى رأسهم شيخ الإسلام القاضي الطيب الناشري، وشيخ الشيوخ إسماعيل بن أبي بكر الجبرتي. وبايعه القرشيون، وكانوا يومئذ في غاية من الكثرة والنجدة واتفاق الكلمة[١]، وتم ذلك في شهر شوال سنة ٨٥٩هـ . وبايعه صاحب الحديدة الشيخ إبراهيم بن عمر الثالثي، ثم بايعه أهل تعز وموزع. وبقي بعض العبيد معارضين لبيعة المجاهد، فاستطاع جياش بن سليمان السنبلي أن يخضعهم بأن قتل رأس الفتنة فرج جيري فخضعوا. ودخل الملك المجاهد علي بن طاهر بن معوضة زبيد ثاني أيام التشريق (عيد الأضحى) من سنة ٨٥٩هـ بغير قتال، فاستبشر الناس بقدومه[٢].

فلما استقرّ الملك بزبيد أرسل على المعازبة (وهم قبيلة قوية تشتغل معظم الوقت بالنهب والسلب) أن يبايعوا ويكفوا عن نهب المسلمين، فأبوا. فخرج إليهم في شهر المحرّم سنة ٨٦٠هـ . وانتصر المجاهد بعد أن كاد يهزم من قبل المعازبة.

بنو طاهر في الشحر

وفي آخر شهر ربيع سنة ٨٦٠هـ تجهّز أبو دجانة محمد بن سعد بن فارس، صاحب الشحر، بمراكب عدة ليهاجم عدن ويستولي عليها، فلما وصل قرب البندر هاجت ريح شديدة **وغرقت مراكبه، وانكسر منها اثنان. ونبذه مركبه إلى ساحل المكسر (خور مكسر) فأخذه الظاهر أسيراً**[٣].

(١) ابن الديبع: قرّة العيون، ص ٤٩٥ – ٤٩٦.
(٢) المصدر السابق، ص ٤٩٧.
(٣) المصدر نفسه، ص ٤٩٩.

المعارك مستمرة

وفي سنة ٨٦٢هـ نزل الإمام الناصر بن محمد العلوي، صاحب صنعاء، قاصداً محاربة المشايخ بني طاهر، فتلقّاه الملك الظافر عامر بن طاهر، ثم حصل الصلح.

واستمرت المعارك الصغيرة بين القرشيين أنفسهم في زبيد وما حولها، فأصلح بينهم الملك المجاهد علي بن طاهر، وصادر جماعة منهم، وحبس جماعة أخرى، وذلك سنة ٨٦٣هـ . وفي ذي القعدة منها أرسل الأمير جياش السنبلي والياً على الشحر وحضرموت(١).

وفي سنة ٨٦٤هـ ضُربت السُكَّة باسم الملك المجاهد، بعد أن كان ذلك باسم الملك الظافر عامر بن طاهر. وكان الحكم مشتركاً بين هذين الأخوين من بني طاهر علي وعامر. وفيها قامت معركة بين قوات الإمام الناصر بن محمد العلوي صاحب صنعاء وبين الملك الظافر عامر بن طاهر، قُتِل فيها الشيخ محمد ابن طاهر أخو الظافر والمجاهد وكانت الغلبة لأهل صنعاء لكثرتهم(٢).

الاستيلاء على ذمار والشحر وصنعاء

وفي جمادى الأولى سنة ٨٦٥هـ استولى المجاهد على مدينة ذمار، وكانت بيد الإمام الناصر محمد العلوي.

وفي سنة ٨٦٦هـ توجه الملك الظافر عامر بن طاهر إلى الشحر في جيش جرار عن طريق البرّ، بعد أن أعاد حكامها من آل فارس حكمهم عليها، فاستولى عليها بعد حصار شديد، فخرج صاحبها منها(٣).

وفي شوال سنة ٨٦٦هـ ، استولى الظافر عامر بن طاهر على مدينة صنعاء،

---

(١) ابن الديبع: قرّة العيون، ص ٥٠٠.
(٢) المصدر السابق، ص ٥٠٠ – ٥٠١.
(٣) المصدر نفسه، ص ٥٠٢.

ودخلها عبد الوهاب بن داود بن طاهر والياً عليها من قِبَل عمّه. وبسقوط صنعاء في أيدي آل طاهر صارت اليمن بأكملها تقريباً تحت حكمهم.

إبطال بعض المكوس

وفي سنة ٨٦٨هـ ، أبطل المجاهد كثيراً من المكوس في عدن حتى تنتعش التجارة في عدن(١).

وفي سنة ٨٦٨هـ ، أيضاً، قدم أكابر علماء الشافعية شرف الدين السبكي والشيرازي إلى زبيد. وقرأ على الشيرازي جماعة في كتابه «منهاج الوصول» ثم حج وزار، وعاد إلى زبيد فصارت بينه وبين علماء زبيد وحشة فغادرها(٢).

وفي نفس السنة، أي ٨٦٨، في شهر شوال، قرّر الملك المجاهد أن يترك الملك ويذهب إلى مكة، فخرج سرًّا في الليل مع ثلاثة من عبيده، وركب البحر فوصل إلى قرب عرج (قريب من الحديدة)، فتوجّه إليه صاحب الحديدة وقاضيها وزاهدها الشيخ إدريس الجبرتي، فأقنعوه بالرجوع عن قراره، فرجع، حتى وصل إلى عدن فسرَّ الناس بذلك أيما سرور.

وفي أول سنة ٨٦٩ استعاد الإمام محمد بن ناصر بن محمد العلوي صنعاء، وكان أميرها من قِبَل بني طاهر، الوالي محمد بن عيسى البعداني، فغضب الملك الظافر عامر بن طاهر، وصالحه الإمام على مال يؤديه فرجع عن القتال(٣).

مقتل الملك الظافر في معركة صنعاء

وفي ذي القعدة من سنة ٨٦٩هـ ، اجتمع المجاهد والظافر بعدن، فجاءت كتب من صنعاء للظافر بأن يقدم عليهم ليستلم البلد، فخرج الظافر مبادراً بجيشه، فالتقى بجيش أميرها محمد بن عيسى شارب، واحتدمت المعركة وقتل

---

(١) ابن الديبع: قرّة العيون، ص ٥٠٣.

(٢) المصدر السابق، ص ٥٠٣.

(٣) المصدر نفسه، ص ٥٠٤.

فيها الملك الظافر. فلما وصل الخبر إلى زبيد وغيرها من مدن تهامة والمخاليف بدأت القلاقل، فأسرع المجاهد من عدن فأخضع المتمرِّدين[(١)]. وكان مقتل الملك الظافر عامر بن طاهر في بداية سنة ٨٧٠هـ/ ١٤٦٦م.

وفي سنة ٧٨٢هـ ، احترقت مدينة زبيد حريقاً عظيماً، فمنع المجاهد البناء بالخوص والعجور (قصب الذرة)[(٢)]. وقد حدثت حوادث مماثلة في عدن بسبب بناء بيوت الفقراء بالخوص، فمنعها حاكم عدن في وقته (سيأتي ذكرها).

وفي أول المحرم سنة ٨٧٥هـ ، وصل المنصور عبد الوهاب بن داود بن طاهر (ابن أخ الملك المجاهد) لغزو الزيديين، فدارت معارك شديدة انتصر فيها عبد الوهاب بن داود بصعوبة.

وفي ستة رجب سنة ٨٧٥هـ ، قلَّد الملك المجاهد علي بن طاهر أمور الرعية في زبيد لشخص يدعى الشرف الأحمر وفوَّضه في أمور الدولة هناك.

مرض المجاهد واستخلاف المنصور عبد الوهاب بن داود

وفي المحرم من سنة ٨٧٧هـ ، حصل على الملك المجاهد بزبيد مرض شديد، فاستخلف ابن أخيه المنصور عبد الوهاب بن داود، وقلدّه أمر الملك، ثم منّ الله عليه بالعافية. وقبض المجاهد على واليه على عدن عمر بن عبد العزيز بسبب زيادته في المكوس والضرائب. ثم أطلقه بمال[(٣)].

واستمرت المعارك الصغيرة دون توقف، فإذا هدأت في مكان ثارت في مكان آخر من أرض اليمن، والملك المجاهد علي بن طاهر ممسك بزمام الأمور. وأولاد أخويه وولاته وقادته يخضعون من أثار الفتنة، والدولة قوية ومتماسكة.

(١) ابن الديبع، قرّة العيون، ص ٥٠٦.

(٢) المصدر السابق، ص ٥٠٧.

(٣) المصدر نفسه، ص ٥١٠.

وفاة الملك المجاهد علي بن طاهر

وفي محرّم سنة ٨٨٣هـ ، طلع الملك المجاهد علي بن طاهر من عدن إلى بلدته جُبَن مريضاً. وكتب إلى الفقيه جمال الدين محمد بن حسين القماط إلى زبيد يستدعيه فوصل إليه، وولّاه قضاء عدن. **وتوفى الملك المجاهد في جُبَن في شهر ربيع الثاني سنة ٨٨٣هـ/ ١٤٧٨م فجهّزَه الشيخ عبد الملك بن داود بن طاهر (ابن أخِ المجاهد). وتولّى الملك بعده ابن أخيه الملك المنصور عبد الوهاب بن داود بن طاهر** الذي استخلفه المجاهد في مرضه في زبيد سنة ٨٧٧هـ .

ومن مآثره: مدرسة وجامع بمدينة جُبَن، ومدرسة بتعز، وجدَّد مسجد المدرسة بعدن، وعمّر صهريجاً بها. وغرس النخيل بجهات متعددة من اليمن وخاصة في تهامة. وأدخل زراعة قصب السكر والأرز في أماكن عديدة.

الملك المنصور عبد الوهاب بن داود طاهر (٨٨٣ -٨٩٤هـ)

خرج المنصور عبد الوهاب بن داود من جُبَن سرًّا ليلة وفاة عمه متوجهاً إلى عدن قبل أن يعلم أهلها بخبر وفاة المجاهد حتى لا يدّعي الملك مدّعٍ، فوصلها في ١٣ ربيع الأول وأخذ البيعة، ثم توجه إلى زبيد.

ونرى آل طاهر جميعاً يهتمون اهتماماً شديداً بعدن، وابتداء ملكهم كان منها. ولهذا يحرص كل واحد منهم على تثبيت ملكه فيها. فقد كانت عدن في أيامهم مصدراً هامًّا من مصادر الدخل حتى وصل دخل الضرائب فيها في عهدهم إلى خمسمائة ألف دينار، وأحياناً أكثر من ذلك.

والمدينة الثانية ذات الأهمية الكبرى كانت زبيد. وهي التي أسسها آل زياد، وكانت قبلهم مدينة صغيرة جدًّا لا أهمية لها، فصارت عاصمتهم وبقيت كذلك طوال القرون في الدول التي تبعتها (الصليحية والأحباش، والخوارج (آل مهدي)، والأيوبيين والرسوليين وأخيراً الطاهريين). وكانت تعز تنافس زبيد في

العهد الرسولي، وربما تفوقت عليها. وبقيت عدن فرضة اليمن وخزانتها حتى وصل دخلها للدولة إلى ألف ألف دينار، ثم تناقص بعد ذلك.

لهذا كلّه، قام المنصور عبد الوهاب بن داود بالذهاب إلى عدن أولاً وتثبيت ملكه فيها، وأخذ الخزانة (أي الأموال المتجمعة من الضرائب والعشور.. إلخ من الميناء)، فهو في أشد الحاجة لها لتثبيت ملكه. فذهب إلى تعزّ واستولى عليها، وكانت أم يوسف بن عامر تريد الملك لابنها يوسف الذي ذهب أيضاً إلى زبيد للاستيلاء عليها، فاستطاع الملك المنصور عبد الوهاب بن داود أن يثبت ملكه على تعز وزبيد، وعفا عن ابن عمه يوسف عامر، فأراد يوسف أن يتوجه إلى مكة، فلم يأذن له المنصور وخيّره في تولية أي بلد شاء، فرفض. فأذن له المنصور بالخروج. فتوجه إليها، وشحن سفينة بما يحتاجه من مال، فوصل مكة فأكرمه الشريف محمد بن بركات، ثم عاد إلى جيزان وتزوج ابنة أحمد بن الغيث واستقرَّ بها[(١)].

وفي عام ٨٨٤هـ، طلع إلى الجهات العليا من اليمن وثبَّت ملكه فيها، وتعاون الشيخ يوسف بن عامر مع ابن عمه في قتال الزيديين. ولكن المنصور تخوّف منه وجعله في قلعة تعز، ثم قلعة رداع. فبقي هناك حتى وفاته سنة ٨٩٨هـ[(٢)].

وفي سنة ٨٨٤هـ، وقع غلاء في عدن وتعز وصنعاء والشحر وحضرموت وزبيد وزيلع والهند، واستدام إلى سنة ٨٨٦هـ.

حريق المسجد النبوي

وفي سنة ٨٨٥هـ، احترق المسجد النبوي الشريف بسبب صاعقة، واحترق جميع الحرم والمكتبة وثلاثة عشر شخصاً بينهم المؤذن، وسلم القبر النبوي الشريف. فقام الملك الأشرف قايتباي (ملك مصر) بإرسال الأموال

(١) ابن الديبع: قرّة العيون، ص ٥١٧ – ٥١٨.
(٢) المصدر السابق، ص ٥١٨ – ٥١٩.

وجدّ في عمارته في وقت قصير[١].

سيل مكة

وفي آخر سنة ٨٨٦هـ في وقت الحج، دخل السيل الحرم المكي وبلغ إلى قفل باب الكعبة المشرّفة، وحمل المنبر ومات غرقاً نحو مائة نفس[٢].

وفي شوّال ٨٩١هـ، عمّر الملك المنصور عبد الوهاب داود مسجد الأشاعر في زبيد. وفيها، ثار عليه ابن عمه إبراهيم بن عامر (وهو أخو يوسف بن عامر)، فتم إخضاعه. وفي شهر المحرّم ٨٩٤هـ، توفى الملك المنصور في مدينتهم الأصلية جُبَن، وكان قد أوصى بالملك لابنه عامر.

قال الديبع[٣]: وكان الملك المنصور (عبد الوهاب بن داود) ذا رأي سديد، وجدٍّ سعيد، وبأس شديد.. وكان حليماً، كثير الصدقة، عظيم الشفقة على المساكين، محبًّا لأهل العلم والدين.

وقد نظَّم الزراعة والسقي في زبيد وغيرها، وتعفَّف عن أخذ أموال الأوقاف، وكان كثير من الملوك قبله لا يتعفّفون. ومن مآثره: مدرسته المنصورية بزبيد، وتجديد مسجد الأشاعر، ومدرسة بالمقرانة، ومدرسة بخبّان، وزيادات في عدة مساجد وعدة سُبل وسقايات وصهاريج، وسدود في بلاد كثيرة. وكانت مدة خلافته إحدى عشرة سنة وشهرين.

عامر بن عبد الوهاب (الملك الظافر) (٨٩٤ - ٩٢٣هـ)

تقلّد الحكم بعد وفاة والده واجتمعت عليه الأمة. وانتقل من جُبَن (بلدتهم) بعد ثلاثة أيام من دفن والده الملك المنصور عبد الوهاب بن داود، إلى المقرانة،

---

(١) ابن الديبع: قرّة العيون، ص ٥٢٠.
(٢) المصدر السابق، ص ٥٢١ – ٥٢٢.
(٣) المصدر نفسه، ص ٥٢٥ – ٥٢٦.

ومكث بها أياماً. ثم توجّه إلى تعز، فنقض أخواله البيعة ونكثوا العهد وأخذوا حُصن جُبن، وهم عبد الله بن عامر ومحمد بن عامر وعمر بن عامر، فبادر الملك الظافر عامر بن عبد الوهاب، فوقع القتال بين الفريقين واحتدمت المعارك.

ودام حصار جُبن خمسة وخمسين يوماً، ثم تمَّ الاتفاق وعادوا إلى البيعة. وتوجه الظافر إلى رداع للنظر في أمور تلك الجهة، فبلغه أن محمد بن عامر (خاله) نقض العهد مرّة ثانية، وذهب إلى تعز، فقاتلهم أهل تعز بعد أن حثّهم على ذلك الفقيه شمس الدين المقري فصدّوهم.

وفي تلك الفترة، أخرج حاكم عدن محمد بن عبد الملك الطاهري آل يافع من عدن، وذلك في رجب ٨٩٤هـ لِما رأى من ميلهم عن الظافر. ووقعت معارك بين الظافر وخاله محمد بن عامر فهزمه الظافر، ثم عفا عنهم الظافر. وحاول عبد الباقي بن محمد بن طاهر أن يهجم على عدن ومعه رجال من يافع، فانهزموا.

وحصلت عدة فتن انتصر فيها الظافر عامر بن عبد الوهاب بعد معارك دامية بينه وبين أخواله وبعض أقاربه، وأدّت هذه الحروب إلى انشغال الظافر، فأفسد الأعراب، وقطعوا الطرق بتهامة، فحاربهم حتى قضى على المفسدين. وكان صحبته في الوصول إلى زبيد العلامة شمس الدين المقري والفقيه جمال الدين النظاري.. وسار الملك الظافر عامر بن عبد الوهاب إلى عدن في شهر رمضان سنة ٨٩٥هـ.

وفي ذي القعدة سنة ٨٩٥هـ، قامت الحرب بين الشريف محمد بن علي الوشلي وعساكر الظافر في ذمار، فانهزم الوشلي. وعاد الظافر إلى زبيد في صفر ٨٩٦هـ، فدخلها وصحبته ابنا عميه محمد بن عبد الملك وداود بن محمد بن داود.

واستمرت المعارك هنا وهناك. ما تكاد تهدأ في منطقة حتى تبدأ في منطقة أخرى، ولكن الظافر استطاع أن يوطد ملكه. وسجل هذه المعارك بالتفصيل العلامة عبد الرحمن بن علي الديبع في كتابه «قرّة العيون بأخبار اليمن الميمون» (ص ٥٢٦ – ٥٧٨).

وقام الإمام أبو بكر عبد الله العيدروس في عدن بدعم الملك عامر بن عبد الوهاب بأشعاره ودعوته المستمرّة له. وقد ذكرنا ذلك في فصل «الإمام العيدروس ومسجده في عدن»[1]. وسننقل ها هنا أبياتاً من قصيدة واحدة فقط من قصائده التي دعم فيها الملك المظفر وبشّره بالنصر على من عارضه وحاربه، وخاصة خاله عبد الله بن عامر، يقول فيها:

قولوا لمن نقض العهودْ يكون غدرك عليك لا لكْ
لا بدّ تهزمك الجنودْ ولا يفي يا ذاك أمَلَكْ
فسوف توثّقك القيودْ وينقضي من بعد أجلكْ

فكان كما قال: هزمته الجنود، ووثّقَ بالقيود وانقضى أجله. لهذا كانت مكانة العيدروس عند عامر بن عبد الوهاب كبيرة. وكانت قصائد العيدروس تُتلى ويحفظها الناس لسهولتها، فكانت تقوم مقام الصحافة والتليفزيون اليوم في دعم الحاكم.

وكان دعم العيدروس لعامر بن عبد الوهاب لما يراه من مزاياه، فلما احتاج عامر للمال في آخر أيامه سطا على أموال الأوقاف، فأنكر العيدروس والعلماء عليه ذلك.

وقد أوضحنا العلاقة بين الإمام أبي بكر العيدروس (العدني) وبين عامر ابن عبد الوهاب فيما سبق (فصل الإمام العيدروس ومسجده في عدن) فلا حاجة لإعادته.

ومما يوضح اهتمام عامر بن عبد الوهاب بالعلم، اهتمامه بشراء الكتب العلمية الهامة عند ظهورها. فقد أرسل إلى مكة في شراء كتاب «المنثور» للزركشي (١٤ مجلداً) بتسعين دينار ذهباً وأوقفها للعلماء في زبيد. كذلك اشترى من مكة المكرمة كتاب «فتح الباري شرح صحيح البخاري» بمائة وخمسين ديناراً أشرفياً ذهباً. ثم حصل على نسخة أخرى فأوقفها بجامع زبيد.

(١) في الجزء الأول من هذا الكتاب.

ومن مآثر الملك الظافر عامر بن عبد الوهاب: عمارة الجامع الكبير في زبيد، وعمارة المدرسة الظافرية قبالة باب الدار الكبير بمدينة زبيد، وعمارة مدرسة الشيخ إسماعيل بن إبراهيم الجبرتي، وعمارة مشهد الشيخ الفقيه أبي بكر علي الحداد بظاهر مدينة زبيد. ومدرستان بتعز، وأجرى العين بها. والجامع الكبير بالمقرانة، ومسجد القبّة بها (أي بالمقرانة)، ومدرسة عظيمة برداع، وهي من أجمل وأوسع المدارس في اليمن. ومسجد بداخل عدن وآخر بالمباه خارج العقبة (باب عدن)، وصهريج عظيم في المباه في عدن (وهي منطقة خارج باب عدن وصفها بامخرمة بأنها قرية يرد إليها من يريد دخول عدن من جهة البر، ويخرج إليها من خرج من عدن من باب البر. وقال المحيرز إنها من أسفل باب عدن إلى البحر حيث تقع فرضة المعلا. وتضم مقبرة، ومستودعات التجارة الداخلية، وفروع وزارة النفط والمعادن والطاقة). وقد وصف هذا الصهريج بأنه لم يسبق إلى مثله. وبنى عدة صهاريج داخل عدن وخارجها، وصهريج بقرية عسيق (لا يعرف موقعها الآن. وهناك قرية عسيق شمال مدينة إب).

وقال ابن الديبع: «وما لا يحصى من المساجد والصهاريج والآثار والسدود والأماكن المحتاج إليها والمفاوز المنقطعة. وهو الذي أجرى التلاج من أماكن بعيدة. والتلاج سور يمتد من ساحل المكسر عبر البرزخ، وهو أحد الاستحكامات العسكرية للدفاع عن عدن، كما أن فيه مجرى للماء من خزان يوجد في جبل حديد، وهذا الخزان يفي بحاجات الحامية، بل يمدّ أجزاء من عدن بالماء. وقد أطلق على هذا الدرب اسم التلاج. والدرب العربي، والدرب التركي، ودرب الحريبي. وقد أفردنا فصلاً خاصًّا عن التلاج والدروب في الجزء الأول من هذا الكتاب، فليُراجع.

قال **العلامة المؤرخ عبد الرحمن بن الديبع في كتابه «قرّة العيون بأخبار اليمن الميمون»**: «ولم يكن في الملك الظافر خصلة تذم سوى تعرّضه للوقف ومعارضة

الفقهاء فيه (ومنهم الإمام العيدروس). وأظن أن ذلك هو السبب لزوال دولته وما في يديه. وأنا أنصح، والنصيحة من الدين، لكل من يتولى أمور المسلمين من الملوك والسلاطين وسائر المتصرِّفين أن لا يتعرّض للوقف وأهله، ولا يبيع عزّه بذلّه. فما سمعتُ بأحدٍ تعرّض له وللتكلم فيه من الملوك فمن دونه إلا تغيّرت أحواله، وتخيبت آماله، وتبلبل حاله، ووتر أهله وماله، فليحاذر الذين يخالفون عن أمره أن تصيبهم فتنة أو يصيبهم عذاب أليم».

وللحقّ نقول، إن عامر بن عبد الوهاب لم يتعرّض للوقف إلا عندما حطّم البرتغاليون التجارة، وذلك بجعل أساطيلهم في بحر العرب وخليج عدن إلى الهند، تقوم بأعمال القرصنة وتستولي على السفن المحمّلة بالبضائع، وتقتل من فيها من الرجال، وتستعبد النساء والأطفال. كما قام البرتغاليون - كما سيأتي- بالاستيلاء على كثير من المواني في ساحل الهند الغربي وفي عُمان ومضيق هرمز وجزيرة سقطرى. ورغم أن حملتهم على عدن والشحر باءت بالفشل، إلا أنهم استطاعوا أن يحطّموا التجارة فيهما.

فلما احتاج عامر بن عبد الوهاب في آخر حكمه للمال لمحاربة الشراكسة المماليك الذين استولوا على اليمن، ولمحاربة الأئمة من الزيود، وللقضاء على الثورات المتعددة، ولم يجد المال الذي كان يجده من دخل عدن، ومن مشاركته في التجارة، اضطر إلى الاستيلاء على أموال الأوقاف، فوقف له الفقهاء بالمرصاد، ومنهم صديقه الإمام العيدروس العدني، فأدّى ذلك كله إلى ضعف جيشه وهزيمته أمام الشراكسة الذين غزوا بلاده واستخدموا الأسلحة النارية التي لم يكن لليمن بها عهد، فقضوا عليه.

ووصل المصريون (الشراكسة) إلى كمران في آخر سنة ٩٢١هـ ثم دخلوا الحديدة بعد أن فرّ منها أهلها فأخربوها. وبدأت المعارك بين آل طاهر والشراكسة. وقتل الشيخ عبد الوهاب من آل طاهر. واستولى المصريون على

مدينة زبيد سنة ٩٢٢هـ ، وفشلت محاولتهم في الاستيلاء على عدن. واتجه السلطان عامر بن عبد الوهاب لمحاربتهم، فجرت المفاوضات على الصلح، ولكن خواص السلطان عامر أوقعوا في خاطره أن تلك مكيدة، فأبى الصلح. فتأكد لدى المصريين من أن عامر بن عبد الوهاب يراسل البرتغاليين ويمالئهم، كما أوهمهم بذلك الإمام يحيى شرف الدين. فاشتدّت الحرب بينهم وبين السلطان والعساكر المصريون يتقدمون بسبب استخدامهم البنادق والأسلحة النارية التي لم تكن اليمن تعرفها. وقُتل الشيخ عبد الملك بن عبد الوهاب (أخو السلطان الظافر عامر بن عبد الوهاب) في ٢٤ ربيع الآخر ٩٢٣هـ . ثم قُتل السلطان الظافر عمر بن عبد الوهاب بعد أن تشتَّت جنده، ولحقت به الهزيمة، وأُسر ابنه أبو بكر بن عامر وابن أخيه عامر بن عبد الملك. فاستسلمت صنعاء، وكان عليها الأمير علي البعداني، ودخلها المصريون. ثم قام المصريون بقتل الأمير وقتل خمسمائة من رجالات صنعاء، وبذلك انتهت دولة عامر بن عبدالوهاب. وكانت مدة حكمه ثمان وعشرين سنة، أمضى الكثير منها في حروب ومعارك. ومع ذلك قام بأعمال جليلة مثل بناء المساجد والمدارس والصهاريج والسُّبل، وأقام العدل إلى حدٍّ كبير، وتعفّف عن أموال الأوقاف إلا في آخر حكمه لاحتياجه المال، وخفّف على الرعيّة بعض الضرائب والمكوس. وكان يحبُّ العلماء ويوقِّرهم، ويحضر مجالس العلم، ويشتري الكتب الهامة بأغلى الأثمان ويوقفها على العلماء وطلبة العلم.

وقد قيلت في رثاء السلطان عامر بن عبد الوهاب قصائد كثيرة، منها قصيدة للعلامة المؤرخ المحدث عبد الرحمن بن علي الديبع، جاء فيها:

أخلّايَ ضاعَ الدينُ من بعدِ عامِرِ ... وبعدَ أخيهِ أعـدلَ النـاسِ بالنـاسِ
فمُـذْ فُقِـدا واللَّــهِ إنّنـا ... من الصّبْرِ والسّلوانِ في غايةِ الياسِ

وفي قصيدة أخرى يقول:

تهدّم من ركنِ الصّلاحِ مشيدهُ   وقُـوِّض مـن بينانـه كـل عـامرِ
فما من صلاحٍ فيهِ بعدَ صلاحِهِ   ولا عامِرٍ واللّـهِ مـن بعـدِ عـامرِ

وهكذا قضى الجراكسة بقيادة برسباي الذي ولّاه حسين الكردي القيادة قبل عودته إلى جدة ومصر، على الملك الظافر عامر بن عبد الوهاب، وذلك بتأييد كامل من الإمام يحيى شرف الدين. ولكن الأمور لم تستقر، بل قام الجراكسة بعد ذلك بغزو أراضي الإمام يحيى. وعندما انهزم قانصوه الغوري أمام قوات السلطان سليم العثماني، تحوّل الجيش المصري من الجراكسة إلى الولاء للدولة العثمانية فوراً، وبذلك بدأت سيطرة الدولة العثمانية على اليمن.

مآثر عامر عبد الوهاب العمرانية[١]

أهم المآثر العمرانية للملك **عامر بن عبد الوهاب الطاهري** بعدن، تلك **القناة المبنية من الحجارة والجص، التي كانت تمتد نحواً من سبعة أميال، من قرية (المباءة)، تحت جبال عدن من جهة البر، إلى بئر (المحيط). والتي بقيت آثارها إلى ما بعد احتلال الإنجليز لعدن في سنة ١٨٣٩م[٢]. و(المحيط) أو (الحَيْط)، هو البستان بلهجة أهل (لحج). وتلفظ (ال) (ام) بلهجة قبائل الصَّبَيْحَة غربي (لحج). وموقع هذا البئر - كما حدده لي أحد المسنين من أهل المنطقة القريبة منها- إلى الشمال من مدينة (دار سعد) بميلة إلى المغرب.**

وكان الماء يجري في هذه القناة من آبار هذا البستان إلى خزان كبير بناه الملك عامر في (المباءة). وبهذا المشروع الضخم حلّ الملك عامر مشكلة الماء العذب، بعدن. وقد بقيت أجزاء من هذا الخزان إلى ما قبل استيلاء الإنجليز على عدن بسنوات قليلة، **وكان يسمى (بيت الماء)**، ويستظل بظلّه أصحاب القوافل

(١) نقلاً عن حسن صالح شهاب: عدن فرضة اليمن ط٢، ص ١٧٧- ١٨٠.
(٢) Hunter: *An Account of the British Settlement*, p.13.

الخارجة من عدن والقادمة إليها[(١)]. **قال الديبع: ومن مآثره «مسجد بداخل مدينة عدن، وآخر (بالمباءة) بظاهر باب البر منها، وصهريج عظيم بها [أي بالمباءة]»[(٢)]. «وهو الذي أجرى الثلاج إلى مدينة عدن من أماكن بعيدة، وأنفق في ذلك أموالاً عديدة»[(٣)]. ويقول الديبع، في موضع آخر، إن السفن المصرية التي ضربت عدن بالمدافع نزل منها جماعة من عسكر المماليك إلى ساحل أَبْيَن «تحت حصن الخضراء، ونزل جماعة من أصحابه [يعني الأمير سليمان] ليستقوا من الثلاج فقتل منهم جماعة»[(٤)]. فالثلاج يعني به الديبع قناة الماء الذي أجراه الملك عامر من أماكن بعيدة إلى ظاهر (باب البر)، على ساحل أَبْين.**

دار البندر

يقول أبو مخرمة: «لم يكن بالبندر [المرسى] دار تعرف في قديم الزمان، وإنما كان من فوق البندر فضاء يجلس الناس عليه، عند سفر المراكب ومجيئها،

(١) نوريس وينهي: صهاريج عدن، ص ٣٣، ترجمة أحمد إبراهيم جعفر (عدن ٩٥٥)، وقد ورد في هذه الدراسة أن الكابتن (بلايفير) ذكر في تقريره عن صهاريج عدن أن البعثة الفرنسية، التي زارت عدن في عام ١٧٠٨م بقيادة (دي ميرفيل)، وجدت صهريج (بيت الماء) والقناة يستعملان من قبل أهالي عدن. وذكر السيد (سالت) Salt، الذي زار عدن في سنة ١٨٠٩م، أن ما تبقى من (بيت الماء) كان يستظل به من قبل المسافرين من وإلى عدن. لكن المهندسين البريطانيين دمروا كل الآثار عند بناء المعسكرات في البرزخ إلى الجنوب من جبل (حديد). وقد وصف الكابتن (هينس) القناة كالآتي:

الطول: (١٦.٣٢٠) ياردة. العمق: (١٩) بوصة.

العرض: (١٦) بوصة. وهي مبنية بالطوب الأحمر والحجارة.

(٢) ابن الديبع: الفضل المزيد، ص ٣٧٢.

(٣) المصدر السابق.

(٤) المصدر نفسه، ص ٣٦٥.

يتفرجون على دخولها البندر وخروجها منه. فاتفق أن الشيخ عبد الوهاب بن داود [والد الملك عامر بن عبد الوهاب] طلع إلى البندر، في آخر الموسم، ينظر صراية [إقلاع] المراكب، فرأى تلك السرجة والفضاء، فأمر أن تبنى دار بها للتنزه، فبنيت دار ذات طبقتين»[(١)]،

ويقول في موضع آخر: «**كان بأعلى البندر، خلف مرسى المراكب من جهة البحر، شصنة مبنية بناءً محكماً، بناها الأولون لمصلحة البندر،** وذلك أن الموج يقوى في أيام الأزيب [ريح شرقية]، فإذا جاءت الموجة العظيمة انكسرت حدّتها على هذا البناء، فلا تصل إلى البندر ومحل المراكب إلّا وقد فاشت وهانت. فكان البندر بسببها فيه سنح للمراكب. فلما أرادوا بناء دار البندر، التي تقدم ذكرها في فصل الدور، ظنوا أن هذه الشصنة عبثاً لا حاجة إليها، واستقربوا تناول الحجارة منها، فقلعوا حجارتها وبنوا بها الدار المذكورة، فحصل الخلل في البندر، فكانت الموجة تأتي من جهة البحر فلا يردّها شيء إلى أن تصل إلى المراكب، فتغيرت جملة مستكثرة من الخشب [المراكب]. فلما رأوا تكرر ذلك ولم يعهدوه، عرفوا أن الخلل جاء من تغيير الشصنة. فردموا مكانها حجارة ورموا فيها تراب الفوّه وغيره حتى تجبّل، وصار البندر سنحاً للمراكب[(٢)].

ويفهم من خبر الشَّصْنَة أن دار البندر لم تكن على الساحل خلف السور البحري، وإنما كانت بلحف جبل (صِيرة) من جهة الشمال، حيث توجد الآن بعض المنازل، وبجوارها ذراع من الحجارة يمتد داخل البحر نحو الشمال تتكسّر عليه الأمواج القادمة من عرض البحر. وكان مرسى المراكب - كما قال ابن المجاور - بلحف جبل (صيرة)[(٣)]. ولو كانت هذه الدار على ساحل البحر

(١) أبو مخرمة، ثغر عدن، ق١، ص ١٠ - ١٣.
(٢) المصدر السابق، ق١، ص ١٥ - ١٦.
(٣) ابن المجاور: المستبصر، ص ١٤٤.

خلف السور لظهرت في ذلك الرسم الذي رسمه أحد البرتغاليين، الذين رافقوا حملة (البوكيرك) إلى عدن سنة ٩١٩هـ (١٥١٣م)، المنشور في كتاب (ملوك بلاد العرب) ليعقوب، تعريب أحمد المضواحي.

ويقول أبو مخرمة أيضاً، إن دار البندر بقيت «إلى أن وصل الفرنج - خذلهم الله - إلى عدن في أوائل سنة تسع عشرة وتسع مئة، فاستولوا على الدار ونصبوا عليها المدافع، وكانوا يرمون منها إلى البلد، فحصل بذلك بعض الضرر على البلد فهدمت، وبني عوضها الحصن الذي في ثنايا جبل صيرة، حصناً محكماً، فحكم على البندر»[١].

بنو طاهر التجار

في وصف (دار صلاح)، المتقدّم ذكرها، يقول أبو مخرمة إن بني طاهر لما «تعلقوا بالتجارة جعلوها متجراً». وقال في كتابه (قلادة النحر) إن تجار عدن كانوا يخشون أن يستحوذ بنو طاهر على التجارة ويحوّلوا عدن إلى «زريبة [حضيرة أو حوش] للفوَّه، لأنهم نشأوا على التكسّب والتجارة، وعرفوا ما فيها من المصالح، فلن يتركوا ذلك. والسلطان إذا تعلق بالمتجر أبطل متجر التجار، وتعطل عليهم الكسب»[٢].

ومن أجل إنعاش الحركة التجارية بعدن، أبطل بنو طاهر المكوس عن بعض السلع[٣]. **وكانوا يشرفون على تجهيز المراكب وخروجها من البندر إلى الهند. بل إن الملك عامر بن عبد الوهاب كان يمتلك أسطولاً من السفن التجارية، دمّره البرتغاليون في سنة ٩١٥هـ ، ولم يسلم منه «إلّا مركب واحد وطليعتان»**[٤]. **وكانوا يعاقبون من يرتكب ظلماً أو فعلاً يتضرر منه التجار،**

---

(١) أبو مخرمة، ثغر عدن، ق١، ص ١٦.

(٢) عبد العال، بنو رسول وبنو طاهر. عن (قلادة النحر) لأبي مخرمة، ج٣، ص ١١١١.

(٣) ابن الديبع: بغية المستفيد، ص ١٣١.

(٤) ابن الديبع: الفضل المزيد، ص ٣١٨.

فالملك المجاهد أنكر على الأمير عمر بن عبد العزيز أموراً أحدثها وأفعالاً ارتكبها في عدن «ووبخه توبيخاً عظيماً وحاسب الكتّاب في عدن. ثم قيّد عمر ابن عبد العزيز وخرج به صحبته»[(١)].

فكان من الطبيعي أن تؤدي هذه السياسة إلى عودة ازدهار النشاط التجاري بعدن، وإقبال تجار البحر عليها من جديد. فارتفعت عائداتها الجمركية في سنة ٨٨٣هـ ، أول سنة من عهد الملك المنصور عبد الوهاب بن داود، إلى أزيد من خمسة لكوك من الذهب، ومبلغ جزيل من نقد البلد الفضة[(٢)].

العمران في عدن في عهد الطاهريين[(٣)]

لقد توسّع العمران في عدن بصورة متتالية منذ أيام الزريعيين، ثم ابن الزنجيلي الأيوبي، ثم الرسوليين، ولكنه بلغ مداه في عهد الطاهريين حيث وصل سكان عدن إلى أكثر من ستين ألف شخص (وهو عدد كبير في ذلك الزمان).

وصف ابن المجاور، بعض أحياء أو حافات مدينة عدن، وأسواقها، وجنسيات سكانها، في الربع الأول من القرن السابع الهجري. ويلاحظ القارئ أن ابن المجاور لم يذكر اليهود ضمن سكان عدن، وكذلك الهنود. لكن هذا لا ينفي وجود جماعات صغيرة منهم غير لافتة لنظر الغريب، يشمله قوله: «وقد التأم إليها [يعني عدن] من كل بقعة أرض». فلو كان لليهود أو الهنود، جالية كبيرة بعدن تلك الفترة لما أغفل ذكرها.

ومن المؤسف أن مصادر تاريخ الدولة الرسولية لم تذكر شيئاً عن مدينة

(١) ابن الديبع: بغية المستفيد، ص ٣١٨.
(٢) المصدر السابق، ص ١٤٢.
(٣) نقلاً عن كتاب «عدن فرضة اليمن» للسيد حسن صالح شهاب، مع إضافات يسيرة.

عدن، من حيث العمران والسكان في عهد هذه الدولة. أما عهد بني طاهر فنجد في مصادره أسماء أحياء وأماكن في عدن لم تذكر من قبل، مثل (حافة اليهود) و(حافة البانيان). وتمدنا أخبار الحريق الذي يتكرر حدوثه بسبب مساكن الخوص، التي تشكل غالبية مساكن عدن، بكثير من أسماء الأماكن، وعدد ما احترق من البيوت.

وقد ذكر الخزرجي، مؤرخ الدولة الرسولية، حريقاً هائلاً شب في عدن سنة ٧٨٨هـ، لكنه لم يذكر شيئاً عن الحافات والبيوت التي احترقت. وإنما قال: إن الحريق «أتلف من المدينة شيئاً كثيراً من البيوت»[١]. ويصف الديبع حريقاً حدث في شهر صفر سنة ٩٠٨هـ «واستمر من نصف الليل إلى قريب الفجر، وتلفت فيه بيوت كثيرة من بيوت التجار: كأبي الليل، وأحمد بن عبد السلام، وأحمد الدملُوِي، والحوائجي، وإسماعيل بن عبد الأول النشاري، وجانباً من السوق الكبير إلى بيت أبي شكيل، وجانباً من حافة اليهود، وحافة الحبوش [الأحباش] بأسرها. وأحدقت النار بالمدرسة السفيانية، وتلفت فيها أموال جليلة. ويقال إن عدد البيوت المحترقة تسع مئة بيت»[٢].

وفي المحرم من سنة ٩١٤هـ، أي بعد حوالى خمس سنوات من الحريق الذي قبله، احترق من مدينة عدن جزء كبير: «من المدرسة السفيانية إلى حافة اليهود، وما هنالك، واحترق فيها من الآدميين عشرون نفساً، وتلفت من الأموال والبيوت ما لا يحصى»[٣].

ونلاحظ أن الحريق في المرة الأولى والثانية قد حدث في منطقة واحدة، تقع بين المدرسة السفيانية وحافة اليهود. وأن مساكن الأحباش، وهي – كما ذكرنا –

(١) الخزرجي: العقود، ج٢، ص ١٨٦.
(٢) ابن الديبع: الفضل المزيد على بغية المستفيد، ص ٢٧٣ – ٢٧٤ (تحقيق شلحد).
(٣) المصدر السابق.

من الخوص كانت بهذه المنطقة، وهي متصلة بالسوق الكبير، وحافة اليهود. أما المدرسة السفيانية فلم يحترق منها شيء، لا في الحريق الأول ولا في الثاني، فلعلها كانت غير متصلة ببيوت هذه المنطقة.

وفي ترجمة علي بن علي بن بديع يقول أبو مخرمة: «مسطور كتبه لبنته عائشة ملّكها داراً صغيرة بحافة البانيان»[١]. و(البانيان) اسم يطلق في اليمن على طائفة الهندوس المحرمة لأكل اللحوم.

ولا تحدد المصادر موقع بيوت الخوص من المدينة، فابن المجاور يقول: «إن البرابر سكنوا بالموضع، الذي هو الآن عامر بالصرائف، وهم أول من بنى الصرائف بعدن»[٢]. والبرابر أو البربر، والأحباش، والدناكل، كانوا من سكان عدن الفقراء. **والصرائف أكواخ من الخوص والقصب** تقام على قوائم مثل قوائم الأسرّة. وكانت كما يفهم من كلام ابن المجاور بموضع خاص بها من أرض عدن.

الجراكسة (مماليك مصر) يغزون اليمن وعدن

جاء في كتاب أحمد شرف الدين (اليمن عبر التاريخ)[٣]: أن السلطان الغوري، أحد ملوك الجراكسة، أرسل عدة **كتائب من الجند المصريين الذين يطلق عليهم المؤرخون في اليمن اسم الغزّ[٤]، لمحاربة البرتغاليين الذين بدأوا بغزو البحر الأحمر (بحر القلزم) وبحر العرب، وسواحل الهند الغربية، وخليج هرمز وعُمان وسقطرى، وبدأوا يعيثون في الأرض فساداً. ولهم أهداف عدة وهي:**

---

(١) أبو مخرمة: ثغر عدن، ق٢، ص ١١٥.

(٢) ابن المجاور: المستبصر، ص ١١٧.

(٣) أحمد شرف الدين: اليمن عبر التاريخ، ط٥، ١٤١٠هـ/ ١٩٩٠م الناشر: المؤلف.

(٤) الغزّ في الأصل هم الأتراك الشرقيون. ومنهم كانت الجيوش منذ أيام المعتصم العباسي.

(١) محاربة الإسلام والمسلمين وغزو مكة والمدينة.

(٢) القضاء على الإسلام.

(٣) القضاء على تجارة المسلمين التي كانت تمتد من الصين والهند إلى اليمن وعدن بالذات، ومنها إلى مصر، ومن مصر إلى أوربا عبر البندقية وجنوا. وبعد أن نجح فاسكو دي جاما في الوصول إلى الهند عبر رأس الرجاء الصالح بدأت تظهر دولة البرتغال البحرية الكبرى التي سيطرت لفترة على الطريق إلى الهند، واحتكرت تجارة التوابل التي كانت تباع في أوربا عبر البندقية بأثمان غالية فنافستها، واستطاعت أن تبيعها بأسعار أرخص بكثير. وعاونتها في ذلك إنجلترا واشتركت معها في التجارة، ثم حلّت محلها كقوة بحريّة هي وهولندة بعد ذلك.

وأدّى ذلك إلى إضعاف الدولة المملوكية في مصر التي رأت هذه المخاطر محدقة بها من جميع الجهات، فأرسلت أساطيلها إلى جدة لحماية الحرمين الشريفين، وحماية التجارة، وأرسلت أيضاً أسطولاً إلى اليمن، ومنه إلى الهند لمحاربة البرتغال. وسيأتي وصف ذلك في حينه.

لهذا أرسل السلطان قانصوه الغوري الأمير حسين الكردي إلى اليمن، الذي توقّع تعاون حكام اليمن معه لمحاربة الكفرة. فوصلت الحملة بقيادة الأمير حسين الكردي إلى جدة. وخرجت مجموعة منهم في (برشتين) وثلاثة (غربان)[1]. ومعهم عدة عظيمة وبارود. ووصلوا إلى عدن في شهر محرم سنة ٩١٣هـ/ ١٥٠٨م - كما يقول ابن الديبع في الفضل المزيد[2]-، ووصلت الدفعة الثانية في شهر ربيع الآخر وفيها الأمير حسين الكردي.

ووصل الأمير حسين الكردي إلى عدن فاستأذن من حاكمها مرجان الظافري أن يدخل إلى بندر حقات والتزوّد بالماء والحطب وغيره، فأذن له

(١) البرشت والغراب: أنواع من السفن في ذلك الزمن.

(٢) ابن الديبع: الفضل المزيد، ص ٣٠٥.

الظافري بذلك، وزوّده بما يحتاج. ثم توجّه إلى بندر (الديو) في الهند لمقاتلة البرتغاليين الكفرة الذين ظهروا في البحر وقطعوا طريق المسلمين[١].

ويؤكّد هذا، الطيب البافقيه (الشحري) في تاريخه، حيث يقول: **وفيها (أي سنة ٩١٣هـ) وصل إلى الشحر حسين بك الكردي**، أمير صاحب مصر قانصوه الغوري، من جدة في ثلاثة أغربة وثلاث برشى، قاصداً الهند، وتوجه بجيشه نحو الديو لقتال الإفرنج[٢].

وهذه السفن مرَّت أولاً بعدن، ثم مرَّت بالشحر في طريقها إلى الهند لمحاربة البرتغال. ووصلت سفن حسين الكردي إلى ديو فرحَّب بها حاكمها المسلم، وانطلقت العساكر المسلمة التي تقلُّ عساكر سلطان كجرات، بقيادة حاكم (ديو) الأمير مالك دياس، مع المتطوعين لتنضم إلى قوات سلطان كليكوت المسلم. فالتقت بالطريق بثمانية من سفن البرتغال، ونشبت معركة، انهزم فيها البرتغاليون، وقتل في المعركة لورانسو Louranco **ابن دا ألميدا** De Almida**، الحاكم العام للقواعد البرتغالية في الهند، ونائب الملك البرتغالي.**

ولم يستطع حسين الكردي مواصلة السفر إلى كاليكوت بسبب عطب بعض سفنه فغادر إلى ديو لإصلاحها.. **وفي السنة التالية حشد دا ألميدا جيوشه (٩١٤هـ/ ١٥٠٩م) وهاجم ديو. فلما سمع حسين الكردي بخروجه انطلق لمواجهته قبل وصوله ديو، فانهزم هزيمة نكراء. وتمكَّن حسين الكردي من النجاة والوصول إلى سلطان كجرات السلطان محمود. وعاد بعدها إلى مصر.**

ونقلاً عن السيد حسن صالح شهاب في كتابه «عدن فرضة اليمن» (ص١٩٠ – ١٩٣) باختصار وبإضافات يسيرة، يقول:

---

(١) المصدر السابق، ص ٣٠٥ – ٣٠٣.

(٢) البافقيه (محمد بن عمر الطيب): تاريخ الشُحر وأخبار القرن العاشر، تحقيق عبدالله الحبشي، مكتبة الإرشاد، صنعاء ١٤١٩/ ١٩٩٩، ص ٨٢.

وعقب عودة حسين الكردي من الهند إلى مصر أمر الغوري بتجهيز حملة أخرى إلى الهند، غير أن تجهيز هذه الحملة لم يتم إلا في **سنة ٩٢١هـ (١٥١٥م)**. بل إن تجهيزها لم يكن ليتم لو لم يلجأ الغوري إلى السلطان العثماني (بايزيد) ويطلب مساعدته على تجهيزها. فقد كانت دولة المماليك، في ذلك الوقت، دولة ضعيفة أنهكتها حربها في بلاد الشام والاضطرابات الداخلية[(١)]. ويقال إن السلطان بايزيد أمدّ الحملة بالأخشاب اللازمة لصنع السفن، وبألفين من الجنود الأتراك والبحارة تحت إمرة (سلمان الريس) أو (سلمان الرومي)، وثلاث مئة مدفع، وأربعين قنطاراً من البارود، وألفي مجداف، وثلاثين ألف سهم، وغيرها من الآلات والمعدات التي تحتاج إليها السفن[(٢)].

ووصلت هذه الحملة إلى جزيرة (كَمَران) في السابع من ذي القعدة سنة ٩٢١هـ/ ١٥١٥م، وشرع حسين الكردي في بناء حصن بها. ويقال إن السلطان عامر بن عبد الوهاب قد وعد، في رسائل له بعث بها إلى الغوري، بتقديم المساعدات اللازمة للحملات التي تجهز لحرب الإفرنج عند مرورها بالموانئ اليمنية[(٣)]. **لكن السلطان عامر** – كما يبدو – **رأى تصرف حسين الكردي في هذه الحملة يختلف عن تصرفه وسلوكه في الحملة الأولى. ففي الحملة الأولى** – كما رأينا – **استأذن والي عدن في الرسو في (حُقّات)، بعيداً عن مرسى عدن. أما في هذه المرة فلم يعلم به السلطان إلا بعد أن شرع في بناء الحصن بكمران، وكأن اليمن إحدى الولايات التابعة لمصر. وأدرك عامر أن الحملة جاءت لتبقى في اليمن بحجة حماية سواحلها من الإفرنج، فلم يجد من وسيلة لإبعادها عن السواحل اليمنية غير التخلي عن مدّها بالميرة. بل إنه منع السفن التي تحمل**

(١) مصطفى سالم: الفتح العثماني الأول لليمن: ص ٧٧ – ٧٨.
(٢) ابن إياس: بدائع الزهور، ج٤، ص ١٩٥ – ١٩٩.
(٣) مصطفى سالم: الفتح العثماني، ص ٨٢.

الطعام إلى جدة من المرور بجزيرة (كمران) [1]**. فأثار هذا القرار غضب حسين الكردي ورجاله، وكان الشرارة التي اندلعت منها بعد ذلك الحرب بين المماليك وعساكر الدولة الطاهرية. وقد وجدت المماليك، من خصوم السلطان عامر باليمن**[2]**، من ساعدها على النزول بساحل تهامة وعلى الحرب معها. واستطاعت البندقية** (الأسلحة النارية)**، التي لم تكن معروفة من قبل في اليمن، أن تهزم عساكر السلطان عامر، وأن تساعد المماليك على اكتساح بلاده في بضعة شهور. وقتل بها السلطان عامر على أبواب صنعاء بشهر ربيع الآخر من سنة ٩٢٣هـ/ ١٥١٧م.**

الهجوم على عدن (٩٢٢ هـ/ ١٥١٦م)

وكانت خطة حسين الكردي، بعد سقوط مدينة زبيد، أن يزحف جيش المماليك إلى عدن لمحاصرتها من جهة البر، بينما يذهب هو وسلمان الريّس، قائد الأسطول لمحاصرتها من جهة البحر. فقد كانت السيطرة على عدن هي أهم أهداف هذه الحملة. ولكن قوات المماليك بزبيد لم تتمكن من الوصول إلى عدن من جهة البر، بسبب انشغالها بحرب عساكر السلطان عامر. **أما الحملة البحرية فتوجهت أولاً إلى (زَيْلَع)، حيث أصلحت بعض مراكبها المعطوبة، وتزودت بالحطب والماء، ثم توجهت إلى عدن، ووصلت إليها في الثالث عشر من شهر رجب سنة ٩٢٢هـ/ ١٥١٦م.**

---

(١) ابن الديبع: الفضل المزيد، ص ٣٥٩ – ٣٦٠.

(٢) أهم عدو للدولة الطاهرية هو الإمام يحيى شرف الدين الذي ما أن علم بوصول حسين الكردي إلى كمران، حتى بعث إليه يحثه على احتلال التهائم التي يحكمها عامر بن عبد الوهاب الذي اتهمه بالتعاون مع البرتغال، مما شجع حسين الكردي على احتلال الحديدة فاحتلها، ثم احتل زبيد إلى أن احتل صنعاء، ومن أعداء عامر ابن عبد الوهاب الأشراف في عسير وجيزان.

ولما أرست المراكب بالبندر وجد حسين الكردي أن المراكب التجارية قد أقلعت من البندر إلى الهند قبل وصوله، ورأى قلاع المتأخرة منها بالأفق، فلحقهم سلمان الريّس[1]، في بعض عساكره، وأدرك المركب السلطاني، فقبض على الناخوذة، والمعلّم، والكَرّاني [الكاتب] «وجعل فيه ناخوذة، ومعلماً، وكَرّانياً، من قبله إلى الهند»، وبعث معه بكتاب إلى صاحب الهند يقول فيه إن عدن قد صارت بيد سلطان مصر، وإن مراكبه قادمة من جهته[2].

وكان ابن أخت سلمان الريّس **«قد فتح الحرب على أهل مدينة عدن،** في غيبة خاله خلف المراكب. فأقبل هو **وأصحابه** [يعني ابن أخت سلمان] **في السنابيق إلى البندر في الثامن عشر من الشهر المذكور** (أي شهر رجب)، **وأرسلوا بنادقهم ومدافعهم ونشّابهم، فقاتلهم العسكر السلطاني فرموهم بالمدافع[3] والنشّاب حتى هزموهم وأخرجوهم من البندر، وقتلوا رئيسهم ابن أخت سلمان بالمدافع في جمع كثير من أصحابه وجرحوا آخرين.** فتراجع العسكر المصري، وحملوا على البندر ودخلوه، فطلع العسكر السلطاني حصن (صِيرة)، وبقي عسكر المصريين بأسفله يرمون بالمدافع على (صِيرة) حتى أخربوا دربها [سورها]. فاجتمع العسكر السلطاني الذين في عدن، وخرجوا إليهم من الباب الذي عند جبل (النوبة) [يعني باب السور البحري المعروف بباب (السِّر)]، وكان البحر إذ ذاك عارياً [في حالة الجزر]. فحمل العسكر السلطاني على العسكر المصري، وهم حينئذ تحت درب حصن صيرة، فهزموهم هزيمة

(١) سمّاه المؤرخ حمزة لقمان في كتابه «تاريخ عدن» الأمير سليمان باشا الأرناؤوطي (وكان يلقب بالريّس).

(٢) ابن الديبع: الفضل المزيد، ص ٣٦٥.

(٣) كانت المدافع في ذلك الزمن ترمي بكرات من حديد بحيث أنها تقتل من تصيبه أو تسبب ثغرة في حصن أو تهدم منزلاً ضعيف البناء. ولم تكن ترمي بالبارود، فالأسلحة النارية لم تكن معروفة باليمن. وقد رأيت هذه المدافع القديمة في عدة مواقع في عُمان.

عظيمة، وقتلوا منهم جمعاً كثيراً وجرحوا آخرين، ورماهم من حصن (صيرة) بالحجارة فقتلوا أكثرهم وانهزم باقيهم وطلعوا المراكب وتحصّنوا فيها».

«ورجع سلمان من جهة المراكب التجارية فنزل بساحل أَبْيَن تحت حصن (الخضراء)، وذهبت جماعة من أصحابه لتستقي من (الثلاج)، فقُتِلَ بعضهم. فرجعوا إلى البندر. ولما علم سلمان بقتل ابن أخته وما جرى لأصحابه «أخذته الحمية، فرد أصحابه ونزل بهم إلى البندر. فلما رأى العسكر السلطاني، الذي بحصن صِيرة، ذلك، نزلوا من الحصن ودخلوا بندر [مدينة] عدن. فلما تحقق المصريون خلوّ حصن صيرة من العسكر السلطاني طلعوا، ومكثوا فيه أياماً يرمون منه إلى الدرب [السور] المقابل لدار السعادة، حتى أخربوا منه جانباً، من قبالة (دار السعادة) إلى زريبة الفوّة، التي في ميدان (دار السعادة). ثم حملوا على البندر في الثلث الأخير من ليلة الأربعاء التاسع عشر من الشهر المذكور. وتلقاهم أهل البلد، وقاوموهم، وقاتلوهم من ذلك الوقت إلى طلوع الشمس يوم الأربعاء. وكاد العسكر المصري أن يغلب على البلد، وركزوا راياتهم على الدرب الذي أخربوه. وأشفق أهل البلد من ذلك، وساءت ظنونهم. ثم حمل العسكر السلطاني على العسكر المصري حملة واحدة صادقة، فنصرهم الله تعالى عليهم، وقتلوهم قتلاً شنيعاً، وأخذوا راياتهم، وخلص الأمير سلمان بعد جهد جهيد، وسلمه الله سبحانه وتعالى. فرجع بمن بقي من أصحابه إلى مراكبهم بعد أن حملوا مدافعهم وتحصنوا في المراكب في يوم العشرين من الشهر المذكور».

«وأصبحوا يوم السبت الحادي والعشرين من الشهر المذكور (شهر رجب ٩٢٢هـ) راجعين من حيث جاؤوا منقطعين من الماء، فبلغوا إلى (رُباك) [ضواحي عدن]، ونزل منهم جماعة ليستقوا ، وقد أعدّ لهم الأمير مرجان كميناً هنالك، فثار عليهم الكمين وقتل منهم فوق الأربعين نفراً وجرحوا الآخرين». ووصلت نجدة بقيادة عبد الملك بن عبد الوهاب قادماً من تعز. فأدّى ذلك إلى زيادة قوة مرجان الظاهري.

«وكان في بندر عدن قبل انصرافهم أربعة مراكب: «مركب عيسى بن حراف، ومركب عيسى بن مقيفعة، وكتنباه موسال، ومركب رامه[1]، فأخذوها عند انصرافهم وساروا بها في صحبهم، فانفلت منهم مركبة رامه ومضوا بالباقين».

وهكذا فشل حسين الكردي وزميله سلمان الريّس في فتح عدن من جهة البحر، فعاد خائباً إلى جدة، بعد أن ترك نائبه (برسباي) في اليمن يقاتل السلطان عامر بن عبد الوهاب.

وقد استطاع برسباي (الإسكندر بن محمد) - كما أسلفنا - أن يهزم قوّات السلطان عامر بن عبد الوهاب في معارك متتالية استولى فيها على كمران، ثم الحديدة، ثم زبيد (معركة الرحب في ضواحي زبيد)، ثم معركة باب النخل (خارج) في جمادى الأولى سنة ٩٢٢هـ . وكان على رأس قوة السلطان أخوه عبدالملك وابن أخيه عبد الوهاب بن عامر. وانتهت المعركة باستيلاء المصريين على زبيد.. وتوالت الهزائم حتى دارت المعركة الأخيرة على أبواب صنعاء، وكان السلطان عامر بن عبد الوهاب وأخوه على رأس الجيش اليمني وبرسباي على رأس الجيش المصري، فاستطاعت البنادق والأسلحة النارية أن تهزم الأسلحة القديمة التقليدية، فقتل الأمير عبد الملك بن عبد الوهاب أخو السلطان، وفرّ السلطان تائهاً فألقي القبض عليه وقتل وأسر ابنه وابن أخيه كما أسلفنا. وبذلك انتهت دولة عامر بن عبد الوهاب، وبقيت عدن بيد مولاه مرجان الظافري الذي أبلى بلاءً حسناً في صدّ العدوانين المصري والبرتغالي.

---

(١) كتنباه موسال ورامه، هما من تجّار الهنود، وكانت لهم مراكب تجارية في عـدن تنقـل بضائعهم.

غزو البرتغال لجنوب جزيرة العرب والبحر الأحمر

بعد هزيمة المسلمين المدوِّية في غرناطة عام ١٤٩٢ انتهت دولتهم في الجزيرة الأيبرية، التي كانت تشمل أسبانيا والبرتغال، والتي دامت ثمانية قرون تخللتها حروب دامية بين المسلمين وسكان الجزيرة الأيبيرية، وبين المسلمين أنفسهم. ورغم تسامح المسلمين مع النصارى إلا أن الحقد الصليبي كان متجذّراً في هذه الجزيرة الأيبرية التي كانت أشدّ الدول الأوربية تعصّباً ضد الإسلام، لأن الإسلام كاد يقضي عليها. كما أن أسبانيا والبرتغال صارتا من أشد الدول تعصّباً للكاثوليكية، وكان من الأسبان عدد كبير من الكرادلة والباباوات تسنّموا عرش البابوية في الفاتيكان في روما.

وما أن تمّ للأسبان والبرتغال ذبح المسلمين وطردهم من بلادهم، حتى قاموا بحملات متعدّدة في البحار، وسرعان ما صارت أسبانيا والبرتغال سيدتا البحار، فاستولت أسبانيا على أمريكا الوسطى وأمريكا الجنوبية (ما عدا البرازيل التي استولت عليها البرتغال) وعلى جزء من أمريكا الشمالية. وكانت كمية الذهب التي استولوا عليها كبيرة جداً بحيث جعلت أسبانيا أولاً والبرتغال ثانياً أغنى دول أوربا في حينها مما مكنهم من بناء الأساطيل والاستعانة بالبحارة والعلماء والفلكيين من أرجاء أوربا.

وأرسل ملك البرتغال عمانويل السعيد (١٤٩٥-١٥٢١م). أول بعثة برتغالية إلى إفريقيا الغربية. وانطلقت الرحلة في ٨/ ٧/ ١٤٩٧م في أربع سفن، كلها بأسماء القديسين. وسارت الحملة في نفس الطريق الذي سلكه بارثلميو

دياز سنة ١٤٨٧م والتي وصلت إلى جنوب القارة الإفريقية. وكانت الحملة الجديدة بقيادة فاسكو دي جاما الذي وصل إلى الطرف الجنوبي من القارة الإفريقية وواجه العواصف حتى سماه رأس العواصف. ولكن ملك البرتغال سماه رأس الرجاء الصالح (Cape of Good Hope)، ثم استدار ليبحر على الساحل الشرقي الجنوبي الإفريقي. وكان التجار العرب من حضرموت وعُمان واليمن قد وصلوا هذه المناطق إلى جزيرة مدغشقر التي أسموها جزيرة القمر الكبرى، وتحوّل كثير من سكان الساحل الشرقي الإفريقي إلى الإسلام. وكانت كل دوله إسلامية يحكمها عرب ومسلمون (من عُمان وحضرموت واليمن)، وهي تمتدّ من الصومال وأريتريا وكينيا إلى ما يعرف اليوم بتنزانيا وإلى مدغشقر (جزيرة القمر الكبرى) وجزر القمر (الصغرى).

كما أدخل العرب، وبالذات من جنوب جزيرة العرب، الإسلام إلى الهند، وخاصة سواحلها الغربية حيث تكوّنت مملكات إسلامية خالصة مختلطة بالدم العربي الإسلامي. وكذلك وصل التجار العرب المسلمون إلى مالقا (ماليزيا)، وإلى ماليزيا نفسها، وأندونيسيا وأقاموا هناك مملكات بعد أن اختلطوا بأهلها ونشروا الإسلام فيها. وبذلك احتكروا أيضاً تجارة التوابل وغيرها.. ولم تستطع أوربا العثور عليها وعلى اللبان والبخور وغيره إلا من اليمن عبر مصر بالطريق البحري، أو عبر سوريا (الشام بمعناها الواسع) بالطريق البري من اليمن إلى الشام عبر مكة والحجاز. والطريق الثاني كان عبر خليج هرمز إلى البصرة ومنها إلى الشام برًّا.

وقد وصل فاسكو دي جاما إلى سفالة في مدغشقر، وهي أول مدينة إسلامية يشاهدها فاسكو دي جاما في شرق إفريقيا.. وقد رحّبَ بوصوله حاكم (كلوه) ظنًّا منه أن الأسطول يتبع الدولة العثمانية أو المغرب، فلما تبيّنت الحقائق حاربه وطرده. واستأنف فاسكو دي جاما رحلته، ومرَّ بعدّة مراكز إسلامية منها موزمبيق وممباسا (ممبسّة في كينيا) ومالندي (أيضاً في كينيا) التي

وصلها في ١٥ مارس ١٤٩٨م. وكانت هذه الثغور غاصّة بالتجار العرب والسواحلية الذين توجّسوا خيفة من هؤلاء القادمين. وأخذ فاسكو دي جاما يجمع المعلومات البحرية عن الطريق إلى الهند، لأن المحاولات السابقة أدت إلى تحطم السفن البرتغالية.

وقد شاعت وراجت قصة أن ابن ماجد، أشهر البحارة العرب، هو الذي دلَّ فاسكو دي جاما على الطريق إلى الهند. وقد ردّ على هذه الفرية ردًّا مطوّلاً كُلٌّ من الدكتور عبد الهادي التازي في كتابه «ابن ماجد والبرتغال، ط٥». واستدلّ بما كتبه البرتغاليون أنفسهم الذين ذكروا أن المعلم كاناكا Malemo Ganaqua (وأسماه آخرون المعلم كانا Gana)، وسمّاه الشاعر البرتغالي (كاموس) مليماندو Melmando أي المعلم. وهو شخص هندي من كوجرات كان في ماليندي في شرق إفريقيا عند وصول فاسكو دي جاما الذي أغراه بالمال والنساء، فدلَّهم على الطريق البحري التي عرفها العرب والهنود منذ آلاف السنين، لأن التجارة بين الهند والسواحل الجنوبية لجزيرة العرب، وخاصة عدن، مستمرة منذ أكثر من ثلاثة آلاف عام.

والثاني هو السيد حسن صالح شهاب في مقدمته للنونية الكبرى لابن ماجد. وابن ماجد بنفسه في قصيدة (السفالية) هاجم الإفرنج البرتغاليين حيث قال:

جازتها[1] في عام تسعماية ... مراكب الافرنج يا أخايه
تجيز ....[2] عامين كاملينِ ... فيها ومالوا الهند باليقينِ
ورجعوا من هندهم للزنج[3] ... في هذه الطريق الافرنج

(١) أي جازت سفالة ميناء موزمبيق.
(٢) كلمة غير واضحة في الأصل المخطوط.
(٣) الزنج هو ساحل إفريقيا الشرق. والزنوج هم سكانها الأصليون.

وجاء لكاليكوت[١] خُذْ ذي الفائدة لعــــام تــــسعماية زايــــده
وبــاع فيهــا واشــترى وحكــما والــسامري[٣] برطلــه وظلــما
وصــار فيهــا مــبغض الإســلام والنــاس في خــوف واهــتمام
وانقطع المكي عن أمر السامري[٢] وسُــدَّ جردفــون[٤] للمــسافر

وقد سدَّ البرتغاليون طرق التجارة والحج وكانوا قراصنة وقطّاع طرق، وما ذكره ابن ماجد دليل على بغضه لهم.

وقد وصل فاسكو دي جاما إلى الهند في مايو (أيار) ١٤٩٨م، إلى ثغر كاليكوت على الساحل الغربي للهند (المالبيار)، وكان حاكم كاليكوت يدعى السامري، وهو مسلم، وبلده مليئة بالتجار العرب والمسلمين، فلم يستطع فاسكو دي جاما أن يعقد معه أي اتفاقية تجارية. فقام بجولة أمام سواحل الماليبار، والتقى هناك سفينة عربية تجارية، فأمر بمهاجمتها والاستيلاء على ما فيها من بضائع، ثم أغرقها بمن فيها. وهذا شأن هؤلاء القراصنة البرابرة من الأوربيين. وعاد فاسكو دي جاما إلى لشبونة بعد مرور عامين كاملين، فاستقبله الملك والجمهور البرتغالي استقبال الأبطال. وكان وصوله في ٢٩/ ٨/ ١٤٩٩م، وعاد محملاً بالبضائع التي استولى عليها وقدراً من الأحجار الكريمة وأفراداً من الهندوس.

وبذلك تحقّقت للبرتغاليين المعلومات الكافية للوصول إلى الهند. وقد فوجئوا بأن العرب المسلمين (الذين يسمونهم المورو) هم المسيطرون على هذه التجارة في الهند والساحل الإفريقي فتقرر القضاء عليهم بأي ثمن.

---

(١) كاليكوت ميناء تجاري هام على الساحل الغربي من الهند (الماليبار)، حاكمه مسلم.
(٢) السامري حاكم مسلم في المليبار.
(٣) انقطع التجار والحجاج وتوقفت الصلات بين مكة والماليبار.
(٤) جردفون هي جردفوي في الصومال.

وقد استخدم البرتغاليون اليهود الذين كانوا يعيشون في البرتغال وأسبانيا للتجسس على المسلمين. ولم يمانع اليهود في ذلك، فطبيعتهم تجعلهم يقدِّمون الخدمات لأي دولة قوية ناشئة حتى يضمنوا لأنفسهم مكاناً فيها. وكانوا يجيدون اللغة العربية كأبنائها، وبالتالي ينتقلون في البلاد العربية مدّعين أنهم من التجار المسلمين الذين طردوا من الأندلس، فحصلوا على معلومات ملاحية هامة. وقد ذهب هؤلاء اليهود إلى مصر، ثم أقلعوا من السويس على سفينة عربية إلى عدن. واستقلوا سفينة أخرى إلى هرمز في الخليج العربي (الذي كان يُدعى الفارسي) وسافروا إلى الهند. واتجه بعضهم إلى زيلع ومنها إلى الحبشة، واستطاعوا أن يحصلوا على معلومات هامة عن التيارات البحرية والرياح الموسمية، وخرائط وبيانات عن التجارة الشرقية. وهي معلومات كانت البرتغال في أشدِّ الحاجة لها قبل القيام بعمليات الغزو[1].

دوافع البرتغاليين للوصول إلى البحار الشرقية

هناك دوافع اقتصادية وهي هامة جدًّا، حيث أن التوابل وغيرها، التي تأتي من الهند وبلاد الملايو وأندونيسيا كانت كلها في يد العرب. وكانت كلها تصل إلى عدن ومنها إلى مصر المملوكية. ومن هناك يأتي تجار البندقية إلى الإسكندرية ويشترون تلك البضائع ويوزعونها على أوربا. وكانت، نتيجة المرور بالعديد من الموانى التي تفرض عليها العشور الباهضة، مرتفعة الثمن، فأراد البرتغاليون أن يصلوا إلى الهند، وإلى مالقا في الملايو، ويأخذوا من هناك التوابل ويبيعونها لأوربا مباشرة بنصف السعر الذي كانت تطلبه البندقية. وبذلك تكسب البرتغال السوق، وتضرب في الوقت نفسه دولة المماليك واليمن والحجاز ضربة قاصمة من الناحية التجارية.

---

(١) عبد العزيز محمد الحصيني: الاستعمار البرتغالي لجنوب شبه الجزيرة العربية، ص ١٤ – ١٥.

وكان الهدف الأهم، محاربة المسلمين والقضاء على دينهم والوصول إلى مكة والمدينة وتحطيمها، والوصول إلى القبر الشريف ونبشه والاحتفاظ بالجسد الشريف ومقايضته بالأراضي المقدسة في فلسطين التي كانت تحت حكم المسلمين (الدولة الأيوبية عندما قام صلاح الدين بتحرير القدس من الصليبيين ثم المماليك ثم الدولة العثمانية).

وكان الباباوات يباركون هذه الحملات. وقد بعث البابا نيقولا الخامس (١٤٤٧ – ١٤٥٥م) إلى هنري الملاح أمير البرتغال يدعوه للقضاء على المسلمين، ويشجعه على الكشوفات البحرية(١). وقال البابا: إن واجب جنود المسيح أن يقضوا على أعداء الله وأعداء المسيح، وأن يقوم النصارى الكاثوليك (البرتغال وأسبانيا) ببذل الجهود بتنصير سكان أي بلد يكشفونه في المستقبل، والحيلولة بينهم وبين إصابتهم بطاعون الإسلام(٢).

وقد ساعد البرتغاليون الوصول إلى هدفهم، الأسبابُ التالية:

(١) ضعفُ المسلمين والعرب وتفكك أوصال بلادهم والحروب المستمرة فيما بينهم

وهي الأسباب نفسها التي أدّت إلى سقوط الأندلس وطردهم منها. وهم مستعدّون في منازعاتهم التي لا تنتهي أن يستعينوا بأعدائهم الكفار الذين يتربّصون بهم الدوائر. وقد حذّرهم الله من الاختلاف والتنازع في محكم التنزيل فقال، عزّ من قائل: ﴿وَلَا تَنَٰزَعُواْ فَتَفۡشَلُواْ وَتَذۡهَبَ رِيحُكُمۡ﴾ (الأنفال: ٤٦) فذهبت ريحهم بالفعل.

(١) المصدر السابق، ص ١٧.

(٢) المصدر نفسه.

وكانت دولة المماليك في آخر أيامها قد ضعفت، وكثرت فيها الخلافات بين المماليك على الحكم. كما واجه المماليك قوات التركمان الآتية من جنوب القوقاس، وقامت الحروب بين التركمان (القزلباش) ورئيسهم حسن الطويل وبين السلطان قايتباي، ثم كثرت المجاعات والطواعين في مصر والشام وكثير من البلاد العربية بما فيها اليمن، مما أدى إلى وفاة ثلث الجند في مصر، ووفاة أعداد كبيرة من القوى العاملة ومن التجار والمهنيين. وكان، بالإضافة إلى ذلك، صراع في اليمن مستمر بين مختلف دوله (الدولة الطاهرية والأئمة بالإضافة إلى مختلف الطامعين في الحكم، وهجمات الأعراب البدو للنهب والسلب). كما كانت هناك معارك مستمرة في الحجاز وعسير بين مختلف الدول (الأيوبيون والرسوليون، ثم الأشراف فيما بينهم).

(٢) انشغال العالم الإسلامي بخلافاته المذهبية

وقد فرح المسلمون بقيام الدولة العثمانية الفتيّة والتي استولت على القسطنطينية (اسطمبول) على يد محمد الفاتح سنة ١٤٩٢م، أي في العام الذي سقطت فيه غرناطة، وانتهى حكم المسلمين في الأندلس. ولكن الدولة العثمانية واجهت حروباً عدة في أوربا المسيحية، وحروباً عدة مع التركمان ومع الدولة الصفوية التي اشتدَّ ساعدها في عهد إسماعيل الصفوي، فأراد أن ينشر المذهب الشيعي الجعفري في العراق وغيره. ولذا قام الصفوي بمراسلة الدول الأوربية للتعاون معها في القضاء على الدولة العثمانية والدولة المملوكية في مصر والشام.

وكانت الدولة العثمانية أيضاً تعاني من التنازع على العرش بين أبناء الخليفة والسلطان عند موته.

(٣) الحماس الديني القوي وتماسك الأمة مع دعم البابوات لملوك البرتغال وأسبانيا، وهذا أدى إلى التفوق والاستعداد للبذل.

(٤) النتائج المبهرة، واكتشاف رأس الرجاء الصالح، والوصول إلى الهند، ومكاسب تجارة التوابل الخرافية، ومكاسب الاستيلاء على ثروات بلاد الشرق، وكلها، أو أغلبها، لأعدائهم الألدّاء المسلمين. فعلى سبيل المثال، عاد فاسكو دي

جاما إلى البرتغال بحمولة ضخمة من الهند قُدِّرت بـخمسة وثلاثين ألف قنطار من الفلفل والزنجبيل وجوز الهند، بالإضافة إلى الجواهر والأحجار الكريمة، حيث بيعت تلك البضائع بمبلغ مليون دينار ذهبي بندقي، بينما كانت كلفة الرحلة مائتي ألف دينار بندقي فقط[(١)].

وقد تمثَّلت الروح الصليبية في رحلة فاسكو دي جاما الثانية سنة ١٥٠٢م بأسطول مكون من ٢٥ سفينة، والذي قام بمطاردة سفينة عربية تحمل ما يقارب أربعمائة حاج إلى مكة بالقرب من كاليكوت. وقد استولى على السفينة وأحرق من في السفينة ما عدا عشرين طفلاً، تمَّ تعميدهم ليصبحوا نصارى. وأبقى فقط على المرشد البحري، وأحرق الباقين، وأغرقت السفينة بعد أن استولوا على ما فيها. وكان فاسكو دي جاما – المكتشف العظيم عند الغربيين – يستمتع بصراخ وعويل الرجال والنساء والأطفال وهم يحترقون ثم يغرقون في البحر[(٢)].

وقد قرّر البرتغاليون تطوير سياستهم الاستعمارية كالتالي[(٣)]:

(١) إغلاق المنفذين الرئيسين للبحار العربية المتصلة بالمحيط الهندي، وهما خليج هرمز في الشرق وباب المندب في الغرب. وهذا يستدعي الاستيلاء على مدينة هرمز ومسقط (عمان) في الشرق وعدن في الغرب.

(٢) الاستيلاء على بعض المواقع في ساحل الهند الغربي (المليبار ويكتب أحياناً المالابار). وقد استولوا بالفعل على (جوا) عام ١٥١٠م، وبعدها مباشرة (ديو) لتكون قواعد عسكرية وتجارية ولمهاجمة التجار المسلمين والمدن الإسلامية في ساحل المليبار.

---

(١) شارل ديل: البندقية، جمهورية أرستقراطية، ص ١٤٦، نقلاً عن: الاستعمار البرتغالي لجنوب شبه الجزيرة العربية، ص ٣٧.

(٢) عبد العزيز محمد الحصيني: الاستعمار البرتغالي لجنوب شبه الجزيرة العربية، ص ٣٩ – ٤٠.

(٣) المصدر السابق، ص ٤٨.

(٣) احتلال الثغور التجارية الإسلامية في شرق إفريقيا، مثل: ماليندي وكلوه وسفالة وزنجبار.. إلخ.

وقد نفَّذ هذه السياسة أشدُّ القواد شراسة وكرهاً وحقداً على المسلمين ألفونسو دي البوكريك قائد الأسطول البرتغالي، والذي رقّاه الملك البرتغالي إلى منصب نائب الملك الذي كان وبالاً وطاعوناً على المسلمين والعرب، والذي أحرق ودمَّر مئات السفن التجارية وسفن الحجاج، وهاجم العديد من الثغور الإسلامية واحتلّ بعضها بالفعل، وكان الهدف الأسمى الوصول إلى البحر الأحمر ومنه إلى جدة للوصول إلى مكة المكرمة والمدينة المنورة وتحطيم المدينتين المقدستين وإحراقهما.

وقد بدأ ألفونسو دي البوكيرك باحتلال سقطرى عام ١٥٠٧م بعد معركة غير متكافئة بين سكانها الأبطال، الذين لم يكن معهم سوى السلاح الأبيض، وبين البرتغاليين الذين تمكنوا من الانتصار بسبب حيازتهم البنادق النارية والمدافع، ومع ذلك فقدوا عدداً من رجالهم، وكاد البوكيرك نفسه أن يقتل. وسيأتي وصف معركة سقطرى وسقوطها بيد البرتغال ثم استقلالها منهم. ثم تحوّل نصارى سقطرى بسبب التعصب البرتغالي الكاثوليكي إلى الإسلام، ووقوفهم مع أبناء عمومتهم من المهرة المسلمين. وكيف أن بعض الجنود من البرتغاليين أنفسهم اعتنقوا الإسلام وبقوا في سقطرى. وهي قصة طريفة ومشوقة ولا يعلمها إلا أقل القليل من المثقفين في العالم العربي بما فيهم أهل اليمن وأهل عُمان الذين كانت سقطرى تتبعهم (تبعت عُمان أولاً ثم تبعت اليمن وبالذات عدن).

احتلال مسقط عام ١٥٠٧هـ

كانت مسقط (عاصمة عُمان حاليًّا) تتمتّع بموقع استراتيجي هام على الساحل الآسيوي لخليج عمان، وتتحكم بالتالي في الخليج العربي (الذي كان يُسمّى الفارسي)، وقد واجه البوكيرك مقاومة عنيفة فعمد إلى ضربها بالمدافع، ثم أحرقها بمبانيها وجامعها. وأحرق جميع السفن التي كانت راسية في الميناء وهي ٣٤ سفينة، كبيرة وصغيرة. ووقع في يده عدد كبير من الأسرى، وأمر بإلحاق بعضهم للخدمة في السفن البرتغالية، وقام بقطع الآذان والأنوف لبقية الأسرى بما فيهم النساء والأطفال.. ومضى البوكيرك يدمّر ويحرق وينشر الخراب أينما حلّ، فهو كالطاعون أو أشدّ. وبذلك أثار الرعب في تلك المنطقة وخاصة مشيخة هرمز التي كانت تحكم معظم الخليج بما فيها مسقط والبحرين.

مملكة هرمز(١) (Ormus the legendary Kingdom)

هرمز مملكة قامت في القرن العاشر الميلادي على السواحل الشرقية للخليج العربي اشتهرت بالتجارة وبالثراء، وهي الميناء البحري لتجارة منطقة كرمان وسيستان، كانت خيولها تصدّر إلى الهند، وظلّت على هذا الحال حتى القرن الخامس العشر، حيث يشير إليها الرحالة الإيطالي الشهير ماركو بولو بقوله إن هرمز (مدينة عظيمة ونبيلة على البحر). ويقول أيضاً:

(١) نقلاً من ويكيبيديا، الموسوعة الحرة، مع إضافات وتعديلات.

«في هذه البلاد أعداد هائلة من الخيول المطهمة، والناس يأخذونها إلى الهند للبيع لأنها غالية الثمن. وهنا يوجد أيضاً أجود حمير في العالم لأنها كبيرة وسريعة وتمتاز بخفة نادرة. والتجار يأتون إلى هناك من الهند بسفن محملة بالتوابل والأحجار الكريمة واللؤلؤ وأقمشة الحرير والذهب والعاج، وبضائع أخرى كثيرة، حيث يبيعونها لتجار هرمز، وهؤلاء بدورهم يحملون هذه الأشياء إلى جميع أنحاء العالم لبيعها ثانية».

وقد اشتهرت هرمز بثروتها، وفسادها، لأن الثروة تؤدي في كثير من الأحيان إلى الفساد: ﴿ كَلَّآ إِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ لَيَطۡغَىٰٓ * أَن رَّءَاهُ ٱسۡتَغۡنَىٰٓ ﴾ (العلق: ٦ – ٧).

وابتداءً من حوالى سنة ١١٠٠م كان لهرمز حكاماً من العرب، ومؤسس هذا الحكم يدعى محمد وهو أمير عربي عَبَر الخليج **من اليمن** وكوّن نفسه هناك. وفي خلال حكم الأمير الخامس عشر سنة ١٣٠١م، كانت هرمز القديمة على البر قد ناوشتها الغارات الوحشية المتكررة من جانب التتر، لدرجة أن الأمير وشعبه هجروا مدينتهم في البر الأصلي وانتقلوا إلى جزيرة قشم.. ومن ثم انتقلوا إلى جزيرة جيرون الجديدة التي تقع وسط البحر، ويفصل بينها قنال عرضه ثلاثة فراسخ وسمّوها هرمز، ثم تحوّلت إلى مملكة.

وقد زارها الأدميرال الصيني زنج Zheng سنة ١٤١٤ ميلادية.

واستولى عليها البوكيرك من قبل البرتغاليين عام ١٥١٤م وحكموها باسم التاج البرتغالي. ثم احتلها الفرس عام ١٦٢٢م بعد أن تحالفوا مع الإنجليز. وقد كان الصفويون متحالفين مع البرتغاليين ضد الدولة العثمانية والحكام المحليين من العرب، فلما ضعفت دولة البرتغال تحالفوا مع الإنجليز.

حين قدم البرتغاليون إلى سواحل الخليج في العام ١٥٠٧م، كانت هناك دولة تجارية عظيمة الثراء، وإن كانت تفتقر إلى القوّة العسكرية والخبرة القتالية،

وهي مملكة هرمز التي تبعد نحو اثني عشر ميلاً عن الساحل الفارسي في مدخل الخليج. وبسطت نفوذها على الساحل العربي من القطيف شمالاً حتى رأس الحد جنوباً، ودخلت في حوزتها البحرين وقشم، ومن ممتلكات هرمز أيضاً: قلهات، قريات، صحار، خورفكان، مسقط، رأس الحد. كما شملت الأحساء والقطيف.

الغزو البرتغالي وحكم البرتغال لهرمز

من عام ١٥١٥ حتى عام ١٦٢٢م

بدأ البرتغاليون بقيادة **البوكيرك بمهاجمة جزيرة هرمز عام ١٥١٥م، فاستعدّت مملكة هرمز لصدّ الغزو البرتغالي. وقد تجمّعت قوات** من الفرسان على الساحل من الفرس والعرب حيث احتشد ما لا يقل عن ثلاثين ألفاً منهم أربعة آلاف من الفرسان، كما كان في المرفأ أربعمائة سفينة(١). ولم يكن البرتغاليون، بقيادة قائدهم البوكيرك، يملكون أكثر من سبع سفن حربية لم يتجاوز عدد بحارتها أكثر من أربعمائة وستين رجلاً. وكان حاكم هرمز صبيًّا صغير السن يسمى (سيف الدين) ويحكم نيابة عنه مستشاره (الشيخ عطار).

وعلى الرغم من كل هذا التباين، فلم يتراجع البوكيرك عن تحقيق مأربه في الاستيلاء على الجزيرة، ولعل الروح الانتحارية التي كان يقاتل بها البوكيرك، والسفن المتطورة التي كان يقلها، والمدافع التي كان يستخدمها، وحالة الفوضى التي كانت عليها قوّات هرمز، كانت في مقدمة العوامل التي عجلت بالسيطرة

---

(١) هذه مبالغات الغربيين حتى يوضحوا أن سبع سفن برتغالية تتغلب على أربعمائة سفينة، وأن ٤٦٠ من البرتغاليين يتغلبون على ثلاثين ألف من الجنود بينهم أربعة آلاف فارس. وهي مبالغات ممجوجة فقد كاد البرتغاليون ينهزمون في سقطرى أمام عدد ضئيل من المقاتلين الذين لم يكن معهم سوى السلاح الأبيض، بينما كان مع البرتغاليين الأسلحة النارية والمدافع.

على الجزيرة. وكان هجوم القوات البرتغالية التي نفدت منها المواد الغذائية بمثابة هجوم الجياع على مستودعات التموين. وكانت كلمات البوكيرك إلى جنوده وهو يحثّهم على القتال «إما الانتصار أو يقطع المسلمون رقابكم». وإزاء استمرار القصف المدفعي البرتغالي لم يجد سيف الدين بدًّا من طلب المفاوضات، والتي جرت في جو إرهابي كانت نتيجتها أن قام البوكيرك أثناءها بطعن الشيخ عطار فجأة عندما كان يتحدث معه فقتله. وقد أسفرت المفاوضات عن الصلح بشروط قاسية، منها: أن يظل سيف الدين في منصبه حاكماً على هرمز تحت السيادة البرتغالية، وأن يدفع لملك البرتغال مبلغ خمسة عشر ألف زرافين كجزية سنوية، وأن يسمح للبرتغاليين بإقامة منشآت عسكرية في بلاده، كذلك نص على إعفاء التجارة البرتغالية من أية رسوم جمركية.

باحتلال هرمز فرض البرتغاليون سيطرتهم على المنطقة بشكل لا يقبل الشك، فقد أصدر البوكيرك قراراً بمنع أي سفينة من ممارسة الملاحة في الخليج قبل الحصول على تصريح من السلطات البرتغالية. وقد انصرفت الدولة الصفوية، خلال هذه الفترة، إلى فتوحات في الشمال وإلى حروب ضد العثمانيين، ولم تول أمور الخليج اهتماماً كبيراً، فكان الشاه إسماعيل يترك غالباً المناطق الساحلية الجنوبية لحكام شبه مستقلين، وتحالف مع البرتغاليين.

وقد استغل البرتغاليون انشغال قوات الشاه إسماعيل في شمال فارس في الحرب ضد العثمانيين، فوطّدوا نفوذهم في جزيرة هرمز والساحل العُماني، واستولوا على القطيف والبحرين، ونكثوا بذلك عهدهم للشاه إسماعيل بمساعدته في بسط حكمه عليها. وقد زار البوكيرك البحرين عام ١٥١٥م من أجل تعزيز العمل بمقتضى المعاهدات القائمة بين حاكمها المحلي وملك هرمز الخاضع من الآن للسيطرة البرتغالية. وكان الشاه إسماعيل قد تحالف مع البرتغاليين ضد العثمانيين، ووقّع اتفاقية معهم جاء فيها:

١- أن تساند البحرية البرتغالية القوات الإيرانية في الاستيلاء على البحرين والقطيف.

٢- يتعهد البرتغاليون بمساندة الشاه في القضاء على الحركات الانفصالية التي قامت في إقليم مكران.

٣- قيام حلف عسكري بين الطرفين ضد الدولة العثمانية.

٤- إعادة توران شاه إلى هرمز نائباً عن الملك البرتغالي عمانوئيل، وهذا يعني اعتراف الشاه بتبعية هرمز للبرتغاليين.

وقد تم احتلال البحرين من قبل البرتغاليين وساندهم في ذلك حاكم هرمز، وتم ذلك سنة ١٥٢١م.

وفي غضون ذلك، استولى حاكم الأحساء مقرن بن زامل على البحرين والقطيف، وطرد النفوذ البرتغالي والهرمزي منها، ولكن البرتغاليين عادوا فسيطروا على البحرين بعد القضاء على حركة مقرن بن زامل، وحكم البحرين ممثل لحاكم هرمز العربي المسلم السني.

وانتهى حكم البرتغال على البحرين سنة ١٦٠٢م. وحاول البرتغاليون الاستيلاء على البصرة وخاصة بعد أن فهموا أن المندائين الصابئة هم من النصارى، فتحمّسوا للاستيلاء عليها، ولكن محاولاتهم صُدَّت. وبقيت البصرة مع أفراسياب حاكم البصرة القوي والتابع إسميًّا للدولة العثمانية. وقد وقعت معارك شديدة بين الدولة العثمانية والبرتغاليين في هذه المنطقة ما بين سنة ١٥٥٠ وسنة ١٥٨٣م ولم تنته إلى نتيجة حاسمة.

مهاجمة سقطرى سنة ١٥٠٧م/ ٩١٢هـ[(١)]

تنامى إلى سمع ملك البرتغال دوم عمانويل الأول وصف سقطرى، عندما اضطر الكابتن ديجو فرناندز بيريرا أن يقضي شتاء عام ١٥٠٣م في سقطرى[(٢)] بسبب سوء الأحوال الجوية التي منعته من الذهاب إلى الهند. فأعجبته سقطرى، ووصف للملك مرافئها الجيدة، ووجود الماء العذب فيها، ووفرة الغذاء والمراعي.. وأهم من ذلك كله – حسب وصفه – أن أغلب سكانها نصارى، ويجب تخليصهم من حكامهم المسلمين (المورو)، وبما أن «المورو» هم أعدى أعداء النصرانية عامة والبرتغال بصورة خاصة فيجب محاربتهم أينما كانوا!! وخاصة أن تجارتهم وسفنهم ترسو في سقطرى، ولذا يصبح احتلال سقطرى هدفاً استراتيجيًّا، وعملاً يرضي الرب وينقذ سكانها النصارى من براثن هؤلاء المسلمين المورو!! [(٣)].

لهذا كله، أصدر الملك أمره إلى قواده الكبار تريستاو دي كونها وألفونصو دي البوكيرك باحتلال جزيرة سقطرى وبناء قلعة فيها، كما نظَّم الملك إرسال

(١) نقلاً من كتابي: سقطرى الجزيرة السحرية، إصدار العصر الحديث، بيروت ١٩٩٦م، ص ٧١ – ٩٣.

(٢) ذكر برين دو في كتابه: سقطرى جزيرة السكينة، أن ذلك حدث عام ١٥٠٥م/ ٩١٠هـ.

(٣) فيتالي نعومكين ص ٣٤ – ٥١. (وهو يهودي روسي مستشرق، وهو الذي درّس عبد الفتاح وصحبه الشيوعية).

الرهبان الفرنسيسكان ليبنوا الكنائس، وليعيدوا السكان إلى النصرانية الحقّة أي الكاثوليكية (لأن سكان سقطرى من المنوفيست الموحدين أي القائلين بالطبيعة الواحدة للسيد المسيح.. وهم يتبعون الكنيسة الشرقية، وكانوا يتبعون من قديم النساطرة في العراق).

وانطلق دي كونها والبوكيرك من لشبونة في ١٥ أبريل ١٥٠٦م (٩١١هـ) في عشرين سفينة، ووصلوا إلى ماليندي (على ساحل شرق إفريقيا، وهي في كينيا اليوم). وكان الجو غير ملائم للإبحار.

«وقام الحاج السلطان إبراهيم بالنزول من القلعة مع مجموعة من رجاله إلى الساحل لمنع البرتغاليين من التقدم. وأبدى الحاج إبراهيم ضروباً من الشجاعة والبطولة مع رجاله القليلين.. وبدأت المعركة بالسيوف والحراب وجُرح العديدون من الجانبين. وفي مبارزة بين ألفونصو دي نورنها والحاج إبراهيم كاد ألفونسو أن يهلك لولا نجدة البوكيرك ورجاله الذين حملوا على البطل الحاج إبراهيم فقتلوه، ومع هذا فإن دي نورنها أصيب بجروح طفيفة»[1].

وعندما رأى رجال الحاج إبراهيم مصرع قائدهم أسرعوا بالتراجع إلى القلعة والقوات البرتغالية تطاردهم، ولم يمكِّنوهم من دخول القلعة بل اضطروهم للفرار إلى الجبال.. ولكن الرجال القليلين الموجودين في برج المراقبة صمدوا صمود الأبطال المغاوير، ورموا بالبرتغاليين بالحجارة حتى إنهم أصابوا البوكيرك نفسه إصابة بالغة في رأسه إلا أنه لم يفقد الوعي، وبقي يصدر أوامره بعد أن أبعده رجاله من مرمى البرج.

---

(١) وصف المعركة بأكملها وغزو سقطرى نقلناه عن كتاب فيتالي نعومكين السابق ذكره ص ٣٤ – ٥١ وكتاب برين دو (المذكور سابقاً) ص ٢١ – ٢٤، وهما نقلاه من المصادر البرتغالية والأوربية العديدة.

وحاول البرتغاليون أن يحتالوا على المقاومين ووعدوهم بالأمان مقابل استسلامهم، ولكن هؤلاء رفضوا الاستسلام واستمروا في رمي السهام والحجارة. ولم تجد قوات البوكيرك بدًّا من دكّ الحصن بدبابات الحصون والمنجنيق والمدافع.. واستعرّ القتال والتلاحم بالأيدي من شبر إلى شبر حتى أن دي نورنها كاد يقتل مرة أخرى على يد أحد هؤلاء الأبطال المغاوير.

وبعد ست ساعات من القتال المتواصل استطاع البرتغاليون بمدافعهم وبنادقهم ودباباتهم (دبابة الحصون من النوع القديم وليست من نوع الدبابات الحديثة) أن يستولوا على القلعة. وكانت نتيجة المعركة استشهاد البطل الحاج إبراهيم بن عفرير (سلطان الجزيرة) مع خمسين من رجاله (وفي رواية ثمانين) وأسر رجل واحد فقط، وتراجع الباقون إلى الجبال لإذكاء روح المقاومة بين سكان سقطرى ضد المحتلين الغاصبين.. وكان الأسير «عمر» رُبّاناً ماهراً استفاد البوكيرك من معلوماته البحرية ومعرفته المواقع الهامة على طول ساحل جنوب الجزيرة العربية والخليج (العربي). وقُتل من البرتغاليين سبعة وجُرح منهم خمسون رجلاً، كانت جروح بعضهم بليغة. وكان من ضمن الجرحى البوكيرك قائد الحملة وابن أخته دي نورنها.

البرتغاليون يحولون مسجد السوق إلى كنيسة

وفي اليوم التالي، قام البرتغاليون المتعصبون بتحويل مسجد السوق إلى كنيسة وسموها كنيسة سيدتنا سيدة النصر Our Lady of the Victory وأقاموا قُدّاساً فيها ترأسَهُ الراهب الفرنسسكاني أنتونيو دي لوريرو Antonio de Loureiro. واستغرقت هذه المعركة نهاية أبريل وأوائل مايو لعام ١٥٠٧م (٩١٢هـ).. وحاول البرتغاليون أن يسترضوا بدو سقطرى النصارى وأنهم من نفس دينهم وعقيدتهم، ولذا لا بدّ أن يتعاونوا مع البرتغاليين ضد المسلمين العرب (المورو) وأن يطهّروا هذه الجزيرة من الدين المحمدي ويطردوا أو يقتلوا

أيّ عربي مسلم. ولكن نصارى سقطرى رفضوا ذلك كله ووقفوا مع أبناء عمومتهم من المهرة المسلمين الذين لم يروا منهم إلا كل سماحة وحسن معاملة.. وهكذا ترى الأوربيين عموماً، والبرتغاليين والأسبان خصوصاً، يختلفون عن نصارى المشرق الذين عاشوا في كنف الإسلام في يسر وسماحة وحرية كاملة وحقوق غير منقوصة، فقد كانوا على مدى التاريخ الإسلامي يعيشون في بحبوحة وأمن وأمان – ولا سيما أن الرسول الكريم قد أوصى بهم خيراً حتى وهو على فراش الموت (وصيّته ﷺ بالنساء وأهل الذمّة).

لذا كان معظم أطباء الخلفاء والوزراء والسلاطين من أهل الكتاب، أهل الذمة على مدى التاريخ الإسلامي، ابتداء من معاوية بن أبي سفيان إلى الناصر صلاح الدين الأيوبي ومن جاء بعده إلى الدولة العثمانية.. بل وصل الأمر بالمسلمين إلى حدّ البلاهة حيث ولّوا النصارى واليهود والصابئة الوزارة (والوزير آنذاك بمثابة رئيس الوزراء اليوم)، وتولّوا تلك المناصب في الدولة العباسية في المشرق، والدولة الأموية في الأندلس، وعند ملوك الطوائف، وفي الدولة الفاطمية، وفي غيرها من الحكومات الإسلامية المختلفة.

والأمر جد مختلف عند نصارى أوربا، فليس للمسلمين إلا السيف أو التنصير أو الطرد من البلاد.. والأمر على ذلك إلى اليوم، كما شاهدناه في البوسنة والهرسك، وفي الشاشان، وفي القوقاس.. وفي فرنسا التي يسمونها بلاد النور ويسمون عاصمتها باريس عاصمة النور!! وما هو إلا ظلام الكفر وتعصب النصارى المقيت الذي تظهر سخائمه في إعلامه القذر الفاجر.

وفي شهر أغسطس من سنة ١٥٠٧م توجّه دي كونها، حسب أوامر ملك البرتغال، ببعض سفنه إلى الهند، بينما توجه البوكيرك إلى عُمان وهرمز، تاركين وراءهم حامية مكونة من مائة جندي تحت قيادة دي نورنها.. وفي رواية أخرى أن البوكيرك توجه إلى عدن وجدة لاحتلالهما.

ولسوء حظ البرتغاليين فإن نصارى سقطرى كانوا متعاونين جدًّا مع أبناء عمومتهم من المسلمين المهرة.. وسرعان ما اتضحت حركاتهم العدوانية ضد البرتغاليين حيث منعوا عنهم الماء والغذاء إلا بكميات ضئيلة.

وعندما عاد البوكيرك بعد ثمانية أشهر عام ١٥٠٨م/ ٩١٣هـ، إلى سقطرى، وجد الحامية في حالة يرثى لها، فغضب غضباً شديداً، وقام بقتل عدد كبير من أبناء سقطرى من المسلمين والنصارى رجالاً ونساءً وأطفالاً (كما هو معتاد منهم).. وفرض على الأهالي أن يزودوا الحامية كل سنة بـ ٦٠٠ رأس من الغنم و٢٠ بقرّة و٤٠ وقراً من التمر. ثم غادر سقطرى ليصبح مندوب ملك البرتغال في الهند عام ١٥١٠/ ١٩١٦هـ.

وقد ذكر المؤرخ الحضرمي وصاحب الحوليات السيد أحمد بن عبد الله بن علوي المعروف بشنبل (من نسل السيد علي بن الفقيه المقدم محمد بن علي آل باعلوي)[1] في أحداث عام ٩١٦هـ/ ١٥١٠م، أن خميس وعمرو ابني الشهيد الحاج السلطان إبراهيم بن عفرير الزايدي الطوارئي المهري، قاما بحملة انتقامية شنّوها من القشن (عاصمة المهرة آنذاك) ضد الفرنجة البرتغاليين الذين كانوا لا يزالون في جزيرة سقطرى، فدخلوها واقتتلوا مع الفرنجة الكفار الذين قتل منهم عشرة وهزموا، فانكفأوا وغنم المسلمون منهم مغنماً.

وبدأ البرتغاليون يتضايقون من بقائهم في سقطرى حيث يواجهون العداء

(١) السيد أحمد بن عبد الله بن علوي المعروف بشنبل، وهو من نسل السيد علي ابن الفقيه المقدم محمد بن علي آل باعلوي. وفاته سنة ٩٢٠هـ/ ١٥١٤م. له «التاريخ» في تاريخ حضرموت من سنة ٥٠١ إلى ٩٢٠ هجرية أي سنة وفاته. وقد قام بطبعه مؤخراً السيد عبد الله الحبشي في صنعاء. وللسيد شنبل «رسائل» مجموعة. ويعتبر كتابه (التاريخ) من المراجع الهامة في تاريخ حضرموت وما حولها.

من الأهالي مسلمين ونصارى.. وتبين لهم أن هناك مرافئ أفضل وأحسن من سقطرى على طول ساحل جنوب الجزيرة العربية مثل عدن والشحر والمكلا.. وعرف البرتغاليون أنهم كانوا واهمين عندما تخيّلوا أن نصارى سقطرى يؤيدونهم، كما كتب ذلك صاحب الحوليات المؤرخ البرتغالي نيقولا دي ريبلو، حيث زعم أن كل النساء يدعين ماريا، وكل الرجال توم (توماس)، وأن البدو النصارى من أهل سقطرى كانوا ودودين مع البرتغاليين.. وأن سكان غرب سقطرى أصبحوا يتحدثون البرتغالية لفرط محبتهم للبرتغال.

واتضحت الحقيقة رويداً رويداً. وتبيّن للبرتغاليين أن سكان سقطرى من النصارى يعادونهم حتى قال كاستنهيدا Castanheda: «إن نصارى سقطرى يفضّلون المورو المسلمين على إخوانهم النصارى البرتغاليين، ويتآمرون معهم ضدنا[1]. ووصف دي جواز De Gois كيف أن سكان سقطرى النصارى ثاروا ضد البرتغاليين وتآمروا ضدهم مع أبناء عمومتهم من المسلمين. وقد منعوا عنهم المؤونة.. وفي خلال فترة وجيزة مات عدد من البرتغاليين في قلعتهم بسبب الاغتيالات والجوع والمرض، حتى أن حاكم سقطرى الجديد فيريرا Ferreria الذي وصل إليها في نوفمبر ١٥٠٩م مات في أغسطس ١٥١٠م.

وكثرت التقارير لدى ملك البرتغال تنصحه بأن يتخلى عن هذه الجزيرة المشاكسة والمرهقة. لذا أمر الملك قائده في الهند البوكيرك بأن يسحب الحامية البرتغالية الموجودة في سقطرى. وبالفعل أرسل البوكيرك سفينتين حربيتين كبيرتين عام ١٥١١م (٩١٧هـ) وسحب الحامية ودكّ القلعة والمسجد، وأخذ معه كل ما يمكن أخذه حتى رداء الكاهن وأدوات الطبخ.

---

(١) فيتالي نعومكين: جزيرة العنقاء.. دراسة لسكان سقطرى مطبعة إثاكا، ريدنج، بريطانيا ١٩٩٣م، ص ٣٧ – ٥١، وبرين دو: سقطرى جزيرة السكينة، ص ٢١ – ٢٤.

وبخروج البرتغاليين، عادت الجزيرة إلى حكم بني عفرار (عفرير) من المهرة، واستمروا على ذلك إلى نوفمبر عام ١٩٦٧م عندما سلّمت بريطانيا كل مناطق الجنوب إلى الجبهة القومية التي كان يسيطر عليها الشيوعيون. ونصحت بريطانيا كل حكام الجنوب من السلاطين والمشايخ بأن يرحلوا وتخلّت عنهم بكل صفاقة، واضطر آخر سلاطين المهرة أحمد بن عبد الله بن عيسى بن أحمد بن سعد بن عفرار وأخوته وحاشيته أن يغادروا المهرة وسقطرى إلى الأبد.

وذكر بعض المؤرخين من البرتغاليين، كما ينقله فيتالي نعومكين في كتابه عن سقطرى أن البوكيرك حاول عام ١٥١٣م (٩١٩هـ) أن يحتل عدن، ولكنه واجه مقاومة شرسة وفشل في ذلك، فمرّ في طريق عودته إلى الهند بجزيرة سقطرى ووجد خمسين رجلاً من المهرة يعيدون بناء القلعة التي هدمها رجاله من قبل سنة ١٥١١م عند انسحابهم منها، فهجم عليهم وقتل منهم رجالاً. ولكنه انسحب من الجزيرة خوفاً من المشاكل الكثيرة التي قد جرّبها مع سقطرى وسكانها.

وفي العام التالي أي عام ١٥١٤م حضر بيرو دي البوكيرك (وهو غير ألفونصو دي البوكيرك القائد المشهور) إلى سقطرى ليتموّن بالمياه لسفنه، ودفع الثمن لسلطان سقطرى.. وفي عام ١٥١٧م وصل إلى سقطرى أسطول ضخم من البرتغاليين مكوناً من ٤٣ سفينة بقيادة سوراس Soares وتموّنوا بالمياه.. ولم يمانع سكان سقطرى ولا سلطانها من دخول السفن البرتغالية للتموين فقط مع دفع الثمن.. وتكرر ذلك عدة مرات، وجاءت السفن البرتغالية للتمويل عام ١٥١٨ وعام ١٥٢٣ وعام ١٥٢٧م.

ولما تأكّد لأهل سقطرى وحكامها من بني عفرار أن البرتغاليين قد تخلّوا عن فكرة الاستيلاء على سقطرى، وأن سفنهم تأتي فقط للتزود بالمياه، فإن سلطان قشن (المهرة) وابن عمه في سقطرى كانوا يبدون الصداقة للسفن البرتغالية.. وأظهروا بوضوح أنهم يفضلون البرتغاليين الذين تخلوا تماماً عن

احتلال سقطرى على الأوربيين الآخرين وخاصة منافسيهم من الروميين(١) الذين لهم أطماع في سقطرى. ذكر ذلك فيتالي نعومكين في كتابه عن سقطرى نقلاً عن خطاب ألفونصو دي ميلو Alfonso de Melo إلى ملك البرتغال جاو الثاني Joao II عام ١٥٢٧م.

وفي عام ١٥٤١م، زار الأدميرال جوا دي كاسترو سقطرى، وزار مدينة السوق في الشرق، وقلنسية في الغرب، وكتب في مذكراته أن السقطريين يحترمون الإنجيل وأنهم قد تنصروا منذ زمن قديم جداً بواسطة القديس توماس عندما تحطمت سفينته بالقرب من سقطرى في طريقه إلى الهند، فنزل إلى سقطرى وبنى بها كنيسة من أخشاب سفينته المحطمة. وذكر دي كاسترو «أن السكان المحليين قد طال بهم العهد حتى جهلوا الديانة المسيحية رغم وجود عدد من الكنائس عليها الصلبان، وهم يرغبون في تعلم دينهم وآدابه.. وأن الرجال يتسمّون باسم بيير وجين وأندريه، أما النساء فكلهن ماريا!!! وليس لهؤلاء السكان ملك أو أسقف أو مطران.. ويعيشون حياة بدائية كالوحوش دون نظام قانوني، أو سياسي، أو قضائي.. ولسكان سقطرى الأصليين وسامة، وهم طوال القامة متناسقي الأعضاء، ووجوه الرجال محترقة من الشمس، ويمشي الرجال شبه عراة يتزرون بمئزر يدعى الكمبل. وللنساء وسامة وجمال معتدل.. وليس لأهل سقطرى (من النصارى) سلاح، لا هجومي ولا دفاعي.. (بعض هذا الكلام غير دقيق وفيه وهم وخطأ).

«والجزيرة فقيرة وليس فيها سوى الصبر الذي يصدّر بكميات جيدة إلى مختلف بقاع العالم، وشجرة دم الأخوين (دم التنين).. والجزيرة جبلية وعرة.. وفيها أنواع من الطيور المختلفة ولا يزرع فيها حبوب ولا قمح ولا أرز. ويكثر

---

(١) كانوا يطلقون اسم الروم على سكان الأناضول وفيها كانت الدولة البيزنطية، فلما دخلها العثمانيون استمر إطلاق اسم الروم على سكان الأناضول المسلمين.

بها النخيل ويعتبر التمر غذاءهم الأساسي مع اللبن من الأغنام والأبقار والماعز.. وتنمو هنا بعض الأعشاب والأشجار الطبية وأشجار الريحان والحبق ذات الرائحة الزكية» انتهى كلام دي كاسترو.

وفي عام ١٥٤٤م وصل راهبان من الفرنسيسكان البرتغاليين إلى سقطرى لنشر المسيحية الكاثوليكية ولتعميد أهلها. وقد زعما (كذبا) أنهما قد قاما بتعميد جميع السكان وتحويلهم إلى نصارى كاثوليك. وفي عام ١٥٦٢م زار البادري (الأب) جاسبر كويلهو، والبادري جوا لوبس، جزيرة سقطرى، ومكثا فيها ينشران المسيحية الكاثوليكية حتى لاقا حتفيهما (بالموت الطبيعي). وتبعهما البادري ليوناردو دا جراسا والبادري فاليرو دي لوريتو.

وفي عام ١٥٤٤م، كتب حاكم شاول Chaul إلى ملكة البرتغال يتحدث عن سقطرى التي زارها قائلاً: «إن الشيخ حاكم سقطرى لا يجبر أحداً من السكان على أن يعتنق الإسلام بل يترك لهم الحرية كاملة في ممارسة شعائرهم. ولكن سيكون في مصلحة إلَهِنا القوي أن نبيده. رغم أن الشيخ يقول إنه صديقنا، وأن بلاده هي الوحيدة التي تستطيع سفننا أن ترسو في سواحلها وموانيها بكل أمان وترحاب في أثناء سفرنا إلى جوا في الهند.

«وعلينا في الوقت الحاضر أن لا نُغضب الشيخ، لأننا لو فعلنا ذلك لطلب من الأتراك أن يأتوا إلى قشن (عاصمة المهرة) وإلى سقطرى. وذلك سيكون أسوأ شيء نرغب فيه. وقد قام حاكم قشن وحاكم سقطرى بالتحالف معنا خوفاً من الأتراك. وسنحتاج إلى قوة كبيرة جداً لإخضاع المهرة وسقطرى. تقدّر بخمسة عشر إلى عشرين ألف جندي. وذلك أمر متعذِّر علينا في الوقت الحاضر».

وهكذا كان البرتغاليون مثل بقية الأوربيين يعاملون المسلمين في كل مكان وزمان بنيّة الغدر والفتك بهم عندما تحين الفرصة، بينما يستخدمون أساليب الخداع والكذب وإظهار الصداقة..

ومن مآسي المسلمين على مدى التاريخ أنهم يتحالفون مع أعداء الإسلام ضد مناوئيهم السياسيين من المسلمين. حدث ذلك في الأندلس، وفي الشام أثناء الحروب الصليبية، وفي القوقاس، وفي المغرب العربي.. وفي جنوب الجزيرة العربية، واستمر ذلك إلى العصر الحديث حيث استعان الشريف حسين ببريطانيا لمحاربة الأتراك، وهكذا دواليك.. ولا يتعلّم المسلمون قط للأسف الشديد وينخدعون بمعسول الكلام.. والأعداء يتربّصون بهم ويثيرون الأخ على أخيه والابن على أبيه.. المسلمون للأسف بأسهم بينهم شديد، ويتعاونون مع أعداء الإسلام لإنهاء خلافاتهم الصغيرة الحقيرة.

وبذل البرتغاليون جهوداً مضنية في تنصير سكان سقطرى.. ورغم الجهود الضخمة التي بذلوها، بل ربما بسبب هذه الجهود تحول سكان سقطرى في الجبال من نصرانيتهم القديمة إلى الإسلام.. وبحلول القرن السابع عشر الميلادي كادت تختفي النصرانية. وعندما زار ما يسمونه القديس أغناطيوس لويولا – St Ignatius of Loyola سقطرى (في النصف الثاني من القرن السادس عشر) غضب من سكان سقطرى النصارى لضعف عقيدتهم وعدم اهتمامهم بالدين.

وفي عام ١٦١٢م وصل البحار لويس دا جاما إلى سواحل جزيرتي سمحة ودرسة (من جزر سقطرى) وكان بحّارته يعانون من الأمراض والوباء، فقام الأهالي المسلمون بمساعدته وحملوا الجنود والبحارة إلى البحر، وأعطوهم الغذاء والدواء، ورغم ذلك مات منهم أربعمائة شخص.

وغضب البرتغاليون لذلك، واعتبروا سكان سقطرى وحاكمها مسؤولين عن هذه الوفيات بزعم أنهم لم يقدموا لهم الدعم الكافي، ولم يعتنوا بمداواة المرضى كما ينبغي، لذا توجه القائد جاسبار دي أبريو دي ليما Gaspar de Abrue de Lima عام ١٦١٤م في حملة تأديبية للجزيرة وللقبض على حاكمها

مع رجاله.. ولكنه فشل في مهمته تلك فشلاً ذريعاً.

وضعفت سلطة البرتغاليين في القرن السابع عشر وبدأ نجمهم في الأفول، واستطاع سلطان عُمان ناصر بن مرشد بن سلطان (حاكم عُمان في الفترة ١٦٢٤ – ١٦٤٨ م) أن يهزم البرتغاليين وأن يطردهم من عدد من المواقع، وأن يفرض على من بقي منهم الجزية، كما حدَّد مسار تجارتهم.

ويعترف الراهب فينسينزو Vincenzo الذي زار سقطرى في أواسط القرن السابع عشر أن المسيحية قد كات تختفي من الجزيرة وأن بقاياها ضئيلة جداً، وأن السكان النصارى قد تحولوا إلى الإسلام زرافات ووحدانا.

ويقول فيتالي نعومكين: واختفت آثار البرتغال من سقطرى، ما عدا بقايا القلعة المهدمة في السوق، وبقايا المسجد الذي حوّله البرتغاليون إلى كنيسة، وبعض أشجار البرتقال التي أدخلوها إلى الجزيرة.

«ولا يذكر أهل سقطرى اليوم أي شيء عن البرتغاليين مما يؤكد أن احتلال البرتغاليين لسقطرى وتكرر زياراتهم لها كان فترة عابرة لم تترك أي أثر.. ومع ذلك، فهناك أغنية لبعض سكان الجبال في سقطرى تذكر أنهم كانوا يعيشون في بلد غني وسعيد ولكن ذنوبهم أرسلتهم إلى هذه الجزيرة». انتهى كلام نعومكين من كتابه «سقطرى جزيرة العنقاء».

ولكن ويلستد البريطاني ذكر، حينما زار سقطرى عام ١٨٣٤م، أن قبائل السيمي والسيفي والدرمي والزرزحي ذكروا أنهم يرجعون إلى أصول برتغالية وأنهم كانوا يعرفون باسم الكمهين Camhane، ولعل ذلك تحريف لاسم القائد البرتغالي دي كونها.. ويقول ويلستد إن هؤلاء ذوي ملامح أوروبية مختلطة بالدماء العربية وهم أطول من نظرائهم ولون بشرتهم أفتح من قرنائهم. وشعرهم سبط وأنوفهم مستقيمة وبحجم أصغر وشفاه دقيقة. ويسكنون جبال

حجهر.. ولكنهم جميعاً مسلمون ولم يبق منهم أحد على نصرانيته بعد أن اختلطوا بسكان الجزيرة من المهرة المسلمين(١).

(١) أحمد العبيدلي: سكان سقطرى من المصادر العربية المبكرة، صحيفة الحياة، العدد ١١١٠٨ بتاريخ ٢٣/ ١/ ١٤١٤هـ الموافق ١٣/ ٧/ ١٩٩٣م، وملحق كتاب برين دو: سقطرى جزيرة السكينة، الذي نقل فيه جزءاً من مذكرات ويلستد ص ٢٠٥ – ٢١٩.

هجوم البرتغاليين على الشحر[1] عدة مرات

أولها عام ٩٢٩هـ/ ١٥٢٤م

بعد أن فشل البرتغاليون في احتلال سقطرى وتأكدوا من عدم ملاءمتها لهم، بدأوا يتجهون إلى احتلال مواقع هامة على طول الساحل الجنوبي لجزيرة العرب. ومن تلك المواقع الهامة جدًّا مدينة الشحر، ميناء حضرموت المشهور المعروف على مدى التاريخ. وكانت أول غارة برتغالية على الشحر في ٩ ربيع الثاني سنة ٩٢٩هـ/ ١٥٢٤م.

وصفها بدقة الأستاذ محمد عبد القادر بامطرف في كتابه «الشهداء السبعة»[2] نقلاً عن شاهد عيان هو الربان باسباع، فقال:

«ولما وصلت سفن البرتغاليين إلى ميناء الشحر نزل ثلاثة جنود يحملون رسالة من القائد لويز دي منزيس إلى السلطان بدر أبي طويرق (الذي كان غائباً عن الشحر في جولة تفقدية في الداخل)، وقابلوا نائبه الأمير مطران وسلموه رسالة قائدهم، ومضمون الرسالة أن تاجراً برتغالياً اسمه ألفونسو دي فيجا

(١) تعتبر الشحر من أهم موانئ حضرموت في الماضي، حتى إن ساحل حضرموت كله كان يسمى الشحر، بل وصل الأمر في بعض الأحيان لإطلاق اسم الشحر على حضرموت كلها.

(٢) محمد عبد القادر بامطرف: كتاب الشهداء السبعة، وزارة الثقافة والسياحة، اليمن الديمقراطية ووزارة الثقافة بغداد ١٩٧٤، ص ٦٥ – ٨١.

(Alfonso de Veiga) مات في الشحر منذ خمسة أشهر، وأن السلطان بدر استولى على أمواله، وأن قائد الأسطول يطلب تسليم الأموال بدون تأخير.

وردّ الأمير مطران أنه لا يعلم شيئاً عن تلك القصة، وأنّ السلطان بدر سيأتي خلال أيام وسوف يبذل كل اهتمام بهذه القضية، وأرسل مع الجنود هدية للقائد.

وكان الأمير مطران قد بلغه ما فعله البرتغاليون بمدينة الحامي من أضرار بالسفن الراسية بها وبالمزارع الساحلية، فأراد أن يلاطفهم حتى يأتي السلطان بدر.

ودعا الأمير مطران أعيان المدينة للاجتماع لتدارس الأمر (لعدم وجود بنادق معهم وهو سلاح البرتغاليين الفتاك، وتقرَّر ترحيل النساء والأطفال والممتلكات الثمينة إلى قرية تبالة الداخلية والمجاورة للشحر.

وتبيّن عزم القائد البرتغالي على الهجوم عندما ردّ الهدية بكل جفوة، واتخذ قصة البرتغالي الذي مات في الشحر المزعومة حجة للهجوم على الشحر، ولذا عزم الأمير مطران على المقاومة الأهلية وطلب الاجتماع بالآتية أسماؤهم:

١- الفقيه الشيخ أحمد بن عبد الله بالحاج بافضل، مدير مدرسة بافضل في الشحر (وهو من تريم أصلاً).

٢- السيد حسين بن عبد الله العيدروس، وكان يعمل بالتجارة. وهو دون ريب ليس السيد حسين بن عبد الله العيدروس أخا أبي بكر العيدروس العدني، لأنه قد توفى سنة ٩١٧هـ ودفن في مدينة تريم. ولعله حسين ابن عبد الله بن شيخ العيدروس أو أحد أقارب العيدروس العدني. وهذا يوضح سبب الالتباس الذي وقع فيه أصحاب كتاب «أولياء الله

الصالحين دراسة أنثرُبولوجية حول العيدروس»[١].

٣- الشيخ سالم بن صالح باعوين المهري التاجر.

٤- الفقيه العلّامة الشيخ يعقوب بن صالح الحريضي (نسبة إلى حريضة في دوعن) مدير مدرسة باهارون.

٥- الشيخ أحمد بن رضوان بافضل، تاجر.

٦- الفقيه الشيخ فضل بن رضوان بافضل، مدير مدرسة بابهير، وهو أخُ الشيخ أحمد بن رضوان بافضل التاجر.

وقد اتفقوا جميعاً على الآتي:

١- الإسراع بنقل النساء والأطفال إلى القرى المجاورة.

٢- تكوين قيادات من رؤساء الحارات وأعوانهم للمقاومة.

٣- تخصيص فرق لمكافحة الحرائق وإغاثة الجرحى ودفن القتلى.

٤- حثّ الناس على اجتناب السرقات والنهب والسطو على أفراد الجاليات الأجنبية المقيمين في المدينة، وعدم التعرض لممتلكاتهم بأي شكل (وهو موقف إنساني وإسلامي نبيل).

٥- أن يحث الشيخ أحمد بن عبد الله بالحاج بافضل المصلين اليوم التالي (يوم الجمعة) في المسجد الجامع، على المقاومة والدفاع عن وطنهم وأعراضهم وأموالهم وعن فضل الجهاد.

٦- إرسال رسالة مستعجلة إلى الأمير عطيف بن علي دحدح، قائم مقام السلطان، في منطقة المشقاحي لإرسال النجدة العاجلة.

---

(١) ممدوح ناصر فدعق، نورا محمد الشامي، وراقية علي السفاري، وماجدة عبدالمجيد، وإياد علي الدبج: «أولياء الله الصالحين (دراسة أنثربولوجية حول العيدروس)» بحث جامعي (جامعة عدن)، غير مطبوع.

٧- الدخول في حوار مطول مع القائد البرتغالي لكسب الوقت.

٨- إرسال تقرير عاجل إلى السلطان بدر أبو طويرق واستعجال عودته إلى الشحر.

وقد قام كل واحد من هؤلاء بالمهمة خير قيام، ووزّعوا السلاح الأبيض (خناجر وسيوف ورماح وفؤوس)، وللرماة أقواس وأسهم، وحجارة كبيرة لترمى من أسطح المنازل على البرتغاليين عند دخولهم الحارات. وهكذا هبّت المدينة الصغيرة بسلاحها الأبيض وكل ما تملك لمقاومة الغازي المجرم الذي لا يتورع عن أي شيء (قتل النساء والأطفال وسبيهم إن أمكن وسرقة ونهب الأموال وقتل كل من يجدونه من الرجال).

ومع بزوغ فجر الجمعة العاشر من شهر ربيع الثاني سنة ٩٢٩هـ/ ١٥٢٣م نزل البرتغاليون في قواربهم الصغيرة على دفعات، وكان عددهم أربعمائة مسلحين بالبنادق النارية ومعدات الحريق، وكميات من النفط والبارود. وأول شيء فعلوه أنهم أضرموا النار في مستودعات الأخشاب، وفي أحواض بناء السفن الشراعية الممتدة على الساحل. ثم توغلوا في أزقة حارة «القرية» القريبة من الساحل، وهم يطلقون النار على كل من صادفهم من الأهالي. وبدأت معركة غير متكافئة مع الأهالي بسيوفهم وخناجرهم وفؤوسهم ورماحهم بل وعصيّهم، ضد البرتغاليين المدججين بالبنادق النارية والأسلحة الحديثة (في ذلك الزمن).

وكم فعل البرتغاليون من الأفاعيل من حرق وقتل وإطلاق الخيل والنفط والحرائق والنهب، ومع ذلك تمكن الأهالي من قتل سبعة وثلاثين برتغاليًّا، وقتل في المقابل ثمانون من أهل الشحر بينهم سبعة من الهندوس المقيمين في المدينة والذين قاتلوا مع الأهالي. وقُتل الستة الذين جمعهم الأمير مطران ليلة الغزو واستشارهم فهبّوا كلهم للقتال ولتحريض الناس عليه وهم:

- الفقيه يعقوب بن صالح الحريضي.
- الفقيه أحمد بن عبد الله بالحاج بافضل.
- الفقيه فضل بن رضوان بافضل.
- التاجر سالم بن صالح باعوين المهري.
- التاجر حسين عبد الله العيدروس.
- التاجر أحمد بن رضوان بافضل.

واستمرت المعركة ثلاثة أيام، وقتل في آخر أيامها الأمير مطران. وبعد أن تكبّد البرتغاليون خسائر فادحة انسحبوا إلى سفنهم، وشاهدوا النجدة قادمة لأهل الشحر من مشقاص (شرق الشحر) فما كان منهم إلا أن أقلعت سفنهم.

وكان عدد سفن البرتغاليين أربع عشرة سفينة محملة بالجنود، فخذلهم الله بفضله ثم بثبات الأمير والعلماء والتجار في المقاومة البطولية الخارقة.

ولكن للأسف، بعد استشهاد الأمير وانفلات الأمر، قام بعض الغوغائيين وبعض من سلم من أفراد الحامية بنهب ما تبقّى من حوانيت. ولكن دخول النجدة من جنود الأمير عطيف بن علي دحدح مدينة الشحر أعادت الأمن وألقت القبض على العابثين، وأعادت المنهوبات إلى أهلها. واستتبّ بذلك الأمن مرة أخرى.

وهكذا كان الأمير مطران قائداً للمقاومة الباسلة وأحد الشهداء السبعة، الذين تصدّوا للبرتغاليين ونظموا المقاومة الشعبية أحسن تنظيم، واستطاعوا بوسائلهم البدائية أن يدحروا البرتغاليين ويكبدونهم العديد من القتلى (سبعة وثلاثين قتيلاً) وعشرات الجرحى، حتى اضطروا للعودة إلى سفنهم، فلما رأوا النجدة التي وصلت في آخر اليوم الثالث من القتال وعلى رأسها الأمير عطيف ابن علي دحدح، أطلقوا لسفنهم العنان تمخر البحر عائدين إلى قواعدهم في الهند.

السيد محمد بن هاشم بن طاهر يصف الهجوم البرتغالي على الشحر

وقد كتب المؤرخ العلّامة السيد محمد بن هاشم بن طاهر العلوي في كتابه «تاريخ الدولة الكثيرية» يصف وقائع هذه الغارة، فقال:

«وفي صبيحة ذات يوم، أقبلت سفائن صيد السمك من عرض البحر مذعورة قائلة أنها رأت عدداً من المراكب الغريبة مقبلة نحو البلاد. وسرعان ما انتشر هذا الخبر المشؤوم في الشحر، فأقبل الناس يهرعون نحو السيف (يقصد سيف البحر وهو الميناء). وصعد النساء والكسالى على سطوح البيوت لينظروا ما ذُكر. وما لبثت السفائن أن تراءت للملأ متجهة نحو الشاطئ، يبلغ عددها أربع عشرة سفينة، فألقت مراسيها، وكان ذلك صبيحة يوم الخميس لتسع خلت من ربيع الثاني سنة ٩٢٩هـ. ولم يبلغنا نزول أحد منها ذلك اليوم ولا الليلة التي تلته، ولا طلع إليها أحد. ولكن لم يشعر أهل البلد عند فجر الجمعة إلا بالضوضاء والرطانة المزعجة تحت البيوت وفي الأزقة والطرقات. وارتفع الضجيج وعلا صراخ الصارخين بالقتال. وإذا بالإفرنج يتسوّرون الديار وينهبونها، وإذا بهم يحرقون ويخربون. وتصدى الناس لقتالهم، واستمرّ القتل في الفريقين[(١)]. وقتل من أعيان الشحر جماعة، منهم الأمير مطران بن منصور والإمام العلامة الشيخ أحمد بن عبد الرحم بالحاج بافضل[(٢)]. وكان هذا الإمام ممن قاتل قتال الأبطال. وفعل الأفاعيل في هجماته، وأرسل رسلاً مستعجلين

(١) كان المفروض أن يستعد أهل الشحر لقتال أعدائهم منذ أن رأوا سفنهم لا أن ينتظروا ثلاثة أيام حتى تركوهم يهجمون عليهم في ديارهم. وربما كان ذلك بسبب عدم معرفتهم وتوقعهم أن هذه السفن الغريبة ربما جاءت لأغراض سلمية مثل التجارة.. ولكن هذا ليس بعذر، وكان الواجب معرفة أهداف العدو منذ وصوله إلى سواحل الشحر.

(٢) (٨٧٧ – ٩٢٩هـ) فقيه شافعي له تصانيف منها: «النكت على الإرشاد» في الفقه، و«النكت على روض ابن المقري» في مجلدين.

برسائل مؤثرة إلى حضرموت (الداخل) يستنفرهم للجهاد. وممن استشهد أيضاً الشيخان أحمد وفضل إبنا رضوان بافضل، والفقيه العالم يعقوب بن صالح الحريضي (نسبة إلى مدينة حريضة في دوعن) وخلق كثير من المسلمين رحمهم الله وأثابهم بفضله آمين[١].

«ومكث الإفرنج بالشحر الجمعة والسبت والأحد، ثم انسلّوا ليلة الإثنين إلى سفائنهم وضربوا بها عرض البحر مقلعين نحو الهند. هذا كله صار والسلطان بدر (أبو طويرق الكثيري) في أول أدوار سلطنته، وتكرر بعد ذلك تحكك الإفرنج بالشحر، غير أنهم لم يزالوا في كل مرة يعودون، راضين من الغنيمة بالإياب» انتهى كلام السيد محمد بن هاشم كما نقله عنه محمد بن علي باحنان في تاريخه «جواهر تاريخ الأحقاف»[٢]. وقد سبق ذكر كتاب «الشهداء السبعة» لبامطرف وهو ينقل عن شاهد عيان هو الربان باسباع.

المعركة الثانية مع البرتغاليين في الشحر وهزيمتهم

عاود البرتغاليون هجومهم على الشحر للمرة الثانية في سنة ٩٤٢هـ/ ١٥٣٦م وخاصة أنهم قد تعرّفوا على السواحل الجنوبية لجزيرة العرب واحتلوا لفترات محدودة بعض مناطقها. وكان الأمل لا يزال يراودهم في احتلال الشحر. وفي هذه الفترة شهدت حضرموت دولة قوية أسسها بدر (أبو طويرق) الكثيري.. وعندما عاد البرتغاليون لمهاجمة الشحر كان السلطان بدر قد استعدّ لهذه المعركة فهزمهم هزيمة نكراء في البرّ والبحر.

---

(١) إن موقف العلماء مشرّف جدًّا فقد جاهدوا جهاد الأبطال، واشتركوا في القتال واستشهد عدد منهم، وكانوا في مقدمة الصفوف، ولم يكتفوا بالتحريض على القتال. وهذا هو المفروض فيهم دائماً، إلا من عذره الله بسبب عجز أو شيخوخة أو مرض.

(٢) جواهر تاريخ الأحقاف لمحمد بن علي باحنان، مكتبة النهضة الحديثة بمكة المكرمة، ١٣٨٢هـ/ ١٩٦٢م، ج٢/ ١٨٦ – ١٨٧.

وقد وصف المؤرخون تلك المعركة، ومنهم باسخله في تاريخه، والطيِّب محمد بن عمر بافقيه في كتابه «تاريخ الشحر»، والعيدروس في «النور السافر في أعلام القرن العاشر» والسيد محمد بن هاشم في «تاريخ الدولة الكثيرية». وقد نقل المؤرخ محمد بن علي باحنان في كتابه «جواهر تاريخ الأحقاف»[1] ما كتبه السيد محمد بن هاشم حول هذه الحملة البرتغالية، فقال:

«في سنة ٩٤٢هـ (١٥٣٦م) أقبل الإفرنج بجمع عظيم من السفن الكبار والصغار وصادف هجومهم على الشحر وجود السلطان بها، فأعدّ لهم العدّة، فلما نزل أبطالهم إلى البرّ أرسل إلى سفائنهم من يأسرها ومن فيها. والتحم القتال بحراً وبرًّا، واختلط الحابل بالنابل فكثر الطعن والصراع كتفاً لكتف، وحضر ذلك أشراف الجوف بعد عودتهم من المشقاص.. ورأى الإفرنج من حامية الشحر ما لم يعهدوا مثله قط في الماضي من النزال والكفاح، وأصبح يوم الأحد لخمس بقين من رمضان والشوارع لا يخلو كلٌّ منها من قتيل، أكثرهم من الإفرنج. وعلم الذين في البرّ بأن سفائنهم سقطت في يد بدر وأن جنودها يسحبونها إلى السيف (الميناء) سحباً، ورجالها أسارى يقادون بالأكبال، فلم يسعهم، وقد تيقنوا من الهلاك المحيط بهم، إلا أن يطلبوا الأمان ويسلّموا أنفسهم أسارى، فأمّنهم السلطان بدر، ومنهم القبطان الأكبر (أي قائد الحملة)، وذلك عند حلول وقت الظهر، ثم فرّقهم على ضباطه فجعل للأشراف عشرة أسارى، وللعساكر الزيود عشرة، وللعسكر من يافع عشرة، وللعبيد النوبيين عشرة، واستولى على خشبهم (سفنهم)، أربع عشرة خشبة (سفينة) كباراً.. وقد هرب منهم نحو مائة شخص وخشبة من خشبهم، وعثرت جنود بدر على جماعة منهم في البيوت مستخفين بعد هزيمتهم الساحقة، فكان جملة المأسورين منهم سبعين رجلاً.

(١) جواهر تاريخ الأحقاف: ج٢/ ١٩١ – ١٩٤.

«ثم وصل جماعة منهم من جهة سواحل إفريقيا الشرقية ومعهم مال، فأخذ السلطان مالهم وقيّدهم مع أصحابهم. ثم بعد أن تمّ الأمر أرسل السلطان بدر رحمه الله خمسة وثلاثين رجلاً منهم في خشبة (سفينة) إلى السلطان العثماني، فسافروا بهم إلى جدة، فلما وصلوا إلى مكان يقال له الثغر قريباً من جدة، انطلق من القيود سبعة منهم، وهجموا على رجال الخشبة وهمّوا بالبطش بهم، فتألب عليهم رجال السفينة وأفنوا السبعة المذكورين بأكملهم، وأرسلوا الباقين في غراب كبير (قارب كبير).

«وأرسل (السلطان) أيضاً إلى ظفار أحد عشر شخصاً من الإفرنج قُتل منهم ستة، وأما الخمسة الباقون فأرسلهم السلطان محمد بن عبد الله أخو السلطان بدر، وهو يومئذ والي ظفار، إلى هرمز. وهذا من جملة الأسباب التي أدت إلى اختلافه مع أخيه بدر.

«وخطر للسلطان بدر أن يذهب فيصيّف في حضرموت، فصعد إليها واستصحب معه ثلاثين شخصاً من الإفرنج الأسارى في يوم الإثنين السابع عشر من ربيع الأول (سنة ٩٤٣هـ/ ١٥٣٧م)، وأعقب ذلك دوام الاتصال بين السلطان بدر والإفرنج من حرب إلى صلح، ومن صلح إلى حرب، ومن قتل إلى أمان، وكثر أسارى الإفرنج عنده، واختلط الأهالي بهم، وأنس السلطان ببعضهم فجعلهم من ندمائه[1]. وظهر من بعض هؤلاء نوايا سيئة وخيانة فنكّل بهم.

«وفي ذات ليلة، وهو بالشحر، تآمر القوم على قتله، وكانوا مجتمعين معه في بيت، فأغلقوا عليه الأبواب، وأسرعت بعض الجواري فأسرّت إليه الخبر، فلم يجد له مخرجاً إلا من بيت الخلاء، فخرج وسلّمه الله، وأصبح ذلك اليوم متغيِّراً منهم، ثم أمر بهم فقتلوا عن آخرهم وبعث برؤوسهم إلى السلطان سليم (العثماني).

---

(١) كيف يجعلهم السلطان من ندمائه بعد أن استعرّت الحرب بينه وبينهم؟ وهل كان السلطان يجلس لشرب الخمور أيضاً؟ هذه المشكلة كثيرة الورود في تاريخ السلاطين والحكام على مدى التاريخ الإسلامي، إلا من عصم ربك.

«وفيها (أي ٩٤٣هـ/ ١٥٣٧م) جهَّز عاهل الدولة العثمانية جيشاً يبلغ أربعين ألفاً تحت قيادة الوزير سليمان باشا يريد حرب البرتغال، وبعد أن طلب بدر (الكثيري) ذلك الإنجاد منه، فقصد القائد الشحر في غارب (قارب) يقلّ ثلاثين تركيًّا، فلما حضر القائد بين يدي بدر قدم له مرسومين وخلعتين من السلطان سليمان بن سليم، وعاد القائد من الشحر معززاً بالهدية السنية له وللسلطان. ولما وصلت التجريدة (الحملة البحرية) إلى جدة، رأى السلطان سليمان أنها غير كافية لهجوم البرتغال بالهند، فأمر بالعودة إلى مصر ومضاعفة الاستعداد.

«وحاول سنان باشا احتلال الشحر سنة ٩٤٤هـ/ ١٥٣٨م، فحصنها بدر أبو طويرق ومنعها، فلم يظفر التركي بشيء. ثم عاد إلى اليمن لاحتلالها، فثار أهل اليمن جميعاً ضده، وانتقض عليه أهل عدن وولّوا عليهم علي بن سليمان البدوي (صاحب خنفر) سنة ٩٤٣هـ/ ١٥٣٧م وذلك لشدة كراهية أهل عدن للترك لقتلهم الوالي عامر بن داود الطاهري، فقد تعاهدوا مع البرتغال على أن يكونوا يداً واحدة ضد الترك. فخاف بدر (أبو طويرق) أن يقوى نفوذ البرتغاليين في عدن ويستولوا على حضرموت، وقد منع الترك. لذلك أرسل جيشه إلى زبيد لفك حصار الترك وألزم أهل اليمن طاعتهم ليتمكنوا من سحق البرتغاليين. وفعلاً ساروا بالجيش التركي والحضرمي إلى عدن واحتلوها سنة ٩٤٥هـ/ ١٥٣٩م وقتلوا علي بن سليمان البدوي والي عدن وبعضاً من رجاله، وقضوا على سلطة البرتغاليين.

«وعاود **البرتغاليون** هجومهم على الشحر واحتلوها عام **١٠٩٦هـ/ ١٦٨٦م** ولكنهم واجهوا مقاومة باسلة من الأهالي، واستشهد منهم خلق كثير بينهم عدد من العلماء والصلحاء من السادة والمشايخ. واستطاعوا أن يطردوا الإفرنج عام ١٠٩٧هـ/ ١٦٨٧م بعد معارك طاحنة».

استنجاد سلطان المهرة بالبرتغاليين

رغم الحروب المتكررة التي خاضها المهرة حكام قشن وسقطرى ضد البرتغاليين، إلا أنهم حسّنوا علاقاتهم مع البرتغاليين للأسباب التالية:

١- يأس البرتغاليين من الاستيلاء على سقطرى أو قشن بعد تجربتهم المريرة في سقطرى (١٥٠٧ – ١٥١١م). وتحوّلت العلاقات إلى علاقات تجارية، واستفاد أهل سقطرى من رسو السفن البرتغالية وأخذهم الأموال في مقابل تموين السفن بالمياه ورسوّها في موانيهم.
٢- خوف المهرة من الأوربيين الآخرين. ولذا أوجدوا نوعاً من العلاقة مع البرتغاليين.
٣- قيام السلطان بدر الكثيري بالهجوم على المهرة والاستيلاء على عاصمتهم قشن في ٢ ربيع الثاني عام ٩٥١هـ/ ١٥٤٥م.

وكانت الحرب بين المهرة والسلطان بدر سجالاً في أول الأمر، بل وصل المهرة إلى الشحر وهاجموها. ولكن السلطان بدر تمكن من دحرهم، ثم استولى على أرضهم. وبنى حصناً في قشن، وجعل على أهل المهرة حاكماً من قِبَلِه هو أحمد مطران، ومعه الفقيه العلامة محمد بن عمر بحرق.

وثار المهرة واستردّوا بلادهم وقتلوا الأمير أحمد مطران. فهاجمهم السلطان بدر واستولى على قشن مرة أخرى بعد قتال عنيف في ١٧ جمادى الأولى ٩٥١هـ/ ١٥٤٥م. ونتيجة لذلك كله، توجَّه سعيد بن عفرار المهري سِرًّا إلى الهند مستنجداً بالبرتغاليين، فجاء بهم إلى قشن وحصرها بهم، ثم استولى على الحصن في ٢٩ صفر سنة ٩٥٥هـ/ ١٥٤٩م وقتلوا جميع عساكر بدر.

ولما وصل الخبر إلى السلطان بدر الكثيري جهَّز جيشاً كبيراً، فلما وصل إلى حيريج جاء سعيد بن عفرار المهري وصالح السلطان بدر، وأن لا يستعين بالبرتغاليين الكفرة ضده.

الهجوم البرتغالي على عدن

الحملة الأولى: فبراير ١٥١٣م/ محرّم ٩١٩هـ

كانت عدن تعرف باسم جبل طارق الشرق، وتتحكم تماماً في باب المندب - المدخل الجنوبي للبحر الأحمر - وتنفتح على خليج عدن وبحر العرب والمحيط الهندي، وبالتالي يمكن الوصول إلى شرق إفريقيا (الحبشة، إريتريا، الصومال، كينيا، تنزانيا إلى مدغشقر) وإلى الهند (ساحل الماليبار) ومنها إلى مالقا (ماليزيا وأندونيسيا). واشتهرت عدن بأنها أكبر ميناء تجاري في جنوب بلاد العرب. وقد بلغ سكانها في آخر عهود الطاهريين نحو ستين ألف نسمة.. وبطبيعة الحال كان سكانها اليمنيون العرب يستضيفون جاليات من كل لون ودين وجنس، فهناك أولاً المسلمون والعرب من مصر والشام وفارس، وهناك أعداد غير قليلة من الهند مسلمين وهندوس، وهناك أعداد كبيرة من الصومال وبعض الأحباش..إلخ. وهناك جالية يهودية كبيرة، وفيها من كل جنس ولون.

وقد زار عدن «لودفيكو دي فارتيما» البرتغالي عام ١٥٠٣م/ ٩٠٩هـ ، للتجسّس عليها ومعرفة أحوالها. وقد أصاب الناس في عدن الذعر من ظهور البرتغاليين، لما سمعوه من وحشيتهم المتناهية، ولتحطيمهم السفن وقتل من فيها من التجار أو الحجاج. وقد كان عامر بن عبد الوهاب مشغولاً بالحروب الداخلية، وخاصة مع الإمام يحيى شرف الدين، ولكنه أمر بالاستعداد لمواجهة البرتغاليين والدفاع عن البلد. وقام مرجان الظافري حاكم عدن القوي

والسياسي الماهر بتدعيم الدفاعات. وقام السلطان عبد الوهاب بإرسال أربع عشرة سفينة لمطاردة البرتغاليين وذلك في شوال ٩١٦هـ/ ١٥٠٧م، شحنها بالمتطوعين بما فيهم الفقهاء، فكانوا فريسة سهلة للبرتغاليين. فلجأ عامر بن عبدالوهاب إلى المماليك[1].

وفي فبراير ١٥١٣م/ محرم ٩١٩هـ ، خرجت حملة كبرى من جوا (في الساحل الغربي للهند حيث المستعمرة البرتغالية) بقيادة ألفونصو دي البوكيرك تتألف من عشرين سفينة وألف وسبعمائة جندي برتغالي وثمانمائة من الهنود المليباريين، واتجهت نحو عدن لاحتلالها.

ويذكر المؤرخ البرتغالي «فارياسوزا»[2] أنه عند وصول الحملة البرتغالية إلى عدن أرسل إليهم حاكمها مرجان وفداً يحمل لهم هدية من المؤن، وأن البوكيرك كان يأمل من وراء هذا الاتصال استسلام عدن له، غير أنه فقد الأمل في ذلك فأصدر أوامره بالهجوم. وفي اليوم التالي لوصول الحملة هاجم البوكيرك الميناء حيث تم الاستيلاء على كافة البضائع الموجودة على أرصفة الميناء. وكان الأهالي قد فضلوا الاعتصام بقلعتهم والاعتماد على حصانتها الطبيعية، وعدم خوض أي معركة بحرية مع الأسطول البرتغالي لضخامته. وأصدر البوكيرك أوامره بالهجوم على القلعة، وتمكنوا من احتلال دار قريبة من الشاطئ حيث نصبوا عليها المدافع ووجهوا فوهاتها نحو المدينة. وقتلوا عدداً كبيراً من المسلمين واستولوا على سبع وثلاثين قطعة مدفعية (وهي مدفعيات قديمة ترمي بكرات

---

(١) سبق ذكر لجوء السلطان عامر إلى المماليك، ولكنه لما رأى نيتهم في الاستيلاء على السواحل اليمنية بما فيها عدن، حاربهم حتى قتل.

(٢) عبد العزيز الحصيني: الاستعمار البرتغالي لجنوب شبه الجزيرة العربية، إصدار النادي الأدبي- تبوك ١٤٢٢هـ/ ٢٠٠٢م - ص ٥١ - ٥٤. وغسان علي الرمال: صراع المسلمين مع البرتغاليين في البحر الأحمر، ص ١٣٢ - ١٣٥.

من الحديد أو الحجارة)، وحاول آخرون تسلق الأسوار عن طريق السلالم، غير أن محاولتهم باءت بالفشل. وانحجز الكثير منهم على الأسوار، فانسحبوا تاركين وراءهم مائة قتيل بخلاف الأسرى والجرحى. وعند خروجهم من الميناء انتقموا لهزيمتهم بإحراق مجموعة من السفن التجارية كانت راسية في الميناء، ومن ثمَّ توجهوا إلى باب المندب بادئين أول جولة علنية داخل البحر الأحمر. ودخل جزيرة بريم (ميون) فأحرقها. ثم اتجه إلى ميناء (المخا) فحاول الاستيلاء عليه، ولكنه أيضاً فشل، كما فشل في الاستيلاء على عدن. وانتقل إلى (البقعة) وفشل في دخولها، ولكنه دمرها بمدافعه. ثم اتجه إلى جزيرة (كمران)، ووجد فيها أربع سفن تجارية، إحداها تخص السلطان قانصوه الغوري، سلطان المماليك في مصر، فاستولى عليها، وقطع أيدي الأسرى وأنوفهم. وهو أمر يتكرر لكل من يأسره البرتغاليون من المسلمين، أو يتم ذبحهم. وقد تم قتل من فيها من أصحاب السلطان عامر بن عبد الوهاب وأباحها لجنده..

واتجه إلى ميناء ينبع حتى يهاجم المدينة المنورة وينبش القبر الشريف، فأتته الرياح بما لا تشتهي السُّفن، وحالت دون تنفيذ جريمته الكبرى. فرجع إلى (كمران) واعترض سفن المؤن القادمة من بربرة وزيلع (في شمال الصومال) ومصوع (في إريتريا)، وكانت تأتي بالماشية (الكباش التي اشتهرت بها الصومال).

وفي يوليه ١٥١٣م/ ٩١٩هـ ، رحل البوكيرك من جزيرة كمران بعد أن ذبح كافة المواشي وأحرق المدينة ومزارع النخيل حتى لا تستطيع السفن المسافرة من عدن، في طريقها إلى مكة، من التوقف بها والتزود بما تحتاجه. وكذلك السفن الآتية من مصر أو جدّة في طريقها إلى اليمن وعدن، ومنها إلى الهند، لم يعد بإمكانها التوقّف في كمران للتموين.

ثم هاجم زيلع وأحرق ما فيها من سفن، بعد أن صادر بضائعها، ثم عادت

السفن البرتغالية لمحاصرة عدن ومهاجمتها، فوجد الدفاعات أقوى مما كانت، فضربها بالمدافع لمدة خمسة عشر يوماً وخرّب بعض البيوت، وأحرق بعض السفن في مينائها، ثم انطلق إلى شرق الجزيرة العربية ليبثَّ الخراب والدمار.

وقد وجدتُ أن خير من وصف معركة البوكيرك وهجومه على عدن في فبراير ١٥١٣/ محرّم ٩١٩هـ هو الأستاذ عبد الله محيرز في كتابه «صيرة». وقد جمع فيه المصادر اليمنية المعاصرة والمصادر البرتغالية. ونقل عن ابن الديبع من كتابه «الفضل المزيد»، والطيب بامخرمة في «قلادة النحر»، و«يوميات تاريخ شنبل»، وتاريخ الطيب بافقيه «تاريخ شحر»، كما نقل عن مذكرات ألفونصو دي البوكيرك القائد البرتغالي الشهير، ورجع إلى كتاب البروفسور سارجنت (المستشرق المشهور في حضرموت) «مصادر عن البرتغاليين في جنوب الجزيرة العربية»، وكتاب المستشرق شومين من ليدن بهولنده «التاريخ السياسي لليمن في مطلع القرن السادس عشر الميلادي». قال الأستاذ المحيرز رحمه الله رحمة الأبرار:

يبدأ بامخرمة[1]- الذي يروي عن ابن الديبع، ويضيف إليه من معلوماته الخاصة كمصادر للغزوة - بأن أهل (أبْين) رأوا جملة من المراكب متجهة إلى عدن، فاستنكروا ذلك. وأيقنوا أنها طلائع مراكب الإفرنج قاصدة عدن. فأرسلوا رسولاً ليبلغ (مرجان الظافري) - أمير المدينة من قبل الطاهريين-. فأزعجه ذلك. ونصحه بعضهم أن ينقل شحنات السفن الراسية في الميناء، وقد كان فيه عدد كبير منها - إلى المدينة، إذ غلب في ظنهم أن البرتغال جاؤوا لنهب حمولتها التي لم تنقل منها إلى الفرضة، أو تلك التي شحنت من المدينة للتصدير. فمنعهم من ذلك اعتقاداً منه أنه بإمكانه حماية البندر منهم.

---

(١) الطيب بامخرمة: قلادة النحر ج٣/ ٣٧٣٢ - ٣٧٣٥، بتحقيق محمد يسلم عبدالنور، إصدار وزارة الثقافة والسياحة، صنعاء ١٤٢٥هـ/ ٢٠٠٤م. والنص الموجود ليس فيه رواية عن ابن الديبع.

ورأى أهل البلد ثمانية عشر مركباً ناشرة شروعها في صيرة صبيحة يوم الجمعة السابع عشر من محرم سنة ٩١٩ هجرية. فعزم الأمير مرجان على منازلتهم، ولكن خذله بعض من اعتمد عليهم واضطر إلى اتخاذ إستراتيجية – كانت في الواقع – أكثر توفيقاً. فقد أمر أهل البلد أن يتغافلوا عنهم، وأن لا يبادروهم بالحرب، ولا يرموهم بمدفع أو بغيره. وعبر بامخرمة عن هذا الموقف بأنه: «كان في ذلك الخيرة».

وتقدمت إحدى سفن البرتغال بحذر إلى البندر متجسسة على المراكب، لتعرف إن كان فيها أي بوادر استعداد للقتال[1]. فلما اطمأن ولم يجد ما يريب، أشار إلى بقية الأسطول بالتقدم، فتقدمت. ورست سفنهم داخل البندر، وبدأوا هجومهم، ورموا المدينة بالبنادق والمدافع.

ولجأ الأمير مرجان إلى المداهنة، وكسب الوقت. فأرسل إليهم الكباش والفواكه على سبيل الضيافة، فرفضوها، وردّوها مع رسله قائلين: إن هدفهم الاستيلاء على المدينة، وإنهم إن لم يتسلموها طوعاً أخذوها قهراً، وأعقبوا ذلك بإنذار: إنهم نازلون صبح السبت للحرب.

أما المصدر البرتغالي فيسرد رواية لا تختلف كثيراً عن رواية بامخرمة إلا في صيغة هذا الحوار، الذي يرويه بنوع من الغطرسة. وذلك بأن الأمير مرجان أرسل رسولاً يستفسر منهم عن غرضهم من دخول الميناء، وما هو هدفهم بالوصول بهذا الأسطول؟ فأجابه ألفونصو البوكيرك: بأنه القبطان العام، وتابع للملك مانويل: ملك البرتغال، وملك الهند. وأنه في طريقه إلى جدة لمطاردة الأروام، وعازم على التوجه إلى السويس إذا لم يجدهم في جدة، ليتأكد مما سمعه بأن سلطان (القاهرة) يتجرأ بتجهيز أسطول ضد ملكه وسيده.

---

(١) درجت السفن التجارية على المساهمة في الحرب: إما مساعدة الميناء الراسية فيه، أو حماية نفسها. وقد سبق هذا في غزوة قيس أعلاه.

وبعد أن عاد الرسول لإخبار مرجان، بعث برسول آخر ومعه الكباش والطير والبرتقال ليخبره إن: عدن تحت أمر ملك البرتغال، وإن رغبات ملكهم ومشيئته نافذة. فرد البوكيرك الهدية من الرسول، مع رسالة للأمير مرجان بأنه: ليس من عادته قبول هدايا من أمراء لا تربطه بهم حالة سلام حقيقية، وأن على الأمير مرجان أن يتأمل كلامه ويتأكد أن البوكيرك لن يقبل هدية إلا بهذه الصفة، فإذا كانت رغبة الأمير مرجان في الطاعة حقيقية فعليه أن يأمر بفتح بوابات المدينة، ويقبل أن يرفرف العلم البرتغالي، ويسمح بدخول جنده فيها. أما السفن الراسية في الميناء فيمكن السماح لها بالسفر بأمان إذا هي طلبت إذناً بذلك منه.

وكان هدف البوكيرك من ذلك هو أن تخلي هذه السفن الميناء حتى لا تشارك في المعركة ضده[1].

ويستأنف بامخرمة بأن: البرتغال أرسلوا بمركب إلى قرب الساحل ليستولي على ما هنالك من الزعائم والسنابيق، فلم يتعرض له أحد، فقوى ذلك من عزمهم بالاستيلاء على البلد، فاستعد لهم مرجان بأن وضع مدافعه على الدرب[2].

وقد عزم البرتغال – كما ترويه مذكرات البوكيرك – في بادئ الأمر على

(١) طالما اشتركت سفن التجار في الموانئ في حرب للدفاع عن نفسها، وتعاوناً مع الميناء المضيف والاستفادة من هذا التعاون مستقبلاً. وقد ذكرنا آنفاً شبيهاً بذلك عند غزوة ملك قيس.

(٢) إن الدروب المواجهة هي: صيرة نفسها، ودروب جبل صيرة، ودروب جبل حقات المواجهة لأية غزوة من جانب حقات، ودروب الجبل الأخضر المطلة على الميناء وساحل أبْين. ولا زالت هذه الدروب ظاهرة آثارها إلى اليوم. ومن المرجح أن بامخرمة قصد بالدرب سور المدينة الذي قامت عليه أبراج عديدة. وفي الواقع ستستعمل كلمة (السور) مرادفة لكلمة (الدرب) في سرد حيثيات هذه الحرب.

خطة حربية سريعة وحاسمة: أن يقوم الجند بهجوم على سور المدينة دفعة واحدة، والاستيلاء عليه، والقفز منه إلى داخلها. ولكن البوكيرك عدل عن هذه الخطة، فالسور طويل، ويحتاج إلى عدد كبير من الجنود لتغطية كل نقطة عليه.

وعدلت الخطة بعدئذ إلى اختيار نقطة معينة منه، والتركيز على الدخول منها، وبذلك يمكن أن تنتظم صفوف المهاجمين فتدعم بعضها بعضاً بدلاً من التشتت على طول السور. وعليهم – إذا نجحوا – الاتجاه سريعاً إلى بوابة المدينة (العقبة) لاحتلالها لقطع الإمدادات من خارج المدينة عبرها.

واستقر أمرهم كما يلي:

(١) أن تتوجه أغلب قواتهم تحت قيادة أحد ضباطه، وابن أخيه: (دي جارسيا) بسلالمهم لتسلق الدرب في يسار الساحل، أي: في موقع أقرب إلى حقات، حيث تجمع أغلب جند المدافعين من المدينة وقد علل البوكيرك تجمعهم في هذا الجزء من السور: أن عليه بوابة هناك يعتقد أهل المدينة – حسب نبوءة يؤمنون بها – أنه مقدر اقتحام عدن عبرها.

(٢) وتتجه قوى أخرى، يقودها البوكيرك نفسه، للهجوم على المدينة من يمين الدرب.

(٣) وقائد آخر، يرأس عصابة معها سلم عريض يتسع عرضه لستة أفراد، يتخذ موقعاً بين هذين القوتين.

(٤) وقوة رابعة مكونة من مائة جندي لتتسلق التل المطل على السور في أقصى اليمين من الساحل للقفز إلى وراء السور بسهولة[1].

---

(١) ينتهي السور تحت سفح المنصوري (الخضراء) من جهة رأس شرشرة، ولذا فإن تسلق هذا التل من هذه الناحية والتسلل منه إلى وراء السور يشكل أكبر خطر على المدينة كما سيرى لاحقاً.

أما الفرقة الأولى المهاجمة للبوابة التي في يسار الساحل فقد فشلت في اقتحام المدينة منها، وكذبت النبوءة باحتلال عدن عبرها[١].

وسارعت فرقة البوكيرك حسب الخطة تجذف زوارقها نحو الشاطئ إلى يمين السور، ولكن أعاقها شدة انحدار الشاطئ، وعرقل سير هذه القوارب. فاضطروا إلى الخوض في الماء حاملين السلالم على ظهورهم، والبنادق فوق رؤوسهم وقد ابتل البارود منها.

وتوجّهت الفرقة الثالثة بسلمها العريض إلى وسط الدرب استعداداً لتسلّقه.

وفي النهاية، تمكّن جند البوكيرك من نصب السلالم على الدرب، وبدأوا بالتسلّق عليه، ولكنها تكسرت لزيادة الحمل عليها، وتوجه بعضهم إلى السلم الكبير الذي نصب في وسط السور فسقط بمن عليه أيضاً.

وتمكن (دي جارسيا) الذي يقود الفرقة الرابعة من التسلق إلى أعلى السور بدون مقاومة من ناحية رأس شرشرة. وقد تحول إلى هذا الموقع بعد فشله في اقتحام باب (السر). ونزل بعض جنده إلى البلد وصعد بعضهم الجبل الأخضر، وكان عدد من جند البلد بالمرصاد لهم هناك.

---

(١) كانت في الواقع بوابة كاذبة، فقد وجدوا عند دخولها أنها مسدودة بجدار من داخلها. ولا يعرف إذا كانت في الواقع (كاموفلاجاً) وتمويهاً، وخدعة عسكرية، وإشاعة أطلقت لخداع البرتغال – وصدقتها عيونهم وجواسيسهم – أنه سيكون دخول عدن عبرها. وأثبتت هذه الأحداث وغيرها أن مرجان الظافري كان داهية، ودبلوماسيًّا لا يستهان به، وقد خشيه وهابه سلاطين آل طاهر بعد موت عامر بن عبد الوهاب. ولكن ما هي هذه البوابة؟ لا شك أنها (باب حيق)، أو (باب السر) التي تدلف إلى دار السعادة، والتي وردت في فصل (السور) أنها لا تفتح أبداً، ولا يدخلها أحد. ولعل في هذه الحادثة تعليل كاف لهذا الغموض حولها أنها – في الواقع – كانت بوابة كاذبة في ذلك الوقت.

هنا يتفق المصدر اليمني – نوعاً ما – مع المصدر البرتغالي في وصف هذه المرحلة من المعركة، إذ يستأنف بامخرمة: «فلما كان صبح السبت نزلوا (البرتغال) مستعدين للقتال في الزعائم والسنابيق التي كانوا أخذوها من الساحل ونزلوا بسلالم، فنصبوها على الدرب من شرقيِّه جهة (شرشرة). والشيخ (الصعان) [١]. وصعد جماعة منهم على الجبل الذي عليه حصن الخضراء، فاجتمع عدد من المسلمين، ورموهم بالحجارة حتى أنزلوهم من الجبل».

ويصف المصدر البرتغالي الحرب على الدرب: فقد أمرهم البوكيرك بالبحث عن أية (باشورة) [٢] عليه يمكن الاحتماء بها، والدخول عبرها إلى

---

(١) أما رأس شرشرة فقد حقق موقعه، ولكن لا يعرف شيئاً عن الشيخ الصعان. إلا أن سياق الكلام يوحي بشيخ، أو ولي مقبور في هذه الجهة من الجبل الأخضر اختفى من ذاكرة الناس. ويؤكد ابن شنبل في تاريخه، هذا الموقع الذي تمكن البرتغال من النجاح في احتلاله توطئة لدخول المدينة. إذ يفيد – في مكان آخر من كتابه – أن البرتغال تمكنوا من التسلق عند (باب مكسور) عند الجبل الأخضر. فالموقع إذاً غرب السائلة وسفح الجبل الأخضر، ويقع بعيداً عن ازدحام المباني وكثافة السكان، ويؤدي أي نزول منه – عبر مسافة قصيرة – إلى سوق المدينة وإلى باب عدن البري.

(٢) لم يكن بالمستطاع الحصول على أي معنى لهذه الكلمة من مصادر تراثية عربية، وإن أوحت أنها مكان يقصد الحماية فيه من الرصاص والسهام. ووردت عند بافقيه الشحري وبامخرمة بدون أي شرح. ولكن أمكن الاستدلال على معناها من المصدر البرتغالي الذي يصف المعركة وصفاً لا يبعد عن وصف بامخرمة في غالب الأحيان. فيسيمها (Embrasure) ويمكن نطقها (امبراسور) ويشرحها القاموس بأنها: فتحة في داخل جدار، أو كوة في جدار حصن (لإطلاق المدافع).

قلتُ: وقد رأيت العديد من هذه الباشورات في قلاع نزوى في عُمان. وهي في سور القلعة المطلّة على الخارج، وفيها فتحات لرمي السهام أو رمي المدافع وفي الوقت نفسه تحمي الرماة بحيث لا يراهم العدو وهم يرونه. وتكون تلك المنطقة من سور القعلة من بناء قوي سميك وفيها مدخل ومخرج لهؤلاء الرماة.

المدينة. بينما طلب من بعضهم ترميم السلالم التي تكسرت ليتمكن بقية جنده من الصعود إلى الدرب. واقتحم جارسيا باشورة يبلغ ارتفاع داخلها قامة رجل وتبعه رجاله إليها. وحاول أن يخص بعضاً منهم بدخولها، ولكن تكاثروا، واقتحموها عنوة، ولم يبق منهم في موقعه على السور إلا قليل.

ويعطي المصدر البرتغالي سبباً للسماح للبعض دون غيرهم في اللجوء إلى الباشورة هو: أن البوكيرك أراد أن يخصص الدخول إليها للمهاجمين، وحملة البنادق من الجند فقط. ويبدو أن هذه مكابرة في المذكرات، وتعمية على الحقيقة. فلم يكن الهدف من اللجوء إلى الباشورة التحصن للحرب ولكن هروباً، وطلباً للنجاة من الهجوم عليهم من أهل المدينة. والواقع أن الهدف من منع عامة الجند هو صعوبة اتساع الباشورة إلا لعدد محدود من الفرسان والضباط الذين أراد البوكيرك الحفاظ على حياتهم، وعلى رأسهم ابن أخيه: دي جارسيا.

ويوضح المصدر اليمني هذه النقطة بجلاء، إذ يشير إلى انتصار جند المدينة في هذا الجزء من المعركة، فيقول إن المسلمين استولوا: «على الدرب وقاتلوهم على الدرب، فلما رأوا (البرتغال) الغلبة رموا بأنفسهم إلى السلالم، ومن لم يمكنه الوصول إلى السلم رمى بنفسه من رأس الدرب إلى الساحل، وهم مثقلون بالحديد، وبقي منهم جماعة محصورون في الباشورة».

وعندها أمر الأمير مرجان أن يرمى في الباشورة قصباً محترقاً لإرغام من فيها للخروج. فلما ضايقهم ذلك خرج من عاش منهم وألقى بنفسه إلى الساحل، وركب من سلم في الصنابيق راجعاً إلى مراكبهم.

أما المصدر البرتغالي، فقد كان أكثر توسعاً في شرح هذه الهزيمة من المصدر اليمني، فيروي أن العرب حين رأوا قلة من على الدرب من جند البرتغال، واتجاههم إلى الباشورة، وتحطّم السلالم، رموا على الباشورة قصباً محترقاً وتراباً

وحجارة حتى ملؤها، ومات بعض من فيها اختناقاً عدا من وصلها جريحاً، واختنق فيها، ولم يتمكن من بقي على الدرب من نجدتهم، أو إبعاد جند المدينة من الباشورة. وهزم البرتغاليون في هذا الجزء من المعركة هزيمة نكراء.

إلا أن الموقف اختلف بالنسبة للمعركة في آخر الدرب قرب الجبل الأخضر، فقد بدأت بانتصار البرتغال، بل ودخولهم المدينة إلى سوقها، وتعرّضت لخطر سقوطها في أيديهم.

يروي بامخرمة أن البرتغال كانوا أكثر ضراوة ضد المدافعين على الجبل الأخضر الذين يبدو أنهم لم يكونوا جنداً نظاميًّا، بل من عامة الشعب، ولم تكن لديهم أسلحة وإنما حاربوا بالحجارة، ودخل بعض جند البرتغال إلى البلد وبدأت بوادر الهزيمة حتى أصاب الأمير مرجان الإحباط، وهمّ بترك القتال لهم، واللجوء إلى دار السعادة طلباً للحماية.

ومن السهل إدراك العوامل التي أدت إلى هذا الموقف من الأمير مرجان، واليأس الذي أصابه وأدى به إلى النية على التخلي عن المدينة، وقد كان نائبها المعتمد عليه من قبل المشائخ الطاهريين. فقد كانت اليمن مشغولة بحروب من أقصاها إلى أقصاها، والفوضى عامة بين القبائل والطامعين في الحكم، ومؤامرات دولية ضد الدولة الطاهرية من الأئمة، والمماليك، فبعد ثلاث سنوات سيدخل الترك اليمن مسلحين بأحدث سلاح فتاك: البندق.

وتقابل مرجان حملة قوية من المعارضة لحكمه في عدن ستظهر جلياً بعد سنوات من حملة البرتغال قوامها بعض القبائل من الجحافل ويافع، والأسرة الطاهرية نفسها التي نظر كل فرد منها بطمع إلى أن تكون المدينة من نصيبه إذا انتهت دولة عامر بن عبد الوهاب. فلقد شعر مرجان – على ما يبدو – بعدم الفائدة في حرب تميزت بقلة الاستعداد لها وانعدام النجدة المستمرة له من قبل الدولة الطاهرية التي تركته وحده لمواجهة محنة ندر أن قابلت المدينة مثلها،

وتخلي من اعتمد عليهم عنه.

وقد أثناه عن عزمه بالتخلي عن المدينة شخصيتان سماهما بامخرمة بابن مرس وابن المهري، فقد قالا إن دار السعادة لا تحجبه إذا أخذت البلد، وإن الأفضل الخروج للقتال: «فإن نصره الله عليهم نال بذلك عزًّا عند الله وعند السلطان. وإن كانت الأخرى فاز بالشهادة ومات كريماً».

فركب مرجان في عدد قليل من رجاله، وكان هو الفارس الوحيد، فقاتل البرتغاليين، ولحق به الناس في الطرقات، وقاتل معه أهل البلد، وكانت الغلبة أول الأمر للبرتغال. ولكن انتهى بأن صارت الدائرة عليهم، ومنوا بهزيمة منكرة، ورجعوا من حيث دخلوا.

لا مفر من التأكيد أن هذه إحدى الحالات العديدة التي تميزت بها هذه المدينة: المقاومة الشعبية للدفاع عن نفسها، ومساعدة أولي الأمر متى أخلصوا معاً لهذا الهدف، وخاصة في معركة كهذه ضد عدوّ من خارج العرق والملة. وواجهت مدينة عزلاء وحدها، وبدون نجدة، أو مساعدة، حرباً ضروساً ضد دولة قوية يدعمها أسطول ضخم يتحرك بين الهند وباب المندب.

وقد أفاد بامخرمة أن الفقيه عبد الله بن حسين القلهاني شاهد من مقاتل الإفرنج تسعة: أربعة في المدينة، وخمسة في الساحل خارج البلد. إلا أن الرواة اختلفوا في عدد القتلى من الجانبين، فبينما يروي ابن شنبل بأن عدد من قتل كان مائة برتغالي ومائة مسلم، يقدر الطيب بافقيه قتل مائتي برتغالي، وعدد لم يحدده من المسلمين استشهدوا بينهم عمر بن موسى المجيدي، الذي استشهد بعد أن جرح، ولم تذكر المذكرات أي عدد للقتلى من الجانبين.

ويروي المصدر الأجنبي، بتفصيل أكثر، عن حيثيات هذه المعركة الرهيبة التي تكثفت أحداثها في نصف نهار: من الفجر حتى منتصف النهار، وسجلت

للمدينة إحدى هذه الصفحات الرائعة من تاريخها، فيما يلي ملخص لها:

تروي مذكرات البوكيرك أن الضباط والفرسان – الذين كانوا على السور – حين رأوا العرب تحته يصيحون عليهم، قفزوا عليهم بدون تفكير في مصيرهم، وقلة عددهم، أو انتظار لنجدة تدعمهم، واشتبكوا معهم في القتال، ودحروهم وتبعوهم في الشوارع المؤدية إلى سوق المدينة، – وقد كانت مداخل هذه الشوارع ملأى بالعوائق الخشبية – وقتلوا عدداً كبيراً منهم.

ويضيف المصدر أن: الأمير مرجان من جانب آخر كان يراقب بعض البرتغال المرتبين على طرف السلسلة الجبلية (الجبل الأخضر) وقد كان بإمكانهم – لو عزموا – النزول عليه ومباغتته من الخلف، ولكنه – حينما رأى ترددهم – توجه مع قوة عددها مائة رجل، وهاجم بها على غِرّة فرقة برتغالية أخرى كانت تحت السور، ولكن حاربوه ببسالة حتى جرح. وهرع إلى نجدته – في نفس الوقت – مزيد من العرب، وأرغم البرتغال على التراجع نحو السور بعد أن قتل بعض ضباطهم وجرح عدد من الجند.

أما عن الذين هرعوا من سوق المدينة هاربين من أهلها، وهم في أعقابهم يطاردونهم إلى السور، فقد حصروا تحته، فلا سبيل لتسلقه للنجاة بأنفسهم، ولا قبل لهم بالخلاص بدون نجدة من رفاقهم من أعلى السور، وبقي بعضهم عليه يرقبون هذه المطاردة، بينما تحصن ضباطهم، وقوادهم في أحد أبراجه.

وبدأوا بالرمي على أهل المدينة بالنبال والمزارق، فلم تكن معهم رماح لدحر المهاجمين. أما البوكيرك الذي كان يراقب محنة الجند على السور من جانبه البحري، فقد أقلقه الموقف، فأمر بجمع ما تبقى من أخشاب السلالم المتناثرة، لترميمها وإعادة استعمالها ليتسلقها جمع من الجند لنجدة من على السور. ورمِّم السلم وأوقف على الدرب لتصعد عليه النجدة، ولكن اعترض الجند النازلين

بهرولة هروباً من أعلى السور بأولئك الصاعدين لنجدتهم، فلم يقدر على حملهم، فتحطم بهم أيضاً. وبقي دي جارسيا على السور، ومعه بعض الرجال والحبال ليصلح من سلم آخر. ولكنه كان سلماً قصيراً، فاضطر الجند للتزحلق على الحبال، وهرعوا للنزول نجاة بأرواحهم، حتى صار البرج الذي اختبأوا فيه خالياً، وتركوا جارسيا وحيداً من هلعهم، حتى أن بعضهم هرب غير مبال بنفسه فتكسرت رجولهم. فصاح جارسيًّا بألفونصو البوكيرك أنه وحيد وليس معه من يدافع عن البرج، وطلب منه إعادة الهاربين إليه لمساعدته.

ولكن اليأس من النصر قد تملك البوكيرك فرد عليه قائلاً: «لا أعرف ماذا أعمل لك، فقد تكسرت جميع السلالم، وليس لدي مواد أصنع منها سلالم أخرى، ويبدو أن ساعة (عدن) لم تحن بعد، وإني أرجوك أن تتزحلق على الحبال كما عمل زملاؤك». وأبى النزول فأصابه سهم من سهام المدافعين أرداه قتيلاً.

وكتب البوكيرك في مذكراته متحسراً على ما صار في هذا الجزء من المعركة: «ولا أعرف من ألوم في النهاية؟ هل ألوم جارسيا لعدم الانصياع لمحاولة النجاة بنفسه مثل زملائه؟ أم أولئك الذين شكى منهم أنهم تخلوا عنه؟ أم لأن جميع السلالم تحطمت؟[١] أم لأن سور المدينة كان عالياً، ولا سبيل إلى تسلقه؟ أم لعدم وجود موقع مناسب لضرب السور بالمدافع وتحطيمه، لأن المد كان عالياً؟ دع من يقرأ هذه المذكرات أن يحكم بنفسه».

وهرب الجميع إلى مراكبهم، وجمعهم البوكيرك ليتهيأوا بها للهرب.

---

(١) يروي ابن الديبع سبباً آخر لفشل الصعود إلى السور عبر هذه السلالم، عدا تكسرها تحت ثقل المتسلقين عليها، وهو سحب أهل المدينة هذه السلالم من تحتهم: «وأمر الأمير أهل عدن بالخروج لهم من باب (مكسور)، فخرجوا وحازوا عليهم السلالم». الفضل المزيد، ص ٣٤٥.

واتخذت الحرب منعطفاً آخر ودوراً حاسماً كان لقلعة صيرة فيه القدح المعلى. وتابعت المذكرات المعركة عند انتقالها من البحر إلى البحر. فقد أمر مرجان المدفعية أن تهاجم مراكبهم من القلعة، فقتلت وجرحت عدداً كبيراً منهم. ولما رأى البوكيرك أنه لا قبل له بهذه النار الحامية من هذه المدافع الضخمة، وعدم وجود سلالم للتسلق إلى القلعة للهجوم عليها، قرر الاستعجال بالرحيل.

وتدعي المذكرات أن رغبة جنوده كانت شديدة في الاستمرار في الحرب، وتمنوا لو أمر البوكيرك بنقل مدافعهم من المراكب إلى الشاطئ وتوجيهها صوب السور لتحطيمه لتغطي عملية الاقتحام لدخول المدينة. ولكن البوكيرك أدرك أكثر من غيره استحالة ذلك لارتفاع المد إلى أسفل الدرب، وإن يوماً واحداً إضافياً في عدن – تتغير فيه الرياح الموسمية – سوف يضيع الفرصة في الوصول إلى باب المندب بسرعة، ولذا فلا مفرّ من الرحيل.

بدأت تبعاً لذلك أعمال انتقامية تعوّض عن الفشل في احتلال المدينة. فقد أمر (البوكيرك) بعض ضباطه أن يستولوا على الحصن الذي في سفح صيرة، على الحاجز الذي أقيم لتكسير الأمواج وقد حوى الحصن ثلاثين مدفعاً وعدداً من المدافعين الذي باغتهم البرتغال. واحتلوا الحصن، وقصفوا المدينة منه وحطموا كثيراً من بيوتها.

وأردف ذلك بنهب وإحراق السفن التجارية الراسية بالميناء. وجمع فلوله، وغادر عدن خائباً.

وكتب بامخرمة في ختام هذه المعركة أن البرتغال: «لما تحققوا أن لا قدرة لهم على البلد اشتغلوا بتحريق المراكب التي بالبندر، واستولوا على الدار التي بها، وأخذوا ما فيها من المدافع وأقاموا بالبندر أياماً».

كانت هذه الغزوة الأولى. ويروي بامخرمة أنه بقيت بعض مراكبهم تحوم

تحت صيرة يناوشون أهل عدن بدون طائل، بينما رحل أغلبها إلى كمران حيث أقاموا بها إلى منتصف جمادى الأولى، وعادوا – بعد أن مرّوا على زيلع – إلى عدن ليعززوا رفاقهم في عدن، وليهاجموا المدينة مرة أخرى.

ولكن الأمير مرجان قد اتخذ الاستعدادات الكافية، فبنى دروباً ومسالك وحصوناً على صيرة، ولعله بنى هذا الممشى بين صيرة والبرّ لتيسير نقل المؤن والبشر إلى الجزيرة والقلعة، والذي أشار إليه بامخرمة عند هجوم المماليك على المدينة. وملأ الساحل «بالعساكر البحرية، عساكر المركب وغيرها». وجاء البرتغال والمدينة على أهبة الاستعداد، وعلى صيرة رتبة يقظة متأهبة للدفاع.

ويصف ابن الديبع في كتابه (الفضل المزيد) هذه المعركة بتفصيل أكثر مما ورد في (قلادة النحر) لبامخرمة:

ووصلوا إلى صيرة وبدأوا بحرق ما يقرب من عشرين مركباً كانوا بالساحل ونزلوا بسنابيق[1] إلى ساحل صيرة ليلاً، وكان البحر عارياً، فوجدوا أهل المدينة متربصين لهم عليه، فقد نبهتهم الدورية على قلعة صيرة بوصولهم.

كانت هذه معركة أقصر من الأولى، ولكنها كانت أكثر حسماً لاستعداد المدينة معنويًّا وعسكريًّا، فقد لقى أهل المدينة، وهم مستعدون بالسلاح مع أعدائهم. وقد نزلوا بسلالمهم وعدتهم من الساحل، فثاروا عليهم من كل جانب، ووقعت معركة حامية عليه.

وضربت مدافع المدينة على سور صيرة على مراكبهم: «وكانت ضجة عظيمة، وفتنة قوية. فنصر الله المسلمين عليهم، وقتل مقدمهم الكبير وسبعة رجال منهم، وجرح منهم جمع»[2]. وهزموا، وقفلوا راجعين إلى سفنهم بجرحاهم الذين توفي عدد كبير منهم.. ويروي ابن الديبع بأن الجنود البرتغاليين

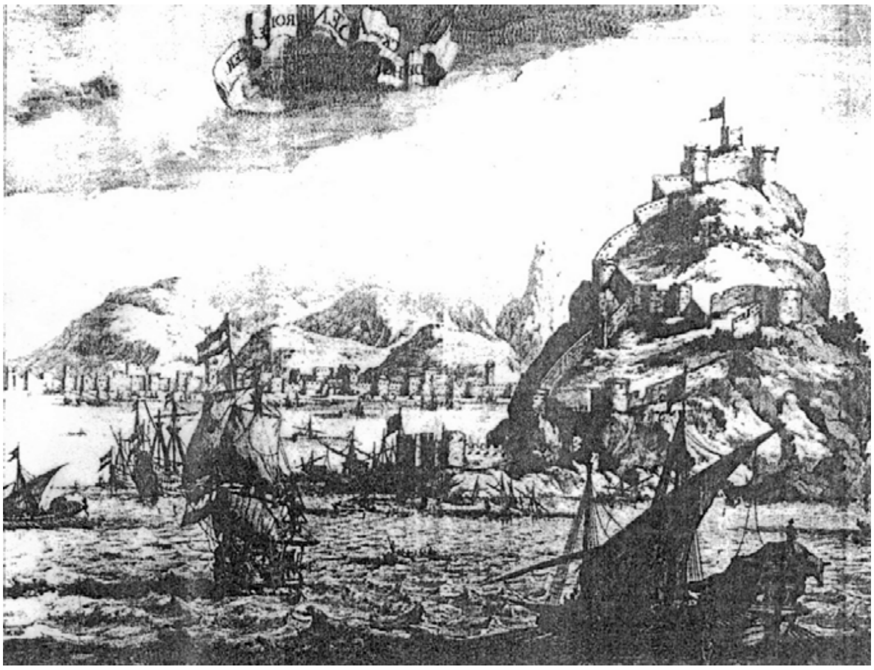
---

(١) السنبوق: مركب صغير وأكبر من القارب.

(٢) ابن الديبع: الفضل المزيد، ص ٣٧٤.

امتنعوا عن النزال في اليوم الثاني وفقدوا الأمل في الاستيلاء على المدينة.

فوجهوا همهم كالمعتاد إلى حرق السفن في الساحل. وتكثفت قذائف مدافع المدينة على مراكبهم تحطم كل يوم اثنين، أو ثلاثة منها، واضطروا إلى الهروب خارج هدفها، وبدأ دور العرادة[1] تضربهم من صيرة[2] فتزيد مراكبهم ضرراً، وأخرجتهم من البندر كارهين.



لوحة رسمها البرتغاليون لقلعة صيرة، وفي الخلف تظهر مدينة عدن

(١) العرادة: آلة تستعمل لدك الحصون أشبه بالمنجنيق إلّا أنها أصغر منه. وتستعمل لرمي الحجارة البعيدة المدى.

(٢) يبدو أن العرادة رمت هذه المراكب من الحصن القائم بأثناء رأس صيرة عند (الحاجز) وليس من القلعة.



رسم لمدينة عدن من صيرة، وترى على القلاع المتزاحمة على دخان يطلق لتحذير أهل المدينة بوصول مراكب قاصدة الميناء. أما جبل حديد فيظهر في أقصى اليمين تفصل بينه وبين السلسلة المجاورة فجوة ركب عليها جسر للعبور، ويلتقي فيه بحر ساحل أبْين وبحر التواهي الذي ترى فيه السفن راسية في الخلف.

العثمانيون في عدن واليمن ونهاية الدولة الطاهرية

الدولة العثمانية(١)

ظهر العثمانيون في وقت عصيب بالنسبة للمسلمين. فقد انتهت دولتهم في الأندلس وتم طرد المسلمين والاستيلاء على غرناطة عام ١٤٩٢م، وهو نفس الوقت الذي استولى فيه محمد الفاتح على القسطنطينية. وكانت دولة المماليك تعاني من الضعف والقلاقل الكثيرة واختلاف المماليك مما أدى إلى كثرة المصادرات وفرض المكوس وابتزاز أموال الشعب.. ومما زاد الطين بلّة، ظهور البرتغاليين ونجاح فاسكو دي جاما في الوصول إلى الهند، وإقامة مراكز تجارية وعسكرية في الهند (جوا وديو) وفي الساحل الشرقي لإفريقيا وفي عُمان (مسقط) وفي هرمز ومحاولاتهم المتعددة للاستيلاء على عدن، كما سبق أن شرحناه، واستيلائهم على مصوع وسواكن وزيلع وتحطيم تجارة هذه السواحل الإسلامية (في الحبشة والسودان وشمال الصومال)، ودعمهم المستمر للحبشة ومحاربتهم لدولة عدول (دولة العدل الإسلامية في الطراز الإسلامي التي استطاعت أن تستولي على جزء كبير من الحبشة، بالإضافة إلى إريتريا وشمال الصومال وجنوب السودان).. وقد أدى هذا إلى انهيار التجارة التي كانت تعتمد عليها عدن والدولة المملوكية في مصر. كما ظهرت الدولة الصفوية الشيعية المناوئة للسنّة والمحاربة لهم، والتي أقامت تحالفاً مع البرتغال والدول الأوروبية لضرب الدولة المملوكية، ثم بعد ذلك لمحاربة الدولة العثمانية.

---

(١) د. محمد عبد اللطيف البحراوي: فتح العثمانيين عدن، دار التراث، القاهرة، ١٩٧٩، ص ٨٣ – ٩٥ باختصار وتصرف.

وعندما ظهرت الدولة العثمانية كانوا على يقين بأنهم حماة الإسلام، وحماة الحرمين الشريفين على وجه الخصوص، لتعرّضهما للهجوم البرتغالي. واعتبر السلطان سليمان القانوني نفسه حامياً للدين، وحافظاً للمذهب السُّنِّي، ووارثاً لتقاليد خلافات ثلاث آلت إليه عواصمها، وهي دمشق وبغداد والقاهرة.

وسليمان القانوني هو الذي أطلق عليه الأوربيون لقب العظيم «Suliman the magnificent» وتوسّم فيه أهل السُّنَّة خصوصاً، إنقاذاً لهم من الغزو البرتغالي، ومن الاضطهاد الصفوي الذي قام به الشاه إسماعيل ومن أتى بعده في إيران وما حولها إلى العراق ودول الخليج العربي.

وكان سليمان القانوني يبدأ مكاتباته وخطاباته «إنه من سليمان وإنه بسم الله الرحمن الرحيم». وبدأت موجة تعظيم السلطان، فقد كان العلماء في عهد سليم الأول يبدأون كلامهم في حضرته بقولهم (إنه لا يحب الظالمين) صاروا يبدأون حديثهم مع سليمان ببيت من الشعر الفارسي معناه: «كل ما يفعله السلطان هو شيء جميل..».

وللأسف، كانت علاقة الدولة العثمانية بالمماليك سيئة، كما كانت علاقتهم بالدولة الصفوية أشد سوءاً. ورغم ذلك، عندما أراد السلطان الغوري محاربة البرتغاليين أمدَّه السلطان العثماني سليم بالمال والرجال والأخشاب حتى يبني الأسطول الضروري لمحاربة البرتغاليين، وجعل أمير البحر (سلمان الريّس العثماني الأرناؤوطي)، وأمير الحملة كلها حسين الكردي. ومع ذلك فشلت حملة حسين الكردي في الهند (ديو) وانهزم هزيمة منكرة سنة ١٥٠٩م مما أدى إلى تمادي البرتغاليين في خططهم للوصول للبحر الأحمر والاستيلاء على عدن، والوصول إلى الحبشة، ومحاصرة جدة، والوصول إلى الحرمين الشريفين وإنهاء الدين الإسلامي - حسب زعمهم - من جذوره.

وكان السلطان سليم الأول شديد الحب للحرمين الشريفين، وهو «أوَّل من خُطب له بالحرمين من آل عثمان، وأول من رتَّب لهم صدقة سنوية جزيلة، وأول من أحدث المحمل الرومي (سُمِّي بعد ذلك المحمل المصري)، وأول من قام بكسوة الكعبة من آل عثمان». وضاعف الصدقة للحرمين، ولقَّب نفسه حامي الحرمين الشريفين. وقام السلطان سليمان القانوني بإصلاح سقف الكعبة، وأجرى عين زبيد من عرفة إلى مكة.

وللأسف الشديد، فإن هذه الدولة العسكرية القويّة التي أرعبت أوربا، كانت شديدة القسوة، وخاصة مع المسلمين. فقد كانت المجازر التي قاموا بها في مصر ضد المماليك مرعبة، وكذلك كانت معاركهم مع الشيعة، وكانوا يقيمون المذابح لهم بعشرات الآلاف. وهو أمر لم يتورع عنه الصفويون أيضاً. بل كانوا هم البادئين بذلك.

وامتزجت لدى السلطان سليمان القانوني شدة حماسته للإسلام السُّنّي، وحرصه على احتلال العالم المعروف في زمنه، فأخذ يرسل جنوده في حروب مستمرّة، فقد فتح المجر وبلغراد (وهي حصن المسيحية في أوربا) عام ١٥٢١م، ودخل بود(١) عاصمتهم سنة ١٥٢٦م، وهزم النمساويين سنة ١٥٢٧م. وانتقل إلى فارس لمحاربة الدولة الصفوية التي اعتبرها مارقة ومرتدة عن الإسلام. وقد قال في أحد خطاباته: «إن آبائي الكرام، وأجدادي العظام، نوّر الله مراقدهم، لم يكونوا خالين من الحرب لأجل فتح البلاد وردِّ العدو، ونحن أيضاً سالكون على طريقتهم، وفي كل وقت نفتح البلاد الصعبة والقلاع الحصينة. وخيولنا ليلاً ونهاراً مسرجة وسيوفنا مسلولة».

ولم تأتِ سنة ١٥٣٨م التي فتحت فيها عدن، حتى كانت الدولة العثمانية غارقة في حروب شعواء في أوربا وفارس وشمال إفريقيا، بالإضافة إلى ميدان البحر الأحمر ومحاربة البرتغاليين وحلفائهم من الأحباش. وهكذا وقفت الدولة على

(١) هي بودابست.

سواحل المحيط الهندي، وهي أعجز ما تكون عن القيام بأي عمل حاسم فيه.

وقد أثبت التاريخ أن فرنسا لم تكن وفيّة في تحالفها مع السلطان العثماني، رغم ما أعطاها من امتيازات ضخمة بحيث يعامل التاجر أو المواطن الفرنسي معاملة التاجر أو المواطن العثماني.. وقد كانت فرنسا تتحلّل من التزاماتها كلما خفَّت حدة التوتر بينها وبين أعدائها من أسرة الهبسبرج التي تحكم إمبراطورية النمسا وأسبانيا. وكان تعصب الأوربيين للمسيحية يطغى على كل اعتبار آخر.

وكان **الصدر الأعظم إبراهيم باشا في عهد سليمان باشا نصرانيًّا أعلن إسلامه، ويقول بعض المؤرخين إنه أخفى نصرانيّته ليكيد للمسلمين**.وهو أنقذ أوربا من الهجوم العثماني الكاسح، وذلك بتوجيه جهود الدولة للقضاء على الدولة الصفوية. وكان يشجع سليمان القانوني «على اجتثاث هذه الفئة المارقة من الدين والقضاء على إسماعيل اللعين»!!

وكانت قوى الإنكشارية(١) تسبب للدولة المتاعب، إذ لم يكن السلطان نفسه يقود المعركة. وكانت الدولة العثمانية تستخدم في مهماتها عدداً كبيراً من غير العثمانيين أو بالأحرى من غير الأتراك. ومعظم الوزراء كانوا من الأوربيين الذين أسلموا وخضعوا للدولة العثمانية. كما حدثت مشكلة كبيرة في أن أبناء السلطان كانوا يتنافسون على الحكم، وكان للأمهات الأوربيات دور كبير في هذه المنافسة، وبالتالي المعارك الدموية العنيفة، فأدّى هذا إلى أن يقوم السلطان الجديد إما بقتل إخوته حتى لا يثوروا عليه، أو بحبسهم في قصورهم وإغداق المال والجواري عليهم حتى يبعدوهم عن شؤون الحكم. وكانت هذه من المآسي

(١) الإنكشارية هم الأطفال الأسرى من الأوربيين الذين قامت الدولة بتربيتهم تربية عسكرية ودينية، وصارت لهم سطوة في الجيش والدولة، وكان ولاؤهم أولاً وأخيراً للسلطان.

في الدولة العثمانية، حيث أصبح السلطان الجديد، عندما يتولى الحكم، لا يعرف عنه شيئاً ويعتمد بالتالي على الحاشية، والصدر الأعظم (رئيس الوزارة)، والقواد الكبار في الدولة، والإنكشارية، مما أدى إلى زيادة الخلافات وعدم وجود آلية لتولي الحكم.. وهي مأساة الدولة الإسلامية منذ عهد معاوية إلى اليوم.. وتعيين ولي العهد، يؤدي بسبب تدخل الأمهات ونفوذهن، إلى معارك رهيبة بين الإخوة المتقاتلين على السلطة. بل كان الأمر أشدَّ من ذلك حيث قام السلطان سليمان القانوني باستدعاء ابنه مصطفى وهو على رأس جيش في (أرجلي Ergli)، وقام بإعدامه ووالده يتفرّج[1].

ومع ذلك فقد نجحت جهود الدولة العثمانية في إضعاف الأحباش النصارى وتقوية دولة عدل وحكامها المسلمين. وكادت الحبشة بأكملها أن تتحول إلى الإسلام.

ولكن خلافات المسلمين المعتادة، وتكاتف النصارى، والمد البرتغالي، أنقذ دولة الأحباش النصرانية وأمدّها بالبقاء.

أما الممالك الإسلامية في الهند فقد كانت تواجه الأخطار التالية:

(١) الخطر البرتغالي الزاحف والذي استولى على جوا وبعدها ديو.

(٢) الخطر الهندوسي والإمارات الهندوسية التي بدأت تتجمع وتتحالف لضرب الإمارات الإسلامية بدعم البرتغاليين أولاً ثم بعد ذلك بدعم الإنجليز.

(٣) الدولة التيمورية (المغولية) التي هبطت من أفغانستان ومؤسسها بابر، ومن رجالاتها (أكبر) الذي أتى ببدعة جمع الأديان في الهند في دين جديد يجمع ما بين الإسلام والهندوسية والبوذية والنصرانية.. مما أدى

---

(١) البحراوي: فتح العثمانيين عدن، ص ٩٥.

إلى امتلاء بلاطه بالكفرة المناوئين للإسلام وللدويلات الإسلامية التي استطاع أن يقضي على الكثير منها.

وكانت هذه الدويلات تنتظر المدد أولاً من الدولة المملوكية، فلما انتهت محاولاتها بالهزيمة المدوّية سنة ١٥٠٩م بالقرب من ديو، اضطرّت بعض هذه الدويلات إلى التعامل مع البرتغاليين، بينما سمع الآخرون بظهور الدولة العثمانية القوية. وطال انتظارهم لوصول هذه النجدة الإسلامية العثمانية دون جدوى، حيث قامت الدولة العثمانية باحتلال عدن بطريقة أدت إلى كراهية المسلمين في عدن واليمن وفي الهند نفسها، للعثمانيين، نتيجة الخيانة والمعاملة الوحشية التي قام بها سليمان باشا الخادم في عدن (وسيأتي ذلك تفصيلاً). وقد أدت محاولات العثمانيين الاستيلاء على اليمن والدخول في معارك ضارية مع الأئمة الزيود إلى تشتت جهود الدولة العثمانية، وعدم مقدرتها لتوجيه حملاتها إلى الهند للقضاء على الخطر البرتغالي. كما كانت شخصية سليمان باشا الخادم (الأرناؤوطي) أسوأ شخصية في هذه الظروف، فقد كان قاسياً جبّاراً محبًّا لسفك الدماء عندما يكون منتصراً، وقد يكون مخادعاً وكاذباً فإذا تمكّن بطش. كما أنه كان مصاباً بجبن خالع لا يليق بأي جندي، فضلاً بقائد القوات العثمانية في البحر الأحمر والمحيط الهندي.

وسننقل ما قاله الأستاذ حمزة لقمان في كتابه «تاريخ عدن» (ص١١٣ – ١١٥) لأنه يفي بالغرض، مع حذف يسير وبعض الإضافات.

دولة العثمانيين الأتراك (في اليمن وعدن ونهاية الدولة الطاهرية)

الجيش المصري في اليمن

بعد مقتل الملك عامر بن عبد الوهاب بن داؤد بن طاهر في سنة ٩٢٣هـ (١٥١٧ م) انتهت دولة بني طاهر في اليمن، وبقيت عدن إلى حين الغزو العثماني سنة ٩٤٥هـ/ ١٥٣٨م.

وبينما المصريون يتوغلون في اليمن ويثبتون أقدامهم فيها، كان السلطان سليم بن محمد بايزيد العثماني قد تمكن من احتلال مصر والشام بعد هجومه على جيش المماليك المصري – الشامي واستعانته بثلاثة من أمراء الجيش المصري، الذين تواطأوا معه على الخيانة.. وفي حلب قتل سلطان مصر قانصوه الغوري، ثم قتل في القاهرة خلفه الملك الأشرف طومان باي.

واضطرب الجيش المصري للأنباء المحزنة الواردة من أرض الوطن، وأحس القائد الأمير إسكندر باشا بالخطر، وخشي أن يفقد الجنود معنويتهم فيتمكن الإمام يحيى شرف الدين من سحقهم والانفراد بالسلطة، فأسرع إسكندر باشا إلى الإمام طالباً الهدنة على أن يبقى الإمام في حصن ثلا، فقبلها الإمام.

كان الأمير إسكندر باشا واقعيًّا، فحينما رأى انتهاء دولة المماليك في مصر بمقتل قانصوه الغوري والأشرف طومان، أدرك أن الجيش المصري في اليمن لم يعد يستند إلى دولة تشد أزره ويتلقى منها التعليمات والإمدادات، ووجد أن الوسيلة أمامه لإنقاذ الجيش من الإبادة هي في الاعتراف بالأمر الواقع. فتوجه إلى جامع صنعاء وطلع المنبر وأعلم الناس باستيلاء الخليفة العثماني على مصر والشام وأعلن الولاء للدولة العثمانية. وهكذا تحول الغزو المصري لليمن إلى غزو عثماني.

وفي سنة ٩٢٦هـ (١٥٢٠ م) توفي السلطان سليم وخلفه في حكم الدولة العثمانية ابنه السلطان سليمان الأول.

عامر بن داؤد يستقل بعدن

اشتعلت الحرب بين العثمانيين بقيادة اسكندر باشا وبين قوات الإمام يحيى شرف الدين بقيادة ابنه المطهر.. وانشغل العثمانيون في أعالي اليمن وضعف

أمرهم في نواحي عدن، وكان فيها حينئذ الأمير عامر بن داؤد بن طاهر الذي أعلن نفسه سلطاناً عليها وعلى توابعها وما ناهجها من البلاد كلحج وأبين والشحر وحضرموت وأجزاء من اليمن الأسفل.. واستمر السلطان عامر يحكم من سنة ٩٢٣هـ (١٥١٧م) إلى حين قتله بواسطة الخديعة التي دبرها سليمان باشا الخادم في سنة ٩٤٥هـ/ ١٥٣٨م.

عامر بن داؤد يغزو اليمن وينهزم

في سنة ٩٤١هـ (١٥٣٥م)، وصلت الأنباء إلى عدن بأن المطهر بن يحيى شرف الدين استولى على نجران وبقي فيها، فتحركت أشجان عامر وأراد أن يغتنم الفرصة فيغزو اليمن ويعيد تأسيس دولة بني طاهر، فجهز جيشاً بقيادة وزيره الشريف يحيى السراجي الذي توغل في اليمن الأسفل واستولى على عدد من الحصون الأمامية ووصل إلى رداع. وكان يصحبه في عملياته الأمير علي بن محمد البعداني الملقب بالشرامي.

ولما وصلت الأخبار إلى الإمام، أرسل الرسل إلى ابنه المطهر في نجران، فجمع ألفي ناقة وسار بجيش كبير سيراً حتى وصل إلى «موكل» في يوم الأحد ٢٤ ربيع الآخر من السنة المذكورة.. وهناك التقى بجيش عامر فدارت رحى معركة شديدة كان انتصار المطهر فيها ساحقاً.

وكان عدد القتلى من جيش عامر ثلاثمائة والأسرى ألفين وثلاثمائة، فأمر المطهر بضرب أعناق ألف منهم واستبقى ألفاً وثلاثمائة.. وكان المطهر راكباً بغلته ورجاله يأتون إليه بالأسرى أفواجاً فيأمر بقتل كل زمرة وحدها حتى غطى الدم حوافر بغلته. وبذلك بلغ عدد القتلى ألفاً وثلاثمائة. وعند الانتهاء من عملية القتل الجماعي أمر المطهر بأن يحمل كل أسير رأس قتيل من رفقائه، وأشار بأن يسيروا حفاة الأقدام إلى صنعاء، مقر والده الإمام يحيى شرف الدين.

فوصل الموكب في العشر الوسطى من جمادى الأولى من السنة المذكورة. وكان لوصولهم صنعاء موقع عظيم، فطاف الأسرى شوارع صنعاء حاملين رؤوس زملائهم.. ثم أمر الإمام بأن يتوجهوا على تلك الحالة إلى صعدة[(١)].

أما الشريف يحيى السراجي الذي وقع أسيراً فقد أمر المطهر بذبحه.

كان عامر بن داؤد بن طاهر قد عسكر في قعطبة في ذلك الحين، وكان الأمير علي بن محمد البعداني قد توجه إلى المقرانة. فلما وصلت أنباء الهزيمة إليهما انسحب عامر إلى «الأحد» والبعداني إلى الشعيب.

وتوجه المطهر بعد انتصاره إلى الغرفان، فلما علم عامر والبعداني بذلك، جهزا جيشاً جديداً وقاما بهجوم آخر ولكنهما لم يتوفقا فقتل البعداني وتقهقر عامر إلى عدن.

وفي سنة ٩٤٢هـ (١٥٣٦م)، جهز المطهر جيشاً نزل به إلى لحج وحاصر عدن، ولكنها استعصت عليه فلم يتمكن من فتحها، فعاد إلى اليمن. ولكنه أعاد الكرّة في السنة نفسها وحاصرها، ولكنه انهزم وعاد إلى اليمن.

وفي السنة التالية توجه عامر لملاقاة المطهر ولكنه اضطر إلى الانسحاب.. وفي أثناء المعركة فقد عامر حصانه فسار على قدميه يريد اللحاق بجيشه المنسحب، وفي الطريق رآه أحد عبيده فعرفه، وكان العبد راكباً حصاناً فترجل وأركب سيده فطار عامر بالحصان ولحق بجيشه وقاده إلى عدن.. ووقع العبد أسيراً. ولما علم المطهر بقصته أكبر وفاءه وأطلق سراحه (وهو موقف إنساني نادر من حكام المسلمين في العصور المتأخرة).

(١) هذه الوحشية والتمثيل بالأسرى وقتلهم أمر منافٍ لتعاليم الإسلام. وللأسف انتشرت هذه الوحشية منذ عهد يزيد بن معاوية إلى العصور القريبة الماضية.

حملة سليمان باشا الخادم (الأرناؤوطي، الطواشي أي المخصي)

وقد توالت هجمات البرتغاليين على عدن: ١٥١٣م هجوم البوكيرك في فبراير وفي أغسطس، ثم هجوم لوبو سواريز سنة ١٥١٧م حيث أخذ التموين من عدن منطلقاً إلى جدة، ثم عاد بخفّي حنين ليهاجم عدن فاستعصت عليه. ثم كرّروا الهجوم عام ١٥٢٠م فعقد معهم حاكم عدن اتفاقية دفع فيها الجزية، وفتح ميناء عدن لهم للتموين. ثم رفض حاكم عدن الاتفاقية فهاجمه البرتغاليون سنة ١٥٢٥م، وضربوا عدن بالمدافع فقاومتهم. واضطروا للهجوم مرة أخرى عام ١٥٢٦م فرُدُّوا على أعقابهم. وبلغ الضعف بعدن أشدّه واضطر الحاكم الجديد إلى عقد معاهدة جديدة سنة ١٥٣٠م بدفع الجزية وفتح عدن للبرتغاليين. وقد ثار العلماء والأهالي على هذه الاتفاقية فألغاها الحاكم وقبض على البرتغاليين، وعددهم حوالي أربعين، واستخدمهم في صناعة الآلات والأسلحة الحربية. وفي الوقت نفسه كتب للسلطان سليمان القانوني يعلن دخوله في طاعته. ولم يرسل الخليفة العثماني بعثته العسكرية البحرية إلا عام ١٥٣٨م/ ٩٤٥هـ وكانت بقيادة سليمان باشا الخادم في ست وسبعين سفينة تحمل أربعة آلاف من جنود الحرس السلطاني وستة عشر ألفاً من الجنود الآخرين.

وفي ٢٧ يونيه ١٥٣٨م/ ٩٤٥هـ غادرت الحملة ميناء السويس، ووصلت إلى جزيرة كمران في ٢٠ يوليه، وأرسل الخادم رسله إلى زبيد وعدن يخبرهم بوصوله وبأن يكونوا على استعداد لتموين الأسطول.

وكان هدف الحملة العثمانية:

(١) احتلال عدن لأهميتها البالغة في التجارة وفي حماية البحر الأحمر والحرمين الشريفين من الهجوم البرتغالي المتكرر.

(٢) دعم الجيش المملوكي الذي حوّل ولاءه إلى آل عثمان في اليمن.

(٣) محاربة البرتغاليين ومنعهم من دخول البحر الأحمر والهجوم عليهم في الهند وإزالة مستعمراتهم منها.

(٤) منع التحالف بين الصفويين حكام إيران وبين البرتغاليين.

ووصل الأسطول العثماني إلى عدن في ٣/ ٨/ ١٥٣٨م ربيع الأول ٩٤٥هـ.

وكان السلطان عامر بن داود موجوداً في عدن فاحتفى بالأسطول العثماني وأرسل له الهدايا، ولكنه لم يذهب بنفسه إلى زيارة الأسطول. وقد ذكر **الطيب بافقيه في كتابه «تاريخ الشحر»**[1] أن سليمان باشا الخادم حمل إلى عامر بن داود الهدايا والمراسيم، كما كان مع سليمان باشا مراسيم التعيين لبدر أبي طويرق الكثيري، وكان عساكر الحملة ينزلون إلى عدن لجلب الماء والتموين حتى تكاثروا في البلد وصار عددهم نحو ثلاثة آلاف وأكثر. ثم طلبوا من الشيخ عامر بن داود أن يذهب لمقابلة الباشا في البحر، واعتذر بمرضه أول الأمر، ثم تتالت الرسل والتطمينات فصعد هو وجماعة من خاصته، فاستقبله الباشا في السفينة استقبالاً حافلاً بينما كان جنوده يحتلون قلعة صيرة والحاميات، فلما وصلته الإشارة بإتمام احتلال عدن، قام الباشا بقتل عامر بن داود وصلبه على سارية السفينة وقتل وصلب من معه. ونهب جنوده عدن نهباً شديداً، فلما علم الباشا بذلك أمر بإرجاع المنهوبات من الثياب وغيرها. أما الدراهم والحلي فلم يرجع منها شيء، كما يقول البافقيه.

وكانت جريمة قتل عامر بن عبد الوهاب مدوية بسبب أسلوبها الخسيس، حيث استخدم الخداع والأيمان الكاذبة مما أدى إلى خوف الحكام العرب في جنوب الجزيرة العربية من الدولة العثمانية (الأروام جمع روم)، وخوف حكام

---

(١) محمد بن عمر (الملقب بالطيب) بافقيه: تاريخ الشحر، تحقيق عبد الله محمد الحبشي، مكتبة الإرشاد، صنعاء ١٩٩٩م، ص ٢٥٣ – ٢٥٤ وحمزة لقمان: تاريخ عدن.

الهند المسلمين منهم.. وقد أدّت هذه الحملة إلى زيادة الثورة على العثمانيين في اليمن مما سبب لهم متاعب لا حصر لها. ومما سبب أيضاً تقاعس الحكام المسلمين في الهند عن مناصرتهم. وبالتالي رجعت هذه الحملة بعد ذهابها إلى بندر ديو في الهند (المالیبار)، التي استعادها المسلمون الهنود، بخفّي حنين، ولم تستطع أن تنتصر على البرتغاليين بسبب جبن وهلع سليمان باشا الخادم.

وقد روى الطيب بافقيه في تاريخه نقلاً عن الفقيه عبد الله باسنجلة قوله: «ولا شك أن هذا الطواشي (أي سليمان باشا الخادم) كان سفاكاً للدماء. وكان قتله الشيخ عامر بن داود رحمه الله، وغيره كذلك[1].

ورغم بطش هذا الباشا الحقير وقوة جيشه، إلا أنه ارتاع عندما سمع أن جيشاً قويًّا من البرتغاليين وصل لمنازلته، فهرب وترك القتال، مع أن جيشه أقوى وأضخم من جيش البرتغاليين، ومعه أهل ديو وحاكمهم الذين استطاعوا استرجاع ديو من البرتغاليين ببسالتهم وشجاعتهم، رغم قلة عددهم. ولكن هذا الجبان المتكبر سفّاك الدماء، فرّ من الهند وعاد إلى بلاد العرب. فكان سُبَّة الدهر. وكان من أسباب بقاء البرتغاليين وانتصارهم وانكفاء الدولة العثمانية، وعدم دخولها إلى المحيط الهندي مرة أخرى. وقد أدّت هذه الهزيمة النكراء، بسبب الجبن والخوف، إلى تقوية البرتغاليين، وإلى زيادة تحالفهم مع شاه إيران الصفوي، وإلى زيادة سيطرتهم على هرمز ومنطقة الخليج.

قال البافقيه: «وكانت مدّة إقامته بالهند نحو شهرين، ورجعت التجريدة خائبة ومجموع سفنها ثلاث وستون سفينة».

ويورد السيد العلوي الشلّي في كتابه «السناء الباهر»[2] أن سليمان باشا

(١) كما ينقله عنه الطيّب البافقيه في تاريخ الشحر، ص ٢٦٠.

(٢) السناء الباهر . نقلاً عن الطيّب البافقيه، المصدر السابق.

الخادم عندما وصل إلى الهند أرسى سفنه في ميناء مظفر أباد، فبعث له الخواجة ظفر (حاكم مظفر أباد) بهدايا، وأراد أن يقابله، فنصحه أحد رجال الباشا بألّا يفعل وأخبره بما صنعه الباشا في مصر (مع المماليك الذين استسلموا له فقتلهم وصلبهم) وفي عدن (مع عامر بن داود الذي قتله غيلة وصلبه في عمود السفينة)، فخاف منه الخواجة. وأرسل السلطان محمود شاه أحد وزرائه مع وعد من السلطان بمساعدته في الجهاد ضد الإفرنج، ولكن سليمان باشا الخادم قابل الوزير بازدراء، ولم يأذن له بالجلوس. وأرسل الباشا قفطاناً وسيفاً إلى السلطان محمود. وعندما عاد الوزير أخبر السلطان محمود شاه بما حدث، فقال السلطان للرسول: إن كانت الحُلَّة والسيف من حضرة السلطان سليمان سنلبسها، وإن كانت منه (أي من سليمان باشا الخادم) فمرتبته لا تسمح له بأن ينعم علينا بحلّة شرف. فاغتاظ الباشا عند سماع هذا الجواب وأسف لسماحه لوزير السلطان بالعودة إليه.

ويقال إن السلطان محمود لفّق رسالة من كبير الإفرنج (البرتغاليين) إلى قائده في ديو يخبره بأنه قد حشد جيشاً ضخماً في ثلاثمائة غراب (سفينة) وخمسين غاليوناً (نوع من السفن الحربية)، وتأكد أننا سنسحق الأتراك. وأشاع أنه قبض على رسول الإفرنج وأخذ منه الرسالة. فلما سمع سليمان باشا الخادم بذلك أرسل إلى ظفر عن خبر الرسالة، فأخبره بتفاصيلها، فتملكه الرعب. وذلك كان سبب عودته هارباً من الهند.

وعاد سليمان باشا إلى الشحر، واستقبل بدر أبو طويرق وحمل له الهدايا والمراسيم والبيرق، وأمره أن تكون الخطبة للخليفة السلطان سليمان القانوني، وأن يدفع جزية سنوية مقدارها عشرة آلاف دينار أشرفي، وأعطاه حكم الشحر إلى قريب من عدن.

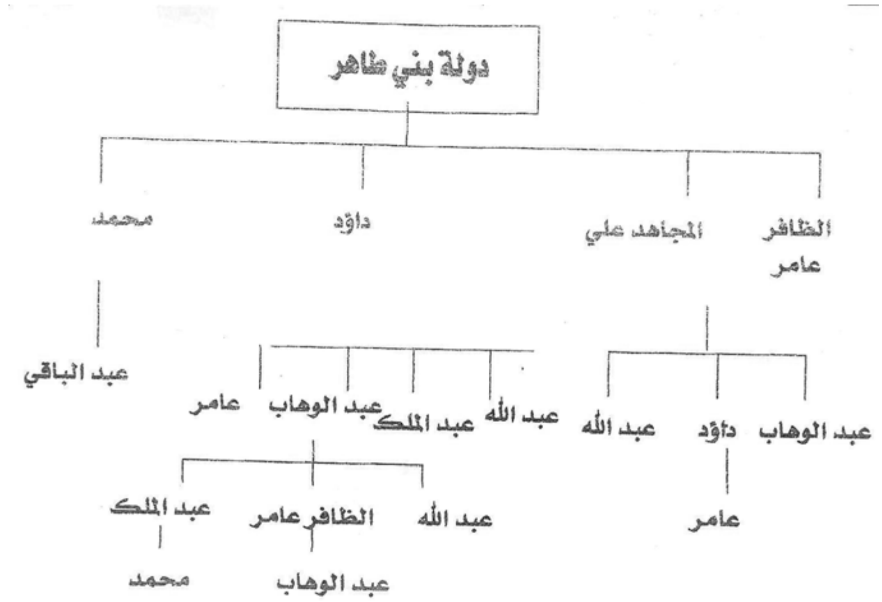
ثم ذهب الخادم إلى زبيد وقتل أميرها الناخوذة أحمد، مع أنه هو الذي سلمه

إياها بغير قتال، وعيّن شخصاً آخر يدعى مصطفى أميراً على زبيد، وأعطاه لقب باشا. وخلّف عنده ألفين من الجنود. وأبقى نائبه بهرام في عدن مع الجنود الأتراك.

ولما وصل إلى كمران، وكان معه حوالى مائة وأربعين من البرتغاليين الذين أخذهم من ديو يضاف إليهم الذين سلمهم إياه بدر أبو طويرق، فقتلهم وأخذ رؤوسهم ليبعثها للسلطان سليمان القانوني دليلاً على نجاح حملته!! وكذب على السلطان في جميع رسائله والرسائل التي حملها من عدن وجدّة وزبيد والشحر، وقدّمها للسلطان سليمان، وقدّم له مالاً كثيراً وتحفاً فسُرَّ السلطان. ولكن لم يلبث إلا قليلاً حتى وصلت السفن البرتغالية إلى السويس نفسها، فغضب السلطان غضباً شديداً فقيل إنه قتله وقيل هرب، وذلك سنة ٩٤٧هـ/ ١٥٤٠م.

وبحملة سليمان باشا الخادم على عدن وقتله عامر بن داود الطاهري انتهت الدولة الطاهرية. وانتهت كذلك محاولة العثمانيين الوصول إلى الهند.

وقد استمر حكم الطاهريين من سنة ٨٥٨ إلى سنة ٩٤٥هـ الموافق ١٤٥٤ إلى ١٥٣٨م.



وبعد نحو عشر سنوات من استيلاء سليمان باشا الخادم قام الشيخ علي بن سليمان الطولقي، شيخ الطولق شرقي أبْين، بغزو عدن سنة ٩٥٤هـ/ ١٥٤٧م وتغلب على الحامية التركية التي هربت إلى لحج فتبعها وقُتل هناك. وتولى ابنه محمد بن علي الطولقي عدن. واستطاع محيي الدين بيري، أشهر أمراء البحرية التركية استعادتها من الطولقي في محرم عام ٩٥٥هـ/ ١٥٤٨م.

وبقيت عدن بيد العثمانيين إلى أن خرجوا من اليمن سنة ١٦٣٠م. وتولّى بعدها نواب أئمة الزيدية. وسيأتي الحديث عن الأئمة الزيدية ودولة العبادلة في الفصل القادم إن شاء الله. ومدة حكمهم (أي العثمانيين) لعدن ٩٢ سنة (١٥٣٨ – ١٦٣٠م).

(قائمة سلاطين آل طاهر ومدد حكمهم)

	مدة الحكم (هـ)	(م)
١- الظافر الأول عامر بن طاهر	٨٥٨ – ٨٧٠	١٤٥٤ – ١٤٦٦
٢- المجاهد علي بن طاهر	٨٧٠ – ٨٨٣	١٤٦٦ – ١٤٧٩
٣- المنصور عبد الوهاب بن طاهر	٨٨٣ – ٨٩٤	١٤٧٩ – ١٤٨٩
٤- الظافر الثاني عامر بن عبدالوهاب	٨٩٤ – ٩٢٣	١٤٨٩ – ١٥١٧
٥- عامر بن داؤد	٩٢٣ – ٩٣٣	١٥١٧ – ١٥٢٦

الدولة الزيدية والعثمانيون
واستقلال المناطق الجنوبية

لقد قامت الدولة الزيدية في اليمن بشكل محدود منذ فترة مبكرة، حيث ذهب بعض رجال قبائل اليمن إلى المدينة المنورة، وطلبوا من الإمام الهادي إلى الحق يحيى بن الحسين بن القاسم الحسني العلوي الرّسي (نسبة إلى الرسّ وهو جبل ما بين المدينة ونجد)، أن يتولّى أمرهم ويخرج معهم، وذلك سنة ٢٨٠هـ ثم سنة ٢٨٤هـ . فوصل إلى اليمن واحتلّ صعدة، ونجران وبرط. وكاتبه أمير صنعاء أبو العتاهية عبد الله ابن بشر بن الروّيّة، فقدم الهادي واستولى عليها.. وهو صاحب المذهب الهادوي وله مؤلفات كثيرة. وبعد أن تمكّن، حارب القرامطة علي بن الفضل ومنصور ابن حسن في عدة معارك، ولكن علي بن الفضل استطاع الاستيلاء على صنعاء واستباحها. ولم تنته دولته إلا بعد أن سمّه طبيب حجّام قدم مخصوصاً لقتله من العراق. (سبق ذكر تفاصيل ذلك في الدولة الزيادية).

وقام أحمد بن الإمام الهادي بمحاربة القرامطة واستطاع الانتصار عليهم في موقعة نُغَاش (وذلك بعد وفاة علي بن الفضل). وتَسلسَلَ الأئمة الزيدية، وكان حكمهم في معظم الوقت محدوداً بصعدة وما حولها. وقد حدثت، كما هو معتاد، حروب طاحنة فيما بينهم حيث كان يدّعي الإمامة شخص فيحاربه أبناء عمومته أو إخوته مما أضعف الجميع. ولهذا سيطرت الدولة الزيادية ثم الصليحية فالنجاحية على معظم أراضي اليمن، ما عدا مناطق حول صعدة وكوكبان. وكان كثير من هؤلاء الأئمة يتمتعون بالشجاعة والعلم والأدب، وبعضهم شعراء، ولكثير منهم مؤلفات. وبقي الأمر كذلك في عهد الأيوبيين

ثم الرسوليين ثم الطاهريين. وفي آخر العهد الطاهري استولى الجراكسة من مصر على اليمن، ودارت بينهم وبين الطاهريين ثم الأئمة الزيدية معارك طاحنة. ولما استطاع السلطان سليم أن ينتصر على قانصوه الغوري في الشام، ثم في مصر، قامت دولة الخلافة العثمانية الكبرى في عهد السلطان سليمان القانوني ابن السلطان سليم. وبالتالي قام الجراكسة في اليمن بإظهار ولائهم للدولة العثمانية.

ووصل من مصر سليمان باشا الخادم الأرناؤوطي الطواشي (أي المخصي) بجيش عرمرم سنة ٩٤٧هـ/ ١٥٣٨م في ست وسبعين سفينة تحمل عشرين ألفاً من الجنود، فأظهر له عامر بن داود الولاء وكاتبه قبل وصوله إلى عدن. ولكن سليمان باشا الخادم غدر به وقتله، كما مرّ معنا.

وكانت السياسة الخرقاء التي اتخذها العثمانيون، وخاصة سليمان باشا الخادم، في اليمن، سبباً للثورات المتعدّدة. ففي عدن استولى علي بن سليمان الطولقي (البدوي من أهل أبْين) على عدن سنة ٩٥٤هـ/ ١٥٤٧م. وتحالف الطولقي مع القائد البرتغالي بايو دي نورنها D. Payo de Noronha في نوفمبر ١٥٤٧م لحماية عدن من العثمانيين من جهة البحر، وهاجمها هو من جهة البرّ فاستولى عليها. وأعلن البرتغاليون وقوع عدن في أيديهم.

واسترجع العثمانيون عدن في العام التالي ٩٥٥هـ/١٥٤٨م بقيادة محيي الدين بيري، أشهر أمراء البحرية التركية وأكثرهم علماً، وقد ألف كتباً بحرية اعتمد فيها على ابن ماجد.

وقامت الحرب الشرسة بين الإمام شرف الدين يحيى وبين الأتراك. وقد قام الوالي الجديد أزدمر باشا بشنِّ حروب متتالية على المطهّر ابن الإمام شرف الدين، الذي أثبت قدرة عالية على القتال ومصادمة الأتراك. ورغم أن أزدمر باشا استطاع أن يدخل صنعاء إلا أن المطهر لجأ إلى جبال ثلا، ولم يستطع أزدمر باشا أن يقتحمها.

وفي سنة ٩٦٢هـ، عُزل أزدمر باشا وعُيِّن بدلاً منه مصطفى النشار، وأمره السلطان أن يقوم بسياسة تهدئة في اليمن وإبرام صلح مع الإمامة حتى يمكن للدولة أن تتفرغ لمجريات الأمور في كل من الحبشة والهند. وحمل الوالي الجديد مصطفى النشار رسالة من السلطان العثماني إلى المطهَّر، الذي ابتدأها بعد البسملة بقوله: «هذا مثالنا الشريف السامي السلطاني، وخطابنا المنيف العالي الخاقاني، لا زال نافذاً مطاعاً بالغوث الرباني، واليُمن الصمداني، أرسلناه إلى الأمير الكبير الغوثي النصيري الهمامي المطهّري الشريفي المنتقى الحسني، فرع الشجرة الزكيّة، وطراز العصابة العلوية، نسل السلالة الهاشمية السيد الشريف المطهر بن شرف الدين».

وفي الخطاب تهديد، حيث يقول: «ولو شئنا لأمرنا أن يتوجه من عساكرنا المنصورة شرذمة قليلون، نحو مائة ألف أو يزيدون، بكل الاستعداد من الآلة والزاد، ونتبع العساكر بالعساكر والجيوش بالجيوش الكواسر، تكون أولهم بالبلاد اليمنية وآخرهم بمملكتنا المحميّة السنيّة.. لكن غلب جانب حلمنا عليكم وعطفت مراحمنا بالالتفات إليكم لأنكم من سلالة خير البشر، ومن آل بيت النبوّة المباحين الغُرر، فلزم على ناموس سلطنتنا العليّة، ووجب على ذمم هممنا السنيّة أن نعرّفكم بعقبى الأمور قبل اتساع الخرق وانتشار الحالة.. وإن وصلت بنفسك إلى مصطفى باشا وقابلته بقلب مفتوح، ودُست بساط سلطنتنا بصدر منفسح فلك الامتنان. وإن تكبّرت واستأنفت وجهلت وما عرفت، أتيناك بجنود لا قبل لك بها، وأخرجناك من حصنك ذليلاً، فاختر لنفسك ما تراه»[1].

حُرر بالقسطنطينية أول شهر شوال سنة ٩٥٧هـ

(١) د. محمد عبد اللطيف البحراوي: فتح العثمانيين عدن، ص ١٥٩ – ١٦٢، نقلاً عن البرق اليماني للنهرواني، ص ٢٦ – ٢٧.

وقد ردّ المطهر ردًّا ليّناً أعلن فيه الطاعة، ولكنه ذكر أن الولاة الأتراك ظلمونا ورمونا بمدافع لا يرمى بها إلا الذين يعبدون الأصنام قال المطهّر: «والذي أشرتم إليه في شأن الخطاب وبطاقة الكتاب لمخالفتنا لعساكركم المنصورة وكتائبكم الواسعة الموفورة ليس له صحة ولا ثبات، ولا كان لنا إلى حربهم تعوّد ولا التفات، بل قصدونا إلى هذه الأقطار وسلّطوا علينا أتراكاً وأرواماً، وهتكوا إصلاحاً كانت بيننا وبينهم ذمما، ورمونا بمدافع لا يرمى بها إلا الذين يعبدون أصناما، ولم يعلموا أنّا ممن أوجب الله لهم رعاية واحتراما، ومن الذين يبقون لربّهم سُجّداً وقياما. فدافعنا عن أنفسنا وأولادنا ما أمكن الدفاع وذُدنا عن محارمنا، وترك الردّ عنها لا يستطاع.. بيد أنهم تشاغلوا بحربنا على جميع الحروب، وفوّتوا بذلك كل غرض مطلوب وأهملوا جهاد الكفار حتى سقط الجنوب. وكنا نودّ أن نرسل إلى الأبواب الشريفة رسولاً يُنهي إليكم حقائق الأمور، ونرفع إلى مسامعكم ما تكنّ به الصدور، إلا أن هؤلاء الذين بلونا سدّوا وقطعوا من التواصل أوصالا، وقعدوا لرسلنا كل مقعد، بكرة وأصيلا، وصدّوهم عن الوصول إلى أبوابكم العالية على جميع الأبواب، ومنعوهم عن مناهج الذهاب والإياب، فلولا ما كان منهم من المنع لكان يصدر منا إلى أبوابكم كل سنة بريد»[1].

وتم الصلح بين الطرفين وعاد مصطفى باشا إلى مصر، وبقي أزدمر والياً (بَكلربكيًّا)[2] وهدأت البلاد واستتبّ السلام لسبع سنين.

وفي هذه الفترة، أي سنة ٩٦٣هـ، بدأ المحمل اليمني وكسوة الكعبة على غرار المحمل المصري. وقد استمر ذلك حتى عام ١٠٤٥هـ، كل سنة في موسم الحج[3].

---

(١) المصدر السابق.

(٢) بكلربك: (أمير الأمراء).

(٣) عبد الله عبد الكريم الجرافي: المقتطف من تاريخ اليمن، ص ١٤٨.

وقد تولى الحكم بعد مصطفى باشا الوالي محمود باشا، ثم رضوان باشا، وفي أيامه في سنة ٩٧٣هـ انتقض الصلح بين الأتراك والمطهّر، ففتح المطهّر معظم البلاد اليمنية التي كانت بيد الأتراك، وحاصر صنعاء. وفي خلال هذه المدة أرسل السلطان نجدة بقيادة مراد باشا الذي وصل إلى تهامة فاحتلّها، وحاول فك حصار صنعاء، فتوجه نحو ذمار، فأرسل له المطهّر بن شرف الدين قوة بقيادة الشيخ أحمد البعداني، فقاتلوه وقتلوا وحزّوا رأس القائد التركي، وأرسل المطهّر برأسه إلى الأتراك المحصورين بصنعاء فارتاعوا واستسلموا. وفتح المطهّر بعد ذلك تعز، واستعصت عليه زبيد، ودخل أصحابه عدن، ولبثوا بها نحو سنتين، وأمر المطهّر بعمارة منارة لبعض مساجدها (لعلّها منارة مسجد عدن الشهيرة)، واستولى على جيزان وفرسان[(١)].

وأرسل السلطان قوة جديدة بقيادة حسن باشا وعثمان باشا إلى اليمن، واستطاعا استرجاع مدينة تعز وغيرها من البلدان. وذلك سنة ٩٧٦هـ. ثم خرج إلى اليمن الوزير سنان باشا، فاتّجه إلى صنعاء فخرج منها المطهّر، واتّجه إلى حصنه في تلا، فحاصره الوزير سنان، ولكنه اضطر إلى عقد صلح معه، وعاد سنان إلى مقرّ السلطنة[(٢)].

وفي عام ٩٨٠هـ، توفي المطهّر بن الإمام شرف الدين بعد أن دوّخ الأتراك. وفي عام ٩٨٤هـ، عُيّن لولاية اليمن الباشا مراد. ومن آثاره عمارة القبّة التي في قصر صنعاء ومنارتها. وأجرى نهراً إلى صنعاء من جبل نقم فزادت صنعاء رونقاً وجمالاً[(٣)].

(١) المصدر السابق، ص ١٤٨ – ١٤٩.
(٢) الجرافي: المقتطف من تاريخ اليمن، ص ١٤٩.
(٣) المصدر السابق.

واستطاع الباشا سنان أن يلقي القبض على الإمام الحسن بن علي بن داود في منطقة الأهنوم، وذلك سنة ٩٨٤هـ . ثُم تمَّ القبض على أولاد المطهر وأرسلوا مع الإمام الحسن إلى عاصمة السلطنة. وذلك كله في ولاية الوزير حسن باشا الذي تولى بعد مراد باشا[1].

وقد قام الوزير حسن بإخضاع المناطق الثائرة من اليمن. كما بنى قبة البكيرية ومسجدها. وعمّر الحمام الموجود إلى جوارها ووقفه عليها.

الدولة القاسمية

وفي سنة ١٠٠٦هـ/ ١٥٩٨م، ظهر الإمام القاسم بن محمد مؤسس الدولة القاسميّة، فتكدّر الوزير حسن لقيامه لأنه استطاع أن يجمع القبائل اليمنية تحت رايته. واستطاع أن يحارب الأتراك رغم وفور عددهم حيث بلغوا سبعين ألفاً. وانتصر الإمام في بعض المعارك وخسر بعضها. واستطاع سنان باشا أن يسترجع كثيراً من الأراضي اليمنية وذلك سنة ١٠٠٧هـ/ ١٥٩٩م، وحاصر الإمام القاسم في شهارة سنة ١٠٠٩هـ/ ١٦٠١م. ثمّ تَمَّ الصلح سنة ١٠١٠هـ/ ١٦٠٢م واستقال الوزير حسن باشا من اليمن سنة ١٠١٣هـ ، وترك الوزير سنان باشا في اليمن، واستمرت المعارك حامية الوطيس بين الجانبين.

وفي سنة ١٠١٥هـ/ ١٦٠٧م، استسلم الأتراك في شهارة واستلمها منهم الإمام القاسم بن محمد. وفي سنة ١٠١٦هـ ، عُزل سنان باشا. وفي أثناء عودته توفي في المخا ودفن بها. وله مآثر عظيمة في اليمن منها البريكة المشهورة في غربي صنعاء. وبريكة أخرى جنوب صنعاء. والسمسرة التي بقرب البريكة، ومساجد مختلفة.

---

(١) المصدر نفسه، ص ١٤٩ – ١٥٠.

وعقد الصلح بين الإمام القاسم بن محمد والوالي الجديد جعفر باشا على أن يكون للإمام ما تحت يده وهي الأهنوم، وعذر، والظليمة، ووداعة، والعصيمات، وذلك سنة ١٠١٦هـ/ ١٦٠٨م، وكان لجعفر باشا ميل للأدب ومحبة للعلماء، وكان يأخذ من العلامة صلاح بن أحمد الوزير تفسير أبي السعود[١]. ثم خلفه محمد باشا سنة ١٠٢٥هـ/ ١٦١٦م، الذي كان متحلِّياً بالعدل والإنصاف، وأحسن إلى سيف الإسلام الحسن بن القاسم، وعمّر مسجد طلحة ومنارته. وفي أيامه توفى الإمام المنصور بالله القاسم بن محمد وذلك سنة ١٠٢٩هـ/ ١٦٢٠م. وقام بعده الإمام المؤيد بالله محمد فأكَّد أمر الصلح[٢].

وفي ١٠٣١هـ/ ١٦٢٢م عُزل محمد باشا وعين مكانه فضلي باشا ثم حيدر باشا الذي عُرف بحبّه للملذّات، وكان ضعيفاً، فانتقض الصلح سنة ١٠٣٦هـ/ ١٦٢٧م، وذلك بعد أن قام حيدر باشا باغتيال الفقيه حسين بن علي العلماني الذي كان يجمع الزكاة من أهل صنعاء للإمام، فاغتاظ الباشا وقتل الفقيه، فطالب الإمام المؤيد بحكم الشرع، فماطله الباشا ولم يردّ عليه، فانتقض الصلح. وأرسل المؤيد أخاه سيف الإسلام الحسين إلى بلاد حراز، واتفق مع القبائل على حرب الأتراك فحاربهم. وأرسل الإمام المؤيد أخاه أحمد إلى خَـمِرْ، فلبّى دعوته قبائل تلك الناحية، وتتالت القبائل المؤيدة للإمام لمحاربة الأتراك. وقام الحسن بن القاسم من صعدة بمن معه بمحاربة الأتراك، وحاصر الأمير سنبل، واستمرت المعارك، وانتصر في أكثرها الإمام المؤيد، حتى أن الأمير سنبل من الأتراك انضم إلى الإمام ضد حيدر باشا الفاسد الطاغية. واستطاع الأتراك استعادة صنعاء، وخرج أهلها باتفاق مع الأتراك وتركوها لهم.

(١) الجرافي: المقتطف من تاريخ اليمن، ص ٢١١.

(٢) المصدر السابق: ص ١٥٢.

وانضم الأمير الحسين بن محمد الحمزي إلى الإمام المؤيد، بعد أن كان مع حيدر باشا. وهكذا قويت شوكة الإمام المؤيد حتى استولى على صبيا وأبي عريش وجازان ونجران وغيرها من المناطق(١). وأخذ البيعة من أشراف صبيا وما حولها. وساروا إلى زبيد للاستيلاء عليها فحاصروها. وفي سنة ١٠٣٧هـ/ ١٦٢٩م، سار سيف الإسلام الحسن لمحاصرة تعز، وكاتب الأمير الحسن بن القاسم، الأمير عبد القادر بن محمد الخنفري (أبين) الذي قطع عنه حيدر باشا المرتّبات، فانضمّ إلى الأمير الحسن وسار مع جماعة من يافع إلى لحج وعدن فاستولى عليها، وأرسل إلى الحسن بن القاسم ما يحتاجه من المؤن، فاستطاع الحسن بن القاسم محاصرة زبيد والمخا. وفي سنة ١٠٣٨هـ/ ١٦٣٠م، بدأت المفاوضات على تسليم الأتراك لصنعاء، وانتقال الأتراك، ومن أراد الخروج معهم إلى زبيد.. وخرج حيدر باشا إلى زبيد، ودخل سيف الإسلام الحسين بن القاسم صنعاء دخول الفاتحين.. واستسلمت تعز، وبقي في يد الأتراك زبيد والمخا، وعقدت هدنة بين الطرفين(٢).

ووصلت أنباء الهزائم إلى السلطان، فأمر الوالي قانصوه بمصر أن يقوم بحملة على اليمن لاستعادتها. فخرج بجيش كثيف ووصل إلى صبيا ونواحيها ومعه ثلاثين ألف راجل وثلاثة آلاف فارس.

وأرسل الإمام المؤيد جيشاً، وكتب إلى الأشراف بني قطب الدين يحثّهم على قتال الأتراك، وتقدم الباشا قانصوه إلى زبيد، فارتاع الناس لقوتهم وعددهم. وبدأت المعارك في الجبال، وهو أمر يحسنه اليمنيون ويتعب فيه الأتراك، وخسر الأتراك الكثير من الرجال والعتاد في تربة عيسى وغيرها. ثم

---

(١) الجرافي: المقتطف من تاريخ اليمن، ص ٢١٢ – ٢١٧.

(٢) الجرافي: المقتطف من تاريخ اليمن، ص ٢١٨.

حاصر الحسن بن القاسم مدينة زبيد. وفي أثناء الحصار تفشّت الحمّى بين المحاصرين من جند الإمام، وتوفى أخوه يوسف بن القاسم، ومرض يحيى أخوه وطلع إلى مدينة رضوان ومات بها. وكذلك مرض الحسن بن علي بن القاسم ومات بها[(١)]. وبعد قتال طويل، عقدت الهدنة بين الحسن بن القاسم والباشا قانصوه، الذي وصل سرًّا إلى الحسن بن القاسم فأمّنه الحسن وأكرم مثواه. وكان السبب، أن عسكر الباشا طالبوه بالأموال وأرادوا قتله، ففرّ منهم. وبهذا انسحب الأمير قانصوه والأمير مصطفى، كلاهما، من اليمن. واختار بعض الجنود الأتراك أن ينضموا إلى جيش الحسن بن القاسم، فضمَّهم إليه. وبذلك استولى الحسن بن القاسم على زبيد والمخا وموزع، وولّى عليها بعض الأشراف من آل حمزة وآل بونمي وبعض مواليه. ووصل إلى كمران وعمّرها. واستتبّ الأمر للأئمة. وبخروج الأتراك من اليمن سنة ١٠٤٥هـ/ ١٦٣٧م، سارت اليمن كلها تحت حكم الدولة القاسمية الزيدية[(٢)].

وفي سنة ١٠٤٨هـ/ ١٦٣٩م، توفي سيف الإسلام الحسن بن القاسم بضوران وعمره ٥١ سنة. وقد جعل الإمام المؤيد بالله جميع البلاد التي كانت تحت الحسن إلى أخيه الحسين بن القاسم الذي توفى بدوره سنة ١٠٥٠هـ/ ١٦٤٠م في ذمار. وللحسين بن القاسم مؤلفات عدة منها كتاب «غاية السول» في علم الأصول، وشرحه «هداية العقول». وله كتاب «آداب العالم والمتعلم»، ورسائل وأجوبة مفيدة[(٣)].

وكالمعتاد، قام إسماعيل بن القاسم (أخو الإمام) بالثورة عليه والاستيلاء

---

(١) المصدر نفسه، ص ٢١٩ – ٢٢٣.

(٢) الجرافي: المقتطف من تاريخ اليمن ، المصدر السابق.

(٣) المصدر نفسه.

على جبل ضوران، وذلك سنة ١٠٥٣هـ/ ١٦٤٣م وفي السنة التالية ١٠٥٤هـ/ ١٦٤٤م **توفى الإمام المؤيد بالله محمد بن القاسم بجبل شهارة**[١].

وفي عام ١٠٥١هـ/ ١٦٤١م، طالب الإمام المؤيد ابن أخيه أحمد بن الحسن بردّ أموال والده إن كانت تخصُّ بيت المال، وإن كانت تركة فيلزمه توزيعها بين الورثة. فقامت الحرب في قعطبة وانهزم أحمد بن الحسين فاستولى المؤيّد على جميع خزائنه وذخائره. وفرَّ أحمد بن الحسن إلى أميرها حسين بن عبد القادر اليافعي، فأرسل المؤيد إلى حسين بن عبد القادر اليافعي يطلب منه تسليم ابن أخيه أحمد ابن الحسن بن القاسم، فأسرع الأخير بالهروب من عدن إلى يافع حيث وجد ترحيباً من أهلها[٢].

وفي سنة ١٠٥٣هـ/ ١٦٤٣م أرسل الإمام المؤيد القاضي أحمد الحيمي إلى ابن أخيه في يافع يستميله ويقنعه بالعودة إلى عمه، الذي قابله بالابتهاج وقام بتزويجه بإحدى بناته.

الإمام المتوكل إسماعيل بن القاسم

بعد وفاة الإمام المؤيد بالله محمد بن القاسم في رجب ١٠٥٤هـ/ ١٦٤٤م، تولّى الحكم أخوه إسماعيل بن القاسم وتلقَّب باسم المتوكل على الله.

وفي شوال **١٠٥٤هـ/ ١٦٤٤م**، جهّز الإمام المتوكل إسماعيل جيشاً لغزو عدن واحتلالها بقيادة ابن أخيه أحمد بن الحسن الذي عرف كثيراً من مداخل ومخارج عدن عندما كان لاجئاً فيها عند أميرها الحسين بن عبد القادر. ودارت معركة عنيفة انتهت بخروج الأمير حسين بن عبد القادر إلى يافع، فدخل

(١) الجرافي: المقتطف من تاريخ اليمن ، المصدر السابق.
(٢) حمزة لقمان: تاريخ عدن – جامعة عدن ٢٠٠٨، ص ١٢٣.

الصفي أحمد بن الحسن إلى عدن ولحج وأبْين فاتحاً، واستولى على ذخائرها. وكانت هذه هي المرّة الأولى التي تقع فيها عدن ولحج وأبْين بيد الأئمة[1].

المذهب الزيدي في حضرموت

ذكر السيد محمد بن هاشم في تاريخ الدولة الكثيرية، أن السلطان بدر بن عمر (أبي بدر) طويرق الكثيري عانى من ابن أخيه بدر بن عبد الله بن عمر الكثيري الذي دبّر له المكايد وأراد الاستيلاء على السلطة. فقام السلطان بدر بن عمر بمكاتبة الأئمة في اليمن وطلب المدد منهم، وإظهار أنه قد اعتنق المذهب الزيدي، فأخذ الناس ينفرون عنه بسبب موقف العلماء والسادة وكلهم سنّة شافعية، فأنكروا عليه ذلك. واستغلّ ابن أخيه بدر بن عبد الله ذلك الموقف ليهاجم عمّه في سيؤن، وقبض على عمه السلطان وعلى ابنه محمد المردوف وضيّق عليهما، وطلب من السلطان أن يعزل نفسه أمام وفود شيوخ القبائل ويكتب بذلك وثيقة بالتنازل لابن أخيه، وذلك عام ١٠٥٨هـ/ ١٦٤٨م. فلما وصلت الأنباء إلى الإمام المتوكل إسماعيل، بعث بالرسل إلى السلطان الجديد عبد الله بن عمر بأن يطلق سراح عمه، وأن يجعل عمه سلطاناً على ظفار مقابل أن يبقى هو سلطاناً على حضرموت. فرفض السلطان الجديد هذه الوساطة، واضطر الإمام إسماعيل بن القاسم أن يجهز جيشاً للزحف على حضرموت.

ولم يكن هناك بد من عبور أراضي سلطنات البيضاء ويافع والواحدي والفضلي والعولقي والتي كانت دويلات مستقلّة، فرفضوا أن يسمحوا لجيش الإمام بالمرور بأراضيهم حتى لا يعتبر ذلك ذريعة للاستيلاء عليها. وكان أشدّهم رفضاً في ذلك سلطان البيضاء حسين الرصاص والذي اتصل بسلطان العولقي وبقية السلاطين الذين اتفقوا على رفض طلب الإمام. فأمر الإمام

(١) المصدر السابق، ص ١٢٤ – ١٢٥.

بمحاربتهم. وبدأت الحرب مع حسين الرصاص وكان معه منصر العولقي، فلما اشتد القتال وحمي الوطيس (٤ ربيع الأول سنة ١٠٦٥هـ/ ١٦٥٤م) انسحب العولقي وترك صاحبه ليواجه جيش الإمام الذي أجهز عليه فقتله[١].

وقام محمد بن الحسين بن القاسم (ابن أخ الإمام إسماعيل) بالهجوم على يافع واحتل مرقد[٢]، فاجتمعت يافع عليه. فكتب محمد بن الحسين إلى ابن عمه أحمد بن الحسن أن يبادر بنجدته، فأنجده بجيوش كثيرة إلى مرقد، وتمكن من قهر قبائل يافع التي انهزمت، ثم طلبت الأمان فأمّنها. وولوا شرف الدين بن المطهر ابن شرف الدين أميراً على تلك البلاد[٣].

ولما علم سلطان حضرموت بدر بن عبد الله بن عمر الكثيري بانتصار عسكر الإمام في البيضاء ويافع، أعلن الولاء للإمام وأطلق سراح عمه السلطان بدر بن عمر وولّاه ظفار حسب توجيهات الإمام إسماعيل السابقة. وأمر بالخطبة للإمام، وأرسل له الزكوات والهدايا وفيها الذهب الأحمر المتحصّل من بندر الشحر من البانيان (الهندوس) التجار الذين كانوا يقيمون فيها. وذلك سنة ١٠٦٧هـ/ ١٦٥٦م.

وفي سنة ١٠٦٨هـ/ ١٦٥٧م، استراب سلطان ظفار بدر بن عمر من تصرفات ابن أخيه، فأرسل ولديه إلى الإمام شاكياً. وغضب الإمام من ذلك. وفي سنة ١٠٦٩هـ/ ١٦٥٨م جهز الإمام إسماعيل جيشاً بقيادة أخيه أحمد بن القاسم لغزو حضرموت والاستيلاء عليها. وتقدم الجيش عبر بيحان وأطراف

---

(١) حمزة لقمان: تاريخ عدن، ص ١٢٥ – ١٢٧.

(٢) ذكر الأمير أحمد فضل العبدلي (القومندان) في «هدية الزمن» نقلاً عن الكبيسي: أنهم دخلوا أولاً جبل العُرّ في يافع، ثم احتلوا مرقد. وذكر في الهامش أنها مرفد (بنقطة واحدة) وهي بلدة معروفة في يافع.

(٣) حمزة لقمان: تاريخ عدن، ص ١٢٧.

بلاد العوالق حتى وصل إلى وادي حجر. وقامت المعركة في ريدة بامسدوس، وانهزم فيها السلطان بدر بن عبد الله الكثيري. وتقدم أحمد بن القاسم واستولى على «هجرين» وهينن في معركة شديدة. ثم هاجم شبام، فاضطر السطان بدر ابن عبد الله بتسليم شبام وإعلان الطاعة. وأخذوه إلى الإمام الذي أعاده إلى حضرموت، ولكنه لم يلبث إلا يسيراً حتى توفاه الله(١).

الإمام المهدي أحمد بن الحسن بن القاسم

عندما توفى الإمام إسماعيل بن القاسم سنة ١٠٨٧هـ/ ١٦٧٦م، تولّى بعده الإمامة أحمد بن الحسن بن القاسم. ولكن سرعان ما ظهر له منافسون على الإمامة، مثل القاسم بن الإمام المؤيد محمد بن القاسم وتلقب بالإمام المنصور، ومثل الحسين بن الحسن بن القاسم وتلقب بالإمام الواثق، وهؤلاء كلهم أولاد عمومة. وقد أنكر العلماء على أحمد بن الحسن كثرة أمواله، فقال إن كل ما بيده من أموال هي مما غنمه من بلاد الأمير حسين بن عبد القادر اليافعي سلطان عدن ولحج، وأن الإمام المتوكل إسماعيل قد نفله إياها، واعتبروا أن الشافعية كفار تأويل تجوز غنائمهم.

وكان الإمام أحمد بن الحسن بن القاسم يريد أن يمنع فقهاء الشافعية من دروسهم، وأن يمنعهم من إمامة الناس في تعز وغيرها. وقال إن الأئمة السابقين معذورون في عدم منعهم لعدم قدرتهم على ذلك. ولكنه رأى أن على الإمام إسماعيل بن القاسم أن يفرض إمامة أهل المذهب الحق، في نظره، وهو المذهب الزيدي، وأن يمنع الدروس في المساجد لغيرهم.

وفي سنة ١٠٩٢هـ/ ١٦٨٢م، توفى أحمد بن الحسن بعد أن قضى معظم أيامه

(١) حمزة لقمان: تاريخ عدن، ص ١٢٧ – ١٢٩.

في حروب مستمرة مع خصومه من أقاربه من ذرية القاسم. وكان، بسبب تعصّبه الشديد ضد الشافعية، سبباً لثورة المناطق الشافعية ضد الحكم الزيدي. وتولّى بعده **المؤيد محمد بن إسماعيل بن القاسم**. وفي عهده زادت الفوضى انتشاراً في اليمن وفي المشرق، والمقصود بالمشرق عدن ولحج وأبْين ويافع إلى حضرموت.

المهدي محمد بن أحمد بن الحسن بن القاسم (صاحب المواهب)

وفي سنة ١٠٩٧هـ/ ١٦٨٦م توفى الإمام محمد بن إسماعيل بن القاسم، وتولى بعده المهدي محمد بن أحمد بن الحسن بن القاسم بعد معارك ضارية مع أبناء عمومته الطامعين في العرش. وقد عرف المهدي محمد بن أحمد بن الحسن باسم «صاحب المواهب»، وعُرف بتقريبه للعلماء وبسفكه للدماء، وبظهوره بمظاهر ملكية. فلما طعن في السن اكتنفته الأمراض وكَثُرت الفتن، وقام ضده المنصور الحسين بن القاسم بن المؤيد بن القاسم الذي دعا لنفسه سنة ١١٢٤هـ في بلاد العصيمات. واشتد الكرب بسبب الحروب المتتالية، وهاجر عدد كبير من اليمنيين، وخاصة الإسماعيلية، إلى الهند بسبب الاضطهاد.

وتعاون القاسم بن حسين بن أحمد بن الحسن (وهو قائد جيش المهدي محمد بن أحمد بن الحسن) مع المنصور الحسين بن القاسم وخلعا صاحب المواهب المهدي محمد بن أحمد بن الحسن وتولى المنصور الحسين بن القاسم بن المؤيد الإمامة سنة ١١٢٧هـ/ ١٧١٥م. الذي تم خلعه بعد عام واحد فقط ليتولاها المتوكل القاسم بن الحسين بن أحمد بن الحسن. وبقي حتى وفاته سنة ١١٣٩هـ/ ١٧٢٧م، عندما تولّى بعده ابنه الحسين بن القاسم. وقامت الحرب بين الحسين بن القاسم وأخيه أحمد بن القاسم الذي كان متولياً على عدن ولحج واليمن الأسفل، فأدّى ذلك إلى استقلال عدن ولحج، فاضطرا للصلح حتى يستعيدا حكم اليمن الأسفل.

وفي عام ١١٤٠هـ/ ١٧٢٨م، توفي المنصور الحسين بن القاسم. فتولّى بعده ابنه العباس بن الحسين بن القاسم. ثم تولّى ابنه علي بن العباس سنة ١١٨٨هـ/ ١٧٧٤م، وازدادت الفوضى في أيامه. وكاتب محمد علي باشا لمساعدته في محاربة آل سعود وبالذات عبد الله بن سعود، فأنجده. واستمرت المعارك مع النجديين في عهد ابنه أحمد بن علي بن العباس الذي تولى الحكم سنة ١٢٢٤هـ/ ١٨٠٩م.

وفي سنة ١٢٣١هـ/ ١٨١٦م، تولّى عبد الله بن أحمد بن علي العباس الحكم بعد وفاة والده.

المخا

وفي هذه الفترة، من حكم الأئمة، تدهورت حالة عدن التجارية وارتفعت مكانة المخا وموزع. وكانت المخا أهم مواني اليمن، لأنها تصدّر البن الذي اشتهرت به حتى عرف البن في أوربا باسم المخا Mokha، وكانت محلات القهوة تعرف باسم Mokha. وإلى اليوم هناك نوع من البن والقهوة تُعرف باسم موكا أي المخا، رغم أنها لا تأتي من المخا، ولكن بقيت العلامة المميزة لهذا النوع من البن البرازيلي.

ظهور السلطنات في الجنوب

وضعف حكم الأئمة على اليمن الأسفل وبالذات عدن ولحج وأبْين، وتكونت مشيخات وسلطنات عدة. وكما كان حكم الأتراك العثمانيين ضعيفاً في عدن ولحج إلى أن خرجوا من اليمن سنة ١٠٣٨هـ/ ١٦٣٠م، كذلك كان حكم الأئمة ا لزيديين على عدن ضعيفاً.

وضعف اهتمام الأتراك بعدن وتحول إلى موزع (Muza) والمخا (Mokha) اللتان زادت أهميتهما بسبب تجارة البن وبسبب قطاع الطرق من القبائل الذين كانوا ينهبون البضاعات الذاهبة إلى عدن والخارجة منها. وقد كانت الدولة

الطاهرية تعاني من هذه القبائل، ولكنها أخضعتها لها ومنعتها من قطع الطريق وأدّبتهم تأديباً شديداً، فلما جاء الأتراك وكثرت مشاكلهم تركوا هذه القبائل المتمردة وركزوا اهتمامهم على المخا وموزع لقربهما من صنعاء العاصمة، ولسهولة التحكم في مناطقهما وتأمين التجارة فيهما، ولقربهما من مزارع البن وغيرها.

وقد زار المخا فان دي بروكه الهولندي قائد السفينة ناسو سنة ١٦١٦م، فشاهد في مرساها حوالى ثلاثين سفينة. وأثناء إقامته بها شاهد أربعين سفينة أخرى ترسو في الميناء من مختلف الجنسيات.. وتحدث عن أنواع البضائع فيها، مثل: المرّ واللبان والفوّة والبن والعنبر. ومن سلع الهند والشرق الأقصى: الزباد وخشب الصندل وجوز الطيب والقرنفل والدارصيني والحرير والمنسوجات القطنية، ومن السلع الإفريقية العاج والصمغ واللبان. ومن الشام: الأقمشة الدمشقية والأقمشة التركية الموشّاة بالذهب، والجوخ، وسلع (نورمبرج) والقصدير والفضة، بل شاهد الجلد الموسكوفي (من موسكو)(١).

واستمر الحكم التركي لعدن واليمن نحو ٩٢ سنة (١٥٣٨ - ١٦٣٠م). بينما استمر الحكم الإمامي لعدن نحو ٩٨ سنة (١٦٣٠ - ١٧٢٨م). وفي عام ١٧٢٨م أعلن الشيخ فضل بن علي العبدلي، نائب إمام صنعاء على لحج وعدن، استقلال ولايته عن حكومة صنعاء مستعيناً بقبائل يافع وبالذات دعم السلطان سيف بن قحطان، سلطان يافع السفلى (القارة).

تدهور عدن

وأصبحت عدن تابعة ليافع وللعبادل. ولكن ميناء عدن شهد تدهوراً مستمرًّا منذ عهد الأتراك الأخير إلى عهد الأئمة، وازداد ذلك في عهد العبادل.

(١) حسن صالح شهاب: عدن فرضة اليمن، ص ٢١١ - ٢١٣.

ولم تستطع عدن أبداً أن تعود لمكانتها القديمة، كما أنها لم تستطع أن تنافس المخا إلا بعد أن دخلها الإنجليز واحتلوها وحولوها إلى ميناء عالمي، وخاصة بعد افتتاح قناة السويس.

وذكر الأمير القومندان (أحمد فضل العبدلي) في كتابه «هدية اليمن»[1] أن يافع عندما رأوا الخلاف بين الأئمة وانشغالهم بذلك، اجتمعوا لطرد الزيدية من بلادهم. وكان على رأسهم الشيخ صالح بن الشيخ أحمد بن وليّ الله الشيخ علي هرهرة الذي كان من تلاميذ الإمام الولي المشهور السيد أبي بكر بن سالم مولى عينات والذي نصّبه شيخه قبيل وفاته سنة ٩٩٢هـ شيخاً ومرشداً دينيًّا ومصلحاً. ثم خلفه ابنه أحمد. ثم خلفه الشيخ صالح بن أحمد، الذي اجتمع عليه أهل يافع وأقاموه سلطاناً عليهم، فحارب نائب الإمام وجيوشه وأزال دولتهم من يافع.

وثار جميع المشايخ في الجنوب على الإمام المدعو صاحب المواهب المهدي محمد بن أحمد بن الحسن بن القاسم الذي عُرف بسفكه للدماء وتقريبه للعلماء حتى ثار عليه كثير من أبناء عمومته، ومنهم المنصور الحسين بن القاسم بن المؤيد محمد بن القاسم. وانتهت سيطرة الأئمة في المشرق (عدن ولحج وأبين إلى حضرموت) بعد ذلك.

وقد تحالف مع السلطان صالح بن أحمد بن علي هرهرة (من يافع العليا)، والسلطان معوضة بن عفيف اليافعي سلطان القارة، ثم انضم إليهما السلطان أحمد بن علي الرصاصي (البيضاء)، والسلطان صالح بن منصور العولقي، والأمير قاسم بن شعفل، وآل فضل من لحج. واستمرت الحروب من سنة

(١) أحمد فضل العبدلي: هدية الزمن، ص ١٣٢ وانظر أيضاً حمزة لقمان: تاريخ عدن، ص ١٣٢ – ١٣٣.

١٠٩٣ إلى ما بعد سنة ١١٤٥ مع جيوش الأئمة. وكانت الحرب سجالاً، فحيناً ينتصر أهل الجنوب وحيناً ينتصر الأئمة أهل الشمال[١].

ثم هادن الإمام المهدي محمد بن أحمد بن الحسن (صاحب المواهب) السلاطين في يافع والجنوب. وخطب بنت السلطان قحطان وأرسل لها صداقاً حمولة عشرين جمل من الذهب والفضة والكساء، وسلاح بنادق وخناجر مذهبة. وذلك سنة ١١١٢م، فتعرّض للقافلة الأمير أحمد بن قاسم بن شعفل وابنه ونهبوها، فشق ذلك على السلطان سيف بن قحطان (سلطان يافع السفلى)، وتكاثفت يافع وتوجهوا إلى حالمين بلد الأمير أحمد بن قاسم، فتوسّط السيد عبد العليم وأرجعوا القافلة بكاملها دون قتال.

وصاهر الإمام صاحب المواهب أيضاً السلطان الرصاصي والعولقي وحاول استرضاءهم بأموال جزيلة لانشغاله بفتنة ابن عمه مدعي الإمامة[٢].

وفي سنة ١١١٤هـ، استولى السلطان قحطان بن معوضة اليافعي على عدن ولحج، ولكن جند الإمام استردوها منه في نفس العام. وكثرت بعدها المناوشات والحروب بين جند الإمام والسلاطين من يافع والفضلي والعوالق والبيضاء (الرصاصي).

وعندما تحول السلطان بدر بن عمر (أبو بدر) طويرق إلى المذهب الزيدي، وثار عليه بدر بن عبد الله بن عمر الكثيري (ابن أخيه)، ومعه العلماء والسادة، طلب السيد علي بن أحمد حفيد مولى عينات أبي بكر بن سالم النجدة من يافع،

---

(١) المصدر السابق، هدية الزمن، ص ١٣٢ – ١٣٣. وكلمة سلطان تطلق على كل من تولّى السلطة في مجموعة من القرى والمدن الصغيرة التي يحكمها في الأصل شيخ قبيلة، فإذا اتسع نفوذه سمّوه سلطاناً.

(٢) أحمد فضل العبدلي: هدية الزمن، ص ١٣٣ – ١٣٥.

وأرسل بدر بن عبد الله أيضاً في طلب النجدة، فتوجه عمر بن صالح شقيق السلطان ناصر بستة آلاف من يافع. واستولى بدر بن عبد الله الكثيري على جميع حضرموت وسجن عمّه. وذلك سنة ١١١٦هـ(١).

وكان العبادلة يحكمون لحج وعدن كنواب عن الإمام. ولما صارت المشيخة إلى الشيخ فضل بن علي العبدلي اختلف مع عمال الإمام، فاستولى على لحج وعدن. فأرسل له الإمام جيشاً بقيادة الأمير سنبل فانتصر عليه، فانحاز العبدلي إلى يافع السفلى عند السلطان سيف بن قحطان الذي أمدّه بشروط، منها: أن يكون سيف بن قحطان هو سلطان لحج وعدن، وأن يكون العبدلي شيخ تلك المنطقة، وأن يتقاسما دخل عدن. فوافق العبدلي على ذلك، وانتصر جند يافع على جند الإمام وذلك في القعدة سنة ١١٤٤هـ ، وتم الاستيلاء على عدن في شهر رمضان ١١٤٥هـ(٢). وهزم العبدلي الجند الذين أرسلهم الإمام. وبذلك صفت لحج وعدن للعبدلي الذي تلقب بلقب سلطان بدلاً من لقبه السابق الشيخ.

(١) المصدر السابق، ص ١٣٥. والملاحظ أن حمزة لقمان في تاريخ عدن ذكر تاريخاً مختلفاً وهو عام ١٠٥٨هـ/ ١٦٤٨م (ص ١٢٥ – ١٢٧).

(٢) أحمد فضل العبدلي: هدية الزمن، ص ١٤٢ – ١٤٥.

العبادلة

فضل بن علي السلامي (١٠٧٣ – ١١٥٥ وقيل ١١٤٦هـ)

وكانت بداية العبادلة عندما قام الشيخ فضل بن علي بن فضل بن صلاح ابن سالم من القبيلة السلامية، بخلع طاعة الإمام حسين بن قاسم المنصور سنة ١١٤١هـ/ ١٢٧٨م. وقد لجأ الشيخ فضل بن علي إلى السلطان سيف بن محمد قحطان سلطان القارة (يافع السفلى) الذي أمدّه بالجيوش حتى انتصر على جند الإمام واستولى على لحج وعدن. وكان سيف بن قحطان قد اشترط أن يكون هو السلطان على لحج وعدن، وأن يكون العبدلي شيخاً لها، وأن يتقاسما دخل عدن، فنقض الشيخ فضل بن علي الاتفاق.

وقد ذكر الأمير القومندان أحمد بن فضل العبدلي في كتابه «هدية الزمن» أن هذا الكلام غير صحيح في تفاصيله، وأن فضل بن علي لم ينقض الاتفاق. قال القومندان: «والذي أطلعت عليه في الوثائق القديمة بين يافع والعبادل أنهم جعلوا للسلطان سيف (بن قحطان) خمسمائة ريال من خراج عدن في كل عام، ولم ينقض الشيخ فضل حلفه مع يافع حتى قُتل في يافع كما سيأتي، وهو على ولاء تام مع صهره وحليفه السلطان سيف، ولم يحدث الخلاف إلا بعد قتله[1].

وذكر أحمد بن فضل العبدلي أن الشيخ فضل بن علي توجه في شهر شوال ١١٤٦هـ/ ١٧٣٣م إلى يافع لإصلاح خلاف حدث بين السلطان سيف بن

(١) هدية الزمن، ص ١٥٣.

قحطان وبعض قبائل يافع، واصطحب معه ابنه عبد الكريم فضل ونحو ثلاثمائة من العبادل. فلما قربوا من حصن آل عطية المخالفين للسلطان سيف أطلقوا الرصاص على العبادل، فأصابوا النقيب ناصر بهادي وأردوه قتيلاً. وظنوا أن القتيل هو الشيخ فضل بن علي، فحزّوا رأسه وذهبوا به إلى الإمام المنصور، فسرّ بذلك الإمام وأعطى كل واحد منهم إحدى عشرة أوقية ذهباً[(١)].

ثم قال: والراجح أن المقتول هو فضل بن علي لا ناصر بهادي، وأن هذه الحادثة تمت عام ١١٥٥هـ/ ١٧٤٢م، لا عام ١١٤٦هـ/ ١٧٣٣م[(٢)].

قال العبدلي[(٣)]: ودفنت جثته الفانية في يافع ورأسه في صنعاء.. ونقل عن القبطان بليفر في تاريخه أن الشيخ فضل بن علي والسلطان سيف تحالفا على أن يتداولا خراج عدن بالمناوبة. وقيل بل بالمناصفة كل عام. وكان قتل الشيخ فضل بن علي غيلة في يافع في ذهابه لحضور عرس، وذلك سنة ١٧٤٢م الموافق سنة ١١٥٥هـ[(٤)].

وقال العبدلي في «هدية الزمن» أن السلطان عبد الكريم بن فضل بن علي هو الذي نقض الحلف مع يافع واتخذ قتل والده ذريعة لعدم دفع نصف خراج عدن للسلطان سيف. وهذا ما أدى إلى حروب بين يافع والعبادل، واحتلال يافع لعدن، ثم أخرجهم منها السلطان عبد الكريم بن فضل، وهو أول من تلقَّب بلقب سلطان من العبادل[(٥)].

---

(١) هدية الزمن.
(٢) المصدر السابق، ص ١٥٤ – ١٥٥. ونقل ذلك من محمد بن إسماعيل الكبسي من كتابه اللطائف السنية.
(٣) المصدر نفسه.
(٤) المصدر نفسه، ص ١٥٦.
(٥) المصدر نفسه، ص ١٥٦ – ١٥٧.

وأرسل الإمام الشيخ عبد الرب بن وهيب العنفي عامل العدين وبطل الحجرية إلى لحج، فهاجمها وحاصر عدن لمدة ستة أشهر، ثم فكّ الحصار برشوة كبيرة، وقال بعضهم بل رجع مهزوماً من لحج إلى بلاده[١].

قال العبدلي: والصواب أن السلطان عبد الكريم بن فضل أرسل السيدين أبا بكر بن محمد والسيد العيدروس بهدية قيّمة إلى الإمام، فعاد الوداد بين الإمام والسلطان عبد الكريم فضل. وتوفى العيدروس بصنعاء، ورجع السيد أبو بكر ابن محمد من طريق زبيد، وقد اشترى حماراً وحشيًّا كان يركبه في لحج، فسمّي راكب الوحش[٢].

وذكر بليفر أن السلطان عبد الكريم توفى سنة ١١٦٧هـ/ ١٧٥٣م، قال العبدلي أن ذلك خطأ لأن السلطان عبد الكريم كان حيًّا سنة ١١٨٠هـ/ ١٧٦٦م. وتولّى أولاد السلطان عبد الكريم الحكم من بعده، ولكن لم يكن لأحد منهم عقب، فعاد الحكم لأولاد محسن بن فضل عم السلطان عبدالكريم، وبقي فيهم إلى آخرهم السلطان فضل بن علي. وسيأتي ذلك في محله من (الجزء الثالث)..

وقال بليفر إن داء الجدري انتشر في لحج سنة ١١٩١هـ/ ١٧٧٧م وقتل ربع سكانها. وتولى عبد الهادي بن عبد الكريم ثم تولى أخوه فضل عبد الكريم أو هساج ثم أخوه أحمد بن عبد الكريم الذي عقد عدة اتفاقيات مع الإنجليز وفي أيامه استردت عدن بعض أهميتها السابقة.

---

(١) المصدر السابق، ص ١٥٧ نقلاً عن بليفر.

(٢) المصدر السابق، والسيد محمد بن أبي بكر اشتهر باسم الوحش وكذلك ذريته، وهو من آل السقاف.

الخلاصة في العهد العثماني في اليمن

لقد قامت حملات على اليمن واستمر الحكم العثماني على اليمن لفترة طويلة، قسمها أحمد شرف الدين في كتابه «اليمن عبر التاريخ»[1] إلى ثلاث مراحل:

المرحلة الأولى: بدأت بدخول سليمان باشا الخادم الأرناؤوطي الخصي الطواشي حاكم مصر بأمر من سليمان القانوني خليفة المسلمين وذلك سنة ٩٥٤هـ/ ١٥٣٨م. وابتدأ عهده بالجريمة والخيانة عندما أعدم عامر بن داود الظاهري حاكم عدن بعد أن دعاه السلطان عامر بن داود وفتح له أبواب عدن. فدعاه الخادم إلى سفينته وقتله وصلبه هو وستة من رجاله.. ونهب جنوده عدن. وأدّت هذه الخيانة إلى توجس أهل الهند المسلمين منه مما أدى إلى هروبه من البرتغاليين، كما قد مرّ معنا تفصيلاً.

ودخل صنعاء عام ٩٥٤هـ/ ١٥٤٧م بعد معارك عنيفة. وبدأت المقاومة بقيادة المطهر بن الإمام شرف الدين والتي انتهت بانتصار المطهر في معركة شُعوب ودخوله صنعاء سنة ٩٧٥هـ/ ١٥٦٨م وتم قتل القائد التركي مراد وجلاء الأتراك عن اليمن ما عدا زبيد التي بقيت بأيديهم. ووصل المطهر بنفسه إلى عدن وتعز وتسلّمها من الأتراك.

المرحلة الثانية: استعادة الأتراك لليمن بوصول جيش جرار بقيادة الوزير

(١) أحمد شرف الدين: اليمن عبر التاريخ، ط٥، ١٩٩٠، ص ٢٥٥- ٢٦١ .

سنان واحتلال صنعاء سنة ٩٧٧هـ/ ١٥٧٠م. وانسحب المطهر إلى قاعدته الحصينة في ثلا، واستمر في مقاومته إلى حين وفاته سنة ٩٨٠هـ/ ١٥٧٢م. وبموته تمكن الأتراك من احتلال بقية المناطق ونفي الحسن بن داود ولطف الله ابن المطهر والأمير محمد بن الهادي وغيرهم إلى الآستانة، وذلك سنة ٩٩٤هـ/ ١٥٨٦م.

واستتب الأمر للأتراك حتى عام ١٠٠٦هـ/ ١٥٩٨م عندما بدأت إمامة الإمام المنصور بالله القاسم بن محمد، والذي استجابت لدعوته معظم قبائل الشمال، فخاض عدة معارك ضد الأتراك منها معركة شهارة وآخرها معركة غارب أثله بالقفلة سنة ١٠٢٢هـ/ ١٦١٣م، والتي انتصر فيها الإمام القاسم ووطّد دولته القاسمية. وقد اضطر القائد التركي جعفر باشا لعقد صلح مع الإمام القاسم، وتم تحرير المناطق الشمالية.

الجلاء الثاني: تم في عهد الإمام المؤيد محمد بن القاسم وقد وصلت قواته إلى صنعاء، وقامت معركة صافية فيه سنة ١٠٤٥هـ/ ١٦٣٦م وانهزم فيها الأتراك وقتل كثير منهم واستسلم الباقون، وتمّ ترحيلهم إلى تركيا بعد أن استلم منهم الحسن بن القاسم (أخو الإمام المؤيد) جميع المدن بما فيها زبيد وجزيرة كمران.

المرحلة الثالثة: ظل اليمن محتفظاً بحريته تحت الحكم الإمام القاسمي من سنة ١٠٤٥هـ/ ١٦٣٦م وحتى عام ١٢٦٥هـ/ ١٨٤٩م (أي لأكثر من قرنين من الزمان). وقد ضعف حكم الأئمة بسبب خلافاتهم الدائمة وحروبهم المستمرة فيما بينهم بسبب مطامعهم في الحكم واقتتال الأخ وأخيه وابن العم مع ابن عمه.. وقد طلب أحد حكام تهامة النجدة من السلطان العثماني عبد المجيد ابن محمد، فأمر نائبه في جدة توفيق باشا بالتوجه إلى اليمن ومعه أمير مكة الشريف محمد بن عون. ووصلت الحملة إلى الحديدة في ٢٢ جمادى الآخرة سنة

١٢٦٥هـ ومنها إلى صنعاء دون مقاومة، بل كان معه الإمام المتوكل محمد بن يحيى الذي كان في حروب مع أبناء عمومته. فعزل أهل صنعاء المتوكل واختاروا علي بن المهدي، واستمر القتال ضد الأتراك.

وتمزق اليمن بسبب القتال بين مدّعي الإمامة من أحفاد القاسم وغيرهم. واستطاع القائد التركي أحمد مختار باشا أن يزحف بجيشه من عسير لاحتلال اليمن سنة ١٢٨٩هـ/ ١٨٧٢م. وتمكن من الوصول إلى صنعاء واحتلالها، ولكنه أخفق في احتلال صعدة وما حولها التي بقيت تحت حكم المتوكل المحسن ابن أحمد إلى حين وفاته سنة ١٢٩٥هـ/ ١٨٧٨م (أي بعد احتلال الإنجليز لعدن الذي تم سنة ١٨٣٩م).

وفي سنة ١٢٩٠هـ/ ١٨٧٣م عينت الحكومة التركية مصطفى عاصم باشا والياً على اليمن، وعُرف بالقسوة والشدّة مما مهّد لثورة الإمام المنصور محمد بن يحيى حميد الدين وذلك سنة ١٣٠٧هـ/ ١٨٩٠م ضد الأتراك، وكانت الحرب سجالاً، فحيناً ينتصر الإمام وحيناً ينتصر الأتراك وخاصة بعد عودة أحمد فيضي باشا الذي كان قائداً محنكاً قد خبر اليمن من قبل.

ثم تولّى الإمام يحيى بن محمد بن يحيى حميد الدين سنة ١٣٢٢هـ/ ١٩٠٤م بعد وفاة والده، واستطاع أن يستولى على صنعاء عام ١٣٢٣هـ/ ١٩٠٥م. واستعادت تركيا صنعاء بعد إرسال إمدادات بقيادة أحمد فيضي باشا، وانسحب الإمام يحيى إلى شهارة حيث قامت معركة فاصلة انتصر فيها الإمام يحيى على فيضي باشا انتصاراً حاسماً. وعقد الصلح بين الجانبين ١٣٢٩هـ/ ١٩١١م.

ولم تمض ثلاث سنوات حتى قامت الحرب العالمية الأولى التي انتهت بهزيمة تركيا التي دخلت الحرب بجانب ألمانيا ضد إنجلترا وحلفائها..

وظهر الأدارسة في عسير والمخلاف اليماني، وكانت بينهم وبين آل سعود حروب، ثم ضد الأتراك وساندتهم في ذلك إيطاليا. ثم عندما قامت الحرب

العالمية الأولى انضم الإدريسي إلى الحلفاء واحتلت بريطانيا الحديدة ثم سلمتها الإدريسي على أن يبقى تحت الحماية البريطانية وذلك عام ١٩١٥م، ومكنته من إجلاء الأتراك من عسير.

وقد حاول الأتراك احتلال عدن. وقام اللواء سعيد باشا قائد الجيش التركي بالزحف على لحج بعد أن فشل في استمالة سلطان لحج العبدلي. ودخل سعيد باشا لحج وفرّ السلطان إلى عدن مع بعض جنوده وحاشيته، فلما وصلها أطلق الإنجليز عليه النار ظنًّا منهم أنه طلائع جيش سعيد باشا فجرح جرحاً بالغاً ونقل إلى عدن حيث توفى هناك.

وبينما كان سعيد باشا يُعدَّ العدّة لاحتلال عدن جاءته الأخبار بهزيمة الدولة العثمانية وعقد اتفاقية فرساي في فرنسا والتي تخلّت بموجبها تركيا عن جميع ممتلكاتها في آسيا وإفريقيا. وصدرت الأوامر من الآستانة بمغادرة القوات التركية اليمن بأكملها عن طريق عدن.

وهناك قول يحتاج إلا تمحيص، بأن السلطان عبد الحميد الذي عزل من الحكم سنة ١٩٠٥م، وافق على تسليم بريطانيا عدن باعتبار عدن جزءاً من اليمن التي تحكمها تركيا. (وهو قول خاطئ ولا أساس له من الصحة). وسندرس هذه القضية في الجزء الثالث من كتابنا هذا، بإذن الله تعالى.

فهرس المحتويات